

النفس في الموضوع

لشيخ الإسلام ابن القيم

إعداد

مختار من علماء التيقير وعلماء القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى سليم

جامعة الشارقة

المجلد الثاني

والنساء - والأقارب

٥١٤٣١ - ٢٠١٠ م





الإصدار رقم

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+971-6-5050550)، فاكس: (+971-6-5050555)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+971-6-5585000)، فاكس: (+971-6-5585099)

Web site: <http://www.sharjah.ac.ae>

إِلَهِيَّةٌ فِي التَّفْهِيمِ وَالْمَشْرِعِ

- | | |
|----------------------------------|---------------|
| أ. د. بَهْطَمِي مَسْلَمِي | بِرَأْسِيَّةً |
| أ. د. عِيَادَةُ الْكَبِيرِي | بِعَضْوَةٍ |
| أ. د. أَحْمَدُ الْبَدَوِي | بِعَضْوَةٍ |
| أ. د. عَبْدُ اللَّهِ الْخَطِيبِي | بِعَضْوَةٍ |
| د. مُحَمَّدُ عَصَا الْقِضَاةِ | بِعَضْوَةٍ |
| د. قَاسِمُ مَسْعُودِي | بِعَضْوَةٍ |
| د. عَوَادُ الْخَلْفَانِي | بِعَضْوَةٍ |

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

١. د. مصطفى مسلم محمد
١. د. عيادة أيوب الكيسي
١. د. أحمد محمد الشقاوي
١. د. ناصر سليمان العمس
١. د. أحمد عباس البدوي
١. د. محمد أحمد عيد الكردي
١. د. مساعد مسلم آل جعفر
١. د. شحادة احميدي العمري
١. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
١. د. أبو بكر علي الصديق
١. د. أحمد شحروري
١. د. أحمد محمد نور إبراهيم
١. د. أحمد محمد مفلح القضاة
١. د. جمال أبو حسان
١. د. طه ياسين ناصر الخطيب
١. د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
١. د. عبد الرحمن حيدر الزقفة
١. د. عبد الله محمد سلقيني
١. د. عدنان عبد الرزاق الحموي
١. د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
١. د. عطية محمد عطية
١. د. عناف عبد الغفور حميد
١. د. محمد السيد محمد يوسف
١. د. محمد عبد اللطيف مرجب عبد العاطي
١. د. محمد عبد الرحمن الشايع
١. د. محمد عصام القضاة
١. د. محمد عيادة الكيسي
١. د. نايل ممدوح أبو زيد
١. د. نشأت محمود الكوجك
١. د. هارون نوح علي سليمان
١. د. يوسف الشامسي

سورة النساء

أولاً: بين يدي السورة:

أ- اسم السورة: النساء. سميت «سورة النساء الكبرى» لكثرة ما فيها من أحكام تتعلق بالنساء^(١). وسميت سورة الطلاق في مقابلها بـ «سورة النساء القصرى»^(٢).

ب- فضائل السورة: أخرج الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الآية: ٤٠]، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [الآية: ٣١]، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [الآية: ٤٨، ١١٦]، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٦٤]. ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود سمع من أبيه، وقد اختلف في ذلك^(٣). وزاد في رواية الطبراني قال عنها الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح»^(٤) آية: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [الآية: ١١٠]^(٥).

ج- السورة مدنية، فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ^(٦)، ولا خلاف أن النبي ﷺ إنما بنى بها بالمدينة^(٧).

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (١٩/٢).

(٢) التفسير المنير، وهبة الزحيلي (٣/٢٢٠).

(٣) فتح القدير، الشوكاني (١/٤١٦).

(٤) (١٢، ١١/٧).

(٥) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/٩٣-٩٤، ١٠١-١٠٢)، جامع الأصول (٨/٤٧٩) حديث رقم (٦٢٥٢)، والحاكم في التفسير: باب تفسير سورة النساء (٢/٣٠٥)، وقال: هذا إسناد صحيح، ووافقه الذهبي.

(٦) اللفظ: «... وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده» البخاري في كتاب فضائل القرآن: باب تأليف القرآن، رقم (٤٩٩٣).

(٧) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/٨٦، ٨٧).

د- عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العدد وسببه:

عدد آياتها عند الشاميين مائة وسبع وسبعون آية، وعند الكوفيين ست وسبعون، وعند الباقيين خمس وسبعون.

والمختلف فيه منها آيتان. إحداهما: ﴿أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الآية: ٤٤]، وثانيتهما: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية: ١٧٣]. فالكوفيون يثبتون الأولى آية فقط، والشاميون يثبتون الثانية أيضاً، والباقون يقولون: هما بعض آية^(١).

هـ- محور السورة: (التوحيد الصحيح ومقوماته).

و- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

مقصودها الاجتماع على التوحيد الذي هدّت إليه سورة آل عمران، والكتاب الذي حدث إليه سورة البقرة، لأجل الدين الذي جمعه الفاتحة تحذيراً مما أراده شاس بن قيس [رجل من يهود بني قينقاع] وأنظاره من الفرقة.

ولما كان مقصودها الاجتماع (على ما دعت إليه السورتان قبلها من التوحيد)، وكان السبب الأعظم في التواصل عادة الأرحام العاطف على مدارها النساء ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العفة والعدل الذي لبابه التوحيد^(٢).

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يقول سيد قطب: «وهكذا تختتم السورة التي بدأت بعلاقات الأسرة وتكافلها الاجتماعي، وتضمنت الكثير من التنظيمات الاجتماعية في ثناياها.. تختتم بتكملة أحكام الكلاله - وهي على

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (٢/٢).

(٢) مصاعد النظر، البقاعي (٢/٨٨، ٨٩).

قول أبي بكر رضي الله عنه، وهو قول الجماعة: ما ليس فيها ولد ولا والد «^(١)».

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه المناسبة أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به، وذلك من أكد وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من أنواع البديع يسمّى في الشعر تشابه الأطراف^(٢)، وقوم يسمونه بالتسيغ^(٣).

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

وجه مناسبتها لآل عمران أمور؛ منها أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى وافتتحت هذه السورة به.

ومنها أن في آل عمران ذكر قصة أحد مستوفاة، وفي هذه السورة ذكر ذيلها، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾. فإنه نزل فيها يتعلق بتلك الغزوة مروياً عن البخاري ومسلم وغيرهما.

ومنها أن في آل عمران ذكر الغزوة التي بعد أحد كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآيات [١٧٢-١٧٥]. وأشير إليها ههنا بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾. وبهذين الوجهين يعرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها كما في مصحف ابن مسعود؛ لأن المذكور هنا ذيل لما ذكر هناك وتابع، فكان الأنسب فيه التأخير. ومن أمعن نظره وجد كثيراً مما ذكر في هذه السورة مفصلاً لما ذكر قبلها، فحينئذ يظهر مزيد الارتباط وغاية الاحتباك^(٤).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٤٩).

(٢) ولا يضر في ذلك كون الخطاب الأول ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، والخطاب الثاني ﴿يا أيها الناس﴾ كما لا يخفى.

(٣) روح المعاني، الألويسي (٢/٢، ٣).

(٤) المرجع السابق.

لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي تَوْصُونَ
بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
الْشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِي يُوْصِي بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا
فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾ وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَدْحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ
لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ
كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ
 فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٨﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَمَا
أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٩﴾

التفسير الإجمالي للمقطع:

إن الله تعالى جعل هذا المطلق مطلعاً لسورتين في القرآن، إحداهما هذه السورة، وهي
السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، والثانية سورة الحج، وهي أيضاً الخامسة من
النصف الثاني من القرآن. ثم إنه تعالى علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة
المبدأ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرة الخالق، وكمال
علمه، وكمال حكمته وجلاله؛ وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة
المعاد، وهو قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فجعل صدر هاتين
السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة

الدالة على المعاد^(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْكُمْ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝﴾^(٢).

يخاطب الله الناس جميعاً لأن محمداً ﷺ بعث للناس كافة، فيأمرهم بأن يتقوه بالتزام أوامره واجتناب معاصية، ويتحرروا عن العبودية لسواه، فهو ربهم، ومالكهم، وسيدهم، وخالقهم الذي خلقهم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْكُمْ﴾ هو آدم عليه السلام خلقه من تراب، وخلق منه زوجه حواء، خلقها من ضلعه. قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج»^(٣)، ثم نشر وفرق من

(١) التفسير الكبير، الرازي (١٢٩/٩).

(٢) نظراً لأهمية التقوى التي هي أصل التوحيد الصحيح وتكررها كثيراً، ونظراً لأن كثيراً من المسلمين يسمعونها ويرددونها ولا يهتمون بحقيقتها، أو لا يفهمون معناها، فإننا نذكرها هنا بمعناها ليتضح مطلع السورة الذي بدأ بالأمر بالتقوى.

أصلها: وقاه فاتقى، ففأوه او لا تاء. والوقاية لغة: الصيانة مطلقاً، وشرعاً صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة [روح المعاني، الألوسي (٩٢/١)]، لذلك قالوا: أصل الاتقاء والتقوى: الحجز بين شيئين، ومنه يقال: اتقى بترسه، أي جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما قصد به من المكروه، وفي الخبر: «كنا إذا احمر الباس اتقينا برسول الله ﷺ»، أي اشتدت الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو. فكأن المتقي يجعل امثال أمر الله والاجتناب عن نهيه حاجزاً بينه وبين العذاب، فيتحرز بطاعة الله عن عقوبة الله [تفسير السمعي، منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعي (٤٢/١)]. ومراتب الوقاية من العذاب في الآخرة متعددة لتعدد مراتب الضرر، فأولها: التوقي من الشرك، والثانية: التجنب عن الكبائر، ومنها الإصرار على الصغائر، والثالثة: ما أشير إليه بما رواه الترمذي عنه ﷺ: «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس» [صحيح الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥)]، ويدخل في ذلك فعل المأمورات، ولذلك قيل: التقوى أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك [روح المعاني، الألوسي (٩١/١)].

(٣) وعند ابن كثير بعد كسرته: «وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج». [البخاري (٣٣٣١)، (٥١٨٦)، ومسلم (١٤٦٨)].

آدم وحواء بطريق التوالد رجالاً كثيراً ونساءً كثيرات.

وقد أجمع الناس على أن الله خلق أباهم آدم عليه السلام، وانفقت الديانات جميعاً على ذلك، وكل إنسان يعلم أن الله خالقه ولم يخلق نفسه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِمْۜ أَمْ هُمْ الْخَلْقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَۙ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين فيه تأييد أمره تعالى بالتزام شرعه وحكمه لسيادته على الخلق جميعاً، وكذا وصف الرب بقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾؛ لأن الاستعمال جار على أن الوصف الذي علق به الحكم علة موجبة له، أو باعثة عليه داعية إليه، ولا يخفى أن ما هنا كذلك؛ فالخالق والمالك هو السيد المطاع لا غيره. ولأن ما ذكر يدل على القدرة العظيمة أو النعمة الجسيمة؛ ولا شك أن الأول وهو القدرة العظيمة يوجب التقوى مطلقاً، حذراً من العقاب العظيم، وأن الثاني - وهو النعمة الجسيمة - يدعو إليها وفاء بالشكر الواجب^(١).

﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾؛ كرر الاتقاء تأكيداً وتنبهاً لنفوس المأمورين، وكان يسأل بعضهم بعضاً بالله، واتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها^(٢).

وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه على أن صلتها بمكان منه تعالى، وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بلى، قال: فهو لك »^(٣).

(١) روح المعاني، الألوسي (٤/٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/٥).

(٣) صحيح البخاري (٥٩٨٧)، وصحيح مسلم (٢٤٥٥). وانظر روح المعاني، الألوسي (٨/٢).

وجعل الله قطيعة الرحم من أعظم أسباب الفساد بعد التولي عن الإيمان إلى الكفر فقال سبحانه: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢]. وقد اتفقت الأمة على أن صلة الرحم واجبة، وأن قطيعتها محرمة، والرحم اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره^(١).

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾، أي حفيظاً، فهو من رقبه بمعنى حفظه، وقد يفسر بالمطلع، ومنه المرقب للمكان العالي الذي يشرف عليه الرقيب ليطلع على ما دونه، ومن هنا فسره ابن زيد بالعالم. وعلى كل فهو فعيل بمعنى فاعل، والجملة في موضع التعليل للأمر ووجوب الامتثال^(٢).

ولنعد النظر إلى آية الافتتاح، فإن الخطاب « للناس » بصفتهم هذه لردهم جميعاً إلى ربهم ﴿ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾، والذي ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ﴾، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾، ورقابة الله واطلاعه على خلقه جميعاً. إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة هي حقائق كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً. ولو ألقى ﴿ النَّاسُ ﴾ أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وينقلهم من الجاهلية - أو الجاهليات المختلفة -^(٣) إلى الإيمان والرشد والهدى، إلى الحضارة الحقيقية اللائقة بـ ﴿ النَّاسِ ﴾ وبالـ ﴿ نَفْسٍ ﴾ واللائقة بالخلق الذي ربه وخالقه هو الله.

إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى:

١- إنها ابتداءً تذكر ﴿ النَّاسُ ﴾ بمصدرهم الذي صدروا عنه، وتردهم إلى خالقهم الذي

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦، ٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/٨). وانظر معنى الرقيب في المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٠١.

(٣) ليس المراد بالجهل هنا جهل القراءة والكتابة، إنما المراد: جهل الحق الواضح والإعراض عنه، والخوض في الباطل والفساد.

أنشأهم في هذه الأرض، كما قال صالح لقومه: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. هذه الحقيقة التي ينساها ﴿النَّاسُ﴾ فينسون كل شيء! ولا يستقيم لهم بعدها أمر!

إن ﴿النَّاسُ﴾ جاءوا إلى هذا العالم بإرادة خالقهم الذي رسم لهم الطريق، واختار لهم خط الحياة، ومنحهم خصائص وجودهم واستعداداتهم ومواهبهم، ومنحهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة البديهة التي يغفلون عنها لثابوا إلى الرشد من أول الطريق.

إن الله الذي خلقهم في هذا الكون، وخط لهم طريق الحياة فيه، ومنحهم القدرة على التعامل معه، هو وحده - سبحانه - الذي يملك لهم كل شيء، وهو وحده الذي يعرف عنهم كل شيء، وهو وحده الذي يدبر أمرهم خير تدبير، وإنه سبحانه وحده صاحب الحق في أن يرسم لهم سلوكهم الصحيح، ويضع لهم قيمهم وموازينهم، ويشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم.

٢- كما أنها توحى بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة تنبثق من أصل واحد، وتتسبب إلى نسب واحد.

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت في حسّهم كل الفروق الطارئة التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرقت بين أبناء (النفس الواحدة)، ومزقت وشائج الرحم الواحدة.

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلاً باستبعاد الاستبعاد الطبقي بين الأمم وفي الأمة الواحدة، والاستبعاد العنصري، واستعلاء الأمة الواحدة على غيرها من الأمم، وتسيل الدماء أنهاراً بين الاستبعاد والتحرير، وينسى الناس النفس الواحدة التي انبثقت منها الجميع، والربوبية الواحدة التي يرجع إليها الجميع!

٣- والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النفس الواحدة ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا

زَوْجَهَا) كانت كفيلة - لو أدركتها البشرية - أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التي تردت فيها، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشر والبلاء. وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً، خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبث منها رجالاً كثيراً ونساءً. فلا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة.

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلاً؛ جردت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان، تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له. فلما أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنها ليسا فردين متماثلين، إنما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

٤ - كذلك توحى الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة. فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة، فخلق ابتداءً نفساً واحدة، ﴿وَوَلَقَّ مِنهَا زَوْجَهَا﴾، فكانت أسرة من زوجين، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، ولو شاء الله لخلق - في أول النشأة - رجالاً كثيراً ونساءً، وزوجهم فكانوا أسراً شتى من أول الطريق، لا رحم بينها من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا إرادة الخالق الواحد. وهي الوشيعة الأولى. ولكنه سبحانه شاء لأمر يعلمه والحكمة يقصدها أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيعة الربوبية - وهي أصل الوشائج - ثم يثني بوشيعة الرحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأثني - هما من نفس واحدة، وطبيعة واحدة، وفطرة واحدة - والناس كلهم يرجعون ابتداءً وخلقاً إلى وشيعة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيعة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني بعد قيامه على أساس العقيدة.

ولهذا رعى الإسلام الأسرة، وشرع من الأحكام، وأوصى من التوصيات ما يوثق عراها، ويثبت بنياها، ويجميها من جميع المؤثرات التي توهم بناءها. وفي أول هذه المؤثرات: مجانية الفطرة، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة، وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها

البعض، وتكاملها لإقامة هذه الأسرة من ذكر وأنثى.

٥- وأخيراً فإن نظرة إلى التنوع في خصائص الأفراد واستعداداتهم - بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة - على هذا المدى الواسع الذي لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل على توالي العصور، وفيما لا يحصى عدده من الأفراد في جميع الأجيال؛ التنوع في الأشكال والسمات والملامح، والتنوع في الطباع والأمزجة والأخلاق والمشاعر، والتنوع في الاستعدادات والاهتمامات والوظائف. إن نظرة إلى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع لتشي بالقدرة المبدعة على غير مثال، المدبرة عن علم وحكمة، وتطلق القلب والعين يجولان في ذلك المتحف الحيّ العجيب، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التي لا تنفد، والتي دائماً تتجدد، والتي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يجزو أحد على نسبتها لغير الله.

والتأمل في ﴿النَّاسُ﴾ على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زاداً من الأُنس والمتاع فوق زاد الإيمان والتقوى.

وتختتم آية الافتتاح برقابة الله على الناس، وما أهولها رقابة الله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذي يعلم من خلق، وهو العليم الخبير الذي لا يخفى عليه خافية، لا في ظواهر الأفعال ولا في خفايا القلوب.

من هذا الافتتاح القوي المؤثر، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة، ومن هذا الأصل الأساسي الكبير يأخذ في إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته؛ من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع^(١)، وصيانة الأسرة من الفاحشة التي تهدم بنيانها، وتلوث النسل فيها، يشرع سبحانه في تفصيل موارد اتقاء الله لإقامة أسس نظام المجتمع على أتم وجه، ويبدأ باليتامى إظهاراً

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٢١٩-٢٢٣).

لكمال العناية بشأنهم، وللملاستهم بالأرحام:

﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَسْفَلِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (٤) (١).

إن أموال اليتامى وحقوقهم وحقوق النساء كانت تؤكل في الجاهلية الأولى. وكذا نرى في الجاهلية الحديثة أمثاله في المدن والقرى. وعلى الرغم من كل الاحتياطات القانونية، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للإشراف على أموال الصغار، ما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق وشتى الخيل، ومن كثير من الأوصياء. فهذه الظاهرة لا تنفع فيها الرقابة الظاهرية، ولا بد من وجود الرقابة الداخلية قبل الظاهرية. إنها التقوى. الخوف من عقاب الله الذي يعلم ما ظهر وما خفي، هو الذي يجعل التشريع الظاهري له قيمته وله أثره.

إن الله سبحانه خالق الإنسان، والعليم به. يأمر الأولياء والأوصياء أن يعطوا اليتامى أموالهم.

وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين:

الوجه الأول: أن يكون المراد باليتامى البالغين الذين بلغوا سنّ الرشد، وسمّوا يتامى (مجازاً) باعتبار ما كان، أي الذين كانوا يتامى، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٤٦]، أي الذين كانوا سحرة، ولا سحر مع السجود لرب العالمين.

والوجه الثاني: أن المراد باليتامى الصغار الذين هم دون سنّ البلوغ، والمراد بالإيتاء الإنفاق عليهم بالطعام والكسوة، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلي والاستبداد،

(١) اليتامى جمع يتيم، مثل: ندامى ونديم. واليتيم في بني آدم يفقد الأب، وفي البهائم يفقد الأم. وأصله الانفراد، يقال: صبي يتيم، أي منفرد من أبيه. ودرّة يتيمة: أي منفردة ليس لها نظير. والإيتاء: الإعطاء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/١٤).

كالصغير والسفيه الكبير^(١).

ويمكن أن يكون المراد بالإيتاء ترك الأموال وحفظها لليتامى، وعدم التعرض لها بسوء فهو مجاز مستعمل في لازم معناه، لأنها لا تؤتى إلا إذا كانت كذلك.

والنكتة في هذا التعبير الإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الغرض من ترك التعرض إيصال الأموال إلى من ذكر، لا مجرد ترك التعرض لها، وعلى هذا يصح أن يراد باليتامى الصغار، على ما هو المتبادر^(٢).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ﴾. تبدل الشيء بالشيء واستبداله به: أخذ الأول بدل الثاني بعد أن كان حاصله، أو في شرف الحصول. يستعملان أبداً بإفضائهما إلى الحاصل بأنفسهما، وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِدْ أَلْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقوله: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. ويظهر من كلام المفسرين أنه قد يراد بالخبيث الحرام، وبالطيب المال الحلال؛ والمعنى: لا تستبدلوا أموال اليتامى بأموالكم، أو لا تذروا أموالكم الحلال وتأكلوا الحرام من أموالهم فالنهي عن استبدال مال اليتيم بمال أنفسهم مطلقاً، أو أكل ماله مكان ما لهم المحقق أو المقدر. وأياً ما كان فالتعبير عن ذلك بالخبيث والطيب للتفجير عما أخذوه، والترغيب فيما أعطوه^(٣).

وقد يراد بالخبيث والطيب: الرديء والجيد، ومورد النهي حينئذ ما كان الأوصياء عليه من أخذ الجيد من مال اليتيم، وإعطاء الرديء من مال أنفسهم. روى ابن جرير الطبري عن السدي أنه قال: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف، ويقول: درهم بدرهم^(٤). وتخصيص

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/٥، ٩).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٨/٢).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٩/٢، ١٠)، وجامع البيان، الطبري (٤/٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) جامع البيان، الطبري (٤/٢٢٩)، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٥/٢).

هذه المعاملة بالنهاي لخروجها مخرج العادة، لا لإباحة ما عداها، فلا مفهوم للمخالفة لانخرام شرطه عند القائل به.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ والمراد بالأكل في النهي الأخير مطلق الانتفاع والتصرف، وعبر بذلك عنه لأنه أغلب أحواله، والمعنى: لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، أي تنفقوها معاً، ولا تسوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام^(١). والحبوب: الإثم. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه^(٢).

ثم شرع في النهي عن منكر آخر كانوا يباشرونه:

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا ﴾.

وهذا متعلق بأنفس اليتامى أصالة، وبأموالهم تبعاً، عقب النهي عما يتعلق بأموالهم خاصة، وتأخيرها عنه لقله وقوع المنهي عنه بالنسبة للأموال^(٣).

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ شرط، وجوابه: ﴿ فَانكِحُوا ﴾ ؛ أي إن خفتم ألا تعدلوا في مهورهن وفي النفقة عليهن، فانكحوا ما طاب لكم غيرهن، ويفسر تعلق الشرط بالجواب على هذا النحو بيان عائشة رضي الله عنها، فقد روى الأئمة عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾، فقالت: يا ابن أخي؛ هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يُقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يُقسطوا هن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من

(١) روح المعاني، الألوسي (١٠/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٤٩/١).

(٣) روح المعاني، الألوسي (١٠/٢، ١١).

النساء سواهن^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان له عَدَق نخل فكانت شريكته فيه وفي ماله، فكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَمِينِ﴾ الآية^(٢).

وأقسط: عدل^(٣). فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجملها من النساء اليتيمات إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال، فلينكحوا من شاءوا غيرهن من النساء ﴿مَثْنٍ وَثُلَّةً وَرُبْعٌ﴾، أي إن شاء أحدكم اثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحٍ مَّثْنًى وَثُلَّةً وَرُبْعًى﴾ [فاطر: ١]، أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم أربعة. ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه في الآية نفسها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، بخلاف قصر الرجال على أربع، فدليله هذه الآية كما قال ابن عباس وجهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، وقد دلت السنة المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح، فهذا عند العلماء من خصائصه ﷺ دون غيره من الأمة.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن شهاب الزهري عن سالم عن أبيه أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: «اختر منهن أربعاً». وعند الترمذي عن ابن عمر أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره

(١) البخاري (٧٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨)، واللفظ لمسلم.

(٢) البخاري (٤٥٧٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/٥). يقال: قَسَطَ الرجل إذا جار، وأقسط إذا عدل. قال تعالى:

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

[الحجرات: ٩]. انظر المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٣.

النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً^(١).

والخوف في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ من الأضداد فإنه يكون المخوف منه معلوم الوقوع، وقد يكون مطنوناً^(٢)، والصحيح أن معنى خفتم: ظننتم. قال ابن عطية: «ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجه، وإنما هو من أفعال التوقع إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين، وأما أن يصل إلى حد اليقين فلا»^(٣). فمن غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة بعدم إعطائها حقوقها في المهر والنفقة، وما يظهر للعلن من الأمور النفسية التي تحتاجها الزوجة، فليعدل عن اليتيمة إلى غيرها، ولينكح ما طاب له من النساء، أي ما حل من النساء؛ لأن المحرمات منهن كثير^(٤)، فكأنه قال: فانكحوا الطيب من النساء من جهة التحليل. وهذا الأمر بالنكاح هو ندب لقوم وإباحة لآخرين؛ بحسب قرائن المرء والنكاح في الجملة^(٥).

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال الضحاك وغيره: فإن خفتم ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة والقسم بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنتين ﴿فَوَاحِدَةً﴾. فمنع من الزيادة التي تؤدي إلى ترك العدل في القسم وحسن العشرة، وذلك دليل على وجوب ذلك^(٦). ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء، وذلك لأنه لا حق للملك اليمين في الوطء ولا

(١) مسند الإمام أحمد (٤٥٩٥، ٤٦١٧)، والترمذي (١١٢٨). وقد ذكر ابن كثير رحمه الله للحديث شواهد كثيرة، وقال: والإسناد الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢/٥).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٦/٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/٥).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٧/٢).

(٦) وقراءة النصب بإضمار فعل، أي ﴿فانكحوا واحدة﴾. وقرئت بالرفع، والمعنى: فواحدة فيها كفاية أو كافية.

الْقَسَمِ^(١). ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تُعْوَلُوا﴾، أي أقرب إلى ألا تميلوا عن الحق وتجوروا^(٢).

ونحن نرى في هذا العصر بعض النساء والرجال يزعمون أنهم يدافعون عن المرأة وحقوقها، ويدعونها للتحرر من العفة والفضيلة لتكون سلعة رخيصة بيد الرجل، لا أمماً وزوجة لها كرامتها وحقوقها المادية والمعنوية. ومن جملة دعاويهم لحقوق المرأة دعوتهم إلى منع وتحريم تعدد الزوجات؛ وربما تمكنوا في بعض المجتمعات الإسلامية أن يصدروا تشريعات تحرم التعدد، وتضع عقوبة السجن والغرامة المادية على من يتزوج زوجة ثانية، وربما تكون العقوبة على الزوجة الثانية ووليها أيضاً. أما أن تكون هذه الزوجة الثانية خليعة أو عشيقة يتردد عليها هذا الرجل أو غيره من الرجال لتكون مفسدة للرجال، وناقلة للأمراض الجنسية الفتاكة، فلا مانع من ذلك، ولا عقوبة على الزنا، حتى لو كان من متزوج أو متزوجة، طالما كان الأمر بالتراضي وبغير إكراه.

وهذا الوضع أسوأ حالاً من الجاهلية الأولى، حيث كان من المعيب عندهم أن تزني الحرة. وهذا ما يريده الذين يتبعون الشهوات، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، يريد أتباع الشهوات وعباد الهوى أن يميل الرجال والنساء عن المبادئ والتشريعات التي أنزلها الله لتحافظ على النسل، الذي هو عماد الأمة؛ وبكثرة الشباب - من الرجال والنساء - وصحتهم البدنية والنفسية تكون الأمة مهيبية لا يستطيع أعداؤها العدوان عليها، كما تكون قوية في اقتصادها، لأن الشباب المنتجين أكثر بكثير من الشيوخ المستهلكين، وهذه التشريعات الإلهية تحفظ الأمة جميعاً مع نسلها من الأمراض الجنسية الفتاكة، التي تنتشر انتشاراً عظيماً وسريعاً بسبب الزنا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٠/٥).

(٢) أدنى: أقرب، وهو من الدنو. وموضع ﴿أَنْ﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والتقدير: ذلك أدنى إلى أن لا تعولوا. وتعولوا: تميلوا. قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. يقال: عال الرجل يعول؛ إذا مال وجار. المحرر الوجيز، ابن عطية (٨/٢).

الذي هو علاقة بين رجل وامرأة بدون ضوابط ولا حدود ولا حقوق؛ إنها هو المال والغريزة الحيوانية، تكون المرأة فيه سلعة تافهة رخيصة ينالها الرجل في أي وقت يريد. ولن نتكلم عن الأمراض والعقد النفسية، والتفكك الاجتماعي، والخصومات والأحقاد بين الرجال والنساء، وبين الرجال والرجال، وبين النساء والنساء؛ فهذا يريد تلك، وتلك تريد غيره، وهذا مشاهد في الواقع معروف.

إن المجتمعات الجاهلية - غير الإسلامية - أصبحت الآن بعد التقدم العلمي في الفحوصات الطبية التجريبية، وبعد التقدم في التحاليل ودراسة الجراثيم وأنواعها، أصبحت تعرف أن الزنا هو السبب الرئيسي في انتشار الأمراض الجنسية الفتاكة، ولكن - بسبب الشهوات التي أعمتهم وأصمتهم - يأبى هؤلاء الناس أن يفكروا باستتصال الأسباب الأصلية ومعالجتها بالطهر والعفة، والزواج ولو بأكثر من واحدة إذا احتاج الأمر ذلك^(١)، إنما يريدون من أهل الطهر والعفة والنظافة ﴿ أَنْ تَمِيلُوا مَيَلًا عَظِيمًا ﴾.

إن الإسلام جاء وتحت الرجال في الجاهلية الأولى عشرة نسوة أو أكثر أو أقل، دون حد ولا قيد، فجاء الإسلام ليضع حداً لا يتجاوزه المسلم - وهو أربع - ويضع قيلاً - هو إمكان العدل - وإلا فواحدة أو ما ملكت أيانكم. جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليرتك الأمر لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدد بالعدل، وإلا امتنعت الرخصة المعطاة!

ولابد لنا من استصحاب بعض الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي حين ننظر إلى قضية تعدد الزوجات:

أ- الإسلام نظام يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه: ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ فِطْرًا عَلِيمًا لَا يَبْدِيلُ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْقِيَامِ ﴾ [الروم: ٣٠].

ب- الإسلام نظام يتوافق مع واقع الإنسان وضروراته؛ فهو نظام واقعي إيجابي.

(١) لا ينبغي أن ننسى أن الإسلام لم يفرض التعدد، وإنما أباح وحدد وقيد.

ج- الإسلام نظام يتوافق مع ملابسات حياة الإنسان المتغيرة في شتى البقاع، وشتى الأزمان، وشتى الأحوال. فهو يراعي خلق الإنسان، ونظافة المجتمع؛ فلا يسمح بإنشاء واقع مادي من شأنه انحلال الخلق وتلوّث المجتمع تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع الذي أقامه شياطين الإنس والجن. بل يتوخّى الإسلام دائماً أن ينشئ واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

بعد استصحاب هذه الخصائص نرى أن هناك حالات واقعية - في مجتمعات كثيرة تاريخية وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري كثيراً من المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد. وهو يدور دائماً في حدودها.

فكيف نعالج هذا الواقع الذي يقع ويتكرر وقوعه بنسب مختلفة. هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار أو الكلام الفارغ الذي يدعي فيه بعضهم أنه ينصف المرأة ويعطيها حقوقها وهو في الواقع يسلب حق المرأة في أن تكون زوجة محترمة لها حقوقها المشروعة كغيرها من النساء.

وإذا أردنا اتخاذ إجراء ووضع نظام لهذا الواقع نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج، ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج، تقضي حياتها - أو حياتهن - لا تعرف الرجال.

٢ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زوجاً شرعياً نظيفاً، يكون لزوجته الشرعية هذه حقوقها المادية والمعنوية، ثم يخادن هذا الزوج أو يسافح واحدة أو أكثر من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال، فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام !!

٣- أن يتزوج الرجال الصالحون - أو بعضهم حسب درجة الاختلال - أكثر من واحدة، وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل زوجة شريفة في وضح النور، لا خدينة ولا خليلة في الحرام والظلام !

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وضد الطاقة بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدد به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب، فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون المتحدلقون المتطرفون الجهال عن فطرة الإنسان. فحواء خلقت من آدم - كما مر معنا - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقُورًا رِيكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ؛ والمرأة لا تسكن ولا تطمئن ولا تأنس إلا بالرجل. وألف عمل وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية ؛ سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والأنس بالعشير. والرجل يجد العمل ويجد الكسب، ولكن هذا لا يكفيه، فيروح يسعى للحصول على العشرة. والمرأة كالرجل في هذا، فهما من نفس واحدة.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف الخالي من الأمراض الجسمية والنفسية والاجتماعية، وضد كرامة المرأة الإنسانية أيضاً. فالمرأة لم تخلق ليعبث بها الرجال، وتكون مصب قاذوراتهم وناقلة للأمراض بينهم، ومعدومة الحقوق الفطرية الإنسانية التي خلقت لها. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع هم أنفسهم الذين يتعاملون على الله ويتناولون على شريعته، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيدة لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين، ولا تنفع فيه الخدلة والادعاء. يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرفقي به في الدرج الصاعد إلى القمة

السامة. ولكن في يسر ولين وواقعية !

إن أحداً يدرك روح الإسلام واتجاهه لا يقول: إن التعدد مطلوب لذاته، مستحب بلا مبرر من ضرورة فطرية أو اجتماعية، وبلا دافع إلا التلذذ الحيواني، وإلا التنقل بين الزوجات كما ينتقل الخليل بين الخليلات. إنها هو ضرورة تواجه ضرورة، وحلّ يواجه مشكلة. وهو ليس متروكاً للهوى بلا قيد ولا حد في النظام الإسلامي الذي يواجه كل واقعات الحياة^(١).

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: « وقد شرع الله تعدد النساء للقادر العادل لمصالح جمة ؛ منها أن في ذلك وسيلة إلى تكثير عدد الأمة بازدياد المواليد فيها. ومنها أن ذلك يعين كفالة النساء اللاتي هن أكثر من الرجال في كل أمة ؛ لأن الأنوثة في المواليد أكثر من الذكورة ولأن الرجال يعرض لهم من أسباب الهلاك في الحروب والشدائد ما لا يعرض للنساء، ولأن النساء أطول أعماراً من الرجال، بما فطرهن الله عليه. ومنها أن الشريعة حرمت الزنا وضيقت في تحريمه لما يجز إليه من الفساد في الأخلاق والأنساب ونظام العائلات، فناسب أن يوسع على الناس في تعدد النساء لمن كان من الرجال ميالاً للتعدد مجبولاً عليه. ومنها قصد الابتعاد عن الطلاق إلا لضرورة^(٢) .

أما الإماء ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فالتسري بالأمة طريق من طرق إعطائها كرامتها ثم تحريرها. وقد وضع الإسلام طرقاً كثيرة لتحرير العبيد، كالتعتق في الكفارات وغيرها. والتسري بالأمة إحدى هذه الطرق، لأنها إن حملت من سيدها وولدت له تكون أم ولد، تعتق بعد وفاة سيدها؛ فالإسلام وجه رغبة الإنسان الغريزية لتحرير الإماء.

وبعد الحديث عن نكاح النساء مثنى وثلاث ورباع بشرط العدل يستطرد السياق في تقرير حقوق الزوجات من النساء قبل أن يستكمل الكلام عن رعاية اليتامى التي بدأ بها:

(١) الظلال، سيد قطب (٤/٢٢٧-٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٤/٢٢٦).

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ فَكُلُوهُ هِنَتًا مَّرِيئًا ﴾ (١)

ظاهر الآية أن الخطاب فيها للأزواج ؛ لأن الضمائر واحدة، وهي بجملتها للأزواج لأنه قال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾. وذلك يوجب تناسق الضمائر، وأن يكون الأول فيها هو الآخر.

ولا يمنع ظاهر الآية أن يدخل في الخطاب من يصلح له من الأولياء، فقد كان الولي يأخذ مهر المرأة ولا يعطيها شيئاً، فنهوا عن ذلك وأمروا أن يدفعوا مهورها من إيهن (٢).

وهذه الآية تثبت للمرأة حقاً صريحاً وحقاً شخصياً في صداقها، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلام المفسرين أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك ؛ كما يمنح المنيحة ويعطي العطية طيباً بها، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك (٣).

﴿ فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ فَكُلُوهُ هِنَتًا مَّرِيئًا ﴾. فإن طابت الزوجات لأزواجهن بعد تسمية المهر أو بعد قبضه عن شيء من الصداق متجافياً عنه نفوسهن، طيبات غير محبتات بها يضطرهن إلى البذل، من شكاسة أخلاقكم وسوء معاملتكم. وإنما أوتر في النظم الكريم دون « فإن وهبن لكم شيئاً عن طيب نفس » إيذاناً بأن العمدة في الأمر طيب النفس، وتجايفاً عن الموهوب بالمرّة، حيث جعل ذلك مبتدأ وركناً في الكلام، لا فضلة كما في التركيب المفروض (٤). وعلى هذه الصفة كلوه هيناً مريئاً، والمراد بالأكل الاستباحة، فليس المقصود صورة الأكل، إلا

(١) ﴿ وآتوا النساء ﴾ : أعطوا النساء، ﴿ صدقاتهن ﴾ : بفتح الصاد وسكون الدال جمع صدقة ؛ وهي كالصداق بمعنى المهر. ﴿ نحلة ﴾ : فريضة من الله أو هبة وعطية من الله، وقيل : من الأزواج. وانتصاب ﴿ نحلة ﴾ على الحالية من الصدقات. انظر روح المعاني (١٧/٢-١٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٣، ٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥١).

(٤) روح المعاني (٢/١٩).

أن الأكل لما كان أوفى أنواع التمتع بالمال عبّر عن التصرفات بالأكل كما في قوله تعالى بعد قليل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلَيْتَمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] ^(١).

وبهذا الإجراء استبعد الإسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية في شأن المرأة وصداتها، وحققها في نفسها ومالها وكرامتها ومنزلتها. وفي الوقت ذاته لم يجفف ما بين المرأة وزوجها من صلوات، ولم يقمها على مجرد الصرامة في القانون؛ بل ترك للساحة والتراضي والمودة أن تأخذ مجراها في هذه الحياة المشتركة، وأن تبلبل بنداوتها جو هذه الحياة ^(٢).

ويرجع السياق بعد هذا الاستطراد إلى الأحكام المتعلقة بأموال اليتامى، وتفصيل ما أجمل فيما سبق من شروط إيتائها وكيفية:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ (٣) أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارزُوقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهَا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ^(٤).

المراد بالسفهاء كل من لم يكن له عقل يفى بحفظ المال، ويدخل فيه الرجال والنساء والصبيان والأيتام، وكل من كان موصوفاً بهذه الصفة. وهذا أصح الأقوال، وقد اختاره

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٦)، ﴿هنيئاً مريئاً﴾ صفتان من هنؤ الطعام بهنؤ هناءة، ومرؤ يمرؤ مرأة؛ إذا لم يثقل على المعدة، وانحدر عنها طيباً، وفي الصحاح نقلاً عن الأخفش يقال: هنؤ وهنى، ومرؤ ومرئ، كما يقال فقهُ وفقه - بكسر القاف وضمها - وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المريء. وقال الزمخشري: إنها صفتان للمصدر. أي: أكلأ هنيئاً مريئاً. روح المعاني (٢/١٩)، والكشاف، الزمخشري (١/٢٤٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٢٣٧).

(٣) السفهاء: الجهال والخرقاء، وذلك باعتبار خفة أحلامهم، واضطراب آرائهم. وأصل السفه في كلام العرب: الخفة والرقّة، يقال: ثوب سفيه إذا كان رديء النسيج خفيفه، أو كان بالياً رقيقاً. وتسفّهت الريح الشجر: مالت به. والسفه ضد الحلم. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/٢٠٥)، وروح المعاني، الألوسي (٢/٢٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٠).

الطبري لعموم اللفظ في الآية، والتخصيص بغير دليل لا يجوز. قال أبو جعفر الطبري بعد أن عرض أقوالاً في أن السفهاء هم الصبيان والنساء: « والصواب من القول في تأويل ذلك عندنا أن الله جل ثناؤه عمّ بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ . فلم يخصص سفيهاً دون سفيه، فغير جائز لأحد أن يؤتي سفيهاً ماله ؛ صبيّاً صغيراً كان أو رجلاً كبيراً، ذكراً كان أو أنثى. والسفيه الذي لا يجوز لوليه أن يؤتيه ماله هو المستحق الحجر ^(١) بتضييعه ماله، وفساده وإفساده، وسوء تدبيره ذلك. وإنما قلنا ما قلنا من أن المعنى بقوله: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ ﴾ هو من وصفناه دون غيره ؛ لأن الله عز وجل ثناؤه قال في الآية التي تتلوها: ﴿ وَأَبْلُوا إِلَيْنَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ . فأمر أولياء اليتامى بدفع أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح وأونس منهم الرشد ؛ وقد يدخل في اليتامى الذكور والإناث، فلم يخصص بالأمر بدفع ما لهم من الأموال الذكور دون الإناث، ولا الإناث دون الذكور » ^(٢).

ولعل من قال إن السفهاء النساء أراد النساء المبذرات، فإنهن يدخلن في معنى السفه مثل الرجال. وأما قول من قال: عنى بالسفهاء النساء خاصة، فإنه جعل اللغة على غير وجهها ؛ وذلك أن العرب لا تكاد تجمع فعلاً على فُعلاء إلا في جمع الذكور، أو الذكور مع الإناث، وأما إذا أرادوا جمع الإناث خاصة جمعوه على فعائل وفعيلات، فيقولون سفائهن وسفهيتهن ^(٣).

والحجر على أنواع بالنسبة لأسبابه:

فتارة يكون للصغر، فإن الصغير قاصر النظر مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، لأن المجنون لا يعقل، وتارة يكون الحجر للسفه، كالذي يبذر ماله، أو يسيء التصرف في ماله لنقص عقله ودينه.

(١) الحجر: هو المنع من التصرف المالي.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٤/ ١٦٥-١٦٦).

(٣) انظر المرجع السابق (٤/ ١٦٦)، وانظر قول النحاس في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٨)،

والمحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/ ٩).

وتارة يكون الحجر للإفلاس، كالذي تحيط به الديون ويضيق ماله عن وفائها، فإذا سال الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه^(١).

والآية دليل في وجوب الحجر على السفهاء إذا ثبت تبذيرهم وإسرافهم وعدم حفظهم للمال، سواء كانوا كباراً أو صغاراً، ذكوراً أو إناثاً؛ لأن الصبي إنما منع من ماله لفقد العقل الهادي إلى حفظ المال وكيفية الانتفاع به، فإذا كان هذا المعنى قائماً بالشاب والشيخ كانا في حكم الصبي، فوجب أن يمنع دفع المال إليه ما لم يؤنس منه الرشد، لظاهر الآية الكريمة.

ونعود إلى أول الآية: ﴿وَلَا تَوْنُوا السَّفَهَاءَ ۖ آمَوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾، والخطاب لكل أحد كائناً من كان، والمراد نهي عن إيتاء ماله من لا رشد له من السفهاء، وإنما أضيفت إلى ضمير الأولياء المخاطبين تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصهم بها، فكان أموالهم عين أموالهم، لما بينهم وبينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي، مبالغة في حملهم على المحافظة عليها. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فإن المراد لا يقتل بعضهم بعضاً.

ووصف الأموال بأنها تقوم بمعاشهم وصلاح دينهم، وأضافها إلى المخاطبين أيضاً فقال: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾، والقيام والقوام: ما يقيمك، يقال: فلان قيام أهله وقوام بيته، وهو الذي يقيم شأنه، أي يصلحه^(٢).

وقيل: إنما أضيف المال إلى ضمير المخاطبين لأن المراد بالمال جنسه مما يتعيش به الناس ونسبته إلى كل أحد كنسبته إلى الآخر لعموم النسبة^(٣).

نقول: السفهية هو الذي لا يحسن التصرف بالمال فيبدده ويضيعه بغير فائدة تعود عليه أو

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣١).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٠).

على الجماعة المسلمة. والحجر على السفية منعه من التصرف في ماله، ويقوم وليه بشمير ماله نيابة عنه، وينفق على السفية من ماله إلى أن يثبت رشده وحسن تصرفه بالمال فيرفع عنه الحجر.

ولم يكن أحد قبل نزول التشريع الرباني ينظر إلى المال أكثر من أنه محبوب إلى النفس يستमित الإنسان في طلبه وجمعه ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، وربما عمّت الفوضى في التملك والتصرفات المالية في المجتمعات البشرية قبل الإسلام، فيكون التطاول من الجماعة على حق الملكية للأفراد، فتتزع الملكية، وتسلب الأموال كلها أو بعضها من الأفراد. وربما يسرف الأفراد في حق التملك؛ فيتجاوز الفرد مصالح الجماعة بحجة الحرية المطلقة التي لا تقيدتها قيود تحمي الجماعة من شطط الأفراد. كان هذا قبل الإسلام، ولا زال موجوداً إلى اليوم في المجتمعات التي لا تدين بنظام الإسلام؛ فنرى في بعض المجتمعات المعاصرة طغيان حقوق الأفراد على مصالح الجماعة، كما نرى في بعض المجتمعات طغيان الجماعة على حقوق التملك للأفراد؛ فيؤدي نزع ملكية الأفراد إلى تدمير الاقتصاد بسبب الفوضى وعدم الاستقرار المالي وضعف الإنتاج؛ لأن الإنسان يعمل لغيره لا لنفسه، ويسيطر فرد أو أفراد على هذه الجماعة التي تُنزع فيها ملكيات الأفراد كلاً أو جزءاً، فتصبح الجماعة وأملاكها وإرادة أفرادها تحت سيطرة هذا الفرد أو الأفراد الحاكمين، ويكون البلاء أعظم، والاستعباد أكثر ذلاً وإهداراً للكرامة الإنسانية.

وقد نزل القرآن كتاب التحرير والحرية، وكان من تشريعاته تحرير الاقتصاد على الوجه الأكمل، وبيان فوائد المال الاجتماعية والفردية، وعلاقة مال الأفراد باقتصاد الجماعة وعزتها. قال الألوسي: « في الآية إشارة إلى مدح الأموال، وكان السلف يقولون: المال سلاح المؤمن ولأن أترك مالا يحاسبني الله عليه خير من أن أحتاج إلى الناس. وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: الدراهم والدنانير خواتيم الله في الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، حيث قصدت بها قضيت حاجتك »^(١).

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢١).

والتشريع القرآني قيد الملكية بقيود تمنعها من إفساد المصلحة المالية للجماعة، ومن هذه القيود تحريم الإسراف والتبذير، والحجر على من لا يحسن التصرف المالي الذي شرعه هذه الآية الكريمة للحفاظ على مصلحة الجماعة وقوة اقتصادها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾. فأسند الأموال إلى الجماعة، وذكر بأن قيام مصالح الجماعة تكون بهذه الأموال، فإذا أتلفها الفرد فإنه يتلف مال الجماعة، وحق الفرد يكون في تثميرها والانتفاع بها لا إتلافها، وأمر القرآن بالإنفاق عليه من ماله، وحسن معاملته ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

فالمال وإن كان مال اليتامى أو السفهاء، إلا أنه لا بد وأن يكون استعماله بما يحقق مصلحة الفرد والجماعة؛ والجماعة متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه. والناس إنما يملكون المال لاستثماره، ويظنون يتفعون وينفعون الجماعة معهم ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره؛ راشدين في تصرفه وتدييره، فإذا بددوا المال ولم يحسنوا التصرف فيه بقيت الملكية لهم ولم تنزع منهم، ومنعوا من إدارة أموالهم والتصرف فيها حتى يُختبروا ويثبت رشدهم، فتدفع إليهم أموالهم ويكون لهم حرية التصرف فيها كاملاً؛ وذلك حفظاً للاقتصاد - كما ذكرت - وحماية لمصلحة الجماعة في الأموال. فلا تنزع الملكية من الفرد للجماعة، ولا يترك المجال للفرد المبدد للأموال أن يفسد مصلحة الجماعة.

ولنوضح مصلحة الجماعة في مال الفرد نذكر المثال التالي: لو أن أحداً يملك مصنعاً يعمل فيه ثلاثون عاملاً، فلو زعم هذا المالك أن له الحرية في ملكه، ويريد أن يتلف هذا المعمل كلاً أو جزءاً، أو يعطله ويغلقه لا لمصلحة، فإنه إن فعل ذلك يعطل رزق العمال بلا سبب يبيح له ذلك، ويعطل دخل المعمل الذي ينتفع الجماعة كلها بإنتاجه.

ويتبين السفه والرشد - بعد البلوغ - بالابتلاء والاختبار:

﴿وَابْتَلُوا الَّتِي نُنَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ

إِلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ^١ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿

شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرطه^(١). فيأمر الله سبحانه أولياء الأيتام أن يختبروهم قبيل بلوغهم سن التكليف، ليعلموا رشدهم وحسن تصرفهم المالي، فإن ثبت رشدهم يدفع لهم الولي أموالهم عند البلوغ؛ فقد ذكر الله سبحانه شرطين لا بد من تحققهما حتى يستلم اليتيم ماله:

الشرط الأول: بلوغ سن النكاح، وهو سن التكليف بالأحكام الشرعية.

والشرط الثاني: ثبوت رشد اليتيم، ويكون ذلك باختباره وملاحظة تصرفاته المالية والدينية: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتِيمَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ ءَأَسْتَمْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ^(٢)﴾

والرشد: الصلاح في الدين وحفظ المال. وهذا قول ابن عباس والحسن البصري^(٣).

ومعنى: ﴿ءَأَسْتَمْتُمْ﴾ أبصرتهم ورأيتم، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَأَسْك مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، وقيل معناه تبصر، وقيل: هو هنا بمعنى وجد وعلم. واليتيم إما أن يكون غلاماً أو جارية؛ فإن كان غلاماً ردّ إليه في نفقة الدار شهراً، أو أعطاه شيئاً نذراً يتصرف فيه ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه ويلاحظه لئلا يتلفه، فإن أتلفه فلا ضمان على الوصي. فإذا رآه متوخياً صلاح ماله سلم إليه ماله وأشهد عليه، لقوله تعالى: ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ^٤﴾. وإن كانت جارية ردّ إليها ما يُردّ إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه، فإن رآها رشيدة سلم أيضاً إليها مالها وأشهد عليها. وإن لم ير الوصي في اليتيم واليتيمة حسن التصرف المالي بقيا بعد البلوغ تحت الحجر حتى يؤنس رشدهما^(٤).

(١) روح المعاني (٢/٢٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٨)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/١٥).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/١٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٤، ٣٦، ٣٧).

فإذا سلم المال لليتيم بعد البلوغ ووجود الرشد ثم عاد إلى السفه بظهور تبذير وقلة تدبير عاد إليه الحجر. ودليله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِيلَ هُوَ فَلْيُمْلِكْ لِئَلَّا يَأْكُلَ بِالْعَدْلِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فورد النص مطلقاً ولم يفرق بين أن يكون الحجر مستمراً عليه من الصغر أو يطرأ عليه السفه بعد الإطلاق^(١).

والبلوغ يكون بأحد خمسة أشياء؛ ثلاثة يشترك فيها الرجال والنساء، وهي: الاحتلام، واستكمال خمس عشرة سنة، والإنبات. وشيئان يختصان بالنساء، وهما: الحيض والحمل^(٢).

ويبدو من خلال النص القرآني الدقة في الإجراءات التي يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد. كذلك يبدو التشديد في وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى إليهم بمجرد تحقق الشرطين المذكورين، وتسليمها لهم كاملة سالمة، والمحافظة عليها في أثناء القيام عليها، وعدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها^(٣). ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا ﴾، أي لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم؛ بأن تفرطوا في إنفاقها، وتقولوا: ننفق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى ويتزعموها من أيدينا. ويكبروا بفتح الموحدة، من باب علم، يستعمل في السن. وأما بالضم فهو القدرة والشرف، وإذا تعدى الثاني بعلى كان للمشقة نحو كبر عليه كذا^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٩-٤٠).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/١٥).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٢٣٨).

(٤) والإسراف في الأصل: مجاوزة الحد المباح إلى ما لم يبيح، وربما كان ذلك في الإفراط وربما كان في التقصير، غير أنه إذا كان في الإفراط منه يقال: أسرف يسرف إسرافاً، وإذا كان في التقصير يقال: سرف يسرف سرفاً. والمبادرة: المسارعة، وأصلها من البدار، وهو الامتلاء، ومنه البدر لامتلأته نوراً، والبدره لامتلأته بالمال، والبيدر لامتلأته بالطعام. انظر روح المعاني (٢/٢٥).

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

بين الله تعالى ما يحل للأولياء والأوصياء من مال الأيتام، فأمر الغني بالإمساك وأباح للفقير أن يأكل بالمعروف. وقد روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إني فقير ليس لي شيء ولي يتيم. قال: فقال: «كل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مُبَاذِرٍ، ولا متأثل مالا، ومن غير أن تقبي مالك، أو قال: تقدي مالك بهاله» شك حسين^(١).

وفي صحيح مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. قالت: نزلت في ولي اليتيم الذي يقوم عليه ويُصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه^(٢).

قال الفقهاء: له أن يأكل أقل الأمرين؛ أجره مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يرد إذا أيسر؟ على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً؛ وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي؛ لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل. والقول الثاني: نعم، يرد إذا أيسر لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة فيردّ بدله، كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة. وروى ابن أبي الدنيا وسعيد بن منصور بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم، إن احتجت أخذت منه، فإذا أيسرت رددته»^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾. وهذا الإشهاد على طريق الاحتياط لليتيم والولي؛ فأما اليتيم فإنه إذا كانت عليه بينة كان أبعد من أن يدعي عدم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥٣)، وهو عند أحمد (٦٩٨٣). وانظر تفسير القرطبي (٥/٤١). وعف الرجل عن الشيء واستعف إذا أمسك، والاستعفاف عن الشيء تركه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، والعفة: الامتناع عما لا يحل ولا يجب فعله. وانظر الحديث عند ابن ماجه (٢٧١٨)، وأبو داود (٢٨٧٢).

(٢) صحيح مسلم (٣٠١٩)، ورواه البخاري (٢٢١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥٣-٤٥٤).

القبض، وأما الولي فإنه تظهر أمانته، ويسقط عنه اليمين عند إنكار اليتيم للدفع^(١). وهذا الإشهاد على معنى الاستحباب لنفي التهمة عن نفسه، ولو لم يشهد على ذلك لجاز، كقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]^(٢). ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾، أي كفى بالله محاسباً وشاهداً ورفيقاً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم؛ هل هي كاملة موفورة، أم منقوصة مبخوسة، مروج حسابها مدلس أمورها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي؛ لا تأمرن على اثنين، ولا تؤلين مال يتيماً»^(٣).

بعد بيان حقوق المستضعفين من اليتامى في أموالهم، والتأكيد على حفظها وتسليمها لهم عند نضجهم واكمالهم كاملة غير منقوصة، تشرع الآيات في بيان حقوق المستضعفين الصغار والنساء بالميراث كحقوق الكبار:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَخَشَّ الَّذِينَ تَوَكَّرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُ ضَعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

نزلت الآية في أوس بن ثابت الأنصاري، توفي وترك امرأة يقال لها: أم كجّة وثلاث بنات له منها؛ فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذوا ماله ولم يعطيا امرأته وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرمح، وضارب بالسيف، وحاز الغنيمة.

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (١٧/٢).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (٢٠٨/١).

(٣) ابن كثير (٤٥٤/١)، والحديث رواه مسلم (١٨٢٦).

فذكرت أم كُحَّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاها فقالا: يا رسول الله، ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا يتركأ عدواً. فقال النبي: « انصرفا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن »، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ ... الآية، رداً عليهم وإبطالاً لقولهم وتصرفهم بجهلهم؛ فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحق بالمال من الكبار لعدم تصرفهم والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة فضلوا بأهوائهم، وأخطأوا في آرائهم وتصرفاتهم^(١). ونصت الآية على أن الكبار والصغار، ذكوراً وإناثاً، يستوون في أصل الميراث، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي إلى الميت؛ من قرابة، أو زوجية أو ولاء؛ فإنه لحمة كلحمة النسب^(٢).

وإيراد حكم النساء على الاستقلال، دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين، بأن يقال: « للرجال والنساء نصيب.. الخ » للاعتناء بأمرهن، والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين، والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية في عدم توريثهن^(٣).

وقد جاء في الآية ثلاث فوائد:

إحداها: بيان علة الميراث، وهي القرابة.

الثانية: عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

الثالثة: إجمال النصيب المفروض لتثبيت أصل الحق في الميراث، وبينت ذلك آية الموارث بعد؛ فكان في الآية توطئة للحكم وإبطالاً لما كان من الفساد في التوارث^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤٦/٥)، وعند ابن كثير « أم كحجة » بالجيم (١/٤٥٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤٦/٥).

وإذا كانت الجاهلية تنظر إلى الأفراد حسب قيمتهم العملية في الحرب والإنتاج، فإن الإسلام بمنهجه الرباني ينظر إلى (الإنسان) - أولاً - حسب قيمته الإنسانية، وهي القيمة الأساسية التي لا تفارقه في حال من الأحوال! ثم ينظر إليه - بعد ذلك - حسب تكاليفه الواقعية في محيط الأسرة وفي محيط الجماعة^(١).

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾، أي مقطوعاً واجباً لا بد لهم من أن يجزوه^(٢)، وفائدة هذا القيد دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرجال، وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جَلَّ ودقَّ^(٣).

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾^(٤)

وإذا حضر قسمة التركة أولوا القربى ممن لا يرث، لكونه عاصباً محجوباً، أو لكونه من ذوي الأرحام، أو حضر القسمة يتامى والمساكين من غير القرابة، ﴿ فَأَرْزُقُوهُمْ ﴾ من مال التركة تطيباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم. وقيل: إن هذا أمر وجوب، واختلف في نسخه. والذي يظهر أنه أمر نذب واستحباب؛ لأنه لو كان واجباً لحدده وبين مقداره. ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾، أي عدوهم عدة حسنة، وادعوا لهم، واستقلوا ما أعطيتموهم، واعتذروا منهم، ولا تمنوا عليهم^(٤). قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين عند قسمة مواريتهم أن يصلوا أرحامهم، ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية وصل لهم من الميراث. قال النحاس: فهذا أحسن ما قيل في الآية، أن يكون على النذب والترغيب في فعل الخير والشكر لله عز وجل^(٥).

(١) الظلال، سيد قطب (٤/٢٤١).

(٢) الكشف (١/٢٤٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/١٤٧)، وانظر روح المعاني (٢/٢٨).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٤٩).

وقبل أن يأخذ السياق في تحديد أنصبة الورثة يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى والضعفاء. يعود هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين:

أولاهما تمس مكن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطري على الذرية الضعفاء، وتقوى الله الحسيب الرقيب. والثانية تمس مكان الرهبة من النار، والخوف من السعير في مشهد حسي مفرع:

﴿ وَلْيَخْشَ ^(١) الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ^(٢) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ^(٣) ﴾

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب. قلوب الآباء تجاه ذريتهم الصغار، بتصور ذريتهم الضعفاء مكسوري الجناح؛ لا راحم لهم ولا عاصم؛ كي يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء. فهم لا يدرون أن تكون ذريتهم غداً موكولة إلى من بعدهم من الأحياء كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء. ومع هذا التحريك النفسي الغريزي بعطف الأبوة وحنانها يأتي الأمر بتقوى الله في حقوق الأيتام والضعفاء، وأمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً ^(٢) في حقوقهم وعند رعايتهم ^(٣).

وإذا كان سياق الآيات في اليتامى، غير أن الخطاب عام، فيراد به جميع الناس؛ فالمعنى أمرهم باتقاء الله في الأيتام وأولاد الناس، وإن لم يكونوا في حجورهم، وأن يسدّدوا لهم القول

(١) الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. المفردات في غريب القرآن ص ١٤٩.

(٢) السديد: العدل والصواب من القول. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٥٢)، وجامع البيان، الطبري (٣/١٨٤).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/٢٤١-٢٤٢).

كما يريد كل أحد أن يفعل بولده بعده^(١).

واللمسة الثانية صورة مفزعة رهيبة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾^(٢). روى الطبري بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: حدثنا النبي ﷺ عن ليلة أسري به قال: «نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخرًا من نار يخرج من أسافلهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً»^(٣). وإنما علق الأكل بكونه ظلماً؛ لأنه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة وغيرها مثلاً، فلا يكون ظلماً ولا الأكل ظالماً^(٤). فقد دل الكتاب والسنة على أن أكل مال اليتيم من الكبائر التي تدخل النار؛ وقال النبي ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٥).

وبعد الإجمال الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ﴾ يشرع الله عز وجل في بيان هذا الإجمال فيقول سبحانه:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِّ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتَوْنَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٤/٢).

(٢) أصل الصلي لإيقاد النار، وصليت الشاة شويتها وهي مصلية. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٥. والسعر: التهاب النار، وقد سعرتها وسعرتها وأسعرتها، والمِسْعَر: الخشب الذي يُسعر به. المفردات ص ٢٣٣.

(٣) جامع البيان، الطبري (٣/١٨٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/٣١).

(٥) رواه الشيخان عن أبي هريرة: البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩)، واللفظ له.

وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وُلْدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةِ
يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ
الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَتُمُ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمُ
مِّن بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُنَّ أَرْبَعٌ
أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن
بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَرٍ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴿

هاتان الآيتان والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط
من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث التي تبينها وتفسرها.

وقد ورد في تعلم الفرائض عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « العلم ثلاثة، وما سوى ذلك
فهو فضل: آية محكمة^(١)، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة »^(٢).

وروى في سبب النزول عن جابر رضي الله عنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى
رسول الله ﷺ بابتئها من سعد فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما
معك في أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال:
فقال: « يقضي الله في ذلك » قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال:
« أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك »^(٣).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة

(١) أي غير منسوخة.

(٢) رواه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤).

(٣) الحديث رواه الترمذي (٢٠٩٢)، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأبو داود (٢٨٩١)، وإسناده قوي. جامع
الأصول، ابن الأثير (١٨٣/٢).

ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بهاء فتوضأ منه، ثم رش علي فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾^(١). وقد ذكر ابن كثير أن هذه الرواية هي سبب نزول الآية الأخيرة من سورة النساء^(٢). وقال ابن حجر في فتح الباري: «هكذا وقع في رواية ابن جريج، وقيل: إنه وهم في ذلك، وأن الصواب أن الآية التي نزلت في قصة جابر هذه الآية الأخيرة من النساء، وهي: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾، لأن جابراً يومئذ لم يكن له ولد ولا والد، والكلاله من لا ولد له ولا والد. وقد أخرجه مسلم عن عمرو الناقد، والنسائي عن محمد بن منصور، كلاهما عن ابن عيينة عن ابن المنكدر، فقال في هذا الحديث: حتى نزلت عليه آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. ولمسلم أيضاً من طريق شعبة عن ابن المنكدر. قال في آخر هذا الحديث: «فنزلت آية الميراث، فقلت لمحمد بن المنكدر: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾؟ قال: هكذا أنزلت»^(٣).

ومن الاهتمام بهذه الأحكام تصدير تشريعها بقوله ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لأن الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور، وفيه اهتمام الأمر لشدة صلاحه، ولذلك سمى ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه وبإاله وبذاته بعد الموت، وصية^(٤).

والفرائض التي فرضها الله في كتابه ستة: النصف، والرُّبُع، والثُّمْن، والثُّلُثَان، والثُّلُث، والسدس.

والوارثون من الرجال عشرة: الابن، وابن الابن وإن سفل، والأب، وأب الأب وهو الجد وإن علا، والأخ، وابن الأخ، والعم، وابن العم، والزوج، ومولى النعمة، وهو المعتق.

(١) رواه البخاري (٤٥٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٥٧/١).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٣٩/١٠).

(٤) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥٠/٤).

والوراثات من النساء سبع: البنت، وبنت الابن وإن سفلت، والأم، والجددة وإن علت والأخت، والزوجة، ومولاة النعمة، وهي المعتقة^(١).

ونوجز أحكام الآيتين فنقول:

أولاً: الأولاد (ذكوراً) أو (ذكوراً وإناثاً)، إذا انفردوا حازوا جميع التركة، ونصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى. وإذا كان معهم أصحاب فروض - كالأبوين أو أحد الزوجين - أخذوا الباقي من التركة بعد استيفاء أصحاب الفروض نصيبهم يقتسمونه للذكر ضعف نصيب الأنثى؛ لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾.

وفرض البنت النصف إن لم يكن معها أخ أو إخوة يعصبونها. وفرض البنتين فصاعداً إن لم يكن لهن أخ أو إخوة هو الثلثان، والباقي للعصبة، وهو أولى، أي أقرب الذكور إلى الميت لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وسكت عن الاثنتين، فدل على أن قوله: ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ يراد به: اثنتان فصاعداً، وقياساً على ميراث الأخوات الذي جاء في آخر سورة النساء: ﴿إِنْ أُمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، وأولاد الابن لهم حكم أولاد الصلب عند فقدهم، وتم بيان ميراث الفروع.

ثانياً: ميراث الأصول: الأبوان لها في الإرث أحوال:

الحالة الأولى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، حيث لم يترك الميت أولاداً ولا إخوة ولا زوجة أو زوجاً، فيفرض للأب الثلث والحالة هذه، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، فيكون قد أخذ ضعف ما حصل للأم وهو الثلثان. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

الحالة الثانية: أن يجتمع الأبوان مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦٠-٦١).

فإن لم يكن للमित إلا بنت واحدة فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾.

الحالة الثالثة: أن يكون مع الأبوين زوج أو زوجة، فيأخذ أحد الزوجين فرضه؛ إن كانت زوجة فلها الربع، وإن كان زوجاً فله النصف، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي، بعد أخذ أحد الزوجين نصيبه؛ لأن الباقي بعد فرض أحد الزوجين كأنه جميع الميراث بالنسبة للأبوين فيكون للأم ثلثه، وللأب ضعف الأم تعصياً. وهذا قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن علي، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

والحالة الرابعة من أحوال الأبوين: هو اجتماعهما مع الإخوة؛ أي اثنان فصاعداً، سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً؛ لأنهم محبوبون به، ولكنهم مع ذلك يجوبون الأم عن الثلث إلى السدس؛ ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾. وكان أهل العلم يرون أن الحكمة في حجبهم أمهم عن الثلث أن أباهم يلي نكاحهم، ونفقته عليهم دون أمهم^(١).

ولا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلِلأَبَوَيْهِ﴾ من علا من الآباء دخول من سفل من الأبناء في قوله: ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلِلأَبَوَيْهِ﴾ لفظ مثنى لا يحتمل العموم، بخلاف قوله: ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾. والدليل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثَّلَاثُ﴾، والأم العليا جدّة، ولا يفرض لها الثلث بإجماع، فخرج الجدة عن هذا اللفظ مقطوع به، وتناوله للجدّ مختلف فيه؛ فهناك من قال: هو أب، وحجب به الإخوة، واستدل بقوله تعالى: ﴿مِثْلَهُ مِثْلَ آبَائِكُمُ إِذَا رُزِّعُوا﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١]

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزّي الكلبي (١/١٣١-١٣٢)، وتفسير ابن كثير (١/٤٥٨) وانظر التفصيل في الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦١) وما بعدها.

وقوله عز وجل: « يا بني إسماعيل ارموا فإن أباكم كان رامياً ».

وذهب آخرون إلى توريث الجدة مع الإخوة؛ ولا ينقص من الثلث مع الإخوة للأب والأم، أو للأب، إلا مع ذوي الفروض، فإنه لا ينقص معهم من السدس شيئاً في قول زيد. وهو قول مالك والأوزاعي وأبي يوسف ومحمد والشافعي. وكان علي يشارك بين الإخوة والجدة إلى السدس، ولا ينقصه من السدس شيئاً مع ذوي الفرائض وغيرهم^(١).

ثالثاً: ميراث الزوجين:

يأخذ الرجل نصف ما تركت زوجته إذا ماتت ولم يكن لها ولد، فإن كان لها ولد فله الربع مما تركت. وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، في حجب الزوج عن النصف إلى الربع؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ ﴾.

وتأخذ المرأة ربع ما ترك زوجها، إذا مات ولم يكن له ولد، فإن كان له ولد فلها الثمن مما ترك. وسواء في الثمن أو الربع الزوجة أو الزوجات، والثلاث والأربع يشتركن فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ ﴾^(٢).

رابعاً: ميراث الإخوة الأشقاء أو الأب سيأتي في الآية الأخيرة من السورة.

خامساً: ميراث الإخوة لأم:

يقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَإِثْمَةٍ أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦٨).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٦٠).

إذا مات المسلم وليس له والد ولا ولد فورثته كلاله^(١)، والمراد بالإخوة هنا في قوله: ﴿وَلَهُنَّ أَصْحَابُ الْأُخُوْتِ كَمَا لِلرِّجَالِ وَلَهُنَّ أُمَّهَاتٌ وَأَبَاءٌ كَمَا لِلرِّجَالِ وَلَهُنَّ إِخْوَةٌ كَمَا لِلرِّجَالِ وَلَهُنَّ إِخْوَةٌ كَمَا لِلرِّجَالِ﴾. الإخوة لأم؛ لأن الإخوة الأشقاء، والإخوة لأب من العصابات، وليسوا من أصحاب الفروض.

فنصيب الواحد منهم ذكراً أو أنثى السدس، ونصيب الاثنين فصاعداً الثلث؛ ذكورهم وإنائهم في الميراث سواء، لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة، ويقال لها أيضاً الحمارية، وهي زوج، وأم أو جدة، واثنان من ولد الأم، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين. وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم - الإخوة لأم - فقال أولاد الأبوين - أي الإخوة الأشقاء - يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حماراً، ألسنا من أم واحدة؟ فشارك بينهم، وإلى هذا ذهب الجمهور^(٢).

وكرر في الآيتين قوله سبحانه: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، وإنما قصد بذلك تقديم الوصية والدين على الميراث. وتقدمت الوصية في لفظ الآية، والدين مقدم عليها بإجماع. وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفاسير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إنكم تقرؤون ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، إن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات؛ يرث أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه^(٣).

(١) الكلاله في أصل اللغة عبارة عن الإحاطة، ومنه الإكليل لإحاطته بما يدخل فيه، ويقال: تكلل السحاب إذا صار محيطاً بالجوانب. التفسير الكبير، الرازي (١٦٢/٣)؛ لأن الرجل إذا لم يترك والداً ولا ولداً فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلله نسبه؛ أي يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مكلل بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب. المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (١٨/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٦٠/١)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧٩/٥).

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢١٢٣) في الوصايا: باب ما جاء بيداً بالدين قبل الوصية وإسناده ضعيف بدون؛ وإن أعيان بني الأم... الخ. جامع الأصول (٦٣٥/١١). ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من=

وقدمها في الآيتين اهتماماً بها وندباً إليها، إذ هي أقل لزوماً من الدين، ويقال أيضاً: قدمها لكثرة وجودها ووقوعها؛ فصار كاللازم لكل ميت مع نص الشرع عليها، وآخر الدين لشذوذه؛ فإنه قد يكون وقد لا يكون، فذكر الذي لا بد منه، وعطف بالذي قد يقع أحياناً. ويقوى هذا العطف بأو، ولو كان الدين راتباً لكان العطف بالواو. ثم إن الوصية قدمت لأنها حظ مساكين وضعفاء، وآخر الدين لأنه حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان، وله فيه مقال^(١).

وختمت الآية الأولى بلمسات متنوعة المقاصد:

﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

واللمسة الأولى لفظة قرآنية لتطيب النفوس تجاه هذه الفرائض؛ فهناك من تدفعهم عاطفتهم الأبوية إلى إثارة الأبناء على الآباء؛ لأن الضعف الفطري تجاه الأبناء أكبر، وفيهم من يغالب هذا الضعف بالمشاعر الأدبية والأخلاقية فيميل إلى إثارة الآباء، وفيهم من يختار بين الضعف الفطري والشعور الأدبي الأخلاقي. وكذلك قد تفرض البيئة بأعرافها اتجاهات معينة، فسكبت الآية في القلوب كلها راحة الرضى والتسليم لأمر الله، ولما يفرضه الله، بإشعارها أن العلم كله لله، وأنهم لا يدرون أيّ الأقرباء أقرب نفعاً، ولا أيّ الأقسام أقرب لهم مصلحة^(٢).

والسياق يشعر بأن النفع يكون بالإنفاق إذا احتيج إليه، ويحتمل أن يريد النفع بالميراث من ماله، وهو أليق بسياق الكلام، وقيل: بالشفاعة في الآخرة^(٣)، وبالذعاء والصدقة، كما جاء في الحديث الصحيح: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة؛ صدقة جارية، أو علم

= حديث الحارث، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قال ابن كثير معلقاً على ذلك: لكن كان حافظاً

للفرائض، معتنياً بها وبالחסاب والله أعلم. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٥٩).

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٧٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٧).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٢٤٨).

(٣) كتاب التسهيل، الكلبي (١/١٣٢).

ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١)، فهذا نفع في الدنيا للأخرة وجاء في النفع الأخروي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢٢]، وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية. وروي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر عينه » ثم قرأ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾^(٢). قال الزمخشري: « فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم »^(٣).

ونستطيع أن نقول: إن النفع دنيوي وأخروي، وهو مجهول لنا معلوم لله العليم الخبير. واللمسة الثانية لتقرير أصل القضية. فالمسألة ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة، إنها هي مسألة الدين والشريعة:

﴿ فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ ؛ فهذا الذي ذكره الله من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه.

واللمسة الثالثة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ولم يزل عليماً حكيماً ؛ فهو خالق الآباء والأبناء، وهو خالق كل شيء، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [المالك: ١٤] وهو الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه، وهو الذي يشرع لخلقه، وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، لأن الله أعلم بأنفسهم من أنفسهم، وأعلم بمصالحهم منهم. الله يحكم لأنه عليم - وهم لا يعلمون - والله يفرض لأنه حكيم - وهم

(١) رواه مسلم (١٦٣١) بلفظ « إذا مات الإنسان »، ورواه الترمذي كذلك (١٣٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٧٤-٧٥، ١٧/ ٦٦)، ولم أقع على الحديث، وبنحوه عند أحمد (١١٣٤).

(٣) الكشاف، الزمخشري (٤/ ٣٤).

يتبعون الهوى - (١).

وختمت الآية الثانية بعد قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ﴾ بقوله سبحانه: ﴿ غَيْرَ مُضَارٍّ وَوَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾، أي حال كونه غير مضار للورثة، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الإضرار في الوصية من الكبائر (٢).

ووجوه المضارّة كثيرة، وكلها ممنوعة، منها أن يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلث ماله، أو يوصي بالثلث فراراً من وارث محتاج (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته، فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » (٤).

﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد، أي يوصيكم الله وصية منه، أي يأمركم بما فيه نفعكم وصلاحكم، كما مر معنا في قوله: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾، فهو ختم للأحكام بما بدئت به، وهذا من رد العجز على الصدر (٥).

ويأتي بعد ذلك التذييل بقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، أي والله عليم بالمضار لورثته وغيرهم، أو عليم بما دبره بخلقه من الفرائض، حلیم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، عندما

(١) تفسير ابن كثير (٤٥٩/١)، وانظر الظلال (٤/٢٤٨-٢٤٩).

(٢) روي عن ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً، والموقوف أثبت. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٦١/١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٠).

(٤) أخرجه أحمد (٧٦٨٤)، وابن ماجه (٢٧٠٤)، والترمذي بنحوه (٢٨٦٧)، وسنده حسن. وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/٤٤).

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/٢٦٦-٢٦٧).

يخالف أمره بشكل عام، أو يخالف ما بينه من الفرائض بشكل خاص^(١).

و نرى أن الله سبحانه أورد أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات، والتي تلائم الفطرة الإنسانية السليمة؛ وذلك لأن الوارث إما أن يكون متصلاً بالميت بغير واسطة أو بواسطة. فإن اتصل به بغير واسطة، فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب، أو الزوجية. فحصل ههنا ثلاثة أقسام:

أشرفها وأعلهاها الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة النسب، وذلك هو قرابة الأولاد والوالدين، فالله سبحانه قدم حكم هذا القسم.

وثانيها: الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة الزوجية، وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول؛ لأن الأول ذاتي، وهذا الثاني عرضي، والذاتي أشرف وأقوى من العرضي.

وثالثها: الاتصال الحاصل بسبب الغير، وهو المسمى بالكلالة، وهذا القسم متأخر عن القسمين الآخرين لوجوه:

أحدها: أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية، وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية.

وثانيها: أن القسمين الأولين ينسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة، والكلالة تنسب إلى الميت بواسطة. والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة.

وثالثها: أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والزوج والزوجة أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة. وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة، وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم. فلهذه الأسباب وأشبابها أخر الله تعالى ذكر ميراث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين^(٢).

ثم يأتي توكيد بعد توكيد للقاعدة الأساسية في هذه العقيدة، قاعدة التلقي من الله وحده

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/٤٥).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٩/١٧٨).

وإلا فهو الفسوق والعصيان، والخروج من منهج هذا الدين، وهذا ما تقرر الآيتان التاليتان في السورة، تعقياً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض، حيث يسميها الله تعالى بالحدود^(١):

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

تلك الفرائض، وتلك التشريعات التي شرعها الله وفق علمه وحكمته هي أحكام الله التي بينها لكم لتعرفوها وتعملوا بها، ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ في قسمة الموارث، فيقر بها، ويعمل بها كما أمره الله، ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿ فيما أمر من الأحكام، أو فيما فرض من الفرائض، ﴿ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ﴾ التي شرعها الله ورسوله ﷺ، ومن جملتها ما ذكره الله في حقوق اليتامى والمستضعفين وقسمة الميراث ﴿ يُدْخِلْهُ نَارًا ﴾ عظيمة هائلة؛ فالتنكير يفيد التهويل والتعظيم، ﴿ وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾، أي مذل^(٢). والعصيان إن أريد به الكفر فالخلود في النار على بابه، وإن أريد به تجاوز أمر الله في الكبائر دون إنكار الأحكام التي أنزلها الله أو من غير اعتقاد عدم صلاحيتها، فالخلود مستعار لمدة ما، كما نقول: خلّد الله ملكه^(٣).

والفرائض التي بينها الله تنظم العلاقات الأسرية، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية بتفتيت الثروات المتجمعة على رأس كل جيل، وإعادة توزيعها من جديد؛ فلا يدع مجالاً

(١) الظلال (٤/٢٥١)، وحدود الله شرائعه، أو طاعته، أو تفصيلاته، أو شروطه وأحكامه. وأطلق عليها الحدود لشبهها بها من حيث أن المكلف لا يجوز أن يتجاوزها إلى غيرها. روح المعاني (٢/٤٥). وأصل الحد: الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره. ومن هذا قولهم للبواب حداد، لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة، وهو امتناعها عن الزينة. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٠).

(٢) روح المعاني، الألويسي (٢/٤٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٨٢).

لتضخم الثروة وتكدسها في أيدٍ قليلة ثابتة، ويتم توزيعها على الأقرب فالأقرب للميت مما يجعل الإنسان يثمر ماله لآخر نفس في حياته، ولو علم أن ماله سيذهب إلى من لا يهتم أمره لبدد أمواله واستهلكها قبل موته. فنظام الإرث علاج اقتصادي، ومودة أسرية، ورابطة اجتماعية^(١).

وهكذا ترتبط الأحكام الشرعية دائماً بالعبودية لله وطاعته، ليتحقق الإخلاص في التزام أمر الله وطاعته ظاهراً وباطناً.

وعود على بدء؛ فقد بدأت السورة ببيان أصل البشرية آدم وزوجه حواء، ثم انتقلت الآيات إلى حماية أموال اليتامى والمستضعفات من النساء بشكل عام واليتيمات بشكل خاص، وأوجب للمرأة حقها في المهر ﴿وَأَنْتُمْ أَلْسَاءٌ صَدَقْتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ وأثبت حقها في الميراث، وفصل بعد ذلك قسمة الميراث؛ فحمى المجتمع من العدوان على أموال المستضعفين من الأيتام والنساء، عرج بعد ذلك إلى حماية النسل من العدوان على الأنساب بالزنى:

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازُوهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوَلِّتِكُ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ أَنْتَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ﴾ عطف هذا الحكم على ما تقدم، ومعنى يأتين الفاحشة: يفعلنها. يقال: أتيت امرأةً قبيحاً، أي فعلته. وأما الفاحشة فهي الفعلة القبيحة، وأجمعوا على

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٥٤).

أن الفاحشة ههنا الزنا^(١)، ولإثبات الزنا قال سبحانه: ﴿فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾، فلا تهمة بدون دليل، أي اطلبوا أن يشهد عليهن بإتيان الفاحشة أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم، ولا تقبل شهادة النساء في الحدود. دلّ على ذلك تأنيث العدد ﴿أَرْبَعَةً﴾ فالمعدود مذكر، وقوله ﴿مِّنْكُمْ﴾ دليل على أن الشاهد ينبغي أن يكون من المؤمنين العدول^(٢). وعدم قبول شهادة المرأة لثلاث تخرج في مثل هذه الفواحش، ولا ينقص هذا من قدرها، فالرجال لا تقبل شهادتهم في الأمور الخاصة بالنساء، كالولادة، والبخارة، حيث لا تقبل إلا شهادة النساء.

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ احبسوهم في البيوت، ﴿حَتَّىٰ يَتَوَقَّعَنَ الْمَوْتَ أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، أي حتى تتوفاهن ملائكة الموت، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوَقَّعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَقَّعُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

واشترط الأربعة، والإيمان، والعدالة، والذكورة في الشهود تغليظاً وسترأ على العباد^(٣) إذ مقصود الشرع بالعقوبة الردع عن هذا الفعل القبيح والتربية النفسية التي تبعد المؤمن عن الفواحش، وليس المقصود شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، ولا كثرة إنزال العقاب الشديد بمن يقترف الذنب، إلا المستهترين الذين لا يبالون بمشاعر الجماعة، ولا يستترون في معاصيهم.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا﴾ اللذان مثني الذي، والضمير في قوله: ﴿يَأْتِيَنَّهَا﴾

(١) وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بقوله ﴿يَأْتِينَ﴾ لطيفة، وهي أن المكلف كأنه ذهب إليها من عند نفسه واختارها بمجرد طبعه. والفاحشة هي مصدر عند أهل اللغة، كالعاقبة. يقال: فحش الرجل يفحش فحشاً وفاحشة، وأفحش إذا جاء بالقبيح من القول أو الفعل. وإنما أطلق على الزنا اسم الفاحشة لزيادتها في القبح على كثير من الفواحش. التفسير الكبير، الرازي (٣/١٦٧).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/٤٦).

(٣) روح المعاني (٢/٤٦)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٨٣-٨٤).

يرجع إلى ﴿أَلْفَحِشَّةٌ﴾ السابقة الذكر، فالمراد بيان حكم من يقترف الزنا من الرجال، وبين بلفظ الشنية ﴿وَالَّذَانِ﴾ صنفى الرجال ممن أحسن ومن لم يحسن. والآية الأولى: ﴿وَأَلَّتِي يَأْتِيكِ أَلْفَحِشَّةٌ﴾ في النساء عامة لمن ؛ محصنات وغير محصنات، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿مِنْ نِسَائِكُمْ﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنْكُمْ﴾^(١)، فاستفيد التعميم في الحالتين ؛ إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يعني أن يقال: ﴿وَأَلَّتِي يَأْتِيكِ﴾، (والذين يأتون)، إلا أنه سلك هذا الأسلوب ليحصل العموم بطريقتين، مع التنصيص على شمول النوعين^(٢). ويضاف إلى ذلك ما ذكرته قبل قليل من عود الضمير في قوله: ﴿يَأْتِيكِهَا﴾ إلى الفاحشة التي أجمع العلماء على أن المراد بها الزنا، فلا وجه لمن قال: إن المراد بالذنان اللواط أو غير ذلك.

وإيذاء الزاني هو النيل باللسان واليد، وضرب النعال، وما أشبهه^(٣). أما سبب اختلاف العقوبة بين الرجل والمرأة، حيث خص الله سبحانه الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجل ؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت ؛ لأنه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه وترتيب مهامه، واكتساب قوت عياله^(٤).

وقد نسخ الله هذا الحكم وبقيت تلاوته للتعبد واستشعار حكم الله في النسخ. والناسخ من القرآن الآية الثانية من سورة النور: ﴿الرَّانِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾، وآية الرجم التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها، فقال عمر بن الخطاب وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ:

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٢٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٨٦).

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/ ٢٧٢).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٤٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٢).

(٤) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٦٩).

إن الله قد بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم. قرأناها ووعيناها وعقلناها. فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله. فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف^(١).

وليس قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ غاية لانتهاء الحكم ينفي وجود النسخ إنما هو إشعار بأن هذا الحكم سينسخه حكم آخر. وحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا عني، خذوا عني. قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر، جلد مائة ونفي سنة والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^(٢)، مبين للقرآن ومشير إلى النسخ، فلا يعترض عليه بجواز نسخ الكتاب بالسنة وعدم جوازه.

وتتناول آخر الآية وما بعدها موضوع التوبة: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا﴾. يأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزانيان وظهر في سلوكهما الصلاح أن يكف عنهما الأذى. وجاء الأمر بهذا الكف، الذي هو ﴿فَأَعْرَضُوا﴾، وفي اللفظ غض من الزناة وإن تابوا؛ لأن تركهم هو إعراض، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجر، ولكن الإعراض متاركة معرض، وفي ذلك شيء من الاحتقار لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة، رحيم بعباده حيث يريد مصالحهم فيما حرم عليهم.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٢٠٦-٢٠٧)، الحديث رقم (١٦٩١)، كتاب الحدود: باب رجم الثيب في الزنى. وقد أراد بالآية آية الرجم: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة». وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه. شرح النووي على مسلم (٦/٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحدود: باب حد الزنى (٦/٢٠٤) مسلم بشرح النووي) برقم (١٦٩٠)، وأخرجه أبو داود في الحدود: باب الرجم، والترمذي رقم (١٤٣٤).

اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴿

اتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١]، فلا ينبغي للمؤمن أن يترك التوبة في كل حال، فإنه لا يخلو من سهو أو تقصير في حقوق الله تعالى^(١). وحد التوبة: الندم، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وشرطها: الإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها، أي عدم الإصرار على المعصية. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وينبغي أن يكون الندم على تفریطه في حق الله عز وجل وإقدامه على المعصية، وإن كان الندم من حيث أضر ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة.

وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب؛ فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحت بشرطها، وهو محتاج بعد معاودة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة.

والتوبة لا يجب قبولها على الله عقلاً، لكن جاء إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]. وظاهر هذه النصوص قبول توبة التائب، وهي إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعاً على الله بقبول التوبة. وقد ورد النص هنا: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ﴾ بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾، ففيه حذف مضاف تقديره: إنما التوبة على فضل الله ورحمته لعباده. وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سكت قليلاً ثم قال: يا معاذ، أتدري ما حق العباد على الله؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم»^(٢). فهذا كله إنما

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩٠/٥)، (٢٣٨/١٢).

(٢) البخاري (٦٢٦٧، ٥٩٦٧)، وفيه تكرار تربيوي، ومسلم (٣٠).

معناه: ما حققهم على فضل الله تعالى ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً^(١)؛ ولأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم، فلا يصلح أن يوصف بوجوب شيء عليه سبحانه^(٢).

وقد ذكرت الآية هنا لقبول التوبة قيدين: ﴿بِجَهْلَةٍ﴾، و﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾.

والجهالة تطلق على سوء المعاملة، وعلى الإقدام على العمل دون روية، وهي مقابل الحلم؛ ولذلك تطلق الجهالة على الظلم، قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال الله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، والمراد هنا ظلم النفس^(٣). وعلى هذا فالجهالة: سفاهة وقلة تحصيل أدى إلى المعصية وارتكاب ما لا يليق بالعاقل، لا عدم العلم^(٤). وقد روي عن الصحابة والتابعين أخبار كثيرة يقوى بعضها بهذا المعنى؛ روي عن قتادة قال: اجتمع أصحاب محمد ﷺ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة. وروي عن مجاهد قال: كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصية^(٥).

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ أي من زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت، كما ينبئ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢٣/٢-٢٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٩٠/٥).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٧٨/٤).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢٤/٢).

(٥) روي هذا المعنى من طرق عن قتادة عن أبي العالية وعن مجاهد وعن ابن عباس وعن عطاء بن أبي رباح وعن ابن زيد وغيرهم. روى ذلك الطبري (٣/٢٠٢-٢٠٣)، وأخرجه عن مجاهد البيهقي في الشعب، وأخرج اجتماع أصحاب رسول الله ﷺ عن قتادة عبد الرزاق. انظر روح المعاني (٤٩/٢).

عنه ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾^(١)، وإنما صححت التوبة منه في هذا الوقت لأن الرجاء باقٍ، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، وروى ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه: «ثم يتوبون من قريب»، والقريب فيما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت^(٣).

﴿ فَأُولَٰئِكَ ﴾ المتصفون بما ذكر ﴿ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ فيعلم بإخلاص من يتوب، ﴿ حَكِيمًا ﴾ فلا يعاقب التائب^(٤)، ويمنح عباده الضعاف فرصة العودة إلى الصف الطاهر، ولا يطردهم وراء أسوار اليأس من رحمته، وهم راغبون رغبة حقيقية في الحمى الآمن والكنف الرحيم.

أما توبة المضطر الذي لجت به الغواية، وأحاطت به الخطيئة، فهذه لا يقبلها الله؛ لأنها لا تنشئ صلاحاً في القلب ولا صلاحاً في الحياة، ولا تدل على تبدل في الطبع ولا تغير في الاتجاه^(٥):

﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٦).

تنبيه على نفي قبول نوع من التوبة للذين يعملون المعاصي، حتى شاهد أحد هؤلاء العصاة الأحوال التي لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا بحال، وعاین ملك الموت، وانقطع جبل الرجاء، ﴿ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ ﴾؛ أي في هذا الوقت الحاضر؛ وذكر لمزيد تعيين الوقت،

(١) روح المعاني (٤٩/٢).

(٢) الترمذي (٣٥٣٧)، وأحمد (٦٣٧٢)، ورواه الطبري عن عبادة بن الصامت مرفوعاً (٢٠٥/٤). انظر القرطبي (٩٢/٥).

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس بسند حسن، وهو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة (٢٠٤/٤).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٥٠/٢).

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦٤/٤).

وإيثار ﴿قَالَ﴾ على (تاب) لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار، والتحاشي عن تسميته توبة، ولو أكده ورغب فيه ؛ ولعل سبب ذلك كون تلك الحالة أشبه شيء بالآخرة، بل هي أول منزل من منازلها، والدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل، والمعنى: وليست التوبة لقوم يعملون السيئات إلى حضور موتهم، وقولهم: كيت وكيت. ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عطف على الموصول قبله، أي ليست التوبة لهؤلاء وهؤلاء^(١). وختمت الآية بقوله: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا﴾، أي هيأنا وحضرننا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمًا﴾، أي مؤلماً موجعاً^(٢). والإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا﴾ إن كانت إلى الذين يموتون وهم كفار فقط فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو من جهة هؤلاء عذاب ولا خلود. وظاهر الآية في قوله: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ يدل على أن النار مخلوقة^(٣).

وأخيراً نرى أن هذا المقطع قد وجه الإنسان إلى تقوى الله وتوحيده في مجموعة من الأمور:

- ١- معرفة الله ؛ فهو الرب الخالق المالك المتصرف.
- ٢- صلة الأرحام، فالبشرية تعود إلى أصل واحد تفرعت عنه القربات.
- ٣- حفظ أموال اليتامى، وعدم الاعتداء عليها.
- ٤- إعطاء المرأة - وهي من المستضعفين - حقها من الإرث، فلها حق فيه كالرجل.
- ٥- توزيع تركة الميت على حسب الفرائض التي أوصى بها الله.

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/٥٠).

(٢) ألم إذا أوجع، والإيلام: الإجماع. والألم: الوجع. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/١٩٨)، (٩٣/٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٦).

٦- وأد الفاحشة - التي تدمر الأسرة، وتضيّع الأنساب - بعقوبة فاعليها، والحض على التوبة، وبيان شروطها.

٧- كل ذلك مرتبط بتربية النفوس على طاعة الله وحده، والحذر من آثار المعصية عند الرجوع إليه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: الرب هو المربي، والخالق والمالك له العبودية والطاعة، ولا معبود سواه.

ب- الأحكام الشرعية: بيان حقوق الأيتام، وحكم الحجر على السفية لحفظ أموال المجتمع مع المحافظة على الملكية الفردية. وأحكام الفرائض، وأحكام وأد الفاحشة، لإنقاذ الأسرة المسلمة من التفكك.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم أساسه العفة والكرامة.

د - الجوانب التربوية: تربية النفوس على التوبة والرجوع إلى الله قبل ذهاب العمر وفوات الأوان.

المقطع الثاني: تكريم المرأة وحققها كزوجة (١٩-٢٨):

يتصل هذا المقطع بسابقه - المقطع الأول - بقاسم مشترك يجمع بينهما، وهو أن كليهما مرتبط بالآية الأولى التي صدرت بها السورة؛ خلق الرجال والنساء من أصل واحد وصلة الرحم؛ فذكر المقطع الأول ظلم الأيتام والزواج باليتيمات، والإرث، والعلاقة الجنسية المنحرفة عن فطرة الزواج، وغير ذلك. وهذا المقطع يقرر كرامة المرأة، واستقلالها الذاتي، فهي أحق بنفسها ومالها، ثم ينتقل إلى بيان المحرمات من النساء في الزواج وتنظيم الأسرة، مما يسمّى اليوم بالأحوال الشخصية.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلوهنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُموهنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُموهنَّ فَسَعَى أَنْ تَكَرَّهُوا سَيِّئًا وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتَهُ إِحْدَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سَيِّئًا ءَاتَاخُذُوهُ. بُهْتَنَّا وَإِنَّمَا مِيسِرًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ. وَقَدْ أَضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ءِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنَ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ءِِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ءَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَفَاوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ءِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَنِيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ءِ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ءِ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ءِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ ءِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّتِي نَبَاهَتْكُمْ مِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ءِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ۞

يمكن أن نقسم هذا المقطع إلى أربع فقرات:

الفقرة الأولى: كرامة المرأة واستقلالها بنفسها ومالها، من قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

والفقرة الثانية: المحرمات من النساء.

والفقرة الثالثة: نكاح الإماء.

والفقرة الرابعة والأخيرة: تعقيب ومواعظ.

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾. قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت الآية^(١). وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان ذلك لهم في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾^(٢).

الإرث حقيقة مصير الكسب إلى شخص عقب شخص آخر، وأكثر ما يستعمل في مصير الأموال. وتعدية فعل ﴿أَنْ تَرْتُوا﴾ إلى ﴿النِّسَاءِ﴾، وتنزيل النساء منزلة الأموال الموروثة لإفادة تبشيع الحالة التي كانوا عليها في الجاهلية^(٣). وكانت هذه السيرة لازمة في الأنصار وكانت في قريش مباحة مع التراضي. ومعنى الآية: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالأموال

(١) البخاري (٤٥٧٩، ٦٩٤٨).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد بن فضيل عن يحيى بن سعيد عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه سهل؛ وهو طريق جيد. جامع البيان، الطبري (٢٠٧/٤).

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٨٢/٤-٢٨٣).

يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال^(١). وقد رجح الطبري رحمه الله هذا المعنى بعد أن أورد روايات كثيرة بطرق مختلفة عن التابعين أن هذا العمل كان في الجاهلية، فأُنزلت الآية لتحريره^(٢).

وهكذا نلاحظ أن الجاهلية العربية -كغيرها من سائر الجاهليات حول العرب- كانت تعامل المرأة معاملة سيئة، لا تعرف لها حقوقها الإنسانية، فتتزل بها عن منزلة الرجل نزولاً شنيعاً، يدعها أشبه بالسلعة منها بالإنسان. وذلك في الوقت الذي تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية، وتطلقها فتنة للنفوس، وإغراء للغرائز، ومادة للتشهي والغزل العاري المكشوف. وكذلك الجاهلية الحديثة أعادت المرأة في كثير من الجوانب إلى ما كانت عليه في الجاهلية الأولى. وإذا تحدث الغرب اليوم - ومن يسير في ركابهم - عن حرية المرأة، فإننا يريدون حريتها في مقارفة الفاحشة ومقدماتها؛ من إثارة للغرائز، وإبعاد الرجال عن تكوين الأسرة أو الإخلاص لها. وقد جاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعي في كيان الأسرة، وإلى دورها الجدّي في نظام الجماعة البشرية. المكان الذي يتفق مع المبدأ العام الذي قرره في مفتح هذه السورة: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٣). فالغرائز في الرجال والنساء يرفعها الإسلام إلى المشاعر الإنسانية في حياة زوجية ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وترتبط بروابط الاحترام والمودة والتجمل والرحمة؛ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وجعل سبحانه لهذه الغريزة هدفاً هو النسل القوي الصالح للبقاء، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾.

فمن فكرة الإسلام عن الإنسان، ومن نظرتة إلى الحياة الإنسانية بشقيها (الذكر والأنثى) كان ذلك الارتفاع الذي لم تعرفه البشرية إلا من هذا المصدر العظيم.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٦).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/٢٠٩).

(٣) الظلال، سيد قطب (٤/٢٦٥).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. العضل: المنع والحبس والتضييق^(١). أي لا تحبسوهن، وتضيقوا عليهن، وتسيئوا عشرتهن ليفتدين منكم بأموالهن ويحتلن ببعض مهرهن، أو بحق من حقوقهن المالية الواجبة عليكم أو شيئاً من ذلك، على وجه القهر لهن والإضرار بهن^(٢). والخطاب هنا للأزواج، بدليل قوله: ﴿لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾، وقد روي بطريق حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ يقول: لا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن؛ يعني الرجل تكون له المرأة، وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهر، فيضربها لتفتدي^(٣). وأياً ما كان فإن تحريم إضرار الرجل بزوجه يقتضي من باب أولى تحريم الأولياء منع المرأة من الزواج وعضلها كما مر في البقرة: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وإذا أتت الزوجة بفاحشة جاز لزوجها أن يعضلها ويضيق عليها حتى تفتدي. وفي الفاحشة هنا قولان:

أحدهما أنها النشوز على الزوج. وروي عن ابن مسعود وابن عباس وقتادة في جماعة^(٤).

والثاني الزنا. قاله الحسن وعطاء وعكرمة في جماعة.

والصحيح أنها إذا أتت بأي فاحشة كانت، من زنى الفرج، أو بذاعة اللسان جاز للزوج

(١) أصل العضل من قولهم: عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجه، وعضلت الدجاجة إذا نشب بيضها. فالعضل الحبس والمنع، والتضييق راجع إلى معنى الحبس. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/١٥٩)، (٥/٩٥)، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٦٥).

(٣) جامع البيان، الطبري (٤/٢١٠). انظر ترجيح الطبري ودليله، والرواية عن ابن عباس وردت بطريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي طريق جيدة.

(٤) أخرج ابن جرير عن ابن عباس بإسناد حسن، وهو طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾. وهو البغض والنشوز، فإذا فعلت ذلك فقد حل له منها الفدية. الطبري (٤/٢١١-٢١٢).

أن يضيق عليها حتى تفتدي. واختار ابن جرير الطبري رحمه الله التعميم واستحسنه ابن كثير وقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافًا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] ^(١).

وبعد نبيه سبحانه عن التضييق على الزوجات والإضرار بهن، أمر بحسن صحبتهم والإحسان لهن في المعاشرة والنفقة فقال سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ^(٢)، أي طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهياتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿ وَهَلْ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال رسول الله ﷺ: « خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي » ^(٣)، وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر؛ يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقة، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، يتودد إليها بذلك. قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني فقال: « هذه بتلك »، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك، وقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] ^(٤).

وإذا كانت الحياة الزوجية سكوناً وأمناً وسلاماً، وجعل الله بين الزوجين مودة ورحمة، فلا يعني أن لا يكون بين الزوجين شيء من الخلاف أو الكره لبعض التصرفات والأخلاق والعادات التي لا تصل إلى الفاحشة المبينة التي مرّ ذكرها قبل قليل، فلا تفصم عرى الزوجية

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٤١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٦٦)، وجامع البيان، الطبري (٢١٢/٤).

(٢) لكل أحد عشرة، زوجاً كان أو ولياً، ولكن المتلبس بهذا الأمر الأزواج. والعشرة: المخالطة والممازحة. يقال عاشر معاشرة، وتعاشر القوم واعتشروا. المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٨).

(٣) رواه الترمذي عن هشام بن عروة عن أبيه برقم (٣٨٣٠)، وابن ماجه عن ابن عباس رفعه برقم (١٩٦٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٤٦).

لأول خاطر، ولا ينبغي أن تنفك لأول نزوة من العواطف المتقلبة، وحماسة الميل الطائر هنا وهناك، ولهذا يقول الله سبحانه بعد أن أمر بحسن العشرة: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. ندبت الآية إلى إمساك المرأة مع الكراهة لها، ونبهت على معنيين:

أحدهما: أن الإنسان لا يعلم وجوه الصلاح، فرب مكروه عاد محموداً، ومحمود عاد مكروهاً.

والثاني: أن الإنسان لا يكاد يجد محبوباً ليس فيه ما يكره، فليصبر على ما يكره لما يجب^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « المرأة كالضَّلَع، إن أقمتهما كسرتها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عَوَج »^(٢).

وقال النبي ﷺ: « لا يَفْرَكُ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر »^(٣). ولعل ما يوجد في المرأة من العوج بسبب غلبة عاطفتها، التي هي ضرورية في الحياة الزوجية، وفي تربية الأولاد والعطف عليهم، أو بسبب إفرازات الغدد الصماء التي لها علاقة في الدورة الشهرية والمبايض، والله أعلم.

ومن فصاحة القرآن العموم الذي في لفظة « شيء » في قوله سبحانه: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا﴾، لأنه يطرد هذا النظر في كل ما يكرهه المرء مما يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر، إذا عاقبته إلى خير إذا أريد به وجه الله^(٤).

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥١٨٤)، ومسلم (١٤٦٨)، وعند أحمد في مسنده: « لا تستقيم لك المرأة على خليفة واحدة، إنما هي كالضلع... » الحديث، برقم (٩٥٠٣، ١٠٠٧١، ١٠٤٧٥).

(٣) صحيح مسلم (١٤٦٩). وَيَفْرَكُ - بفتح الياء والراء وإسكان الفاء بينها - يَغْضُ. فَرَكَهُ يَفْرَكُهُ إِذَا أَبْغَضَهُ، وَالْفَرَكُ: الْبَغْضُ. صحيح البخاري بشرح النووي (٣١٥/٥).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٨).

وهذه حكمة عظيمة؛ إذ قد تكره النفوس ما في عاقبته خير. فبعضه يمكن التوصل إلى معرفة ما فيه من الخير عند غوص الرأي، وبعضه قد علم الله أن فيه خيراً، لكنه لم يظهر للناس. والمقصود من هذا: الإرشاد إلى إعماق النظر وتغلغل الرأي في عواقب الأشياء، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة، ولا بميل الشهوات إلى ما في الأفعال من ملامم، حتى يسبره بمسبار الرأي، فيتحقق سلامة حسن الظاهر من سوء خفايا الباطن^(١).

ولا جرم أن الكراهية تعقبها إرادة استبدال المكروه بضده، فلذلك عطف الشرط على الذي قبله استطراداً واستيفاءً للأحكام، فقال سبحانه:

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

مضى في الآية المتقدمة حكم الفراق الذي سببه المرأة، وأن للزوج أخذ المال منها، وهنا يبين سبحانه ذكر الفراق الذي سببه الزوج، فإذا كره الرجل زوجته ولم يستطع الصبر عليها بعد التجمل والمحاولة، وأراد فراقها بالطلاق، واستبدال زوجة أخرى مكانها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قد أصدقها مالاً كثيراً^(٢). وإنما خصص النهي عن أخذ شيء مما أعطى بحال الاستبدال وإن كان المنع عاماً لئلا يظن ظان أنه لما عاد البضع إلى ملكها وجب أن يسقط حقها من المهر، أو يظن ظان أن الثانية أولى بالمهر منها لقيامها مقامها^(٣).

وينبغي أن نعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَاتٍ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا ﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار، كما أن قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ولا يدل على حصول الآلهة؛ والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٤/٢٨٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٦٦).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/٤٣).

شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع^(١).

أما ما رواه الحافظ أبو يعلى بسنده عن مسروق قال: «ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ، ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم، قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيتم الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمئة درهم؟ قال: نعم، فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وَأَتَيْتُمُ إِحْدَثَهُنَّ قِنطَارًا﴾. قال: فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفاقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إني كنت نهيتمكم أن تزيدوا النساء في صداقاتهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: «فمن طابت نفسه فليفعل»^(٢).

فإن كان البعض يرى أن هذه الرواية تدل على جواز المغالاة في المهور، فالذي يظهر أنها تدل على أنه لا يجوز مصادرة شيء من حق المرأة في المهر كثيراً كان أو قليلاً، وتراجع عمر عن تحجير المباح لثلاث يتدخل أولياء الأمور في حقوق النساء بحجة تحجير المباح. ولعل من الأغنياء من يجب أن يمنح زوجته مهراً كبيراً لا يساوي هذا المهر شيئاً بالنسبة إلى نفقاته بشكل عام وبالنسبة إلى ثروته وأرباحه. فإذا أعطى عن طيب نفس فقد ملكته الزوجة، ولا يجوز لأحد أن يأخذه منها؛ لا زوجها ولا غيره ممن يدعي تحجير المباح لمصلحة عامة. وتحريم المغالاة

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٧). وقال: إسناده جيد قوي. وقد روى الشطر الأول منه مع ذكر عمر لما يسببه كثرة المهر من العداوة في نفس الزوج. الإمام أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة عن أبي العجفاء السلمي، برقم (٢٧٢). ورواه أصحاب السنن من طرق عن محمد بن سيرين عن أبي العجفاء.

في المهور دليله تحريم المفسدة الكبيرة التي تعارض أهداف الإسلام في تكوين الأسرة، عندما يتباهى الناس في كثرة مهور النساء، ويعسر على كثير من الشباب الزواج لغلاء المهور، ويسهل عليهم الزنا ليسره وسهولته، وخصوصاً عند وجود المثيرات الجنسية الداعية إليه، حينئذ تحصل المفسدة الكبرى بالنسبة للشباب والشابات، وهذا ما يريده أعداء الإسلام. ولذلك نقول لمن يغالي في مهور النساء ويظنها سلعة إنك قد أفسدت سعادة من توليت أمر نكاحها، فربما لا يوجد من يدفع فيها هذا الثمن، إلا من أهل الفساد والدخول المحرم، والرسول ﷺ يقول: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»^(١)، وقال رسول الله ﷺ: «إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة»^(٢)، وقال ﷺ: «يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها»^(٣).

وخلاصة هذا الموضوع أن كثرة المهر وقتله مباح يتفق عليه بين الطرفين، وللزوج الذي وسع الله عليه أن يزيد مهر زوجته ما طابت به نفسه، على أن لا يكون ذلك مفاخرة يقلد الناس فيها بعضهم، فيؤدي ذلك إلى صعوبة النكاح، ويترتب عليه كارثة اجتماعية للشباب والشابات. والأفضل على كل حال - ولو كان الزوج غنياً - تيسير المهور وعدم المغالاة فيها. وجعل الله سبحانه أخذ شيء من مهر الزوجة بهتاناً وإثماً مبيناً واضحاً فقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾. والبهتان: كذب يحير الإنسان لعظمته، ثم جعل كل باطل يتحير منه بهتاناً. وكان دأبهم قبل الإسلام إذا أرادوا تطليق الزوجة رموها بالفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها من زوجها بذلك المهر. والظاهر من حال المسلم أنه لا يخالف أمر الله، لكنه إذا أخذ من زوجته شيئاً فقد طعن في ذاتها؛ لأن أخذ المال عند الطلاق مظنة بأنها أتت ما لا يرضي الزوج، فقد يصد ذلك الراغبين في التزوج عن خطبتها؛ ولذلك جعل الله ذلك الأخذ بهتاناً، ثم إن أخذ

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤، ١٠٨٥)، وابن ماجه (١٩٦٧).

(٢) مسند أحمد (٢٤٠٠٨).

(٣) مسند أحمد عن عائشة (٢٤٠٨٦).

المال بغير حق ظلم فهو إثم مبین^(١).

وينكر الله في ختام الآية على من يأخذ مهر زوجته بغير حق إذا أراد طلاقها، ويذكر سبحانه بالعلاقة بين الزوجين وروابطها القوية:

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ، وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

﴿ ١١ ﴾

تعليل لمنع الأخذ بعد الإفضاء^(٢):

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ، ﴾ استفهام تعجبي بعد الإنكار، أي ليس من المروءة أن تطمعوا في

أخذ عوض عن الفراق بعد معايشة امتزاج وعهد متين.

وجاء لفظ الإفضاء ﴿ أَفْضَى ﴾ مطلقاً، يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل

إحباطاته. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر، والوجدانات

والتصورات، والأسرار والهموم، والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب. يدع اللفظ

يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات

لتلك المؤسسة التي ضمتها فترة من الزمان؛ وفي كل اختلاجة حب إفضاء، وفي كل نظرة ود

إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر

أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء.

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والمشاعر والعواطف يرسمه ذلك التعبير الموحى

العجيب: ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾، فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير

ويستحيي الرجل أن يطلب بعض ما دفع، وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/١٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/١٠٢).

من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف^(١) !

ولا يخرج ما ذكرناه من الظلال الواسعة لمعنى الإفضاء عن ما روي عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد: إن الإفضاء يعني الجماع، فالجماع لطلب النسل شيء أساسي في الحياة الزوجية لكن الجماع في الحياة الزوجية الإنسانية ليس غريزة حيوانية تنتهي بزمن يسير إنما يتبع ذلك ويسبقه مشاعر وعواطف وآمال وسعادة وحب، قال سبحانه: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١].

ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملاً آخر من لون آخر: ﴿ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾، أي عهداً شديداً، وهو عقد الزواج الذي أحل الله به النكاح، ويدخل فيه أنه: ﴿ فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والذي جاء في الآية الأخرى أيضاً: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها: « فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله... »^(٢).

وخلاصة الموضوع في شأن الزوجات أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة؛ فإن كان من قبل الزوج حرم عليه أن يأخذ شيئاً من مهر زوجته، وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فهنا محل أخذ بدل الخلع لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴾^(٣).

الفقرة الثانية من هذا المقطع: المحرمات من النساء:

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، إلى قوله تعالى:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) صحيح مسلم (١٢١٨)، وأبو داود في سننه (١٩٠٥).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ١٧٦).

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

عقب الحديث عن الأسرة وكرامة المرأة فيها، يأتي تنظيم جانب من جوانبها ببيان المحرمات (من يحرم زواجها) من النساء في الشريعة الإسلامية، ومن لا يحرم، فبدأ بتحريم نكاح زوجة الأب، لأن بعضهم كان يفعل ذلك، فقد نزلت هذه الآية في قوم كانوا يخلفون على حلائل آبائهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فحرم الله تبارك وتعالى عليهم المقام عليهن وعفا لهم عما كان سلف منهم في جاهليتهم وشركهم إذا هم اتقوا الله وأطاعوه في ذلك. روى ابن أبي حاتم بسنده عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار [والصحابه عدول] قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعدك ولدًا، وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي، فقال: «خيرًا»، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني، وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعده ولدًا، فما ترى؟ فقال لها: «ارجعي إلى بيتك». قال: فنزلت: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآية (١).

وروى ابن جرير بسنده عن عكرمة في قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾. قال: نزلت في أبي قيس بن الأسلت، خلف على أم عبيد الله ضمرة، وكانت تحت الأسلت أبيه، وفي الأسود بن خلف، وكان خلف على ابنة أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، وكانت عند أبيه خلف، وفي فاختة ابنة الأسود بن المطلب بن أسد كانت عند أمية بن خلف، فخلف عليها صفوان بن أمية، وفي منظور بن رباب، وكان خلف على مليكة ابنة خارجة، وكانت عند أبيه رباب بن سيار (٢).

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنها قال: كان أهل الجاهلية يجرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٦٨).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/٢١٧-٢١٨).

مِنَ النِّسَاءِ»، ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾^(١).

فحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرامة لهم وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها. وهذا أمر مجمع عليه. ولم يكتف الله سبحانه بالنهي عنه بل وصفه بأبشع الأوصاف فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فزاد ههنا: ﴿وَمَقْتًا﴾، أي بغضاً؛ فهو أمر كبير في نفسه، ويؤدّي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من يتزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو عليه الصلاة والسلام كالأب؛ بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه^(٢).

فسمّى الله تعالى هذا النكاح مقتاً، إذ هو ذا مقت يلحق فاعله، وكانت العرب تسمي الولد الذي يجيء من زوج الوالد: «المقتي»، وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٣)، أي بسئ الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله^(٤). ويظهر من الآية بشكل واضح أنه يحرم تحريماً باتاً - مع التفظيع والتبشيع - أن ينكح الأبناء ما نكح آباؤهم من النساء.

ويبدو لنا من حكمة هذا التحريم ثلاثة اعتبارات:

الأول أن امرأة الأب في مكانة الأم.

(١) جامع البيان، الطبري (٤/٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٦٨).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٣١).

والثاني أن لا يخلف الابن أباه، فيصبح في خياله ندأ له. وكثيراً ما يكره الزوج زوج امرأته فطرة وطبعاً، فيكره أباه ويمقتة، وقد أشرنا إلى هذا من قبل.

والثالث: أن لا تكون هناك شبهة الإرث لزوج الأب. الأمر الذي كان سائداً في الجاهلية وهو معنّى كرية يهبط بإنسانية المرأة والرجل سواء، وهما من نفس واحدة، ومهانة أحدهما مهانة الآخر بلا مرأء^(١).

ثم تذكر الآيات بقية من يحرم نكاحهنّ من النساء: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾. والحرمة نوعان: حرمة مؤبدة، وحرمة غير مؤبدة.

النوع الأول: الحرمة المؤبدة ؛ فالحرمة المؤبدة ثلاثة أقسام: المحرمات بسبب النسب، والمحرمات بسبب الرضاع، والمحرمات بسبب المصاهرة.

القسم الأول: المحرمات بسبب النسب سبع:

١- يحرم على الرجل أصوله مهما علوا؛ فيحرم عليه التزوج من أمه وجداته من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علون، لقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾، والأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم الدنيا، وأمهاتها وجداتها، وأم الأب وجداته وإن علون.

٢- ويحرم على الرجل نكاح فروعهم مهما نزلوا، فيحرم عليه التزوج ببناته، وبنات أولاده ذكورهم وإناتهم مهما نزلوا، قال تعالى: ﴿ وَبَنَاتُكُمْ ﴾. والبنت اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات ؛ فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها، وبنات الأبناء وإن نزلن^(٢).

٣- ويحرم على الرجل فروع أبويه مهما نزلوا ؛ فيحرم على الرجل الزواج من أخته، والأخت

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/٢٦٩-٢٧٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/١٠٨).

كل من جمعه وإياها صلب أو بطن، فيدخل في ذلك الأخت الشقيقة، والأخت لأب والأخت لأم، قال تعالى: ﴿وَأَخَوَاتِكُمْ﴾.

٤- وقولنا فروع أبويه يدخل فيه أولاد الإخوة مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾.

٥- ويدخل في فروع الأبوين أولاد الأخوات مهما نزلوا، لقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾.

٦- الفروع المباشرة فقط لأجداد الرجل، ولا يحرم عليه فروعهم غير المباشرة للأجداد، فيحل الزواج بهم؛ ولذلك يباح الزواج بين أولاد الأعمام والعلمات، وأولاد الأخوال والخالات.

ويحرم على الرجل الزواج من عمته أخت أبيه، وكذلك عمه أبيه، وعمه أمه، وكذلك عمه العمه، لقوله تعالى: ﴿وَعَمَّتُكُمْ﴾.

٧- ويحرم على الرجل الزواج من خالته، والخالة أخت الأم، قال تعالى: ﴿وَوَخَلَاتُكُمْ﴾ وكذلك يحرم عليه خالة أبيه، وخالة أمه. وأما خالة العمه؛ فينظر، فإن كانت العمه أخت أب لأم، أو لأب وأم، فلا تحل خالتها؛ لأنها أخت الجدة. وإن كانت العمه إنها هي أخت أب لأب فقط، فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحل للرجال، ويجمع بينها وبين النساء^(١). فالأخت لأب فقط هي عمه من جهة الأب، وخالتها لا صلة قرابة بها لا من جهة الأم ولا من جهة الأب، وليست أخت جد ولا أخت جدة.

قال السمعاني: « الخالة أخت كل امرأة تنسب إليها بالولادة، قربت أم بعدت »^(٢). وكذلك عمه الخالة، ينظر فإن كانت الخالة أخت أم لأب فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها^(٣).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٣١/٢).

(٢) تفسير السمعاني (٤١١/١).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٣٢/٢).

والقسم الثاني: المحرمات بسبب الرضاع: نصت الآية على صنفين من المحرمات بسبب الرضاع في قوله سبحانه: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَعَةِ﴾ وألحقت السنة ببيانها إنزال الرضاعة منزلة النسب، ألا ترى أن الله سَمَّى المرضعة أمًّا للرضيع والتي رضعت معه أختاً^(١). قال النبي ﷺ: «إن الرضاعة تُحَرِّمُ ما يُحَرِّمُ من الولادة»^(٢). فالأب من الرضاعة أب، وأخوه عم. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن أفلح أخا أبي القعيس جاء يستأذن عليها وهو عمها من الرضاعة بعد أن نزل الحجاب، فأبيت أن آذن له، فلما جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعتُ، فأمرني أن آذن له^(٣). وكان أبو القعيس زوج المرأة التي أرضعت عائشة رضي الله عنها^(٤).

وقالوا: تحريم الرضاع كتحرим النسب إلا في مسألتين:

إحدهما: أنه لا يجوز أن يتزوج أخت ابنه من النسب، ويجوز أن يتزوج أخت ابنه من الرضاع؛ لأن المانع في النسب وطؤه لأمها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع.

والثانية: أنه لا يجوز أن يتزوج أم أخيه من النسب، ويجوز في الرضاع (فيما لو أرضعتها أخرى)؛ لأن المانع في النسب وطء الأب إياها، وهذا المعنى غير موجود في الرضاع^(٥).

والقسم الثالث: التحريم بالمصاهرة أربع:

١- أصول الزوجة مهما علون، فيحرم على الرجل الزواج بأُم زوجته، وجدات زوجته من جهة أبيها، أو من جهة أمها مهما علون. وتتحقق الحرمة بمجرد العقد على المرأة، دخل بها أو لم يدخل، لقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾.

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/٦٠).

(٢) رواه البخاري عن عائشة، برقم (٢٦٤٦)، ومسلم (١٤٤٤).

(٣) رواه البخاري (٥١٠٣، ٢٦٤٤)، ومسلم (١٤٤٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/١١١).

(٥) الكشاف، الزمخشري (١/٥٢٦).

٢- فروع الزوجة مهما نزلن، فيحرم على الرجل الزواج ببنت زوجته، وبنات أولادها؛ ذكوراً كانوا أم إناثاً، ويشترط في هذا التحريم الدخول بالزوجة حتى تحرم البنت، لقوله تعالى: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾. والربيبة: بنت الزوجة من زوج آخر، سميت بذلك لأنه يربيها في حجره، فهي مربوبته، وربيبة « فعيلة » بمعنى « مفعولة ». والقيد في قوله تعالى: ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ لا مفهوم له؛ لأن الأغلب أن بنت المرأة تعيش مع أمها في بيت زوج أمها، فالقيد خرج مخرج الغالب وتقرير الواقع، وهي محرمة وإن كانت في غير الحجر^(١).

٣- زوجات الأب والأجداد من الجهتين مهما علوا، فيحرم على الرجل الزواج بزوجة أبيه وزوجة أحد أجداده من جهة أبيه أو من جهة أمه مهما علوا، لما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية.

٤- زوجات الأبناء وأبناء الأولاد مهما نزلوا، فيحرم على الرجل التزوج بزوجة ابنه من صلبه، وامرأة ابن ابنه، أو ابن ابنته وإن نزلوا، لقوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾. والتخصيص بالأولاد الذين من الأصلاب ليخرج عنه كل من كانت العرب تبناه ممن ليس للصلب. ولما تزوج النبي ﷺ امرأة زيد بن حارثة قال المشركون: تزوج امرأة ابنه، وقد أمره الله بهذا الزواج ليبطل عادات الجاهلية عملياً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَرْعَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وتحرم زوجة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: «إن الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة»^(٢).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل. رواه البخاري (٢٦٤٦)، ومسلم. وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٣٢-٣٣)، =

النوع الثاني من تحريم نكاح النساء: الحرمة غير المؤبدة؛ وهذه الحرمة لسبب، فإذا زال السبب جاز الزواج من هذه المرأة.

١- تحريم أخت الزوجة ما دامت زوجته على قيد الحياة وفي عصمته. فإذا توفيت زوجته أو طلقها وانقضت عدتها جاز له أن يتزوج أختها؛ لأنه قد زال سبب الحرمة، وهو الجمع بينها وبين أختها، لقوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**، وعن فيروز الديلمي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني أسلمت وتحتي أختان، فقال رسول الله ﷺ: «اختر أيتها شئت»^(١). وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يجل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطاء، كما لا يجل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم» إلى آخر الآية، أن النكاح في هؤلاء وملك اليمين سواء. وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والربائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهو الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها^(٢).

٢- وألحقت السنة التي وردت بطرق كثيرة اعتبرها البعض متواترة تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، وبين المرأة وابنة أخيها، والمرأة وابنة أختها، لقوله ﷺ: «لا يُجْمَع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها»^(٣). وعند الترمذي: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو العمة على ابنة أخيها، أو المرأة على خالتها، أو الخالة على بنت أختها

= وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٠-٤٧٢).

(١) الترمذي (١١٢٩). وقال الترمذي: حديث حسن، ورواه ابن ماجة أيضاً بإسناد آخر (١٩٥٠) بلفظ: «إذا رجعت فطلق إحداهما»، وأبو داود بمثل رواية الترمذي (٢٢٤٣)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٤٧٣).

(٣) البخاري (٥١٠٩، ٥١١١) بلفظ: «لا يجمع»، ولفظ: نهى رسول الله ﷺ، ومسلم (١٤٠٨)، وغيرهما.

ولا تنكح الصغرى على الكبرى، ولا الكبرى على الصغرى»^(١). وروي عن الشعبي أنه قال: كل امرأتين إذا جعلت موضع إحداهما ذكراً لم يجز له أن يتزوج الأخرى، فالجمع بينهما باطل، فقيل له: عمّن هذا؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال سفيان الثوري: تفسيره عندنا أن يكون من النسب، ولا يكون بمنزلة امرأة وابنة زوجها يجمع بينهما إن شاء.

وقد ورد في بعض الأخبار التنبيه على العلة في منع الجمع بين ما ذكر، وذلك ما يفضي إليه الجمع من قطع الأرحام القريبة، مما يقع بين الضرائر من الشنآن والشور بسبب الغيرة فروى ابن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمّة أو على الخالة وقال: إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم^(٢).

٣- النساء المتزوجات: لأنهن في عصمة رجال آخرين، فلا يجوز الزواج من امرأة متزوجة، ولا معتدة عدة طلاق أو وفاة، لأنها في حكم المتزوجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، فعطف المحصنات على المحرمات، والمحصنة هنا المتزوجة، وأصله من الحصن، وتحصن إذا اتخذ الحصن مسكناً، ثم يتجاوز به في كل تحرز، ومنه درع حصينة لكونها حصناً للبدن. وامرأة حصان وحصان، ويقال: حصان للعفيفة ولذات حرمة. ويقال: امرأة محصن ومحصن، فالمحصن يقال إذا نُصِرَ حِصْنُهَا مِنْ نَفْسِهَا، والمحصن يقال إذا نُصِرَ حِصْنُهَا مِنْ غَيْرِهَا. فقوله سبحانه: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بعد قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ المزوجات، بفتح الصاد لا غير، لأن اللواتي حرم الزواج بهن المزوجات، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر؛ لأن العفيفات غير محرمات^(٣).

وعلى هذا فمعاني «الإحصان» في الشريعة الإسلامية أربعة:

١- العفة: قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾

(١) سنن الترمذي (١١٢٦)، وأبو داود (٢٠٦٥)، ومسند أحمد (٩٢١٦).

(٢) انظر القرطبي (١٢٦/٥).

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ١٢١.

[المائدة: ٥]، بمعنى العفيفات من المؤمنات والعفيفات من الكتابيات. وقال: ﴿وَأَلَّتِي أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، أي أعتته. وقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ﴾ [المائدة: ٥].

٢- الحرية: قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْتَ بِفَرْجَتِهَا فَعَلَّيْنِ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، أي عقوبة الأمة المملوكة نصف عقوبة الحرة. وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي الحرائر.

٣- التزوج: قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، أي المتزوجات^(١).

٤- الإسلام: من ذلك قوله: ﴿فَإِذَا أَحْصَنْتَ﴾ قيل في تفسيره: إذا أسلمن^(٢).

والوجوه الأربعة مشتركة في المعنى الأصلي اللغوي، وهو المنع. فالحرية سبب لتحسين الإنسان من نفاذ حكم الغير فيه، والعفة أيضاً مانعة للإنسان عن الشروع فيما لا ينبغي، وكذلك الإسلام مانع من كثير مما تدعو إليه النفس والشهوة، والزواج أيضاً مانع للزوجة من كثير من الأمور، والزوجة مانعة للزوج من الوقوع في الزنا^(٣).

واستثنى الله سبحانه المسيبات في القتال مع المشركين، فإنها وإن كان لها زوج من الكفار قبل السبي، فإذا ملكها المسلم بعد السبي استبرأ رحمها بحيضة ثم غشيها إن شاء. وسبب نزول الآية ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أصبنا سبياً من سبي أوطاس وهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن وهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال: فاستحللنا فروجهن^(٤).

(١) انظر المحرر الوجيز (٢/٣٤).

(٢) انظر التفسير الكبير، الرازي (٣/١٨٩).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٣/١٨٩-١٩٠).

(٤) مسند أحمد (١١٢٩٤، ١١٣٨٨)، وبنحوه عند مسلم (١٤٥٦)، وبمثل رواية مسلم عند النسائي وأبي داود.

ويدل على الاستبراء بحيضة قول النبي ﷺ في سبي أوطاس: « لا يقع على حامل حتى تضع، وغير حامل حتى تحيض حيضة »^(١).

وقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾، أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، وقوله: ﴿ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾، أي ما عدا من ذكركم من المحارم من لكم حلال. على أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات ما شئتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾، أي متعافين عن الزنا غير زانين^(٢). وفي قوله تعالى: ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ دليل على وجوب المهر دون بيان قلة أو كثرة. ويؤكد الله سبحانه حق المرأة بالمهر بعد الدخول فيقول: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾، وهذا نص على أن المهر يُسمى أجراً؛ لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجراً، فالزوج لا يملك زوجته بالمهر، إنما المعقود عليه في النكاح منفعة البضع وحل التمتع بيد المرأة^(٣). وأشار الله سبحانه إلى جواز ما يترضى به الزوجان من حط أو تأخير بعد استقرار الفريضة، فقال سبحانه: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾، وناسب ختم الآية بذكر الوصفين العلم والحكمة بعد شرع المحرمات: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٤).

وليس المراد بقوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ نكاح المتعة. وما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان يجلها للضرورة فقد رجع عن ذلك. روى

(١) رواه أحمد (١٠٨٤٤) عن أبي سعيد الخدري، ورواه أبو داود في النكاح (٢١٥٧)، والدارمي (٢٢٩٥).

(٢) ابن كثير (٤٧٣/١-٤٧٤). والسفاح: الزنا، وهو مأخوذ من سفح الماء، أي صبه وسيلانه. المحرر الوجيز، ابن عطية (٣٦/٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢٩/٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٧٥/١)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٣٦/٢)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٥٥/٢).

الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يُقدّم البلدة ليس له بها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه يقيم، فتحفظ له متاعه وتصلح له شيبته، حتى إذا نزلت الآية: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦] قال ابن عباس: «فكل فرج سوى هذين فهو حرام»^(١). وقال الخطابي: تحريم المتعة كالإجماع، إلا عن بعض الشيعة، ولا يصح في الرجوع في المخالفات إلى علي وآل بيته، فقد صح أنها نسخت. ونقل البيهقي عن جعفر بن محمد أنه سئل عن المتعة فقال: «هي الزنا بعينه»^(٢).

ثم إن الأحاديث الشريفة جاءت مصرحة بتحريم المتعة، منها ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية^(٣). وجاء النص على التحريم الأبدي عند مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس؛ إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهن شيء فليخلّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً»^(٤).

وقال ابن الجوزي في تفسيره: «وقد تكلف قوم من المفسرين فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه؛ لأن النبي ﷺ أجاز المتعة ثم منع منها، فكان قوله منسوخاً بقوله (يعني بالسنة). وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة، وإنما المراد بها الاستمتاع في النكاح، لأنه تعالى قال فيها: ﴿أَنْ

(١) سنن الترمذي (١١٢٢).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٤٤٦/١١)، وقال ابن حجر في فتح الباري أيضاً: وقد روي عن ابن عباس روايات عديدة في الرجوع عن فتواه - أي في حل المتعة للضرورة - يقوي بعضها بعضاً.

(٣) البخاري (٤٢١٦)، وفي رواية أن علياً قال لابن عباس: نهى رسول الله ﷺ... الحديث. ورواه مسلم (١٤٠٧)، وأخرج الرواية الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد والدارمي.

(٤) مسلم (١٤٠٦)، وابن ماجه (١٩٦٢)، وسنن الدارمي (٢١٩٥).

تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْتَصِينَ عَيْرَ مُسْتَفْحِينَ ﴿١٩﴾، فدل ذلك على النكاح الصحيح ^(١).

ثم إن القاعدة الأولى في المجتمع الإسلامي تقوم على قاعدة الأسرة، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط في الأنساب.

والأسرة القائمة على الزواج العلني الذي تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه، ويتم به الإحصان - وهو الحفظ والصيانة - هي أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجته الحقيقية والناشئة من كونه إنساناً، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية - وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثناياها - ويحقق أهداف المجتمع الإنساني، كما يضمن لهذا المجتمع سلم الضمير، وسلم البيت، وسلم المجتمع في نهاية المطاف.

والملاحظ بصفة ظاهرة أن الطفل الإنساني يحتاج إلى رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر. كما أن التربية التي يحتاج إليها ليصبح قادراً على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المتقدمة - التي يتميز بها الإنسان - تمتد إلى فترة طويلة أخرى.

وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والتكاثر، فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف، إنما هي تمتد إلى هدف أبعد، هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى - بين الرجل والمرأة - ليتم إعداد الطفل الإنساني لحماية نفسه وحفظ حياته، وجلب طعامه وضرورياته، كما يتم - وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية - تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني، والمشاركة في حمل تبعته من اطراد الترقى الإنساني عن طريق الأجيال المتتابعة.

ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان؛ إنما هي مجرد وسيلة ركبتها الفطرة الربانية فيها ليتم الالتقاء بينهما، ويطول بعد الالتقاء الجنسي للقيام

(١) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢/٥٣، ٥٤).

بواجب المشاركة في اطراد نمو النوع. ولم يعد الهوى الشخصي هو الحكم في بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى، إنما الحكم هو واجب النسل الضعيف الذي يجيء ثمرة للالتقاء بينهما وواجب المجتمع الإنساني الذي يحتم عليها تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح معه قادراً على النهوض بالتبعة الإنسانية، وتحقيق غاية الوجود الإنساني.

وكل هذه الاعتبارات تجعل الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة، هو النظام الوحيد الصحيح. كما تجعل تخصيص امرأة لرجل هو الوضع الصحيح الذي تستمر معه هذه العلاقة والذي يجعل «الواجب» لا مجرد اللذة ولا مجرد الهوى هو الحكم في قيامها، ثم في استمرارها ثم في معالجة كل مشكلة تقع في أثنائها، ثم عند فصم عقدها عند الضرورة القصوى^(١).

ومن حكم تحريم النساء أن الله جل ثناؤه جعل بين الناس ضرباً من الصلة يتراحمون بها ويتعاونون على جلب المنافع ودفع المضار، وأقوى هذه الصلات صلة القرابة، واقتضت طبيعة الوجود والتكاثر تكوين الأسرة، والأسرة محتاجة إلى الاختلاط بين أفرادها بسبب صلة النسب وبعض القرابة المتفرعة عن النسب، فلو أبيض الزواج من المحارم لتطلعت النفوس إليهن وكان فيهن مطمع، والنفوس بطبعها مجبولة على الغيرة، فيغار الرجل من ابنه على أمه وأخته، وذلك يدعو إلى النفرة الشديدة، والإيذاء من الأقارب أشد إيلاماً، أما إذا حصلت المحرمية انقطعت الأطماع، وانجست الشهوة، فلا يحصل ذلك الضرر^(٢).

ثم إن هناك حكمة وراثية حيوية، وهي أن تزوج الأقارب بعضهم ببعض يكون سبباً لضعف النسل، حيث يخلق الولد ضاويماً (أي نحيفاً) لتجمع العلل الوراثية فيه، حيث تتركز استعدادات الضعف الوراثية وتتأصل في الذرية، على عكس ما إذا تركت الفرصة للتلقيح الدائم بدماء أجنبية جديدة (أي من خارج الأقارب) تضاف استعداداتها الممتازة، فتجدد حيوية الأجيال واستعداداتها. وأشار الإمام الغزالي إلى ذلك وعلمه بأن الشهوة إنما تنبعث بقوة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٠-١١).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٣/١٨٠-١٨١).

الإحساس بالنظر أو اللمس، وإنما يقوى الإحساس بالأمر الغريب الجديد، فأما المعهود فإنه يضعف الحس ولا تنبعث به الشهوة^(١).

الفقرة الثالثة من المقطع: نكاح الإماء:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفَحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْكَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

بمناسبة الحديث عن ما يحل وما يحرم من النساء يبين الله سبحانه حكم تزوج الحر من الأمة؛ فهو جائز بشروط:

الشرط الأول: عدم القدرة على نكاح الحرة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾. والطول هنا: السعة والقدرة. والمحصنات: الحرائر العفيفات، يدل عليه التقسيم بينهن وبين الإماء في قوله: ﴿ مِنْ فَيِّئَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾^(٢).

ويلاحظ هنا تكريم الإسلام للمرأة ولو كانت في الرق، فأطلق عليها اسم فتاة، والإسلام لا يفرق بين الأحرار وغير الأحرار تفرقة عنصرية تتناول الأصل الإنساني - كما كانت الاعتقادات والاعتبارات السائدة في الأرض كلها يومذاك - إنما يذكر بالأصل الواحد، ويجعل الأسرة الإنسانية والأسرة الإيمانية هما محور الارتباط، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/٤١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/١٣٩)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٢/٣٧).

مِنْ بَعْضٍ ﴿^(١)﴾.

الشرط الثاني: الإيمان ؛ فلا يجوز نكاح الأمة الكتابية في قول الجمهور، لقوله تعالى: ﴿مَنْ فَتِنَتْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فشرط سبحانه الإيمان في الأمة لئلا تجتمع علتان الكفر والرق. وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَأُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فإننا ذلك لبيان فضل الإيمان. وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾، فاعملوا على ظاهركم في الإيمان، فإنكم متعبدون بما ظهر من بعضكم لبعض، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ في النسب، فكلكم لآدم. ويجوز أن يكون معناه: دينكم واحد، وذكر الإيمان هنا لأن العرب كانت تطعن في الأنساب وتفخر بالأحساب، وتسمي ابن الأمة الهجين، فأعلم الله عز وجل أن أمر العبيد وغيرهم مستوٍ في باب الإيمان.

وإنما كره التزويج بالأمة، وحرّم إذا وجد إلى الحرة سبيلاً ؛ لأن أولاد الأمة من الحر يصيرون رقيقاً، ولأن الأمة ممتحنة في عشرة الرجال، وذلك يشق على الزوج ^(٢).

الشرط الثالث: أن يكون الزواج بإذن السيد، فهو الولي، ولا يصح نكاحها إلا بإذنه لقوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

ويلاحظ أيضاً التكريم الإنساني للإماء، فقد أطلق على الأسياد اسم الأهل، وليس هذا في جاهلية قديمة أو حديثه ^(٣).

الشرط الرابع: المهر، لقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أي وادفعوا مهرهن بالمعروف عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥ / ٢١).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢ / ٥٦-٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥ / ٢١).

الشرط الخامس: العفة الظاهرة، لقوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾. والمسافحات: الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة، و﴿مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي هن أخلاء، والخذن الخليل الواحد المقرّ به، فقد نهى الله عن التزوج بالأمة ما دامت كذلك^(١). وكان أهل الجاهلية يجرمون ما ظهر من الزنى ويستحلون ما خفي^(٢). فنهى عن المسافحات المعلّقات بالزنى، وعن المتخذات أخدان، ذات الخليل الواحد، فربما كانت المرأة تتخذ صديقاً تزني معه ولا تزني مع غيره^(٣).

والشرط السادس والأخير: خوف الوقوع في الزنا. أي إنها يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع بالزنا وشق عليه الصبر عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾، والعنت: الزنا في أصح الأقوال^(٤).

وعلى هذا فشرط التزوج بالأمة في حق من يريد الزواج اثنان:

الأول عدم طول الحرة، والثاني خوف الوقوع في الزنا. وبقية الشروط؛ من العفة، وإذن الولي، والمهر، والإيوان، فهي شروط لصحة النكاح وجوازه؛ منها في الأمة، ومنها حق للأمة كالمهر.

ثم ندب الله إلى الصبر عن مثل هذا النكاح لاسترقاق الأولاد، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن فعل وتزوج بهذه الشروط^(٥).

وبمناسبة الحديث عن العفة يبين الله حد الأمة إذا زنت فيقول: ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾، أي تزوجن، ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾، والفاحشة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٧٥).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/٥٧).

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/٥٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٧٨).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي (٢/٣٩).

هنا الزنا، بقريته إلزام الحد، و﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ هنا الحرائر، إذ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف فليس مراداً في الآية بإجماع، والمراد عند الجمهور نصف المائة، فحدها خمسون جلدة^(١).

ويلاحظ أن الإسلام لم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سبباً في مضاعفة العقوبة كما كانت قوانين الجاهلية السائدة في الأرض كلها تصنع مع الطبقات المنحطة والطبقات الراقية أو مع الوضعاء والأشراف؛ تخفف عن الأشراف، وتقسوا على الضعفاء. وكان اليهود إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد^(٢).

وجاء الإسلام ليضع الحق في نصابه، وليأخذ الجاني بالعقوبة مراعيّاً جميع اعتبارات «الواقع»، وليجعل حد الأمة - بعد الإحصان - نصف حد الحرة قبل الإحصان، فلا يترخص فيعفيها من العقوبة، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف، ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة، وواقعها يختلف عن واقع الحرة^(٣).

الفقرة الرابعة والأخيرة من المقطع: تعقيب وتحذير من اتباع الشهوات:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُقِيمُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴿٦٢﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٦٣﴾﴾.

يجيء التعقيب الشامل على تلك الأحكام والتنظييات التي شرعها الله للأسرة في المنهج

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٣٩).

(٢) انظر حديث البخاري (٣٤٧٥)، وفيه: «والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، ومسلم (١٦٨٨)، وغيرهما.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢٣-٢٤).

الرباني الحكيم، فيخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرّم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها - وما ورد من الأحكام في الآيات الأخيرة من باب أولى - ﴿ وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾، يعني طرائقهم الحميدة، واتباع شرائعهم التي يجبها ويرضاها^(١)، وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم حسب علم الله بمصالح السابقين واللاحقين من الأمم^(٢).

فهذا المنهج هو منهج الله سنّه للمؤمنين جميعاً. وهو منهج ثابت في أصوله، موحد في مبادئه، مطّرد في غاياته وأهدافه. هو منهج العصبة المؤمنة من قبل ومن بعد، ومنهج الأمة الواحدة التي يجمعها موكب الإيثار على مدار القرون.

بذلك يجمع الله بين المهتدين إلى الله في كل زمان ومكان، ويكشف عن وحدة منهج الله في كل زمان ومكان، ويربط بين الجماعة المسلمة والموكب الإيثارى الموصول في الطريق الرباني المستمر الطويل. وهي لفظة تشعر المسلم بحقيقة أصله ومنهجه وطريقه^(٣).

﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ من الإثم والمحارم، وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات وتوفيقه له. ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بحسب ما تقدم من سنن الشرائع وموقف المصالح، و﴿ حَكِيمٌ ﴾؛ مصيب بالأمر واقعها بحسب الحكمة والإتقان.

وكرر سبحانه إرادته التوبة على عباده فقال: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن الذين يتبعون الشهوات، تحذيراً منهم، فقدّمت إرادة الله توطئة مظهره لفساد إرادة متبوعي الشهوات^(٤).

وكل عاقل يعلم أن الميل عن الحق إلى الشهوات الجنسية مفسد للمجتمع، ومفسد للنسل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٧٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٤٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢٥).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٤٠).

كما يسبب العقد النفسية والأمراض الجنسية الخطيرة.

وأتباع الشهوات الذين يريدون أن يميل المؤمنون عن الحق هم أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة وغيرهم ممن أشربت قلوبهم حب الباطل من أهل النفاق والفساد^(١).

واللمسة الأخيرة في هذا التعقيب تبين رحمة الله بضعف الإنسان فيما شرع له الله من منهج وأحكام، وقد خفف الله عنه وهو يعلم ضعفه، فراعى اليسر فيما يشع له، ونفى الحرج والمشقة والضرر، مع تحقيق الخير والسعادة في هذا التشريع المثالي الواقعي:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (٢٨)

والظاهر من هذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى بإباحة نكاح الإماء عند العنت والمشقة وخوف الوقوع في الزنا. قال طاووس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

وتخرج الآية في عمومها مخرج التفصيل؛ لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى على عباده وجعله الدين يسراً يحقق الله فيه للفرد المسلم وللمجتمع الإسلامي كل خير، ويُبعد عنه كل شر وضرر. ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً، حسباً هو في نفسه ضعيف، يستميله هواه في الأغلب^(٢). ومع الإيمان والتحرر من العبودية لغير الله؛ من الأهواء والشهوات، ثم مع العقل القويم الراجح للمؤمن الذي يبصر الحق بهداية الله ونوره يقوى الإنسان على الأهواء والشهوات، ويسير في طريق الخير الذي رسمه له مولاه سبحانه، وهنا يظهر دور العبادة المخلصة في كسر حدة الشهوة، وإعانة الإنسان على الصبر عن المحرمات، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٧٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٤١).

(٣) صحيح البخاري (٥٠٦٥)، وفي رواية: «فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج...»، ومسلم (١٤٠٠).

وأخيراً فالصلة واضحة بين محور السورة (التوحيد الصحيح ومقوماته) وهذا المقطع حيث يظهر فيه مقومات التوحيد في طاعة الله وحده فيما شرع من أحكام، ومنها هذه الأحكام التي ربطها سبحانه بإرادته وحكمه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقيدية: ربط الأحكام الشرعية بإرادة الله وحكمه وحكمته بالفقرة الأخيرة من المقطع: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: ما يحل ويحرم في قضايا نسائية؛ من حرمة إرث المرأة وجعلها كالمناج والمحرمان من النساء...

وما أحل بعد المحارم.

وحل زواج الأمة في حالة تعذر طول الحرة.

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: توسيع دائرة الأسرة بالمحرمات، وإبعاد القرابة القريبة عن الغرائز البهيمية تكريماً للقرابة، وتحقيقاً للفطرة الإنسانية، وتيسيراً على الأقارب في الاختلاط الذي يحتاجون إليه ضمن خلق إنساني كريم.

د- وتربوياً: فإن الإسلام يربي أتباعه على صيانة كرامة المرأة واستقلالها الذاتي، واحترامها وتكريمها أمّاً وبتناً وأختاً وعمّة وخالة وزوجة أب... وفي كل حالاتها الاجتماعية^(١).

(١) راجع الفئات الصحية والعقلية والاجتماعية الناجمة عن اتباع الشهوات في الظلال، سيد قطب (٥/٢٨-٣٥).

المقطع الثالث: حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة (٢٩-٤٣):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً
عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا
وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ
عَنْهُ نَكَفَرْ عَنْكُمْ سَعِيَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ
بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَلُوا اللَّهَ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ
وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ
أَمْوَالِهِمْ فَالضَّالِحَاتُ قَنِينَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْلِ نَحَافُونَ نُسُورَهُنَّ
فِعْظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا
مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾ * وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا
شُرَكَاءَ بِهِ سَعِيًّا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا
ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؕ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَكُمْ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا
عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ
أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ
نُؤَيِّبُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ

حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

صلة المقطع بسابقه :

يتصل هذا المقطع بسابقة في التصرفات السلوكية والمالية ؛ وذلك أن الله تعالى لما شرح كيفية التصرف في النفوس بسبب النكاح، ذكر بعده كيفية التصرف في الأموال. وبما أنه ذكر ابتغاء النكاح بالأموال، وأمر بإيفاء المهور، وأحكام الموارث التي تقدمت تتعلق بالأموال، فبين بعد ذلك كيف يحصل التصرف بالأموال فقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾^(١).

المعنى الإجمالي :

والخطاب بهذه الآية للمؤمنين جميعاً، ينهى الله تبارك وتعالى عباده عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل^(٢). وقد سبق في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٣) [١٨٨]، أي لا يأكل بعضهم مال بعض بغير حق، فيدخل فيه جميع أنواع المكاسب التي حرمتها الشريعة، كأنواع الربا، والقمار، والخذاع، والغصب، وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكة، أو حرمة الشريعة، وإن طابت به نفس مالكة، كمهر البغي، وحلوان الكاهن وأثمان الخمر والخنازير، وغير ذلك^(٤).

ثم بين الله عز وجل طريق الحلّ في التعامل، وهو طريق التبادل القائم على الرضا من

(١) التفسير الكبير، الرازي (٣/ ٢٠٥).

(٢) والباطل في اللغة : الذاهب الزائل، يقال : بَطَلُ يَبْطُلُ بَطُولًا وَيَبْطُلَانًا، وأبطل فلان إذا جاء بالباطل، وقوله : ﴿ ويمح الله الباطل ﴾ يعني الشرك. والبطلة : السخرة. تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢/ ٢٣٨).

البائع والمشتري، ضمن ما أباحه الله وشرعه؛ ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾. ثم نهانا جل جلاله أن نقتل أنفسنا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾، وذلك بأن يقتل بعضنا بعضاً، أو يقتل الواحد منا نفسه، أو لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب محارم الله، وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه. وفي قتل المؤمن غيره قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١، والإسراء: ٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾ [النساء: ٩٢، ٩٣]، وقال رسول الله ﷺ: « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن تحسّى سماً فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً»^(١).

وأكل أموال الناس بالباطل قتل للمصالح الاجتماعية والاقتصادية في الجماعة الإسلامية وهو أشبه بقتل نفوسها؛ فما تروج وسائل أكل الأموال بالباطل في جماعة: بالربا، والغش والقمار والاحتكار، والتدليس، والاختلاس، والاحتيال، والرشوة والسرقه، وبيع ما ليس يباع: كالعرض، والذمة، والضمير، والدين، والخلق! -مهما تعج به الجاهليات القديمة والحديثة سواء- ما تروج هذه الوسائل في جماعة، إلا وقد كتب عليها أن تقتل نفسها، وتتردى هاوية في الدمار!

والله يريد أن يرحم الذين آمنوا من هذه المقتلة المدمرة للحياة الفردية والاجتماعية، المردية للنفوس.

ويلى ذلك التهديد بعذاب الآخرة، تهديد الذين يأكلون الأموال بينهم بالباطل، معتدين ظالمين^(٢).

(١) البخاري (٥٧٧٨)، مسلم (١٠٩)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٧٩/١-٤٨٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٣٨/٥).

﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٣٠) أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه ؛ بأن كان عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه (١)، فالعدوان: الإفراط في التجاوز عن الحد، والظلم: ظلم النفس بتعريضها للعقاب. ورجح الطبري رحمه الله أن الإشارة في قوله: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا ﴾ إلى المذكور، بأن يقال: معناه ومن يفعل ما حرم الله عليه من قوله: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾، لأن ذلك كله لم يرد بعده وعيد، وورد وعيد قبله (٢). ﴿ فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا ﴾، أي ندخله إياها ونحرقه بها، والجملة جواب الشرط ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾. وكان ذلك الإحراق بالنار يوم القيامة. ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ هيناً، لا يمنعه منه مانع، ولا يدفع عنه دافع، ولا يشفع فيه إلا بإذنه شافع (٣).

ويأتي اعتراض ناسب ذكره بعد ذكر ذنبين كبيرين، وهما: قتل النفس وأكل المال بالباطل. على عادة القرآن في التفتن من أسلوب إلى أسلوب، وفي انتهاز الفرص في إلقاء التشريع عقب المواعظ وعكسه (٤).

﴿ إِنْ جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (٣١)، وهذه الآية قاعدة رسمها الله سبحانه لنا، وهي أننا إذا اجتنبنا الكبائر غفر الله لنا الصغائر، وأدخلنا باجتنب الكبائر جنته.

وسمع صهيب أبا هريرة وأبا سعيد الخدري -رضى الله عنهم جميعاً- يقولان: خطبنا رسول الله يوماً فقال: « والذي نفسي بيده » - ثلاث مرات - ثم أكب فأكب كل رجل منا بيكي لا ندري على ماذا حلف، ثم رفع رأسه في وجهه البشري، فكانت أحب إلينا من حمر النعم، ثم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٨٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٤/٢٤).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/٧٨).

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/٢٦).

قال: « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويحْتَنِبُ الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة، فقليل له: ادخل بسلام »^(١).

وقد ذكرت أحاديث كثيرة الكبائر، أو بالأحرى ذكرت بعضها، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٢). وذكر هذه السبع لا يعني الحصر، فالنص على هذه السبع لا ينفي ما عداهنَّ، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم، كما ورد من الأحاديث غير هذه السبع^(٣)، فقد روي في أحاديث أخرى غير هذه السبع، فقد سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»^(٤). وقال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر» - ثلاثاً - قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وجلس وكان متكئاً، فقال: «ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت^(٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أيّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: إن ذلك لعظيم! قلت: ثم أيُّ؟ قال: «وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك»، قلت: ثم أيُّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(٦).

(١) النسائي (٢٤٣٨)، وقال ابن كثير: ورواه الحاكم أيضاً، وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال به، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٧، ٦٨٥٧)، ومسلم (٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٨١).

(٤) البخاري (٢٦٥٣)، ومسلم (٨٨).

(٥) البخاري (٢٦٥٤).

(٦) البخاري (٤٤٧٧، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٧٥٢٠)، ومسلم (٨٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من الكبائر شتم الرجل والديه »، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: « نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه »^(١).

وقال ابن عباس وغيره: الكبائر كل ما ورد عليه وعيد بنار، أو عذاب، أو لعنة، أو ما أشبه ذلك. وقال رجل لابن عباس: أخبرني عن الكبائر السبع، فقال: هي إلى السبعين أقرب^(٢). وفي رواية عن ابن عباس أنه أجاب فقال: هن إلى سبعائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار^(٣). وهذا يعني أن الإصرار على الصغيرة كبيرة؛ لأن ذلك استهانة بأمر الله ونهيه.

وهذه الآية من آيات الرجاء، فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « خمس آيات من سورة النساء هي أحب إلي من الدنيا جميعاً، قوله: ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [٣١]، وقوله: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [٤٨]، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [١١٠]، وقوله أيضاً: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٤٠]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [١٥٢] »^(٤). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: « ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ

(١) مسلم (٩٠)، وعند البخاري: « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه؛ يسب... الحديث (٥٩٧٣)، والترمذي بنحو حديث مسلم (١٩٠٢).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٤٣-٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٨٦/١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٨٦/١).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٤٤/٢).

سُنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴿ [٢٦] ، ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٣٨﴾ ﴿ [٢٨] ، ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴿ [٣١] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿ [٤٨] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴿ [٤٠] ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴿ [١١٠] ، ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴿ [١٤٧] » ^(١).

وفي سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة تحييء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات:

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا آكَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا آكَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله؛ يغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ^(٢).

وقال قتادة: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان، فلما ورثوا وجعل للذكر مثل حظ الأنثيين تمنى النساء لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، وقال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فنزلت: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ . والتمني نوع من الإرادة يتعلق بالمستقبل. فنهى الله المؤمنين

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦١/٥-١٦٢).

(٢) سنن الترمذي (٣٠٢٢)، ومسند أحمد (٢٦١٩٦)، ورواه ابن جرير في تفسيره أيضاً عن مجاهد عن أم سلمة. جامع البيان (٣٠/٥)، وقال ابن كثير: ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير والحاكم في مستدركه. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٨٨/١).

عن التمني ؛ لأن فيه تعلق البال ونسيان الأجل^(١).

وفي هذه الآية نهي عن كل تمن لخلاف حكم شرعي، ويدخل فيه النهي أن يتمنى الرجل حال الآخرين من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه. وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحد حال رجل ينصبه في فكره، وإن لم يتمن زوال حاله. وهذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن.

وإذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرن أمنيته بشيء مما قدمناه فذلك جائز، وذلك موجود في حديث الرسول ﷺ: « وددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل »^(٢).

ومعنى الآية: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به لاختيار ترونيه أنتم ؛ فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الأجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له. حيث جعل لكل أحد مكاسب تختص به وتلائم فطرته التي فطره الله عليها، وتحقق مصلحة الجماعة ؛ فجعل الجهاد والإنفاق، وسعي المعيشة، وحمل التكاليف، كالأحكام والإمارة والحسبة، وغير ذلك للرجال وجعل الحمل ومشقته، وحسن التبعل، وحفظ غيب الزوج، وتدبير البيوت للنساء.

وفي تعليق النصيب بالاكْتساب حصّ على العمل، وتنبه على كسب الخير^(٣).

ولا تمنع الآية من تمنّي مثل ما عند الغير ؛ لأنه ليس تمنّ لما عنده مما فضله الله به، وهذا حسد الغبطة، وليس حسداً في حقيقته. قال النبي ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦٢/٥).

(٢) والحديث بتمامه: « أتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بها نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ، ثم أقتل، ثم أحيأ، ثم أقتل » أخرجه البخاري (٣٦، ٢٧٨٧، ٢٧٩٧)، ومسلم (١٨٧٦)، وغيرهما.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٤٤-٤٥).

«^(١). فالحديث حض على تمني مثل نعمة الغير، والآية تنهى عن تمني عين نعمة الغير. ثم أرشد الله عباده إلى ما يصلحهم فقال: ﴿ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾، فإنه سبحانه يجب أن يسأل ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾، فهو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقضيه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه^(٢).

وعلى هذا فلا وجود، ولا ظل للمعركة في المجتمع الإسلامي بين الجنسين، إنها يقوم الأمر على التنويع والتوزيع، والتكامل، والعدل بعد ذلك كامل في منهج الله. فلا معنى للتنافس على أعراض الدنيا، ولا طعم للحملة على المرأة أو الحملة على الرجل؛ ومحاولة النيل من أحدهما، وثلبه، وتتبع نقائصه! ولا مكان كذلك للظن بأن هذا التنوع في التكوين والخصائص لا مقابل له من التنوع في التكليف والوظائف، ولا آثار له في التنوع في الاختصاصات والمراكز. فكل ذلك عبث وسوء فهم للمنهج الإسلامي، ولحقيقة وظيفة الجنسين^(٣). ولذلك نرى المعارك محتمة في جاهلية الغرب، والمرأة هي الخاسرة، وإن صوروا لها أنها تتحرر، وليس هذا التحرر إلا انفلات من الوظائف الطبيعية التي خلقت المرأة لتحقيقها، وأضححت مستعبدة للرجل، لا ضمان لها في المجتمع، فلا تعيش إن لم تعمل، ويصل الرجل إلى ما يريد منها مالا وجنسا، ثم يتركها تتحمل مشقة الحمل والولادة، ثم الإنفاق على الأولاد في كثير من الأحيان.

وعدم تكليف المرأة بالقتال في شرع الله إلا حين الضرورة القصوى؛ لأن الحرب حين تحصد الرجال وتستبقي الإناث تدع للأمة مراكز إنتاج للذرية تعوض الفراغ، والأمر ليس كذلك حين تحصد النساء والرجال، أو النساء فقط؛ لأن المرأة لو عاشرها جمع من الرجال لا تلد إلا مولوداً واحداً أو توأماً، بينما لو تزوج الرجل أربع نسوة عند الحاجة لأنجبت كل منهن

(١) البخاري (٥٠٢٥، ٧٥٢٩)، ومسلم (٨١٥). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦٢/٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٨٨/١).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤٤/٥).

مولوداً أو توأمًا. وكذلك قاعدة: ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ في الميراث ؛ فالمرأة المسلمة مضمونة اجتماعياً ومالياً، فالزوج يجب عليه الإنفاق على زوجته وإن كانت غنية، والرجل يجب عليه الإنفاق على المرأة أما أو أختاً أو بنتاً إذا كانت محتاجة للنفقة. فهل من منهج في الجاهليات القديمة والحديثة كَرَمَ المرأة، وصانها، وأبعدها عن ذل الحاجة الذي قد تبذل فيه نفسها للرجل أو كرامتها - إن صانت نفسها فلم تستسلم لشهوات الرجل - لتكون موظفة في المراحيض العامة أو غير ذلك.

والآن يأتي ذكر التصرف في عقود الولاء التي سبقت أحكام الميراث في سياق الحديث عن الأموال وتداولها في الجماعة المسلمة:

﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتَوْهُم بِنِصَبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣ ﴾ [٣٣].

المولى: لفظ مشترك يطلق على وجوه ؛ فيسمى المعتق مولى، والمعتق مولى. ويقال: المولى الأسفل والأعلى أيضاً. ويسمى الناصر المولى، ومنه قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ ﴾ [محمد: ١١]، ويسمى ابن العم مولى، والجار مولى^(١). والموالي في الآية هنا الورثة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ ﴾ قال: الورثة، ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾، قال: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ ﴾ نَسَخَتْ، ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ ﴾ إلا النَّصْرَ والرِّفَادَةَ والنَّصِيحَةَ، وقد ذهب الميراث، ويوصي له^(٢).

والمعنى: ولكل أحد من الرجال والنساء ﴿ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ ﴾، أي ورثة أو عصبية يرثون.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦٦/٥-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري (٢٢٩٢، ٤٥٨٠).

﴿ وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « ألقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر »^(١). وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُم بِمَا نَاصِبُهُمْ ﴾ روى الطبري من طريق علي بن أبي طلحة [وهي طريق جيدة] عن ابن عباس قوله: ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُم بِمَا نَاصِبُهُمْ ﴾، فكان الرجل يعاقد الرجل أيها مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية، فهو لهم جائز من ثلث مال الميت^(٢).

فالأحلاف التي تحالفوا عليها في الجاهلية توفى لأصحابها في الإسلام بالوصية من الثلث بعد الإسلام، ولا حلف في الإسلام إلا على النصره وما أشبهها؛ وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ولا حلف في الإسلام، وأيها حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة »^(٣).

والآيتان التاليتان تضع قاعدة وضع الرجال والنساء في المجتمع المسلم، وتنظيم مؤسسة الأسرة، وضبط الأمور فيها، وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبطها، والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات، واجتناب عناصر التهديم فيها والتدمير، وقد ذكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لاسيما أحكام النساء:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ^(٤) عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ

(١) البخاري (٦٧٣٢، ٦٧٣٥، ٦٧٣٧)، ومسلم (١٦١٥).

(٢) جامع البيان، الطبري (٣٤/٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٣٠)، وأبو داود (٢٩٢٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٨٩-٤٩٠)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٤٦/٢).

(٤) القوام: الذي يقوم على شأن شيء ويصلحه. يقال: قوام وقيام وقيوم وقيم. وكلها مشتقة من القيام المجازي الذي هو مجاز مرسل، أو استعارة تمثيلية. تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/٣٨). وقال ابن عطية: قوام فعال بناء مبالغة، وهو من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه وحفظه بالاجتهاد (٤٧/٢).

أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَدِاحَتْ قَدِيدَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَاكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴿٣٥﴾

روى الطبري بسند جيد عن الحسن البصري أن رجلاً لطم امرأته فأتت النبي ﷺ، فأراد أن يقصها منه، فأنزل الله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، فدعاه النبي ﷺ فتلاها عليه، وقال: «أردت أمراً وأراد الله غيره»، وروى الطبري أيضاً بسند حسن^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، يعني أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة إلى أهله، حافظة لماله. وفضله عليها بنفقته وسعيه^(٢).

فشأن الرجال القيام على أمور النساء قيام الولاية على الرعية بالأمر والنهي والرعاية ونحو ذلك، واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة ﴿قَوَّامُونَ﴾ للإيدان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أسند إليهم. وفي الكلام إشارة إلى سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث في قوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، كما أن فيما تقدم رمزاً إلى تفاوت مراتب الاستحقاق الذي أشار إليه قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. وعلل سبحانه الحكم بأمرين: وهبي، وكسبي، فقال جل شأنه: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، فالباء للسببية، ﴿وَمَا﴾ مصدرية؛ أي قوامون عليهن بسبب تفضيل الله تعالى إياهم عليهن. والتعليل الكسبي قوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

ونستطيع أن نقول: إن التعريف في ﴿الرِّجَالُ﴾ ﴿النِّسَاءُ﴾ للاستغراق. وهو استغراق عرفي مبني على النظر إلى الحقيقة، كالتعريف في قول الناس: «الرجل أقوى من المرأة»، فقوله

(١) هو طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة.

(٢) جامع البيان، الطبري (٣٧/٥).

سبحانه ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أصل تشريعي كلي تتفرع عنه الأحكام التي في الآيات الأخرى، ولم يقل الله: الأزواج قوامون على أزواجهم، ليكون هذا الحكم في الأسرة فرعاً من الحكم العام، وداخلاً فيه دخولاً أولياً؛ ولذا خص الرجال بالرسالة والنبوة، وبالإمامة الكبرى والصغرى، وإقامة الشعائر كالأذان والإقامة، والخطبة والجمعة، والقتال، وبالنكاح عند الشافعية، وبالشهادة في أمهات القضايا، وزيادة السهم في الميراث والتعصيب، إلى غير ذلك^(١).

وخصت المرأة بالاستجابة للرجل وبالسعادة، إذا هي أدخلت السرور على قلبه، ونالت استحسانه ورضاه، كيف لا وقد خلقت منه كما مرّ معنا في أول السورة: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخصت المرأة بالأومة، وزوّدت بالاستعدادات النفسية والعضوية لأداء هذه الوظيفة الهامة، التي يتم بها تكوّن الجيل الجديد وتنشئته التنشئة الصحيحة من الناحية العضوية والنفسية والاجتماعية. وهذه مهمة جداً في المجتمع الإنساني، لا يستغني عنها لإقامة مجتمع صحيح، بعيد عن الخلل والعقد النفسية المدمرة.

المجتمع الإنساني يختلف اختلافاً كبيراً عن التجمعات الحيوانية؛ فالتجمعات الحيوانية تحركها الغرائز، وإن كان تكاثرها من ذكر وأنثى كالإنسان وسائر الكائنات الحية، من النباتات وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وطفولة الحيوان قصيرة، ويسعى إلى ثدي أمه بنفسه، ويستغني عنها بعد أيام أو أسابيع أو شهور، بينما تطول طفولة الإنسان كثيراً، وتحتاج طفولته إلى تعاون أبويه، فليس من العدل، ولا من مصلحة التربية الاجتماعية والنفسية للطفل أن ينال الرجل من المرأة، ثم يتركها تتحمل كلّ الأعباء المادية والمعنوية بمفردها، فليس للمرأة ضمان اجتماعي في جاهلية القرن العشرين^(٢)،

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/ ٨٣)، وانظر تفضيل الرجل على المرأة في زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٧٤).

(٢) نقول جاهلية القرن العشرين؛ لأن المرأة في المجتمع الجاهلي العربي القديم كانت أفضل حالاً من المرأة عند غير المسلمين اليوم.

فشرع الله سبحانه وجوب الإنفاق على المرأة أما أو أختاً أو بنتاً، إن كانت محتاجة للإنفاق عليها وأوجب على الزوج الإنفاق على زوجته، وإن كانت غنية؛ لثلاث محتاج إلى أن تريق ماء وجهها في العمل الاضطراري من أجل أن تعيش؛ وإذا كانت المرأة مضمونة اجتماعياً، والرجل مكلف بالإنفاق كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فلو فرض الله على المرأة الكسب لحُرمت السكن النفسي والاستقرار وضاعت مهمة التربية في الأسرة. فقد جعل الله من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل، وهي وظائف ضخمة أولاً، وخطيرة ثانياً. وليست هينة ولا يسيرة بحيث تؤدي بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني «الرجل» توفير الحاجات الضرورية، وتوفير الحماية كذلك للأنثى؛ كي تطمئن نفسياً، وتتفرغ لوظيفتها الخطيرة، ولا يجب عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكدّ وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد، وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يعينها على أداء وظيفتها تلك.

ومن ثم زودت المرأة -فيما زودت به من الخصائص- بالرقّة، والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب الطفل - بغير وعي ولا سابق تفكير - لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها لم تُترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطنه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تليتها فوراً، وفيما يشبه أن يكون قسراً. ولكنه قسر داخلي غير مفروض من الخارج ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك، لتكون الاستجابة سريعة من جهة، ومريحة من جهة أخرى، مهما يكن فيها من المشقة والتضحية! ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَىٰ أُنْقَرْنَ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وهذه الخصائص ليست سطحية، بل غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة. بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة في تكوين كل خلية؛ لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بل كل خصائصه الأساسية! وكذلك زود الرجل - فيما زود به من الخصائص - بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال

والاستجابة، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة ؛ لأن وظائفه كلها من أول الصيد الذي كان يمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يمارسه دائماً لحماية الزوجة والأطفال، إلى تدبير المعاش، إلى سائر تكاليفه في الحياة ؛ لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروي قبل الإقدام، وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجه عام. وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القوامه، وأفضل في مجالها. كما أن تكليفه بالإنفاق -وهو فرع من توزيع الاختصاصات- يجعله بدوره أولى بالقوامه؛ لأن تدبير المعاش للأسرة ومن فيها داخل في هذه القوامه، والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها.

وهذان هما العنصران اللذان أبرزهما النص القرآني، وهو يقرر قوامه الرجال على النساء في المجتمع الإسلامي: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

قوامه لها أسبابها من التكوين والاستعداد، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات؛ ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية، وتكليف كل واحد من الزوجين في هذا التوزيع بالجانب اليسر له، والذي هو مُعَان عليه بالفطرة التي فطرَ عليها^(١). وأشار القرآن إلى التناسب في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء بحيث تحقق العدل والمساواة، لا التماثل فقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: منزلة، وهي تكليفه بالإنفاق والجهاد ورعاية المرأة وحمايتها، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها، وروي عن ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق؛ أي أن الأفضل ينبغي أن يتحمل على نفسه^(٢). قال ابن عطية: وهذا قول حسن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٥٣-٥٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/١٢٥).

بارع^(١). وقال رسول الله ﷺ: « لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »^(٢).

وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه في القوامة يجيء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيماني في محيط الأسرة:

﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾.

الصلاح هو صلاح الدين، والقنوت: الطاعة. فالصالحات مطيعات لأزواجهن؛ لأن من طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاتها، وفطرتها الأنثوية أن تكون مطيعة لزوجها عن إرادة ورغبة ومحبة، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومماطلة. ومن ثم قال: ﴿ قَانِتَاتٌ ﴾، ولم يقل: مطيعات؛ لأن مدلول اللفظ الأول نفسي، وظلاله رغبة ندية، وهذا هو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين الزوجين، في المحضن الذي يرمى الناشئة، ويطبعهم بجوّه وأنفاسه وإيقاعاته.

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ومن صفاتها الملازمة لها بحكم إيمانها وصلاتها كذلك أن تكون حافظة كل ما استرعه مما يتعلق بالحياة الزوجية في نفسها وأولادها وبيتها، في غيبته - وبالأولى في حضوره - فلا تبيح من بيتها أو نفسها في نظرة أو نبرة - بله العرض والحرمات - ما لا يباح إلا له هو، بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة، ﴿ وَمَنْ أَيْبَتِيهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١]، ومر معنا في أول السورة: ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.

قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: « التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/٣٠٦).

(٢) الترمذي (١١٥٩)، وعند أبي داود (٢١٤٠): « لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهن من الحق ».

تخالفه في نفسها وما لها بما يكره»^(١).

وما لا يباح لا تقرره هي ولا يقرره هو، إنما يقرره الله سبحانه: ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾^(٢) فهي حافظة للغيب بطاعة وبر ودين، وحفظ الله في أوامره حين امتثلتها^(٣). فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته - في غيبته أو في حضوره - ما يغضب هو له، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع إذا انحرف المجتمع عن منهج الله.

وعندئذ تتهاوى كل أعداء المهزومين والمهزومات من المسلمين والمسلمات أمام ضغط المجتمع المنحرف. وتبرز حدود ما تحفظه الصالحات بالغيب: ﴿يَمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾، مع القنوت الطائع الراضي الودود^(٤).

والغريب في الأمر أن المرأة إذا كانت عاملة في مؤسسة أقل شأنًا وأرخص سعراً من مؤسسة الأسرة فإنها تسمع وتطيع كأى عامل في تلك المؤسسات، فأولى أن تنقاد في الأسرة للزوج لإنشاء أئمن عناصر الكون، ألا وهو العنصر الإنساني.

وحتى تعلم النساء أن الله كرم المرأة ولم يكلفها من العمل إلا ما يناسب فطرتها دون مشقة، فلتقرأ قول النبي ﷺ: « إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت »^(٥).

(١) رواه أحمد (٩٣٠٤، ٩٣٦٧)، وعند ابن ماجه: عن النبي ﷺ أنه كان يقول: « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة؛ إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ». ابن ماجه (١٨٥٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٤٧/٢)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٥٦/٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٤٧/٢).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥٦/٥).

(٥) تفرد به أحمد (١٦٦٤).

فأما غير الصالحات فهن الناشزات^(١)، المستعليات على طاعة أزواجهن، فلا ينبغي أن يُترك الأمر حتى تنقسم الأسرة إلى معسكرين، يتجاذب الرجل والمرأة السلطة التنظيمية فيها فيضيع الأولاد ويتمردون على أبويهم كما تمردت أمهم؛ لذلك ينبغي أن يسلك الزوج مع المرأة الناشز التعليقات الربانية بالتدرج والحكمة:

﴿ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَصْرِبُوهُنَّ فَإِنَّ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾.

الإجراء الأول: الموعظة؛ هذا أول واجبات قيم الأسرة لمعالجة النشوز. يحاورها زوجها ويخوفها عقاب الله في عصيانه، ويذكرها بأن التمرد وعدم الطاعة يفسد الأسرة، ويفككها ويتسبب في العقد النفسية للأولاد ثمرة الأسرة، ويتمردون على أمهم قبل أبيهم. ويذكرها بقول النبي ﷺ في بيان ما للزوج من الحق والفضل؛ فقد قال: « لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها »^(٢)، وخصوصاً إذا كانت المعصية عدم إجابة الزوج إلى فراشه، قال رسول الله ﷺ: « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح »^(٣).

الإجراء الثاني: الهجر في المضجع، وذلك بأن يوليها ظهره في المضجع، ولا يكلمها، ولا يجامعها، أو يهجر فراشها، دون أن يردّ نكاحها، ودون أن يترك البيت الذي هي فيه، لقول النبي ﷺ جواباً لسؤال أحد الصحابة قال فيه: يا رسول الله؛ ما حق امرأة أهدنا عليه؟ قال ﷺ: « أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا

(١) والنشوز: العصيان، مأخوذ من النَّشَز، وهو ما ارتفع من الأرض. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٧٠/٥).

(٢) مرّ الحديث قبل قليل، وقد أخرجه الترمذي (١١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٠).

(٣) البخاري (٣٢٣٧، ٥١٩٣)، ومسلم (١٧٣٦).

في البيت «^(١)».

إن المهجر حركة استعلاء نفسية من الرجل على ما تُدَلّ به المرأة من جمال وجاذبية أو قيم أخرى ترفع به ذاتها عن ذاته، أو عن مكان الشريك في مؤسسة زوجية عليها قوامه ولها نظام. والمضجع موضع الإغراء والجاذبية، التي تبلغ فيها المرأة الناشز المتعالية قمة سلطانتها. فإذا استطاع الرجل أن يقهر دوافعه تجاه هذا الإغراء، فقد أسقط من يد المرأة الناشز أمضى أسلحتها التي تعتز بها، وكانت - في الغالب - أميل إلى التراجع والملاينة أمام هذا الصمود من رجلها، وأمام بروز خاصية قوة الإرادة والشخصية فيه، في أخرج مواضعها! على أن هناك أدباً معيناً في هذا المهجر، وهو أن لا يكون في غير مكان خلوة الزوجين؛ فلا يكون هجراً أمام الأطفال يورث في نفوسهم شراً وفساداً، ولا هجراً أمام الغرباء يُذلل الزوجة أو يستثير كرامتها، فتزداد نشوزاً. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة، ولا إفساد الأطفال.

ولكن هذه الخطوة قد لا تفلح، فهل تترك المؤسسة تتحطم؟ إن هناك إجراء - ولو أنه أعنف - ولكنه أهون وأصغر من تحطيم الحياة الزوجية كلها بالنشوز^(٢). فقد أذن الله بضرب الزوجة الناشز إن لم تنفع معها الموعظة ثم المهجر، فيضربها ضرباً غير مبرح. واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات، وهدف الإسلام في إسعاد الزوجين وتأمين التربية الصحيحة للأطفال كل هذا يمنع أن يكون هذا الضرب للانتقام والتشفي، أو إهانة للإذلال والتحقير، ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاهما. إنما يكون الضرب ضرب تاديب، مصحوب بعاطفة المربي. وقد أكد النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع على أن يكون الضرب غير مبرح فقال: « واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح

(١) سنن أبي داود (٢١٤٢)، قال أبو داود: ولا تقبح أن تقول: قبحك الله. وهو بنحوه عند ابن ماجه (١٨٥٠). انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٩٢/١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥٨/٥).

ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (١).

وقد يظن بعض المتأثرين والمتأثرات بإجاءات شياطين الإنس والجن أن كل امرأة ستضرب، فليعلم كل مسلم أن ذلك حالة خاصة، نادرة في المجتمع الإسلامي، والذي يلجأ إلى ضرب زوجته دون ضرورة تربوية فهو من الشرار لا من الخيار، فقد قال النبي ﷺ: « لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: « ذرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: « لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن، ليس أولئك بخياركم» (٢)، فحالة المرأة التي تحتاج إلى ضرب هي حالة نفسية نادرة، لكنها موجودة، فهناك صنف من النساء - وإن كان قليلاً - فيه من لا تحس بقوة الرجل الذي تحب نفسها أن تجعله قياً لها وترضى به زوجها إلا حين يقهرها عضلياً، وليست قوة الرجل هذه طبيعة كل امرأة.

وهذه الإجراءات يقرها الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق، وقد وضع الله ملابسات حدد صفتها، وحدد النية المصاحبة لها، شأن كل سلوك في الإسلام يتغي به امثال منهج الله لتحقيق الغاية التربوية من ورائها، بحيث لا يحسب على منهج الله تلك التصرفات الخاطئة للناس في عهود الجهل بدين الله، حين يتحول الرجل جلاًداً - باسم الدين - وتتحول المرأة رقيقاً - باسم الدين - أو حين يتحول الرجل امرأة، وتتحول المرأة رجلاً، أو يتحول كلاهما إلى صنف ثالث مائع بين الرجل والمرأة - باسم التطور في فهم الدين - فهذه كلها أوضاع لا يصعب تمييزها عن الإسلام الصحيح في نفوس المؤمنين (٣). قال رسول الله ﷺ: « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ثم يجامعها في آخر اليوم» (٤).

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

(٢) أبو داود (٢١٤٦)، وابن ماجه بنحوه (١٩٨٥). وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٩٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٥٩).

(٤) البخاري (٦٤٢، ٥٢٠٤)، أحمد (١٥٧٨٨).

وهذا العلاج مراتب لتحقيق هدف كما رأينا، فإذا وقعت الطاعة عند إحداها لم يتعد إلى ما يليها، ولذا ختمت الآية بالتهديد ضمن الحدود الهادفة فقال سبحانه: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾؛ لا تطلبوا سبيلاً إلى الأذى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل. وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب، بعد تقدير الفضل عليهن والتمكين من أدبهن إن احتاج الأمر ذلك. وحسن انصاف الله سبحانه بالعلو والكبر ليعلم أن قدره فوق كل قدر، ويده في القدرة فوق كل يد، فلا يَسْتَعْلِ أحد على امرأته، فالله بالمرصاد، قادر على الانتقام، غير راض بظلم أحد^(١).

وفي ختام هذا العلاج نذكر بتوجيه النبي ﷺ الأزواج إلى عدم كراهية زوجاتهم، وأن يتذكروا محاسن الزوجة التي يحبونها في زوجاتهم، حتى يتم الانسجام والمودة التي جعلها الله بين الزوجين، لتحقيق السعادة والعشرة الطيبة، قال النبي ﷺ: «لا يفرك^(٢) مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر^(٣)»، وقال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي^(٤)».

وإذا استعملت هذه الإجراءات، ولم تُجَدِ بل زادت الشقة بعداً، والنشوز استعلاناً، فإن القرآن الحكيم يدفع إلى إجراء آخر لإنقاذ الأسرة من الانهيار:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٥).

إن الإسلام لا يدعو إلى الاستسلام لبوادر النشوز والكراهية، ولا إلى المسارعة بفصم

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٤٨/٢).

(٢) لا يبغيض. النووي (٣١٥/٥).

(٣) مسلم (١٤٦٩)، وأحمد (٨١٦٣).

(٤) سنن الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وسنن الدارمي (٢٢٦٠).

(٥) الشقاق: المنازعة. وقيل: الشقاق المجادلة والمخالفة والتعادي. وأصله من الشَّق وهو الجانب؛ فكأن

كل واحد من الفريقين في شَقٍّ غير شَقٍّ صاحبه. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٤٣/٢).

عقدة النكاح، وتحطيم مؤسسة الأسرة على رؤوس من فيها من الكبار والصغار، الذين لا ذنب لهم ولا يد ولا حيلة، فالأسرة عزيزة على الإسلام بقدر خطورتها في بناء المجتمع، وفي إمداده باللبات الجديدة اللازمة لنموه ورفقه وامتداده^(١). فإذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وامتدت خصومتها بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الزوج ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق حيث قال الله سبحانه: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(٢).

وجمهور العلماء على أن الحكيمين لهما الجمع والتفريق؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾، وهذا نص من الله سبحانه بأنها قاضيان، لا وكيلان ولا شاهدان. وللوكيل اسم في الشريعة ومعنى، وللحكم اسم في الشريعة ومعنى، ومن شأن الحكم أن يحكم.

فإن اختلف الحكمان لم ينفذ قولهما، ولم يلزم من ذلك شيء إلا ما اجتمعا عليه. وإن حكما بالفرقة فرقا بطلقة بائنة^(٣).

وخصّ الأهل في التحكيم لأنهم أعلم بباطن الحال، وتسكن إليهم النفس، فيطلعون على ما في ضمير كل من حب وبغض، وإرادة صحبة أو فراق، وهذا وجه الاستحباب، وإن نصبا من الأجانب فجائز، وذلك لأن الأهل قد يكونوا على غير علم ودراية، فيزيدوا الشقاق، وينحاز كل حكم إلى صاحبه دون حكمة وعدالة. فعند ذلك يكون اختيار الحكيمين من غير أهل الزوجين إذا كانا من أهل العلم والخبرة والحكمة، فتتحقق بهما مصلحة الزوجين والأسرة. ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، إن يريد الزوجان أو الحكمان الإصلاح والخير يوفق

(١) الظلال، سيد قطب (٥/٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٩٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/١٧٦-١٧٧).

الله بينهما، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾ (٢٥) بالظواهر والبواطن، فيعلم إرادة العباد ومصالحهم وسائر أحوالهم. وكيف لا يعلم وهو الذي خلق (١).

ويأتي الكلام عن القاعدة الأساسية التي تربط الأسرة الصغيرة مع الأسرة الكبيرة في المجتمع المسلم، من الزوجين، والوالدين، والأقربين، والجار القريب وغيره. كل ذلك يقوم على أصل واحد هو العبودية لله وحده والتحرر عن الخضوع لسواه:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٣١).

تبدأ هذه الآية بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن إشراك شيء به، أي التحرر من العبودية لغيره، وتبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي، وبين الأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة. فيدل هذا الربط على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين فليس هو مجرد عقيدة جامدة تستكن في الضمير كفكرة ثقافية، ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة والشعائر التعبدية؛ إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله، والتلقي منه وحده - في هذا النشاط كله - دون سواه. توحيده إلهاً معبوداً، وتوحيده مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً. لا ينفك هذا التوحيد عن ذلك في دين الله الصحيح على الإطلاق (٢).

وجاء النهي ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ بعد الأمر بالتوحيد إشارة إلى الأمر بالإخلاص فكأنه قيل: وابدعوا الله مخلصين له. فهو سبحانه أمر أولاً بما يشمل التوحيد وغيره من أعمال

(١) روح المعاني، الألويسي (١٦/٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٦٥).

القلب والجوارح، ثم أردفه بما يفهم منه التوحيد الذي لا يقبل الله تعالى عملاً بدونه، فالعطف من قبيل عطف الخاص على العام^(١). فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى، وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا أحرّة الرحل فقال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل»، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٣)، ولذلك قال بعض العلماء: إن من تطهر تبرداً أو صام حمية لمعدته، ونوى مع ذلك التقرب لم يُجزه؛ لأنه مزج في نيته التقرب نية دنيوية، وليس لله إلا العمل الخالص، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَالْحَرِيِّ أَذْهَبُوا فَهُمْ يُنْفَكُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وكذلك إذا أحس الإمام بداخل وهو في الركوع لم ينتظر الداخل؛ لأنه يُخرج ركوعه بانتظاره عن كونه خالصاً لله تعالى^(٤).

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، أي أحسنوا بهما إحساناً، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته

(١) روح المعاني، الألويسي (١٧/٢).

(٢) البخاري (٥٩٦٧، ٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠)، ويلاحظ التكرار، وهو أسلوب تربوي للفت الانتباه والاهتمام.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٨٥)، وعند ابن ماجه (٤٢٠٢): «أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك».

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٨٠/٥).

والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَايَكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، و«أحسن» يتعدى بالياء وإلى واللام، وقيل: إنما يتعدى بالياء إذا تضمن معنى العطف والإحسان المأمور به أن يقوم بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما، ولا يخشن في الكلام معها، ويسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر القدرة. ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، أي بصاحب القرابة المتفرعة عن الأبوين؛ من أخ وعم وخال، وأولاد كل، ونحو ذلك^(١)، قال النبي ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصله»^(٢).

ثم انتقل من الأسرة الصغيرة إلى الأسرة الاجتماعية الكبيرة، فأمر بالإحسان فقال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾، وهو فاقد الأب قبل البلوغ، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: الفقراء الذين لا يجدون كفايتهم، فأمر بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم^(٣). ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾، والمجاورة مراتب بعضها ألصق من بعض، أدناها الزوج، ثم إنه من نظر قرابة النسب قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب النسب، والجار الجنب هو الجار الأجنبي الذي ليس بينك وبينه قرابة. ومن نظر إلى الدين قال: الجار ذو القربى هو الجار المسلم، والجار الجنب هو الجار اليهودي أو النصراني، فهي عنده قرابة الإسلام وأجنبية الكفر. ومن نظر إلى المسافة قال: الجار ذو القربى هو الجار القريب المسكن منك، والجار الجنب هو البعيد المسكن منك. وكان هذا المعنى مأخوذ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»^(٤). والكل داخل في معنى المجاورة. وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان الجار أو كافراً، رحماً كان أو

(١) روح المعاني، الألويسي (٨٧/٢).

(٢) سنن الترمذي (٦٥٨)، والنسائي (٢٥٨٢)، وسنن ابن ماجه (١٨٤٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٩٤/١).

(٤) البخاري (٢٢٥٩، ٢٥٣٥، ٦٠٢٠)، وأحمد (٢٤٨٩٥). وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٠/٢).

من غير الأرحام، بعيداً عنا في المسكن أو قريباً؛ لأن الكل داخل في المجاورة. والإحسان يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حُسن العشرة وكف الأذى، والمحاماة دونه، قال النبي ﷺ: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »^(١)، وقال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه »^(٢)، وهذا عام في كل جار^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾، فقد روي عن السلف أنه يدخل في معناه الزوجة، والضيف، والرفيق في السفر. ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ هو الضيف، أو من يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر. وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهذا سواء. ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس؛ ولهذا كثرت وصية النبي ﷺ بالأرقاء، من ذلك قوله ﷺ: « للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق »^(٤)، وقال النبي ﷺ: « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »^(٥)، وكان من آخر وصية رسول الله ﷺ في مرض موته: « الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم »، حتى جعل نبي الله ﷺ يُلجَلِجُها في صدره وما يفيض بها لسانه^(٦). وعن المعرور بن سويد قال: لقيت أبا ذر بالريذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك فقال: إني ساببت رجلاً فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: « يا أبا ذر؛ أعيرته بأمه؟! إنك امرؤٌ فيك جاهلية، إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن

(١) البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥).

(٢) مسلم (٤٦). والبواقي: جمع بائقة، وهي الغائلة والداهية والفتك. صحيح مسلم بشرح النووي (٢٩٣/١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٨٤/٥).

(٤) رواه مسلم (١٦٦٢)، وأحمد (٨٣٠٥).

(٥) أحمد (١٦٧٢٧).

(٦) مسند أحمد (٢٥٩٤٤)، وابن ماجه (١٦٢٥).

كلفتموهم فأعينوهم» (١). فهل في العالم كله غير المسلمين الأتقياء من يعامل العامل الحر - لا العبد - هذه المعاملة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ في نفسه، معجباً بها، متكبراً. ﴿فَخُورًا﴾ يفخر على الناس، ويتكبر عليهم بما أعطاه الله من نعمة، وهو قليل الشكر لله على ذلك (٢). قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبَر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»، قال: فقال له رجل: إنه يعجبني أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة، قال: «إن الله يحب الجمال، ولكن الكبر من بَطَرِ الْحَقِّ وَغَمَصِ النَّاسِ» (٣).

ويُتَّبَعُ تَقْبِيحَ الْاِخْتِيَالِ وَالْفَخْرَ بِالْبَخْلِ وَالتَّبَخِيلِ، وَكِتْمَانَ نِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، وَالرِّيَاءَ فِي الْإِنْفَاقِ؛ وَالكَشْفَ عَنْ سَبَبِ هَذَا كُلِّهِ، وَهُوَ عَدَمُ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَاتِّبَاعَ الشَّيْطَانِ وَصَحْبَتَهُ:

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك السمة الأساسية في المنهج الإسلامي، وهي ربط كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة. فإفراد الله سبحانه بالعبادة، والتلقي منه، يتبعه الإحسان إلى البشر، ابتغاء وجه الله ورضاه، والتعلق بثوابه في الآخرة؛ في أدب ورفق، ومعرفة أن العبد لا ينفق إلا من رزق الله؛ فهو لا يخلق رزقه، ولا ينال إلا من عطاء الله. والكفر بالله واليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر، والبخل والأمر بالبخل، وكتمان فضل الله ونعمته، بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء، قال رسول الله ﷺ: «إن الله

(١) البخاري (٣٠، ٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).

(٢) التفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٩٥).

(٣) مسلم (٩١)، وسنن الترمذي (١٩٩٩).

عز وجل يجب أن يرى أثر نعمته على عبده»^(١)، والإنفاق تظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد!

وهكذا تتحد الأخلاق؛ أخلاق الإيمان، وأخلاق الكفر. فالباعث على العمل الطيب والخلق الطيب، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والتطلع إلى رضاه الله، وجزائه في الآخرة. فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس وثنائهم!

فإذا لم يكن هناك إيمان بالله بيتغي وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه. وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء، اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من عرف الناس، وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلاً عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! وكانت هذه هي بواعثهم للعمل. وكان هناك التآرجح المستمر كتآرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال، وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء، والبخل والتبخل، ومراعاة الناس لا التجرد والإخلاص!^(٢)

والبخل المذموم في الشرع هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]^(٣).

والبخلاء لا يكتفون بالبخل، بل يأمرون غيرهم بالبخل، وأي داء أداً من البخل قال النبي ﷺ: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم؛ أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٤)، فالبخلاء ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ جحوداً بنعمة الله لثلا تظهر في مأكله وملبسه وإعطائه وبذله. والكتمان في الآية كتمان المال، وهذا ما يقتضيه السياق

(١) سنن الترمذي (٢٨١٩)، ومسند أحمد (٨٠٤٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦٨/٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٩٣/٥).

(٤) سنن أبي داود (١٦٩٨)، ومسند أحمد (٦٧٥٣).

وإن كان عموم فضل الله ﴿ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يدخل فيه كتان العلم دخولاً أولياً، ولذلك حمل بعض السلف الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ، وكتائبهم ذلك^(١). ويدخل في من يبخل ويأمر غيره بالبخل المنافقون الذين ورد الحديث عنهم في الآية التالية لهذه الآية، وقال الله فيهم: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ [المنافقون: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾^(٢)، أي عذاباً ذا إهانة. وروي في سبب نزول الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان كردم بن زيد حليف كعب بن الأشرف، وأسامة بن حبيب، ونافع بن أبي نافع، وبحرى بن عمرو، وحبي بن أخطب، ورفاعة بن زيد بن التابوت يأتون رجلاً من الأنصار يتنصحوون لهم فيقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإننا نخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون ما يكون، فأنزل الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾^(٣). والعبرة بعموم النص.

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ الموصول عطف على نظيره ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾. قال الجمهور: نزلت في المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾، والرثاء من النفاق، ولقوله سبحانه: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الذي يثاب فيه المطيع ويعاقب العاصي^(٤)، فقربتهم الشيطان (شيطان الإنس والجن) ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانَ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾. والمقصود بيان سوء حال من كان الشيطان له قريناً بإثبات سوء قرينه، إذ المرء يعرف بقرينه.

وحين ينتهي من عرض سوءات نفوسهم، وسوءات سلوكهم، ومن عرض أسبابها من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤٩٦/١).

(٢) أصل ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ أعددنا، أبدلت التاء الأولى تاءً لثقل الدالين عند فك الإدغام باتصال ضمير الرفع. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥٣/٥).

(٣) أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وابن جرير الطبري بسند صحيح عن ابن عباس. انظر روح المعاني، الألويسي (٨٨/٢)، وجامع البيان، الطبري (٥٥/٥).

(٤) روح المعاني، الألويسي (٨٨-٨٩/٢).

الكفر بالله واليوم الآخر، وصحبة الشيطان وأتباعه، ومن الجزاء المعد للمهيا لأصحاب هذه السوءات، وهو العذاب المهين؛ عندئذ يسأل في استنكار:

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٢٩﴾

الإنسان العاقل إذا دعي إلى أمر لا ضرر فيه، ينبغي أن يجيب احتياطاً، ولو كانت المنفعة فيه محتملة، فكيف إذا كانت ظاهرة واضحة؟! وهذا أسلوب بديع، كثيراً ما استعملته العرب في كلامها، ومن ذلك قول من قال:

ما كان ضررك لو مننت وربها من الفتى وهو المغيظ المحنق^(١)

وأى شيء يضرهم لو آمنوا بالله - وهم يعلمون، لو أطلقوا عقولهم من الأهواء والشهوات، أنه الخالق المالك المتصرف - وسلكوا الطريق الحميد، وعدلوا عن الرياء والتفان إلى الإخلاص لله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله، وينفق مما رزقه الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾؛ فهو عليم بنيتهم الصالحة والفاصلة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، فيوفقه ويلهمه رشده، ويقضه لعمل صالح يرضى به عنه، وهو سبحانه عليم أيضاً بمن يستحق الخذلان والطرده، ومن طرد عن باب الله، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة^(٢). ثم إن الذي ينفقونه هو من رزق الله، إنه ليس من شيء خلقوه لأنفسهم. إنهم ينفقون من رزق الله، ومع ذلك فإن الله يضاعف لهم الحسنه ولا يظلمهم مثقال ذرة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٠﴾

قد يظن البعض أن الدينار والدرهم هما الرزق! لا، إنها وسيلة لتبادل الأرزاق، مع أن الذهب والفضة من خلق الله أيضاً، والرزق الذي ينتفع به الإنسان؛ غذاءً، أو كساءً، أو استخداماً، إنها هو ما خلقه الله في هذه الأرض من نبات وحيوان ومادة. فإن الذي ينفق

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/١٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٤٩٧).

في حقيقة الأمر من رزق الله ؛ ومع ذلك فإن الله يضاعف حسناته ويعطيه أجراً عظيماً في الآخرة فيأله من كرم ! ويأله من فيض إلهي ! ويأله من صفقة لا يقعد عنها إلا جاهل خسران ؛ فعدل الله متحقق، وكرمه ظاهر في الدنيا قبل الآخرة، ورحمته واسعة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ كقوله سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، وقال النبي ﷺ: « يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة، فينبتون كما تئبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية »^(١).

وبعد الأوامر والنواهي، والتحضيض والترغيب يأتي مشهد من مشاهد يوم القيامة، عندما يشهد كل نبي على أمته:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: « اقرأ عليّ »، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل، قال: « نعم »، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ قال: « حسبك الآن ». فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(٢)، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر: ٦٩].

إنه يمهد لمشهد القيامة، يوم يحل بالذين كفروا المهانة والخذري والندامة، مع الاعتراف

(١) البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٤٥٨٢، ٥٠٥٠)، وصحيح مسلم (٨٠٠).

حيث لا جدوى من الإنكار:

﴿ يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ نُوسَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (٤٢)

يوم يشهد الأنبياء على أمهم، ونجىء بك يا محمد شهيداً على أمتك، يتمنى الذين كفروا بالله وعصوا رسوله لو سواهم الله والأرض، فصاروا تراباً مثلها، كما يفعل بالبهائم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٤٠) [النبأ: ٤٠].

وبمناسبة الأمر بعبادة الله والنهي عن إشراك شيء به في قوله: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ يختم المقطع بالبعد عن السكر في وقت الصلاة، ليعقل المصلي صلاته، ويعلم ما يقوله في صلاته كما تتعرض الآية للطهارة قبل الصلاة، والصلاة أمس الشعائر بمعنى العبادة، بل هي أصل الدين وعموده:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (٤٣)

روي في سبب نزولها عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً، فدعانا، فأكلنا، وسقانا خمرأ قبل أن نُحَرِّمَ، فأخذت منا، وحضرت الصلاة، فقدموني، فقرأت: ﴿ قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ ۗ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) ، ونحن نعبد ما تعبدون، قال: فخلطت، فنزلت: ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (١).

(١) سنن الترمذي (٣٠٢٦)، وأبو داود (٣٦٧١)، والطبري في تفسيره (٦١/٥) وإسناده صحيح، فإن الراوي عند أبي داود والطبري عن عطاء بن السائب هو سفيان، وقد سمع من عطاء قبل الاختلاط. انظر هامش جامع الأصول (٩٢/٢)، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح.

في الآية إرشاد لإخلاص الصلاة، التي هي رأس العبادة من شوائب الكدر، ليجمعوا بين إخلاص عبادة الحق، ومكارم الأخلاق التي بينهم وبين الخلق المينة فيما تقدم. وهو نهى عن القيام إلى الصلاة والشروع فيها قبل أن يكون المصلي صاحياً من السكر، ويعلم ما يقول. فكأنه يقول: لا تصلوا في حالة السكر حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه، إذ بذلك يظهر أنكم ستعلمون ما ستقرؤونه في صلاتكم، أو بتعبير موجز: حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقرؤونه^(١).

وبهذا يتحكم الشارب بوقت الشرب وكميته، ولا يتحكم الشرب فيه؛ فقد كان المسلمون بعد نزول هذه الآية يشربون ويقللون بعد الصبح، وبعد العتمة (العشاء)، ولا تدخل عليهم صلاة إلا وهم صاحون^(٢). حتى نزل تحريمها في سورة المائدة^(٣). لقد كانت الخمر متحكمة في الناس قبل الإسلام، فهي إحدى تقاليد المجتمع الجاهلي الأصلية الشاملة، وإحدى الظواهر المميزة لهذا المجتمع؛ كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية في القديم والحديث أيضاً من المجتمع الروماني في أوج جاهلية والمجتمع الفارسي أيضاً، إلى المجتمع الأوروبي والأمريكي والأفريقي المتخلف. وثبت ضرر الخمر على الفرد والمجتمع، وحاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة، فسنت قانوناً في سنة (١٩١٩م) سمي: قانون الجفاف، من باب التهكم عليه؛ لأنه يمنع الري بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائماً مدة أربعة عشر عاماً، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة (١٩٣٣). وكانت قد استخدمت العقوبات، وجميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدر أن ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات. وفشلت كل هذه الإجراءات وألغي القانون فأما الإسلام ففضى على هذه الظاهرة العميقة في المجتمع الجاهلي ببضع آيات من القرآن. وهذا هو الفرق في علاج النفس البشرية، وفي علاج المجتمع الإنساني، بين منهج

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/٩٤-٩٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٥٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٠٣).

الله ومناهج الجاهلية، قديماً وحديثاً على السواء^(١). إن المنهج التربوي الذي جاء به الإسلام هو منهج رباني، نزل من عند خالق الإنسان، فهو سبحانه أدرى بما يصلح الإنسان. إنه منهج يعتمد أولاً، وقبل كل شيء على تحرير النفس البشرية من كل سلطان، وربطها بخالقها العليم بدائها ودوائها، ومن ثم يوجهها خالقها بالتدرج لتقتلع من ذاتها، وبأمر خالقها الذي تؤمن به، كل أمر وفعل يضرّ بها. فالسلطان سلطان القرآن، والأسلوب أسلوب تربوي رباني.

لقد جاءت الإشارة في التقابل بين السكر والرزق الحسن في القرآن المكي كمجرد لمسة توحى بأن السكر غير حسن في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ٦٧]، وكانت مجرد لمسة من بعيد للضمير المسلم الوليد.

وفي المدينة المنورة حيث قامت للإسلام دولة، وكان له سلطان، لم يلجأ إلى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان، إنما كان سلطان القرآن المنزل من عند الخبير بالنفس البشرية، والأوضاع الاجتماعية. بدأ القرآن عمله في رفق وسهولة، يلفت النظر في الضمير البشري إلى أن مدار الحل والحرمة، أو الكراهة على رجحان الإثم أو رجحان الخير والمصلحة، فنزل أول ما نزل آية تدل على فجر اليقظة في الضمير المسلم ضد الخمر والميسر^(٢): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] وبعد فترة من الزمن نزلت آية النساء هذه ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، ثم لما تمكنا من ضبط أنفسهم للمحافظة على الصلاة التي هي عماد الدين نزل قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَذْلُمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧١-٧٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٧٤-٧٥).

الصَّلَاةَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ [المائدة: ٩٠-٩١] (١).

وكما منعت الآية الذين آمنوا أن يقربوا الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون، كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب حتى يغتسلوا باستثناء حالة العبور، والمعنى لا تصلوا في حال الجنابة حتى تغتسلوا. والجنب: من أصابته الجنابة، يستوي فيه - على اللغة الفصيحة - المذكر والمؤنث، والمفرد والمثنى والجمع، لجريانه مجرى المصدر، وإن لم يكن، واشتقاقه من المجانبة، وهي المباحة؛ فالجنب المباحة للعبادة من الصلاة حتى يغتسل (٢). و﴿عَابِرِي سَبِيلِ﴾ هو من العبور؛ أي الخطور والجواز، ومنه عبر السفينة النهر؛ وعابر السبيل هنا الذي يمر في المسجد. ولا نحتاج لأن نقول: إن المراد بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ المسجد؛ لأن النهي عن القرب من الصلاة، فيدخل في القرب موضع الصلاة، وليس النهي عن الصلاة فقط، إذ النهي عن قرب الصلاة أبلغ من النهي عن الصلاة، وكأنه تعالى نهى عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحة للصلاة، ولمحلها أيضاً (٣). فدخول المسجد (موضع الصلاة) حرام على الجنب إلا في حال العبور، والآية رخصة في مرور الجنب في المسجد إذا كان قصده المرور لا المكث. وروى بعضهم أن سبب الآية أن قوماً من الأنصار كانت أبواب دورهم شارعة في المسجد، فإذا أصابت أحدهم الجنابة اضطر إلى المرور في المسجد، فنزلت الآية في ذلك (٤) ويشهد لصحة ذلك ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر» (٥)، علماً منه ﷺ أن أبا بكر رضي الله عنه سبيل الأمر من بعده

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٠٠)، وانظر حديث عمر وقوله: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً... الحديث» أخرجه أبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٤٩)، والنسائي (٥٥٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٩٦/٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٠٢).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٥٧).

(٥) وهذا ما قاله في آخر حياته. البخاري (٤٦٧)، وأحمد (٢٤٢٨).

ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه. وعن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: « ناوليني الحُمرة من المسجد »، قالت: فقلت: إني حائض، فقال: إن حيضتك ليست في يدك^(١)، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها^(٢).

وقوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ ذكر حالة الرخصة في ترك الاغتسال، وترك الوضوء الذي لم يذكر في هذه السورة وذكر في سورة المائدة.

والمرض المبيح للتيمم هو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو، أو شينه، أو تطويل البرء. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك؛ فتيمنت ثم صليتُ بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: « يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب »، فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً^(٣).

والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير^(٤)؛ أي سواء كان مما تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر. وهذا مذهب جمهور الفقهاء.

والأسباب التي لا يجدها المسافر الماء هي: إما عدمه جملة، وإما خوف فوات الرفيق بسبب

(١) مسلم (٢٩٨)، والترمذي (١٣٤)، والنسائي (٢٧١، ٣٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٠١).

(٣) سنن أبي داود (٣٣٤)، ومستند أحمد (١٧٣٥٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٠٢).

طلبه، وإما خوف على الرجل بسبب طلبه، وإما خوف سباع، أو إذاية عليه أو عطش^(١).
فعدم الماء ليس بشرط في جواز التيمم للمريض، وإنما الشرط حصول الضرر؛ وأما السفر، فعدم الماء شرط في إباحة التيمم، وليس السفر بشرط، وإنما ذكر السفر لأن الماء يعدم فيه غالباً^(٢).

ويباح التيمم عند المرض أو فقد الماء من الحدث الأصغر والأكبر لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسَ لُحْيَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، والغائط هو المكان المظلم من الأرض، وكانوا يقضون حاجتهم في المكان المنخفض، فكنتى عن الحدث بمكانه.
وأما قوله: ﴿لَمَسَ لُحْيَتَهُ﴾، فقرأ لمستم، ولا مستم. وفي المراد (بالملاسة) قولان: أحدهما: أنها الملاسة باليد، أو بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه، فالواجب الوضوء.

والثاني: أنها الجماع. وهو الأرجح - والله أعلم - لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الملاسة الجماع، ولكن الله كريم يكتفي بما شاء، وصح ذلك عن ابن عباس من غير وجه^(٣)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ^(٤).

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾. والتيمم في اللغة هو القصد،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٨/٢).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٩١/٢).

(٣) جامع البيان، الطبري (٦٥-٦٦)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٠٢/١).

(٤) النسائي (١٧٠)، والترمذي (٨٦)، وأبو داود (١٧٨)، وابن ماجه (٥٠٢)، وأحمد (٢٥٢٣٨). وانظر

روايات الطبري عن عائشة وترجيحه في تفسيره (٦٧/٥).

والصعيد هو كل ما يصعد على وجه الأرض، فيدخل فيه الرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول الإمام مالك رحمه الله، وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزنيخ والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما. ودليلهم ما رواه حذيفة بن البيان قال: قال رسول الله ﷺ: « فضلنا على الناس بثلاث ؛ جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء»^(١)؛ ولعل كلمة التراب في الحديث لا يقصد منها إلا ما كان من جنس التراب، فالصخور بأنواعها تتفتت وتكون تراباً؛ ولهذا كانت الأمة الإسلامية مخصوصة بمشروعية التيمم من الأرض دون سائر الأمم، قال رسول الله ﷺ: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي؛ نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من أمتي أدرسته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس كافة»^(٢)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل مع القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ فقال: يا رسول الله؛ أصابني جنابة ولا ماء. فقال: « عليك بالصعيد، فإنه يكفيك»^(٣).

وأرشد الله سبحانه إلى كيفية التيمم فقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾؛ فالتيمم ضربتان: ضربة يمسح التيمم فيها وجهه، وضربة يمسح فيها يديه إلى المرفقين؛ وذلك لأن الله سبحانه قال في التيمم هنا: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾، وقال في الوضوء: ﴿فَأَغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وقال سبحانه في حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٧]، وكانت السنة في القطع الكفين؛ قالوا: وحمل ما أطلق هنا على ما قيّد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية^(٤).

(١) مسلم (٥٢٢)، وعند أحمد (٧٦٥): « وجعل التراب لي طهوراً... الحديث ».

(٢) البخاري (٤٣٨، ٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٣) سنن النسائي (٣٢١)، وقد أخرجه البخاري في حديث طويل (٣٤٤، ٣٥٧١)، ومسلم أيضاً (٦٨٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٠٣-٥٠٤).

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ تذييل فيه تعليل لما يُفهمه الكلام من الترخيص والتيسير، وتقرير لهما؛ فإنه سبحانه الذي من صفاته المستمرة أن يعفو عن الخاطئين ويغفر للمذنبين، لا بد أن يكون ميسراً لا معسراً^(١).

وعبادة الله وحده، أو التوحيد الصحيح لا يتحقق إلا في طاعة الله وحده طاعة تامة، مع الإخلاص في الطاعة له سبحانه، وهذا ما يبينه المقطع، كالامتناع عن أكل أموال الناس بالباطل، واجتناب الكبائر، وترك الحسد، والسلوك الأسري الصحيح، والإحسان والتوجه إلى الله في كل شيء وطاعته في كل أمر ونهي، يستوي في ذلك أمور الطهارة وغيرها. كل ذلك يحقق العبادة الصحيحة التي ينال المؤمن بها الجزاء الوافر والأجر الجزيل.

الهدايا المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: في فتنة العصر - وكل عصر - تظهر قضيتان رئيسيتان هما: الأموال، والمرأة. والآيات تقيم المؤمنين حيث ينبغي أن يكونوا في هاتين القضيتين، وغيرهما، وتربط ذلك كله بالله وطاعته وجزائه في الآخرة.

ب- الأحكام الشرعية: ذكرت الآيات أحكاماً تتعلق بتنظيم الأسرة وربطها بروابط قوية ومعالجة المشكلات التي يمكن أن تقوّض الأسرة وتهدمها.

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية: ذكرت الآيات آداب سلوك الزوج مع زوجته، وآداب الزوجة في سلوكها مع زوجها. وانتقلت من ذلك إلى أدب الإحسان بالمال والسلوك في الأسرة الاجتماعية الكبيرة.

د- الجوانب التربوية: تربية النفوس وترويضها على بذل الخير والمال، وتطهير القلب والعقل والأعضاء، وربط ذلك كله بالله العفو الغفور.

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/٩٩-١٠٠).

المقطع الرابع: دور اليهود التخريبي في المجتمع الإسلامي، وأمر الله يقوم على العدل (٤٤-٥٨)؛

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ٤٤ ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ^{٤٤} وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا^{٤٥} مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْتَ وَاسْمَعْتَ وَأَنْظُرْنَا وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٦ يَتَّخِثُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ^{٤٧} وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا^{٤٨} إِنَّا اللَّهُ لَا يَغْفِرُ لِمَن يُشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ^{٤٩} وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا^{٥٠} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِلِلَّهِ بُرْكَانًا مِّن يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْنًا^{٥١} أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا^{٥٢} أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحِجَابِ وَالطَّلْعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا^{٥٣} أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا^{٥٤} أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا^{٥٥} أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا^{٥٦} فَمِنْهُمْ مَّن ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا^{٥٧} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَرِيفًا حَكِيمًا^{٥٨} وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا^{٥٩} ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾^{٦٠}

صلة المقطع بسابقه:

بعد الحديث عن حرمة الأموال، والقوامة المالية والتنظيمية في الأسرة، وربط ذلك كله بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر من العبودية لسواه؛ تأتي مجموعة من الآيات في هذا المقطع

ذات شقين: الشق الأول توضّح الآيات فيه الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتكشف دورهم ليأخذ المسلمون حذرهم. ثم تأتي مجموعة من الآيات تتحدث عن الكافرين والمؤمنين، ثم تأمر بأداء الأمانة، والحكم بالعدل. وكل ذلك متصل بمحور السورة: الأمر بالعبادة لتحقيق التوحيد الصحيح والتقوى.

وهكذا يضيف السياق إلى ماهية العبادة الصحيحة قضيتين رئيسيتين هما: أداء الأمانة إلى أهلها، والحكم بالعدل.

المعنى الإجمالي:

من هذه الآيات في السورة تبدأ المعركة التي يخوضها القرآن الكريم بالجماعة المسلمة في مواجهة الجاهلية المحيطة بها - واليهود من أهل الكتاب خاصة - تلك المعركة التي شهدنا مواقعها ومجالاتها في سورتي البقرة وآل عمران من قبل.

وفي الحقيقة إن كل ما سبق في السورة من التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والعائلية والأخلاقية، ومحو الملامح الجاهلية في المجتمع المسلم؛ كل ذلك لم يكن بعيداً عن المعركة الخارجية مع أعداء الجماعة المسلمة في المدينة خاصة، وفي الجزيرة عامة. ما سبق من السورة كان معركة البناء للمجتمع الجديد على أسس المنهج الإسلامي الجديد؛ كي يستطيع أن يواجه المجتمعات المعادية من حوله ويتفوق عليها.

وكما رأينا في سورتي البقرة وآل عمران العناية تتجه أولاً إلى بناء هذا المجتمع من داخله؛ لبناء عقيدته وتصوراته، وأخلاقه ومشاعره، وتشريعاته وأوضاعه، إلى جانب تعليم الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة معهم بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة، ومعرفة بطبيعة المعركة وطبيعة الأعداء. كذلك نجد الأمر هنا في هذه السورة، سواء بسواء. وهي بذاتها معركة الأمة الإسلامية اليوم وغداً في أساسها وحقيقتها^(١).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٨٤، ٨٥، ٨٧).

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۗ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَمَحَرَّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ
 وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾

استئناف لتعجيب المؤمنين من سوء حال أهل الكتاب، والتحذير عن موالاتهم إثر ذكر
 التكاليف والأحكام الشرعية. والخطاب لكل من يأتي منه الرؤية من المؤمنين، وفيه إيذان بكمال
 شهرة حالهم^(١).

والرؤية هنا رؤية القلب، وهي علم بالشيء؛ لذلك قال قوم: معناه ألم تعلم.

وروى الطبري بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رفاعة بن زيد بن
 الثابت من عظمائهم - يعني من عظماء اليهود - إذا كلم رسول الله ﷺ لوى لسانه وقال: راعنا
 سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن في الإسلام وعابه، فأنزل الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
 نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ ۗ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾^(٢).

يخبرنا الله تعالى عن اليهود أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على
 رسوله؛ فيتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ، ليستبدلوا به
 ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا، ولا يكتفون بذلك بل يريدون أن تضلوا السبيل، فتكفرون بما أنزل
 عليكم، وتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ ﴾ وهو يحذركم منهم
 ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا ﴾ لمن لجأ إليه ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ لمن استنصره. والالتجاء إلى الله والاستنصار
 به يكون باتباع تعاليمه وتوجيهاته سبحانه، ومنها عدم تولي الأعداء ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ ﴾،
 فقوله سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ ﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم. ثم بين الجنس الخطير

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/١٠٠).

(٢) جامع البيان، الطبري (٥/٧٤).

من أهل الكتاب وهم الأكثر عداوة فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾، وذكر تصرفاتهم الخطيرة في أساليبهم المتلوية في معركتهم مع أهل الإيوان: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، فيغيرون نصّه، أو يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل، قصداً منهم وافتراءً على الله، ويقولون سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه. وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم من الإثم والعقوبة. ويقولون للنبي ﷺ: اسمع ما نقول لا سمعت؛ وهذا استهزاء منهم واستهتار بسيد المرسلين وقائد المؤمنين، فغير مُسْمَع - الذي لا يتصرف إلا من أسمع - يتخرج فيه معنيان:

أحدهما: غير مأمور وغير صاغر؛ كأنه قال: غير أن تسمع مأموراً بذلك.

والآخر: على جهة الدعاء؛ أي لا سمعت، كما تقول: امض غير مصيب، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي ﷺ بـ ﴿عَبْرَ مُسْمَعٍ﴾ أرت ظاهراً أنها تريد تعظيمه، وأرادت في الباطن الدعاء عليه^(١)، كما يقولون أيضاً: ﴿وَرَاعِنَا لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعَنَّا فِي الدِّينِ﴾؛ فيوهون أنهم يقولون راعنا سمعتك بقولهم ﴿رَاعِنَا﴾، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ. وقد تقدم الكلام في هذا عند قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]، فهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهره ﴿لِيَأْ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعَنَّا فِي الدِّينِ﴾ بسبهم النبي ﷺ^(٢). و﴿لِيَأْ﴾ أصله لويأ قلبت الواو ياءً وأدغمت^(٣). ﴿وَطَعَنَّا فِي الدِّينِ﴾، أي توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

وهذا اللي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا الكثير، إلا أنه لا يليق ذكره هنا^(٤).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٧).

(٣) وهو مفعول مطلق، أي قولاً ليأ.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٢-٦٣).

وبعد أن يحكي القرآن عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب، والأدب الجدير بهم ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن، والفضل والخير من الله لو تابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم، وأنها هكذا كانت، وهكذا تكون^(١):

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، ﴿ وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرُنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا ﴾، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ معناه: أعدل وأصوب، ولكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أبعدهم عن الهدى، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يستحقون به اسم الإيوان؛ حيث يزعمون أنهم موحدون، ويكفرون بمحمد ﷺ، وبجميع أوامر شريعته ونواهيها^(٢).

وصدق الله. فكتلة اليهود ظلت قرونًا طويلة، حرباً على الإسلام والمسلمين، منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة المنورة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - من غزوة الأحزاب قديماً، إلى كيد الصليبية والاستعمار بشتى أشكاله حديثاً - إلا كان من ورائه اليهود، أو كان لليهود فيه نصيب! وعقب الله سبحانه بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة فقال:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهًا قَرَّرْهَا عَلَىٰ أَذْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ ؕ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود؛ منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: « يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٩٠/٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٦٣/٢).

أن الذي جئتكم به لحق «، فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا، وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾^(١)، والعبرة بعموم النص لا بخصوص السبب.

إن القرآن لا يترك فرصة من فرص الموعدة والهدى إلا سلكها، فبعد أن ذكر من عجائب ضلال اليهود، وأقام الحجة عليهم، وهم أهل كتاب، وعندهم العلم والدليل؛ أمرهم بالإيمان بها أنزل على محمد ﷺ. إنهم يعلمون أن هذا الكتاب المنزل فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ ودينه، فينبغي أن يكونوا أول من يؤمن به. غير أن اليهود لهم أحقاد وعناد، وطباعهم منحرفة، وقلوبهم قاسية؛ لذلك يجيئهم التهديد العنيف من الله ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾^(٢). إنه تهديد ووعد على أبلغ وجه، بإزالة الحلقة وطمس أثر الحواس في الوجوه، وتغيير معالمها، وتصير منابت للشعر. وأياً ما كان الطمس، فهو تهديد مرعب، معادل لما وقع لأصحاب السبت، وهم أهل أيلة، الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسخوا قرده وخنازير، وقد بسط الله قصتهم في سورة الأعراف: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٣) [١٦٣-١٦٦]، لذا عطف هنا على طمس الوجوه بـ ﴿أَوْ﴾ فقال: ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ فإذا أمر بأمر، فإنه لا يُخالف ولا يبانع^(٤).

(١) رواه ابن جرير الطبري من طريق ابن إسحاق، وهو طريق حسن. الطبري (٥/٧٩).

(٢) الطمس: إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المسلات: ٨]، وقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ﴾ [يونس: ٨٨]، أي أزل صورتها، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦]، أي أزلنا ضوءها وصورتها كما يُطمس الأثر. انظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٠٧-٥٠٨)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٤٤-٢٤٥).

ثم يأتي تهديد آخر في الآخرة. إنه تهديد بعدم المغفرة لجريمة الشرك، مع فتح أبواب الرحمة الإلهية لما دون ذلك من الذنوب:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (٤٨)

سياق الآية يتضمن الحكم على اليهود بالشرك ؛ لأنهم مع زعمهم طاعة الله فيما أنزل عليهم من التوراة، مع أنهم حرفوها، وعبدوا الأهواء والشهوات، واشتروا الدنيا بالدن، كما وضحت آيات كثيرة ذلك ؛ مع زعمهم هذا، فإنهم لم يطيعوا الله فيما أنزل على رسوله، قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، حيث كانوا يقرون للأحبار والرهبان بحق التشريع، أي حق التحليل والتحریم، وهو الحق الخاص بالله الخالق، والذي هو من خصائص الألوهية، فهم مشركون مع الله طاعة وعبادة غيره، والآية تدعوهم إلى التوحيد الخالص بالطاعة والعبودية لله وحده والتحرر من العبودية لسواه^(١).

وهذه الآية وإن وردت في سياق تهديد اليهود، إلا أنها عامة في كل العباد ؛ فإنه تعالى لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده^(٢).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله ؛ فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه ؛ من صوم يتركه، أو صلاة تركها ؛ فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة »^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٠٨).

(٣) مسند أحمد (٢٥٥٠٠).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»، وقلت أنا: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة^(١). وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ كلمة وقلت أخرى؛ قال النبي ﷺ: من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو من دون الله نداً دخل الجنة^(٢).

ويشنع الله الشرك: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾^(٣). والآية كقوله: ﴿ إِنِ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وعن ابن مسعود قال: قلت: يا رسول الله؛ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك... الحديث »^(٤)، وهذا الاستئناف في آخر الآية مشعر بتعليل عدم غفران الشرك^(٥).

ويمضي السياق بذكر المعركة التي يخوضها القرآن بالمسلمين مع أهل الكتاب عامة، ومع اليهود في المدينة خاصة، الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، ويشنون على أنفسهم وهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويتناولون على الله ورسوله، ويعملون على إضلال الناس وإبعادهم عن الحق، فيبين الله كذبهم وكفرهم بإيائهم بالجبوت والطاغوت؛ فهل هم مقربون من الله بما عملوا من سوء!

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤١﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ

(١) البخاري (١٢٣٨)، ومسلم (٩٢).

(٢) البخاري (٤٤٩٧، ٦٦٨٣)، وعند مسلم (٩٣) عن جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله؛ ما الموجبتان فقال: « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»، وروى مسلم عن أنس بمثله.

(٣) الافتراء: الكذب الذي لا شبهة للكاذب فيه؛ لأنه مشتق من الفري، وهو قطع الجلد، والإثم العظيم: الفاحشة الشديدة. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٨٤/٥).

(٤) البخاري (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١)، ومسلم (٨٦)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥١١/١).

(٥) روح المعاني، الألوسي (١٠٧/٢).

يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

لا شك أن ظاهر لفظ الآية الأولى العموم، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، يدل على أن الإنسان لا يزكي نفسه بلسانه، بل الزاكي من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل، ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد بالآية اليهود. واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم على أقوال:

قال البعض: ذلك قولهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبْتُوهُمْ﴾ [المائدة: ١٨]، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾ [البقرة: ١١١].

وقال آخرون: هو قولهم: لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهاراً غفر لنا ليلاً، وما فعلناه ليلاً غفر لنا نهاراً، ونحن كالأطفال في عدم الذنوب^(١)، ولعلمهم كانوا يزكون أنفسهم بكل ذلك، ويكفي ما يزعمون أنهم شعب الله المختار. وفي الواقع هم بلاء على شعوب الأرض كلها في العصر الحاضر.

وقد ذم النبي ﷺ الإكثار من المدح لثلاثي يؤدي بالممدوح إلى الكبر، فعن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد بن عمرو يثني عليه التراب، وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب^(٢)، وعن أبي بكر أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ، فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: «ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مراراً - إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسببه الله، ولا يزكي على الله أحداً»^(٣).

ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿بَلِ اللَّهُ يُرَكِّبُ مِنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾؛ فالمرجع في التزكية إلى الله عز وجل؛ لأنه العالم بحقائق الأمور وغوامضها، فهو سبحانه لا يظلم أحداً حقه، ولا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٤٦).

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٢)، والترمذي (٢٣٩٣)، وغيرهما.

(٣) البخاري (٦٠٦١، ٦٠٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

فهؤلاء اليهود يعتقدون عبادة الأهواء والمصالح، ويكفرون بالله ليصلوا إلى غايتهم في تأليب المشركين على أهل الإيمان، فدينهم: الغاية تبرر الوسيلة؛ لذلك نرى اليهود يعظمون غير الله، ويقولون لأهل الشرك وعباد الأصنام: ﴿ هَتُّوْلَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ من أجل أن يرضوا أهل الشرك على أهل التوحيد، ويصلوا إلى غايتهم في تدمير المسلمين ودينهم ^(١)؛ وفعلاً إنهم بعملهم هذا وإغراءاتهم للمشركين دفعوهم لحرب المسلمين، حيث وعد اليهود أهل الشرك أن يمدوهم بالمال لحرب محمد ﷺ، وطاف وفداهم في الجزيرة العربية، وكان لهم ما أرادوا فحزبوا الأحزاب. ولأول مرة في تاريخ العرب يتحدون تحت قيادة أبي سفيان، وبتوجيه وتمويل يهودي لحرب الإسلام والمسلمين، وكانت غزوة الأحزاب، وكانت أشق وأكبر وآخر غزوة على المؤمنين، غير أن أهل الشرك واليهود خذلوا وخسروا أموالهم التي أنفقوها ليصدوا عن سبيل الله؛ ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴿ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وسبب النزول يوضح ذلك؛ فعن ابن عباس قال: كان الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة حبي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وأبورافع، والربيع بن أبي الحقيق، وأبو عامر، ووحوح بن عامر، وهودة بن قيس، فأما ووحوح وأبو عامر وهودة فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير؛ فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوا أدينكم خير أم دين محمد، فسألوهم، فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه، فأنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْبَسْتِ وَالطَّلْعُوتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَءَايَاتِنَهُمْ مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥١٢-٥١٣).

(٢) رواه ابن جرير من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، وهو طريق حسن، وكذا روى ابن =

ولهذا لعن الله اليهود، وأخبر بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، ويستجيشونهم على حرب محمد ﷺ^(١). وما هم الآن في هذا الزمان، وفي كل عصر يستنصرون بالناس من أهل الكفر ويستجيشونهم لحرب الإسلام والمسلمين بأساليب كثيرة ومتعددة.

وتشرع الآيات بعد ذلك في تفصيل بعض آخر من قبائحهم، فتستنكر موقفهم من النبي ﷺ، وحسدكم إياه على ما آتاهم الله من فضله:

﴿ أَمْ لَكُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ إِذَا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس نقيراً، وهي النقطة التي في النواة، وذلك لشدة بخلهم وإسآكهم^(٢). وهو كناية عن الغاية في الحقارة والقللة على مجاز العرب واستعارتها، بل يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة، وهو محمد ﷺ، لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل. فلم يحسدونه ولا يحسدون آل إبراهيم عز وجل في جميع ما آتيناهم مما أوتي موسى وداود وعيسى، ﴿ وَءَاتَيْنَهُم مَّلْكًا عَظِيمًا ﴾ كملك سليمان وداود عليهما السلام، وآتيناهم مع ذلك الحكمة؛ وهي الفهم في الدين، وما يكون من الهدى مما لم تنص عليه الكتب المنزلة.

فمنهم من آمن بالقرآن المنزل على محمد ﷺ. والجمهور على أن الضمير ﴿ به ﴾ عائد على القرآن الذي مرّ في قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا ﴾، فأعلم الله سبحانه أن منهم من آمن كما أمر الله؛ فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس

= جرير من طرق بنحوه عن كعب بن الأشرف وغيره. جامع البيان، الطبري (٥/ ٨٥).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٣).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٠٩).

ولم يقع، وصدّ قوم ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِيحْتِمُومٍ سَعِيرًا﴾. وعقب ذكر الإيمان من بعض بني إسرائيل، والصد عن الإيمان تأتي القاعدة الشاملة للجزاء. جزاء المكذبين وجزاء المؤمنين، في كل دين، وفي كل حين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَّبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

تهديد ووعد لجميع الكافرين، فهي أعم مما قبلها، فلها حكم التذييل. والإصلاء: مصدر أصلاه، ويقال: صلاة صلياً، ومعناه شئ اللحم على النار^(١)، ﴿كَمَا نَصَّبَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، أي كلما احترقت جلودهم وتلاشت، من نضج اللحم نضجاً، إذا أدرك^(٢).

إنه مشهد لا يكاد ينتهي. مشهد شاخص متكرر، يشخص له الخيال ولا ينصرف عنه! إنه الهول، ولل هول جاذبية آسرة قاهرة! والسياق يرسم ذلك المشهد ويكرره بلفظ واحد ﴿كَمَا﴾، ويرسمه كذلك عنيماً مفزعة بشطر جملة: ﴿كَمَا نَصَّبَتْ جُلُودُهُمْ﴾، ويرسمه عجيماً خارقاً للمألوف بتكملة الجملة: ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، فجعل الهول الرهيب المفزع العنيف كله في جملة شرطية واحدة لا تزيد! ^(٣)

وعلى ذلك بقوله: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، فالجلد هو الذي يوصل إحساس العذاب إلى النفس، والتعليل مشعر أيضاً بدوام العذاب وعدم انقطاعه، ولأن التعبير عن إدراك العذاب بالذوق، من حيث إنه لا يدخله نقصان بدوام الملامسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلاسه بالقوة الدائقة أشد الحواس تأثيراً. وختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٥٣).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/١٤٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٠٠).

حَكِيمًا)؛ وهذا واقع موقع التعليل لما قبله؛ فالعزة يتأتى بها تمام القدرة على عقوبة من يجترئ على الله سبحانه، والحكمة يتأتى بها تلك الكيفية في إصلاحهم النار.

وفي مقابل بيان سوء حال الكفرة يأتي بيان حال المؤمنين لزيادة الغيظ للكافرين: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وفي اختيار السين ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ تأكيد للوعد، وفي اختيار سوف في آية الكفر ﴿سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ﴾ من تأكيد الوعيد ما لا يخفى.

ونجد في المشهد ثباتاً وخلوداً مطمئناً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، واقتصر من نعيم الآخرة على لذة الجنات والأزواج المطهرة من الحيض والنفاس، وسائر المعايب والأدناس، والأخلاق الدنيئة، والطباع الرديئة؛ لأن الجنات والزوجات الصالحات أحب اللذات المتعارفة للسامعين، وعطف على ذلك روح الظلال النديّة؛ يرف على مشهد النعيم ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ دائماً لا تنسخه الشمس، ندياً لا حرّ فيه ولا قر^(١).

ويختتم المقطع بأمر المؤمنين بأداء الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بين الناس بالعدل؛ فهذا هو أمر الله وشرعه الذي يعارضه الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، فهم لا يريدون العدل، ولا يحبون من يرددهم عن غيهم وطغيانهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨).

إن ما استطرده من ذكر أحوال أهل الكتاب في تحريفهم الكلم عن مواضعه، وليتهم ألسنتهم بكلمات فيها توجيه من السب، وافترائهم على الله الكذب، وحسدتهم بإنكار فضل الله إذ أتاه الرسول والمؤمنين؛ كل ذلك يشتمل على خيانة أمانة الدين، والعلم، والحق، والنعمة، وهي أمانات معنوية،

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/١١١-١١٢).

فناسب أن يعقب ذلك بالأمر بأداء الأمانة الحسية إلى أهلها^(١)، بالإضافة إلى وظيفة الأمة المسلمة في الأرض، من إقرار مبادئ العدل والخلق على أساس منهج الله القويم السليم.

وإذا كان أكثر المفسرين ذكروا أن سبب نزول هذه الآية: أن رسول الله ﷺ قبض من عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة، فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح. وطرق الرواية كلها إلى التابعين^(٢)، والعبرة بعموم النص؛ وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والندور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع، وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ»^(٣)، وأكد النبي ﷺ الأمر بأداء الأمانة فقال: «أَدِّ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ»^(٤).

والحكم بالعدل الذي يأمر الله به المسلمين إنما هو عدل مطلق شامل، وهو بين الناس جميعاً، لا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا هو عدل بين أهل الكتاب، إنما هو المنهج الرباني الذي يقرر الحكم بالعدل بين الناس جميعاً؛ المؤمن والكافر، والصديق والعدو، والأسود والأبيض؛ لأنهم جميعاً «ناس»، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ نَعِمًا يَعْظُمُ بِهِ﴾ واقعة موقع التحريض على امتثال الأمر، فكانت بمنزلة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٩٠/٥).

(٢) وما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن مردويه، فهو من طريق الكلبي، وهي طريق ضعيفة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢)، والترمذي (٢٤٢٠).

(٤) رواه الترمذي (١٢٦٤)، وأبو داود (٣٥٣٥)، وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥١٥).

التعليل^(١). والتعبير يقدم لفظ الجلالة ﴿الله﴾، ويجعله اسم ﴿إن﴾، لتربية المهابة في النفوس وليوحي بشدة الصلة بين الله وهذا الذي يعظمهم به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ بجميع المسموعات ومنها أقوالكم، ﴿بَصِيرًا﴾ بكل شيء، ومن ذلك أفعالكم، ففي الجملة وعد ووعد^(٢).

ويبرز في هذا المقطع ارتباطه بمحور السورة بأن التوحيد الصحيح إنما يكون بنبذ الشرك والتحرر من العبودية لغير الله تعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: سبيل النجاة العبودية والطاعة لله وحده والتحرر عن العبودية لسواه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ب- الأحكام الشرعية: وجوب أداء الأمانة، والحكم بين الناس بالعدل.

ج- الأخلاق الإسلامية تقتضي أداء الأمانة لأهلها، والعدل المطلق في الحكم بين العدو والصديق؛ فالقرآن ينشئ خير أمة أخرجت للناس.

د - الجوانب التربوية: تظهر التربية الإسلامية في هذا المقطع بالعلم بالواقع على حقيقته، وذلك بتعريف الجماعة المسلمة كل شيء عن طبيعة أعدائها، ووسائلهم، وتحذيرها من كيدهم ومكرهم، وتوجيهها إلى المعركة الباردة حالياً، والساخنة فيما بعد، بقلوب مطمئنة، وعيون مفتوحة، وإرادات محشودة. ولهذا وردت آيات كثيرة في هذا المقطع توضح الرؤية في أمر أهل الكتاب، وتربي نفوس المسلمين، بتعريفهم طبيعة المعركة، وطبيعة الأعداء في الداخل والخارج من اليهود، ويأتي الحديث عن الأعداء في الداخل من المنافقين بعد.

(١) ﴿نعما﴾ أصله: نَعَمَ ما، بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة، وأدغم الميمان، وحركت العين الساكنة بالكسر لالتقاء الساكنين. والوعظ: التذكير والنصح، وقد يكون فيه زجر وتخويف. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٩٦/٥).

(٢) روح المعاني، الألوسي (١١٥/٢).

المقطع الخامس: أساس الدين وحقيقة الإيمان طاعة الله ورسوله (٥٩-٧٠):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدِ امْرَأَةٌ آتَتْكَ بِوَلَدٍ غَيْرِكَ فَأَنَّهَا خَاطِئَةٌ كَثِيرَةٌ إِنَّهَا كُفِّرَتْ بِنُفْسِهَا وَأَنَّهَا عَاقِبَةٌ لَّئِيْلٌ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٦٠﴾ وَإِذِ قِيلَ لَهُم تَمَلَّوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِن أَرَدْنَا إِلَّا بِحَسَنَةٍ وَتَوَفِّيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ۞

صلة المقطع بسابقه:

إذا كان المقطع السابق قد عرّف الجماعة المسلمة طبيعة الأعداء في داخل المجتمع المسلم من اليهود، فهذا المقطع يبين طبيعة نوع آخر من الأعداء في الداخل وهم المنافقون؛ مبتدئاً ببيان أنّ حقيقة الإيمان تكون في طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً.

المعنى الإجمالي :

إذا اشترى أحد سيارة أو جهازاً ميكانيكياً أو كهربائياً، فإنه لا يتصرف في الجهاز إلا تبعاً للتعليمات التي يضعها صانع الجهاز (الكتلوك)، وإلا فإنه يفسد الجهاز، ولا يتمكن من الاستفادة منه، وكذلك من يعقل (يستعمل عقله) يدرك أنه لا بد من اتباع التعليمات التي ينزلها خالق الإنسان والكون والحياة، فهو العالم بمن خلق، وبمصلحة من خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وهل تُستنبط تلك التعاليم مما تحكم به عقول الناس أو أهواؤهم؟!

إن للعقل البشري وزنه وقيمه بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان. هذا حق، ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات، في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات. ليس هناك ما يسمى «العقل البشري» كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان ما، وفي زمان ما. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى؛ تميل بها من هنا، وتميل بها من هناك.

ولابد من ميزان ثابت ترجع إليه هذه العقول الكثيرة، فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها، ومدى الشطط والغلو، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان الثابت، الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات.

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين، فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها فتختل جميع القيم، ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر، لسائر القيم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة^(١):

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٠٩-١١٠).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾.

طاعة الله سبحانه وحده لا شريك له، والتحرر عن العبودية لسواه، أساس الدين فالله خالق الإنسان، والحياة، والكون الذي يعيش فيه الإنسان، وهو سبحانه العليم بما يصلح الإنسان والكون، والعليم بما يُسعد الإنسان، وطاعة الرسول ﷺ هي من طاعة الله ؛ لأنه المبلغ أمر الله وشرعه. فلا إيمان بالقرآن، ولا إيمان بالرسول ﷺ، ولا إيمان بالله، إلا بالطاعة لله والرسول. وطاعة الرسول بعد وفاته اتباع سنته.

وعطف سبحانه طاعة أولي الأمر على طاعة الله والرسول، ولم يقل: ﴿ وأطيعوا أولي الأمر ﴾ ؛ لأن طاعة أولي الأمر تنظيم لا طاعة عبودية، بخلاف طاعة الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يخضع ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٣-٤]، وظاهر قوله: ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ عام في كل أولي أمر من الأمراء والعلماء. ومن المعلوم أن من يقيم أحكام الله على من يتولى أمرهم لا بد أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون على جانب كبير من التقوى والإيمان، فلا يكون من المنافقين أو الكافرين ؛ لأن الله قيد ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ بقوله: ﴿ مِنكُمْ ﴾ ؛ فلا ولاية لغيركم عليكم^(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية^(٢). وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني، قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهتموا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥١٨)، وروح المعاني، الألوسي (٢/١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٤)، ومسلم (١٨٣٤)، وأخرجه أصحاب السنن إلا ابن ماجه.

فقال: « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف »^(١).

فطاعة الأمير واجبة بنص القرآن، وبأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام في غير معصية الله عز وجل: لأنها طاعة تنظيم - كما ذكرت قبل قليل - لا طاعة عبادة، وقال النبي ﷺ: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة»^(٢). وإذا وصل الأمر بالأمير إلى الكفر الواضح انقطعت بيعته، فلا طاعة له، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: « إلا أن تروا كفرةً بواحاً عندكم فيه من الله برهان »^(٣).

وهذه الطاعة التنظيمية للأمير لا بد منها من أجل جمع كلمة المسلمين، وإقامة شرع الله فيهم، كما أن اجتماعهم على أميرهم يحقق وحدتهم وقوتهم، لهذا أكد النبي ﷺ على الطاعة، كما أكد البيعة ووحدة الجماعة؛ قال رسول الله ﷺ: « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية »^(٤)، وقال النبي ﷺ: « من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية »^(٥).

وإن اختلف المسلمون فيما بينهم، أو فيما بينهم وبين أميرهم فعليهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقوله تعالى: ﴿ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾، ومن لم يرض بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله اختل إيمانه، لقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾. ويكون الرد إلى الكتاب والسنة بأخذ الحكم منهما أو من أحدهما إن ورد الحكم صريحاً فيهما، أو يكون الرد باستنباط الحكم منهما بالقياس العام أو الخاص عليهما، كما قال

(١) البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٤، ٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

(٣) البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

(٥) رواه مسلم (١٨٥٤).

تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] وهذا يؤكد أن أولي الأمر هم العلماء، أو ينبغي أن يكونوا من العلماء. وردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم في العاجل، وأحسن عاقبة في الآجل، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(١). فليست المسألة أن اتباع حكم الله وأمره يؤدي إلى رضاه الله وثواب الآخرة - وهو أمر عظيم مطلوب لذاته - ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا، وحسن مآل الفرد في الجماعة في هذه الحياة القريبة.

وحين ينتهي السياق من تقرير هذه القاعدة الكلية في شرط الإيذان وحد الإسلام، وفي النظام الأساسي للأمم المسلمة، وفي منهج تشريعها وأصوله، يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مؤمنون! وهم ينقضون شرط الإيذان وحد الإسلام حين يتركون طاعة الله ورسوله، ويريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله، ويرضون بحكم طاغوت من الطواغيت التي أمروا أن يكفروا بها^(٢):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيذان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما ورد في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٦١-٢٦٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥١٨).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١١٢، ١١٣).

تخاصماً فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. والآية عامة، فإنها دامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾^(١)، وكيف يتحاكمون إلى الطاغوت ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾، فهؤلاء الذين يتحاكمون إلى الطاغوت بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]، ثم قال سبحانه مبيناً إضلال الشيطان لهم؛ لأنهم أطاعوه فاستعبدتهم: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، أي بعيداً عن الحق. ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾، أي تعالوا إلى حكم الله وحكم رسوله ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، أي يعرضون عنك إعراضاً^(٢). ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾، أي كيف يصنعون ويحتالون إن أصابتهم عقوبة من الله بسبب ردهم حكم الله ورسوله، أو بسبب معاصيهم المتقدمة، ثم جاءوك يا محمد، ويا من تحكم بالحق الذي أنزله الله بعد محمد ﷺ، جاءوك يعتذرون إليك في احتكامهم إلى غير الله ورسوله، ويقولون ما أردنا في عدولنا عنك إلا إحساناً بالتقريب في الحكم وتوفيقاً بين الخصوم، وقد تكون المصيبة التي تصيبهم ظلم يقع عليهم؛ نتيجة التحاكم إلى غير نظام الله العادل، ويعودون بالخيبة والندامة من الاحتكام إلى الطاغوت، في قضية من قضاياهم.

وقد تكون المصيبة التي تصيبهم بسبب انكشاف أمرهم في وسط الجماعة المسلمة حيث يصبحون معرضين للنبذ والازدراء في الوسط المسلم. وأياً ما كان سبب المصيبة، فإنهم يبررون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥١٩)، والطاغوت الكاهن والشيطان، وكل رأس في الضلال. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/٢٨٢)، وقد أورد الطبري بأسانيد كثيرة يقوي بعضها بعضاً روايات سبب النزول، مفادها ما ذكر ابن كثير من الخصومة بين يهودي ومنافق. انظر جامع البيان، الطبري (٥/٩٦-٩٨).

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (١/٣٣٩).

تصرفاتهم بتبريرات كاذبة، ليخفوا ما في قلوبهم من كرههم لما أنزل الله وحبهم للطاغوت^(١)

﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۗ ﴾ [محمد: ٩]. ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق والزيغ عن الحق، ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴾، ولا تعاقبهم، ﴿ وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾، انصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم، فيه من الترغيب والترهيب ما يصلح نفوسهم إذا شاء الله لهم الهداية^(٢).

فالقرآن يرغبهم في العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله، بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت، ومن الصدود عن الرسول وستته حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول. فالتوبة بابها مفتوح، والعودة إلى الله لم يفت أو أنها بعد، واستغفارهم الله من الذنب، واستغفار الرسول لهم فيه القبول. ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية، وهي أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا بإذنه، لا يخالف أمرهم^(٣):

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۗ ﴾

هذه حقيقة لها وزنها. إن الرسول ليس واعظاً أو ناصحاً يلقي كلمته ويمضي؛ إنما هو مرسل من قبل الله الخالق ليلبغ الناس أوامر خالقهم وتعاليمه، التي تحررهم من العبودية للمخلوق، وترسم لهم المنهج الذي يصلح أمورهم، ويحقق لهم السعادة في الدنيا قبل الآخرة. إن الدين الذي أرسل الله به الرسل هو منهج حياة واقعية بتشكيلاتها وتنظيماتها وأوضاعها، وقيمها، وأخلاقها وآدابها، وشعائرها. وهذا كله يقضي أن يكون للرسالة سلطان يحقق المنهج، وتخضع له النفوس خضوع طاعة وتنفيذ^(٤).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١١٦/٥).

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي (١٢٠-١٢٢).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (١١٧/٥).

(٤) المرجع السابق.

وأمام الذين ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بميلهم عن منهج الله الفرصة التي دعا الله المنافقين إليها على عهد رسول الله ﷺ، ورغبهم فيها. وهي أن يأتوا رسول الله ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويستغفر لهم الرسول. والله تواب في كل وقت على من يتوب، رحيم في كل وقت بعباده، فالذين يتناولهم هذا النص ابتداءً، كان لديهم فرصة استغفار الرسول ﷺ، وبقي باب التوبة مفتوحاً لا يغلُق، ووعد الله قائماً لا يُنقض، لمن تاب إلى رشده، وأقبل على هدي رسول الله ومنهجه الذي أنزله الله.

ثم يأتي الإيقاع الحاسم الجازم، فيقرر الله سبحانه شرط الإيذان وحد الإسلام، يقره سبحانه بنفسه، ويقسم عليه بذاته:

﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١٥)

هذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام، جاءت في صورة قسم مؤكد؛ مطلقة من كل قيد، وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام، بأن تحكيم الرسول هو تحكيم شخصه، إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه، وهو صلوات الله وسلامه عليه، مبلغ شرع الله سبحانه - بقرآنه المتلو وبسته القولية والعملية - وكل ذلك وحي من الله، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)﴾ [النجم: ٣-٤].

وقد روي عن عبد الله بن الزبير أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شِراجِ الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سَرَحَ الماءَ يَمْرًا، فأبى عليه، فاختصمها عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك ﴿فلا وريك لا يؤمنون حتى

يُحْكَمُوكَ فِيهَا شَجَرٍ بَيْنَهُمْ ﴿١١﴾ .

يقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به هو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١١)، أي يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة (١٢).

ثم بين سبحانه أن شرعه ودينه لا يكلف الناس ما يخرج عن حدود الطاقة:

﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّبًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيهِمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ .

ولو أنا فرضنا على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، المحتكمين إلى الطاعت أو أن يقتلوا أنفسهم أو أن يخرجوا من ديارهم مهاجرين منها إلى دار أخرى سواها، ما فعلوا ذلك؛ ما قتلوا أنفسهم، ولا خرجوا من ديارهم طاعة لله ورسوله، إلا قليل منهم (١٤). وقد أطاع المهاجرون أمر ربهم وأمر رسوله، فتركوا ديارهم وأموالهم، وخرجوا إلى الله ورسوله، وهم

(١) البخاري (٢٣٦٠-٢٣٦٣، ٢٧٠٨، ٤٥٨٥)، ومسلم (٢٣٥٧)، وأصحاب السنن. والشراح: جمع شَرَحَ - بسكون الراء - وقيل: شَرَحَ - بفتحها -، والمراد بها هنا مسيل الماء. والجَدْر - بفتح الجيم وسكون الدال - هو المسناة، وهو ما وضع بين شربات النخل كالجدار، وقيل: الخواجز التي تجبس الماء. قال القرطبي: والمعنى أن يرجع الماء إلى أصول النخل. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٤٦٠)، (٤٦٢).

(٢) شجر: اختلط والتفت من أمورهم، وهو من الشجر شبيه بالتفاف الأغصان. والحرج: الضيق والتكلف والمشقة. انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٠).

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري (٥/ ١٠١).

قليل بالنسبة لأهل الكفر والنفاق، وقد كتب الله على قوم موسى أن يقتلوا أنفسهم، ولم يكن هذا شرعاً ومنهجاً، إنما كان عقوبة لشركهم وعبادتهم العجل، فهو وضع خاص لقوم قست قلوبهم كما قال تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، إن هذا المنهج الرباني لينهض به كل ذي فطرة سوية، إنه لا يحتاج للعزائم الخارقة الفائقة التي لا توجد عادة إلا في القلة من البشر، وهذا الدين لم يجرى لهذه القلة القليلة، إنه جاء للناس جميعاً، والناس معادن وألوان وطبقات من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف. وهذا الدين يسر لهم جميعاً أن يؤديوا الطاعات المطلوبة فيه، وأن يكفوا عن المعاصي التي نهى عنها؛ حتى تتحقق لهم السعادة جميعاً في هذه الحياة الدنيا، فالله أدرى بمصالح مخلوقاته، وبما يسعدهم، فهو سبحانه يريد خيرهم، ولا يريد أن يشق عليهم.

ما هي إلا عزيمة الفرد العادي، وإخلاص النية لله، والبدء بالعمل، وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين^(١): ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾، لو أن المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يتحاكمون إلى الطاغوت فعلوا ما يذكرون به من طاعة الله، والوقوف مع أمره، وهم يزعمون أنهم يؤمنون به، لكان خيراً لهم من مخالفة أمره سبحانه، وأشد تصديقاً^(٢) فمجرد البدء بالعمل يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في سلوك الطاعة والبعد عن العصيان، ويتبعه الأجر العظيم من الله في الجنة، ومعه الهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٨﴾﴾^(٣).

وفي نهاية المقطع يعود السياق ليرغب النفوس، ويستجيش القلوب للمتعة بصحبة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين في الجنة، ويقرر أن ذلك يكون بطاعة الله والرسول ﷺ:

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٢٠-١٢١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٢).

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾.

لما ذكر الله سبحانه الأمر الذي لو فعلوه لأنعم عليهم، ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله. وهذه الآية تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾^(١).

فمن عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه عنه الله ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى سبحانه عليهم فقال: ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾. عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحْيَا أو يُخَيَّرُ»، فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصرة نحو سقف البيت، ثم قال: «في الرفيق الأعلى»، فقلت: إذا لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح^(٢). ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾، فهو سبحانه أهلهم لذلك لا بأعمالهم، وهو سبحانه عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق^(٣).

وروي عن التابعين آثار في سبب نزول هذه الآية، فعن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان، مالي أراك محزوناً؟»، قال: يا نبي الله، شيء ففكرت فيه، فقال: «ما هو؟»، قال: نحن نغدو عليك ونروح، ننظر في وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي ﷺ شيئاً، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٧٦/٢).

(٢) البخاري (٤٤٣٧)، وفي أخرى (٤٤٣٨): «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، وعند مسلم (٢٤٤٤): إذا لا يجاورنا.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٢، ٥٢٤).

وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦١﴾، قال: فبعث إليه النبي ﷺ فبشره، وعن الربيع بن أنس: قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ قال: إن أصحاب النبي ﷺ قالوا: قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة، ممن اتبعه وصدقته، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً، فأنزل الله في ذلك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأعلى ينحدرون إلى من هم أسفل منهم، فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم عليهم ويشنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يجرون ويتنعمون فيه»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغُرفِ من فوقهم كما يتراءون الكواكب الدريّ الغابريّ في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(٢)، وطاعة الله والرسول صلوات الله عليه وسلامه في منهج الله كله، قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»^(٣).

والمقطع بمجمله هو محور السورة، إذ يبيّن أن أساس الدين وحقيقة الإيابة والعبودية الطاعة لله ورسوله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

- أ - قضايا العقيدة: حقيقة الإيابة تكون بطاعة الله ورسوله. وطاعة أولي الأمر من المسلمين طاعة تنظيم، إنما هي في غير معصية الله ورسوله، ولا ولاية لغير المسلم على المسلم.
- ب - الأحكام الشرعية تستنبط من الكتاب والسنة، وإذا جدّ أمر أو حصل خلاف فعلى المسلمين

(١) روي الأثر الأول مرسلًا عن مسروق وعكرمة وعامر الشعبي وقتادة، وأحسنها سنداً الرواية عن الربيع بن أنس. تفسير ابن جرير (١٠٤/٥).

(٢) البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: هذا حديث حسن، ورواه الدارمي (٢٥٣٩).

أن يرجعوا إلى حكم الله ورسوله.

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب: تستقر أخلاق المسلم على الصدق في القول والعمل، فلا يحتكمون لغير ما أنزل الله على رسوله، لأنهم تحرروا ظاهراً وباطناً من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

د - الجوانب التربوية: تربية النفوس وترويضها على التحرر من النفاق، وأن تكون الطاعة خالصة لله ورسوله.

المقطع السادس: قتال أعداء الحق ضروري لتحرير المستضعفين وحماية الحق، وهدف الجهاد تحرير الإنسان (٧١-٩٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَىٰ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكُمْ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ لَاقِيَهُمُ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ٨٢ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ٨٣ فَتَقَبَّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَآتِيكَ مِنْهُ جَائِدٌ فَكُلْ مِنْهُ وَأَنْتَ حَيٌّ وَرَحِيمٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ٨٤ مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ٨٥ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَجِيحَةٍ فَحَيُّوا بِحَسَنٍ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ٨٧ فَمَا لَكُمْ فِي الْأَنْتِفَاعِ بِفِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ٨٨ وَذُو أَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْجِذُوا مِنْهُمْ وَلَا نَصِيرًا ٨٩ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ حَصْرٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْبَلُواكُمْ أَوْ يَقْبَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَإِنْ آخَرْتُمُوهُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ٩٠ سَتَجِدُونَ الْآخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ٩١ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٩٢ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَسَّرُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى

إِلَيْكُمْ أَسَلَّم لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

وجه اتصال المقطع بما قبله :

إنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بإحياء دينه وإعلاء دعوته في الخارج^(١)، لتحرير الناس من تسلط الطواغيت، كما أمر من قبل بطاعته وتحرير النفس من العبودية لغيره.

المعنى الإجمالي :

القرآن يخوض المعركة بالجماعة المسلمة في ميادين كثيرة. وكان أولها ميدان النفس ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية القديمة والحديثة، كما يخوض المعركة بالجماعة المسلمة ضد الضعف البشري؛ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف. وكان -وما زال- القرآن يسوسها بمنهجه الرباني لتصل إلى مرتبة القوة، ثم إلى مرتبة التناسق في الصف المسلم لتصدّ أعداءها في الداخل والخارج^(٢)، فالمقطع يبين محل القتال في التقوى، بعد أن بين أن التقوى في طاعة الله والرسول. كما يوضح للمسلمين معالم القتال وهدفه؛ فهو في سبيل الله، لا في سبيل الطاغوت، وهدفه النبيل تحرير المستضعفين، لا التسلط على العباد.

تشير الآية الأولى إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين، وليس في كلام السلف ذكر سبب نزولها، ولا شك أنها لم تكن أول غزوة؛ لأن غزوة بدر وقعت قبل هذه السورة، وكذلك غزوة أحد التي نزلت فيها سورة آل عمران؛ وليست نازلة في غزوة الأحزاب؛ لأن قوله: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ يقتضي أنهم غازون لا مغزؤون، ولعلها نزلت لمجرد التنبيه إلى قواعد الاستعداد لغزو

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٧٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٣٠).

العدو، والتحذير من العدو الكاشح، ومن العدو الكائد، ولعلها إعداد لغزوة الفتح، فإن هذه السورة نزلت في سنة ست، وكان فتح مكة سنة ثمان، ويدل لذلك قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾، وقوله: ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ ﴾.

وابتداء الأمر بأخذ الحذر من العدو، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله. وأخذ الحذر أكبر قواعد القتال لاتقاء خدع الأعداء^(١). ﴿ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾، اخرجوا مجدين مصممين^(٢)، سرية بعد سرية، أو نفيراً عاماً ينفر به الجميع إذا لزم الأمر^(٣).

ثم بين سبحانه أن ممن يخالطون المؤمنين ويتظاهرون بالإيمان، أناساً يتخلفون عن القتال في سبيل الله، فيتباطؤون عنه، ويبطئون غيرهم، ﴿ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصِيبَةٌ ﴾ من قتل أو استشهاد وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أو على أن الموت كله مصيبة كما شاء الله تعالى: ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة لحسن مآلها؛ ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمَّا كُنْتُ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ سره عدم حضور القتال مع المؤمنين وعده نعمة من نعم الله عليه. إنهم ينظرون إلى القتال من خلال المصلحة المادية، فإذا رأوا المسلمين أصيبوا فرحوا، وإن رأوهم غلبوا وغنموا تمنوا أن يكونوا معهم ليصيبوا من الغنائم، ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾^(٤)، وقوله سبحانه: ﴿ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ أي لم تكن بينكم وبينه معرفة ووداً؛ فلا مودة في الدين والولاء. وهذا الاعتراض من كلام الله تعالى، لئلا يتوهم

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (١١٧/٥).

(٢) يقال: نفّر الرجل ينفر - بكسر الفاء - نفيراً، ونفرت الدابة تنفر - بضم الفاء - نفوراً، والمعنى انفضوا لقتال العدو، وثبات: معناه جماعات متفرقات، كناية عن السرايا، وجميعاً: الجيش الكثيف. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٧٧/٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٧٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٤).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٧٧/٢).

من مطلع كلامه: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ أن تمنيه المعية للنصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من المودة، بل هو للحرص على حطام الدنيا، كما ينطق به آخره، فإن الفوز العظيم الذي عناه هو ذلك، وليس إثبات المودة بطريقة التحقيق، بل بطريقة التهكم^(١). ويظهر التعبير القرآني أن المناق يعبّر نفسه صنفاً آخر منفصلاً عن المؤمنين في المودة والولاء والأهداف.

ومن وراء التحذير والاستنهاض للجماعة المسلمة في ذلك الزمان، يرتسم نموذج إنساني متكرر في بني الإنسان في كل زمان ومكان في هذه الكلمات المعدودة من كلمات القرآن! ثم تبقى هذه الحقيقة تتملاها الجماعة المسلمة أبداً؛ وهي أن الصفّ قد يوجد فيه أمثال هؤلاء، فلا يئس من نفسه، ولكن يأخذ حذره ويمضي، ويحاول بالتربية والتوجيه والجهد أن يكمل النقص، ويعالج الضعف، وينسق الخطى والمشارع والحركات.

ثم يمضي السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطلين الثقيلين بالطين! وأن يوقظ في حسهم التطلع إلى الآخرة التي هي خير وأبقى، وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة ويعددهم على ذلك فضل الله في الحالتين، وإحدى الحسينيين: النصر أو الشهادة^(٢):

﴿ فَمَلَيْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣)

﴿ يَشْرُونَ ﴾^(٣) يصلح أن يكون الأمر للمنافقين وللمؤمنين؛ لأن شري من الأضداد؛ فهو أمر للمنافقين أن يقاتلوا في طاعة الله، بدل أن يختاروا الدنيا على الآخرة. ويمكن أن يقال أيضاً إنه خطاب للمؤمنين؛ فليقاتل المؤمنون الكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة^(٤).

(١) روح المعاني، الألوسي (١٢٧/٢)، وتفسير السمرقندي (١/٢٤٢-٢٤٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٣٣-١٣٤).

(٣) شري يشري شراءً من الأضداد؛ إذا باعه، وإذا اشتراه أيضاً. والعرب تقول لكل من تمسك بشيء وترك غيره اشتراه. لسان العرب (١٤/٤٢٧).

(٤) تفسير السمرقندي (١/٣٤٣).

وتؤكد الآية على أن يكون القتال في سبيل الله. إن المؤمن لا يقاتل للاستيلاء على الأرض ولا للاستيلاء على الناس؛ ليجد الخامات للصناعات، والأسواق للمنتجات، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات.

والمؤمن أيضاً لا يقاتل لمجد شخص، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة ولا لمجد جنس؛ إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض^(١)، وبتعبير أوضح: يقاتل لتحرير الناس من الخضوع والعبودية للطواغيت. جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(٢). وإذا قاتل الرجل بقصد آخر غير إعلاء كلمة الله وتمكين منهجه في الحياة، ثم قتل لا يكون شهيداً، ولو سَمَّاه بعض الناس شهيداً، فهو افتراء على الله، والنصوص تدل على أنه ليس بشهيد، وليس له أجر الشهداء، بخلاف من قصد إعلاء كلمة الله، فله الأجر العظيم (عظيم؛ هكذا بدون تحديد)، أي من الحالين: إن قتل شهيداً، أو إن عاد غانماً: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٧٦) وقال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله - لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي وتصديقاً برسلي - فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كَلِمٍ يُكَلِّمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم؛ لونه لون دم، وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده لو ددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٣٤).

(٢) البخاري (٢٨١٠، ٣١٢٦)، ومسلم (١٩٠٤).

(٣) مسلم (١٨٧٦)، وعند البخاري (٣١٢٣): «تكفل الله لمن جاهد في سبيله... إلى: من أجر أو غنيمة».

ثم يلتفت السياق إلى المسلمين؛ وينتقل من أسلوب الحكاية والتصوير عن أولئك المبطلين إلى أسلوب الخطاب للجماعة المسلمة كلها، ليبين لهم هدف القتال، وأنه تحرير المستضعفين من تسلط الطواغيت المتسلطين:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَإِيَّاكَ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٧٥ ﴾.

يجرض الله المؤمنين على الجهاد في سبيله لاستنقاذ المستضعفين بمكة المكرمة؛ من الرجال والنساء والأطفال، المتبرمين من المقام بها لتسلط أهلها وظلمهم، بمنعهم المؤمنين من أخذهم حريتهم في عبادتهم لربهم. هؤلاء المستضعفين الذين يتوجهون إلى ربهم بالدعاء: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَإِيَّاكَ ﴾ يتولى أمر استنقاذنا وتحريرنا، ﴿ وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ ينصرنا على هؤلاء المتسلطين^(١). وليس هؤلاء المستضعفين حيلة إلا الدعاء^(٢). قال تعالى: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ ﴾ [النساء: ٩٨]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: « كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء »^(٣).

فالآية تبين بشكل واضح أن القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهدفه تحرير الناس من ظلم الظالمين وتسلط المتسلطين؛ لأن الآية تتناول المؤمنين والأسرى وحواضر الشرك إلى يوم القيامة^(٤).

وإذ تقرر بهذا الأمر القتال وضرورته للتحرير، بين الله بعد ذلك الفارق بين قتال المؤمنين وقتال الكافرين:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٢٧٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٢٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

(٣) البخاري (١٣٥٧، ٤٥٨٧).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٧٩).

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَفَعَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧١﴾ ﴾

فالمؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه لتحرير الإنسانية من الطاغوت، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ومقاصده؛ شيطان الإنس والجن، ثم هيج الله المؤمنين على قتال أعدائه أولياء الشيطان^(١)، مبيناً سبحانه أن مكر الشيطان وكيد، وكيد حزبه وأنصاره، كل ذلك ضعيف إذا وُجد الجهاد في سبيل الله. وهذا تقوية من الله لقلوب المؤمنين، وتجربة لهم على مقارعة الكيد الضعيف؛ فإن الحزم والعزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهدده ودخلت كان ﴿ كان ضعيفاً ﴾ لتدل على لزوم صفة الضعف^(٢).

أما إذا لم يقيم المسلمون بواجب الجهاد فيا خسارتهم في الدنيا والآخرة؛ في الدنيا تسلط الأعداء، وفي الآخرة عقاب الله لمن ترك طاعته وامثال أمره. وربما أدى ذلك إلى النفاق، كما ورد في الحديث: « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »^(٣).

ثم يلفت الله عز وجل نظر رسوله ﷺ، ونظر المؤمنين إلى تصوّر خاطئ عند بعض الناس الذين يظنون أن الإسلام صلاة وزكاة فقط دون قتال، تصور الذين هم مستعدون لطاعة الله في قضايا العبادة، لا في قضية بذل الدم في سبيل الله، وذلك خلال عرض حال بعض المؤمنين، بعد أن كُتب عليهم القتال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٥).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٧٩).

(٣) مسلم (١٩١٠)، وعند النسائي (٣٠٩٧) وأبي داود (٢٥٠٢) وأحمد (٨٦٤٨): « من لم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من نفاق ».

إن شريعة الله سبحانه نزلت بالتدرج لحكم تربية، وقضايا واقعية تحقق الأهداف التي ينزل الله من أجلها الأحكام الشرعية. وإن فريضة القتال في سبيل الله لم يأمر بها الله في مكة؛ فقد أمرهم الله بمكة بالصلاة والزكاة - دون تحديد أنصبة الزكاة - وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين. وكانوا يتحرقون، ويودّون لو أمروا بالقتال ليردوا العدوان عنهم، وينالوا عزتهم وحرّيتهم في دينهم وسلوكهم. ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لرفع السلاح في وجوه الطغاة والمتسلطين لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم؛ فإذا رفعوا السلاح استأصلهم عدوهم. ومنها كونهم كانوا في بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء. ومنها أن كل أسرة في مكة كان منها مؤمنون ومنها مشركون، فإذا أمر المؤمنون بالقتال سالت الدماء في كل أسرة، فلهذا وغيره من الحكم التي يعلمها الله لم يأمرهم سبحانه بالقتال إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار. ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودّونه ربّما جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾، وحالهم كمن يخشى الناس كخشية الله أو أشد خشية.

عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا نبي الله كنا في عزّ ونحن مشركون، فلما أمرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا»، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا، فأنزل الله: ﴿الَّذِينَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾^(١).

ولعل أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تنبيهاً على أن الجهاد مع النفس مقدم، وما لم يتمكن المسلم في الانقياد لأمر الله تعالى بالإخلاص لله تعالى في الصلاة، والجود بالمال، لا يتأتى منه الجود بالنفس، والجود بالنفس أقصى غاية الجود^(٢).

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، ورواه الحاكم وابن مردويه وابن أبي حاتم. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٢٦/١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (١٣١/٢).

وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أهل المدينة ؛ وذلك أنهم سكنوا على الكره إلى فرائض الإسلام، مع الدعة وعدم القتال، فلما نزل القتال شق وصعب عليهم صعوبة شديدة، إذ كانوا مكذبين بالثواب ؛ ويحسن هذا القول أن ذكر المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات (١). والذي يظهر من الآيات أن المراد عموم المجتمع المسلم بما فيه من المنافقين وضعفاء الإيمان، والجاهلين بأهداف الدين المنزل لسعادة البشرية، وذلك لتربية هذا المجتمع وتوجيهه إلى ما فيه سعادة الدارين؛ من الحرية الحقيقية في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، ولذا جاء في ختام الآية: ﴿ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾. متاع الدنيا ومنافعها والاستماع بلذاتها قليلة ؛ لأنها زائلة لا بقاء لها، ومن اتقى الله بطاعته مخلصاً له في الطاعة، فقد ضمن لنفسه بفضل الله الآخرة بنعيمها الأبدي الدائم ؛ قال النبي ﷺ: « ما لي وللدنيا ؛ إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها » (٢).

ثم زادهم في التربية بياناً وبصيرة ليرغبوا في الجهاد في سبيل الله، عندما بين لهم أنهم صائرون إلى الموت لا محالة، وإن الموت لا ينجو منه أحد:

﴿ أَيَنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مَن عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مَن عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٧٨)

الخطاب عام، وإن كان المراد وعظ المنافقين، وتربية ضَعَفَةِ الْمُؤْمِنِينَ، الذين قالوا: ﴿ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾، فموت بآجالنا، والمنافقين الذين قالوا لما أصيب أهل أحد: ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فردّ الله عليهم: ﴿ أَيَنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٧٩/٢).

(٢) مسند أحمد (٣٧٠١، ٤١٩٦)، والترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، والقيلولة: النوم في الظهيرة، وقيل: الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر، وإن لم يكن في ذلك نوم. القرطبي (٢٨٢/٥).

وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴿١١﴾، فالحصون العالية الرفيعة لا تنجي من الموت إذا جاء الأجل، الذي هو مرتبط بأمر الله وقدره، سواء جاهد المرء أم لم يجاهد، فلا يغني حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولورام أسباب السماء بسلم^(٢)

ثم سَفَّه الله سبحانه تصوراً آخر عند من يدعون الإسلام، ويتظاهرون أنهم من أهله: ﴿وَأِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾، وإن تصب المنافقين حسنة؛ من غنيمة أو رزق، أو هزيمة عدو، أو سلامة وأمن، أو غير ذلك يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة؛ من جذب ومحل، أو هزيمة أو جوع، أو غير ذلك يقولوا هذه من عندك يا محمد، بسبيك؛ لسوء تديرك، أو بشؤمك علينا. فصحح الله هذا المفهوم الصادر عن قلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم، مبيناً أن الحسنة والسيئة من عند الله، وأن الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في جميع خلقه؛ البر منهم والفاجر، والمؤمن والكافر؛ وليست هناك قدرة غير قدرة الله تنشيء الأشياء والأحداث، وتحقق ما يقع في هذا الكون من وقائع؛ هذه القدرة تنشىء وتحقق وفق الحكمة الإلهية للحكيم الخبير، ولهذا وبخهم سبحانه بالاستفهام عن علة جهلهم وقلة فهمهم، وتحصيلهم لما يجربون به من الحقائق فقال: ﴿فَقَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٣).

وبهذه اللمسة يعالج المنهج القرآني كل ما يهجس في الخاطر عن هذا الأمر، وكل ما ينشئه التصور المضطرب من خوف وذعر^(٤).

(١) قاله ابن عباس من طريق أبي صالح، وهي طريق حسنة، وواحد البروج برج، وهو البناء المرتفع والقصر العظيم. انظر تفسير القرطبي (٥/٢٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٨١)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٤٧).

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ ٧٨ ﴾

الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود به أمته، ويدخل فيه المذكورون دخولاً أولياً. وفي إجراء الجواب أولاً على لسان النبي ﷺ ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾، وسوق البيان ثانياً من جهته تعالى بطريق تلوين الخطاب والاتفات، إيذان بمزيد الاعتناء به والاهتمام برد اعتقادهم الباطل وزعمهم الفاسد؛ والإشعار بأن مضمونه مبني على حكمة دقيقة، حرّية بأن يتولى بيانها علام الغيوب عز وجل. والعدول عن خطاب الجميع كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببية بعضهم لعقوبة الآخرين. فما أصابك أيها الإنسان من نعمة من النعم، فهي من الله تعالى بالذات، تفضلاً وإحساناً من غير استيجاب لها من قبلك، كيف لا وكل ما يفعله العبد من الطاعات التي يرجى كونها ذريعة إلى إصابة نعمة ما، فهي بحيث لا تكاد تكافئ نعمة الوجود، أو نعمة إعطاء القدرة على أدائها مثلاً، فضلاً عن أن تستوجب نعمة أخرى، ولذلك قال النبي ﷺ: « لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ »، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: « ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدّدوا وقاربوا... الحديث »^(١). وما أصابك أيها الإنسان من بلية ما من البلايا فهي بسبب اقتراف نفسك المعاصي والمفوات المقتضية لها، وإن كانت من حيث الخلق والإيجاد منتسبة إليه تعالى، نازلة من عنده عقوبة، قال رسول الله ﷺ: « لا يصيب عبداً نكبةٌ فما فوقها، أو ما دونها إلا بذنب، وما يعفو الله تعالى عنه أكثر »، وقرأ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]^(٢).

ولا تعارض بين الآيتين لظهور اختلاف جهتي النفي والإثبات، فكل شيء فعله سبحانه، إن أصاب بالسيئة من قحط أو هزيمة، فذلك عدله، وإن أصاب بالحسنة فذلك فضله؛ لكنه

(١) البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) الترمذي (٣٢٥٢).

إن أصاب الإنسان بسيئة فما ذلك إلا بذنب، وإن أصاب المجموع فقد يكون بذنب بعضهم، والله الذي قدّر لحكمة حسب السنن التي وضعها الله سبحانه في هذا الكون^(١)، ومنها أن مخالفة تعاليمه التي أنزلها تسبب الفساد في الأرض، وتعود بالضرر على الناس. عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فرعاً يقول: « لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله، أهلك وفينا الصالحون؟! قال: « نعم، إذا كثرت الخبث»^(٢)، ورسول الله ﷺ لا يملك شيئاً من إنزال الضر بهم حتى يتشاءموا منه، إنما هو مرسل من عند الله، ليلبغهم شرائع الله، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وإذا استقر منهج الله سبحانه قادمهم وساسهم به رسول الله ﷺ بشهادة الله ووحيه وأمره^(٣)، والمعنى أن الرسول ﷺ إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهي، وفيه توعّد للكفرة وتهديد^(٤).

والذين ينسبون ما يصيبهم من الخير إلى الله، وما يصيبهم من الضر إلى النبي ﷺ، إنما كان ذلك منهم بسبب سوء تصورهم لحقيقة ما يجري لهم وللناس في هذه الحياة، وعلاقته بمشيئة الله، وطبيعة أوامر الرسول ﷺ لهم؛ وحقيقة صلة الرسول بالله سبحانه، وهذا بالنسبة للضالين الذين يقرون بأن الطاعة لله، لكنهم يجهلون أن طاعة الله لا تكون إلا بطاعة ما يبلغه رسوله ﷺ من كتاب وسنة، وهذا ما بيته خاتمة الآية: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾.

وهناك صنف آخر يتظاهرون بطاعة الله لكنهم لا يريدون أن يطيعوه في حقيقة أمرهم، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ [محمد: ٢٨]، هؤلاء قلوبهم

(١) روح المعاني، الألويسي (١/١٣٤).

(٢) البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٢٨).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٨٢).

معلقة بحب الكفر وأهل الكفر ؛ لأنهم بذلك يحققون مصالحهم وأهواءهم، ولا يهتمهم أن تفسد مصالح الجماعة كلها بتسلط أهل الكفر والظلم عليها، إنهم لا يفهمون الحرية الحقيقية التي جاء بها الدين بأن لا عبودية إلا لله، إنما يفهمون حريتهم هم في الوصول إلى مصالحهم وتحقيق أهوائهم وشهواتهم. لذا فإن هذا الصنف عندما يتشائمون من قيادة النبي أو قيادة من بعده من القيادات الإسلامية، إنما يريدون بقولهم لقيادتهم إذا أصابتهم سيئة: « هذه من عندك » إنهم يريدون عامدين بقولهم هذا تحريج قيادة الرسول ﷺ تخلصاً من التكاليف التي يأمر بها وهم يعنون بالخير أو السوء النفع أو الضرر القريب الظاهر الذي يقع عليهم^(١).

ويظهر أمر هؤلاء الصنف واضحاً جلياً في عصرنا الحالي، فهناك أناس يسمونهم أو يسمون أنفسهم بالمسلمين المعتدلين - إن رضوا لأنفسهم اسم الإسلام - والمقصود من إسلامهم المعتدل، أو من اعتداهم في هذا الذي يسمونه إسلام هو ترك الاحتكام إلى الله في كل ما أنزل، أو في بعضه، أو في الجهاد - على الأغلب - لئلا يقاوم المسلمون من يعتدي عليهم من الكفرة المتسلطين. وهؤلاء الصنف يكرهون ما أنزل الله، ويجنون الخضوع لأهل الكفر والظلم؛ لأنهم بطاعتهم لغير الله يصدق عليهم أسيادهم ما يصلون به إلى أهوائهم وشهواتهم. فإذا كانت الديمقراطية التي يدعونها، في وقت من الأوقات، وفي جزء من أرض الله ؛ ديموقراطية حقيقية صحيحة، بسبب عدم تمكنهم من التلاعب، أو لأن الناس لم يعودوا يطبقون فسادهم وظلمهم وتسلطهم على العباد، وتمكين الأعداء من البلاد ؛ إذا كان الأمر كذلك وظهر على السطح في القيادة أناس مؤمنون مجاهدون شرفاء، ووقف عالم الكفر بملله المختلفة ضد الإسلام والمسلمين يحاربهم اقتصادياً مع حربهم المستمرة بكل سلاح متطور، قام هؤلاء المنافقون يقولون: هذه المصائب التي تصيبنا هي من عند هؤلاء القادة الشرفاء الذين وقفوا في وجه الظلم والتسلط، فتوقفت مصالح المنافقين من أذناهم، فلا غرو أن يساهموا في الضغط على الناس مادياً ومعنوياً ليعيدوهم إلى نبذ قيادتهم الحكيمة والعودة إلى ما يسمونه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٤٨-١٤٩).

الاعتدال، بترك جهاد العدو؛ ليعيث في الأرض فساداً، وتعود الأمة إلى ما يسمونه السلام وهو في الحقيقة الاستسلام إلى الذل والخضوع للطواغيت أهل الفساد.

وهؤلاء الصنف، ومن كان قريباً منهم من ضعاف الإيوان إن زعموا أنهم مسلمون فعليهم أن يطيعوا الرسول الذي أرسله الله، وإلا فليسوا بمسلمين، ومن لم يطع القيادة الإسلامية فليس بمطيع لله:

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (٨٠).

هذا كالتكلمة لقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾، باعتبار ما تضمنته من ردّ اعتقادهم أن الرسول ﷺ مصدرُ السيئات التي تصيبهم؛ فالأمر والناهي في الحقيقة هو الله تعالى، والرسول مبلغ أمر الله الذي أنزله عليه وحيّاً يُتلى في الكتاب، أو سنة تبيّن وتفصّل الكتاب ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤] (١)، وقال رسول الله ﷺ: « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميري فقد عصاني » (٢). فالواجب على الناس طاعة الرسول فيما بلغهم عن ربهم، ومن تولى وأعرض عن طاعة الله، فالرسول ﷺ ليس مكلفاً أن يحدث الهدى للمعرضين المتولين، ولا أن يحفظهم من الإعراض والتولي حتى لا يقعوا في الكفر. وهذا على معنى ﴿ حَفِيظًا ﴾ من المحافظة، وإذا كان لفظ ﴿ حَفِيظًا ﴾ من حفظ المساوي فالمعنى: ليس الرسول مكلفاً بحفظ مساوئهم وذنوبهم ليحاسبهم عليها؛ والله هو الذي يهديهم، إذا شاء، ويحفظ عليهم كفرهم ومخازيهم ليحاسبهم عليها. فالأمور إذا بيد الله، ومحمد ﷺ مهمته الدعوة والبلاغ (٣).

وإذا قال بعض المفسرين: إن هذا منسوخ بآيات القتال، فنقول: لا نسخ؛ لأنه لا تعارض بين القتال وتبليغ الدعوة، حيث إن القتال لتحرير الناس من الطواغيت التي تُرهبهم

(١) روح المعاني، الألويسي (٢/١٣٥).

(٢) البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٨٣).

وتستعبدهم، لا لإكراه الناس على الإسلام، إذ القتال في الإسلام شرع لإزالة العقبات التي يضعها الطغاة المستكبرون لمنع الناس من التعرف على الحق والدخول في كنفه.

وبعد أن بين الله سبحانه أن الطاعة لرسول الله ﷺ طاعة لله، وبالتالي فالطاعة للرسول سبب الحسنات والخيرات والنصر، والمعصية سبب الفشل والمصائب، بين حالة من حالات المنافقين، وسفّهاها، ووجه رسوله إلى ما يفعله معهم مقابلة لها:

﴿ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

نزلت في المنافقين باتفاق المفسرين، والمنافقون يتظاهرون بالطاعة لرسول الله، ولا يتحققون بها، لأن من لم يعتقد الطاعة ليس بمطيع حقيقة، ولو قالوا لرسول الله ﷺ: أمرك طاعة، فإنهم عازمون على عدم الطاعة، ولذلك قال: فإذا خرجوا من عندك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾^(١). ويحتمل أن يكون المعنى: غير الذي تقوله أنت يا محمد، فيما أمرتهم به من أمر الله، ويحتمل غير الذي تقوله تلك الطائفة، التي قالت: «أمرك طاعة»، وهي تبئت غير ما تقول. ويأتي التهديد بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾؛ يكتبها عليهم في صحفهم للحساب، وربما كتبها في كتابه المنزل ليفضحهم، ويبين كذبهم في ادعائهم الطاعة. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ يا محمد، ولا تخبر بأسمائهم، ولا تعاقبهم الآن، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وثق به، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وسيجزئهم الله على هذا العصيان^(٢). والإعراض عن المنافقين، والتوكل على الله، هما سلاحا النبي ﷺ لمواجهة عدم انضباط بعض المتظاهرين أنهم من صف المسلمين وفيه. وسبب مجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالقتال، وفي سياق نفي أن تكون المصائب بسبب اتباع

(١) بيت الرجل الأمر، إذا دبره ليلاً، قال تعالى: ﴿إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ [النساء: ١٠٨].

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٨٨-٢٨٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٢٨٩-٢٩٠)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٢/٨٣).

القيادة الإسلامية ؛ لأن الطاعة والانضباط أساس في القتال لتحقيق النصر . وهؤلاء المنافقون لا يريدون النصر على الكفرة ؛ فقلوبهم مع الكفرة، وتحقيق أهوائهم ومصالحهم لا يتم إلا بالولاء لهم وتنفيذ مخططاتهم في الكفر والفساد.

ثم أنكر الله حالهم مبيناً أن سبب هذا الحال هو عدم تدبر القرآن وفهمه والإيمان به. إن الدليل على أن هذا القرآن من عند الله قائم بالقرآن نفسه، فهو معجزة النبي ﷺ الباقية إلى قيام الساعة، وقد تحدى القرآن نفسه العرب وغيرهم من الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، إن زعموا أن القرآن افتراه بشر: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣]، وتحداهم أن يأتوا بسورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]؛ ولا نريد أن نذكر هنا إعجاز القرآن اللغوي والبياني، ولا إعجازه العلمي ؛ حيث تعرّض القرآن في معرض بيان الحق والدعوة إليه، إلى بعض الظواهر العلمية التي كشفها الواقع التجريبي والاطلاع العلمي بعد سنين، أو بعد قرون، فلو لم يكن هذا القرآن من عند خالق هذا الكون لاختلف الواقع العلمي التجريبي عن ما أخبر به القرآن، ولا نريد أن نتوسع في بيان الإعجاز التشريعي للقرآن؛ فالعالم المتحضر كلما تقدم في الحضارة وارتقى في أخلاقه الإنسانية، قارب أو ارتقى إلى بعض التشريعات التي شرعها القرآن؛ أيّاً كان هذا التشريع في الحقوق الدستورية، أو الاقتصادية، أو السياسية، أو المدنية، أو الدولية، أو غيرها. أم نريد أن نذكر بالإعجاز التاريخي في أخبار القرآن عن ما غاب في بطون التاريخ، أو إخباره عن المستقبل، أو إخباره عن ما يدور

في نفوس الناس من المؤمنين والمنافقين؛ مما لا يعلمه إلا الله. وقد أخبر القرآن عما يدور في النفوس في عصر التنزيل وبعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وحلل نفوس البشر وكشف نواياهم، ووجههم إلى ما فيه صلاحهم واستقامة أمورهم.

وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان الجازم بأن الله الخالق وحده الذي له الطاعة والعبودية، والعبودية لغيره ذلٌ ينبغي التحرر منها، ولا يكون ذلك إلا بطاعة الله فيما أنزل، وكيف يصل الإنسان إلى الإيمان بأن هذا القرآن معجز، فيه الدلالة على أنه كلام الله وليس كلام بشر؟! يصل الإنسان إلى ذلك قطعاً بفهم القرآن وتدبر معانيه، وهؤلاء المنافقون لو أنهم تدبروا القرآن وفهموا معانيه لاعتقدوا أنه من عند الله، فأطاعوا الله فيما أنزل، وأطاعوا رسوله فيما بلغ.

إن واقع كفرهم ونفاقهم، وبعدهم عن طاعة الله، وطاعة القيادة المسلمة؛ يدل على أنهم لا يفهمون القرآن، ولم يكلفوا أنفسهم تحرير عقولهم وفتح قلوبهم، فاستمروا في كفرهم، بل ازدادوا كفرًا؛ لأن كفر المنافق أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من المشركين المعلنين لكفرهم. فاستحقوا التوبيخ من الله، والانكار عليهم لعدم الفهم والتدبر: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾. إن القرآن - مع إنكاره عليهم - يلفت نظرهم إلى إعجازه الذي يدرکه كل من يفهم القرآن، ولو فهمها إجمالاً، فيرى فيه التناسق، والصدق، والكمال، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه الاختلاف، والكذب والتناقض، والنقص والقصور^(١). وأنكر الله على المنافقين في موضع آخر عدم التدبر، وبيّن السبب، وهو إغلاق قلوبهم لثلاث تفهم الحق: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝٢٤﴾ [محمد: ٢٤]، وبين الله سبحانه للجميع أن الغرض الأساسي لإنزال القرآن هو تدبر آياته، والاتعاظ بها: ﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَذَّبَ وَأُتَىٰ بِهَا آيَاتِهِ وَلِيَسْتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٢١﴾ [ص: ٢٩]. ومن الآية وسياقها نعلم أنه لا طاعة، ولا انضباط، ولا إيمان، إلا بتدبر هذا القرآن.

(١) بحر العلوم، السمرقندي (١/٣٤٧)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/١٤٤).

ويمضي السياق في الآية التالية لبيان جناية أخرى من جنایات المنافقين، وبيان جناية ضعفاء الإيمان، الذين ينشرون الشائعات دون فهم وتثبت:

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

الآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه ؛ وكان المنافقون يشرون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه ؛ فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين، أو فُتح عليهم حقروها وصغروا شأنها، وأذاعوا بذلك التحقير والتصغير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف المسلمين، أو مصيبة نزلت بهم عظموها، وأذاعوا ذلك التعظيم، فأفسوه بين الناس، وربما ساعدهم في نشره بعض جهلة المسلمين وضعفاء الإيمان، ممن قَلت خبرتهم وفهمهم لحقيقة الدين وأهدافه^(١).

ونحن نعرف في عصرنا الحالي أهمية الحرب النفسية، وأهمية حرب الإشاعات، وتأثيرها على نفسية الأمة بشكل عام، وعلى نفسية المقاتل على وجه الخصوص ؛ ولهذا ينكر الله عز وجل على من يبادر بنشر خبر قبل أن يتحقق، أو قبل أن يعرف محتوى الخبر ودلالاته. قال رسول الله ﷺ: « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع »^(٢)، وقال ﷺ: « إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال »^(٣)، ويطلب الله المؤمنين أن يردوا أمثال هذه القضايا إلى رسول الله ﷺ وإلى قياداتهم المؤهلة لمعرفة الأمور وحقائقها، فيستنبطوا حكمها^(٤)، ويعرفوا أثرها ودلالاتها، من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقيادة المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة.

والأمر بهذا في الحقيقة هو أمر بالثقة، وأمر بالتروي، وأمر بالتقيد بالسياسة الرسمية

(١) روح المعاني، الألوسي (١٣٧/٢)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٨٤/٢).

(٢) رواه مسلم (٥)، وعند أبي داود (٤٩٩٢): « إثمًا » بدل « كذباً ».

(٣) البخاري (١٤٧٧، ٢٤٠٨)، ومسلم (٥٩٣).

(٤) يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه. يقال : استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قعرها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٣٠/٢).

للدولة المسلمة.

ثم يربط الله سبحانه القلوب به: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. وهذا الخطاب لجميع المؤمنين، باتفاق من المتأولين، فلولا هداية الله لكم، وإرشاده إياكم باتباع منهجه في سلوككم، لضللتهم، واتبعتم شياطين الإنس والجن. وفي ذلك بشارة من الله لحفظ أهل الإيثار المتبعين لأمر الله، والموالين لقيادتهم الإسلامية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن السير وراء الشائعات ونشرها، وعدم إرجاعها إلى المختصين بها اتباع للشيطان^(١).

وهكذا كان القرآن يربي الأمة الإسلامية؛ فيغرس الإيثار والولاء للقيادة المؤمنة، ويعلم نظام الانضباط في جهاد الأعداء في الداخل والخارج، في آية واحدة، بل في بعض آية؛ فصدر الآية يرسم صورة منفرة للجندي وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف، فيحملة ويجري متنقلاً مديعاً له، من غير تثبت، ومن غير تمحيص، ومن غير رجعة إلى القيادة، ووسط هذه الآية يعلم ذلك التعليم، ويشير إلى أهمية وسائل الإعلام في نشر الأخبار، وآخرها يربط القلوب بالله، ويحذر من اتباع الشيطان في الأخبار الكاذبة المضللة^(٢).

إن هذا المقطع ابتداء بتوجيه المسلمين إلى أن ينفروا إلى القتال سرايا أو جيوشاً لتحرير الناس، وإذا كان الأمر كما ذكر من عدم طاعة المنافقين، وتقصير الآخرين في مراعاة أحكام الإسلام، عندئذ يصل الأمر إلى قمة التكليف الشخصي، حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأن يقاتل - ولو كان وحيداً - فإنه لا يحمل في الجهاد إلا تبعة شخصه، وفي الوقت ذاته يحرض المؤمنين:

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤)

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٨٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٥٨).

والآية متصلة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾؛ فإن أردت الأجر العظيم ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أو متصلة بقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾؛ فإن لم يقاتلوا في سبيل الله فقاتل أنت وحدك، لا تكلف إلا نفسك^(١).

وهذا الأمر في ظاهر لفظه للنبي ﷺ وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة؛ والمعنى والله أعلم أنه خطاب للنبي ﷺ في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه؛ أي أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك القول له: قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر الجهاد، ولو لوحده، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «والله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي»^(٢)، وقول أبي بكر وقت الردة: ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ حقيقة أساسية في التصور الإسلامي، والمسؤولية الفردية، وعموم التبعة، وهي أن لا ينتظر أحد أن يقوم معه الآخرون حتى يقوم بها وجب، بل عليه أن يبادر كل بنفسه. وروي عن أبي إسحاق قال: قلت للبراء بن عازب: الرجل يحمل على المشركين، أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، إنما ذلك في النفقة^(٤).

وفي الآية دلالة على أن ما يفعله المنافقون وضعاف الإيوان من الشيط والتقاعد لا يضر

(١) روح المعاني، الألويسي (١٣٩/٢).

(٢) رواه البخاري في حديث طويل (٢٧٣٤)، وأحمد (١٨٤٤٩).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٨٦/٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٢٩٣/٥).

(٤) مسند أحمد (١٨٠٠٩)، وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي إسحاق عن البراء. انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٣٠/١).

النبي ﷺ، ولا يضر المؤمنين المتبعين للنبي ﷺ في عهده ومن بعده^(١).

والأمر بالتحريض وحث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم خاص بالنبي ﷺ، حيث أمر المسلمين بقتال المشركين، وبين أجر المقاتل في سبيل الله بأحاديث كثيرة منه ﷺ، بأقواله وأفعاله. من ذلك قول النبي ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: ﴿ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ﴾^(٢). وبعد رسول الله ﷺ يكون التحريض بالآيات والأحاديث التي تدعو إلى الجهاد وتحث عليه. و﴿ عَسَى ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ واجبة التحقيق، بينما هي من البشر متوقعة مرجوة. وقد تحقق وعد الله للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوى الله قلوبهم بأن عرفهم شدة بأس الله، بأنه أقدر على الكفرة وأشد تنكيلاً لهم^(٣). ودلت الآية على أنه لا ينكف بأس الذين كفروا إلا بقتال، لا كما يتوهم بعض المتخاذلين. وكذلك تبرز لنا حاجة النفس البشرية، وهي تدفع إلى التكليف التي تشق عليها إلى شدة الارتباط بالله؛ وشدة الطمأنينة إليه، وشدة الاستعانة به، وشدة الثقة بقدرته وقوته فكل وسائل التقوية غير هذه لا تجدي حين يبلغ الخطر قمته. والله سبحانه هو الذي خلق هذه النفوس، وهو الذي يعلم كيف تربى، وكيف تستجاش، وكيف تستجيب.

وبمناسبة تحريض الرسول ﷺ المؤمنين على القتال، وذكر المبطلين المثبتين قبله يقرر قاعدة عامة في الشفاعة، ويدخل فيها من باب أولى التوجيه والنصح والتعاون على الجهاد، وهو في أولويات الخير الذي أمر به الله لتحرير البشرية من الطغاة^(٤):

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/١٤٠).

(٢) مسلم في حديث طويل (١٩٠١)، وأحمد (١١٩٩٠).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٨٦). والتنكيل: العقوبة بالأخذ بأنواع العذاب، وترديده عليهم في الدنيا والآخرة. وأصله: التعذيب بالنكل، وهو القيد فعمم. والمقصود من الجملة التهديد والتشجيع.

روح المعاني، الألوسي (٢/١٤٠).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٥٩-١٦٠).

﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴿٨٥﴾ ﴾

يقول الإمام الطبري: « من يَصْرُ يا محمد شفعا لوتر أصحابك، فيشفعهم في جهاد عدوهم، وقتالهم في سبيل الله، وهو الشفاعة الحسنة، يكن له نصيب منها، يقول: يكن له من شفاعته تلك نصيب، وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته، ومن يشفع شفاعته سيئة، يقول: ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على المؤمنين، فيقاتلهم معهم، وذلك هو الشفاعة السيئة، يكن له كفل منها يعني بالكفل النصيب والحظ من الوزر والإثم »^(١). وذهب الطبري إلى هذا التأويل بسبب ما تقدم في السياق من أمر القتال. والقاعدة عامة، تشمل التوجيه والنصح والتعاون، والمبدأ عام في كل شفاعة خير أو شفاعة سوء، وقد ذكر المبدأ العام بمناسبة الملابس الخاصة، على طريقة المنهج القرآني في إعطاء القاعدة الكلية من خلال القاعدة الجزئية، وربط الواقعة المفردة بالمبدأ العام، ثم ربط الأمر كله بالله، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا ﴾؛ مقتدراً ويمنح القدرة على كل شيء.

ويدخل في أولويات هذا العموم سياق النص الذي أشار إليه الطبري رحمه الله، فالذي يشجع ويحرض ويعاون على القتال في سبيل الله، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها والذي يبطئ ويشبط تكون له التبعة فيها وفي آثارها^(٢). ومن هذا العموم جاء النصيب من الدعاء لمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، فقد قال النبي ﷺ: « من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثله »^(٣).

ثم رغب الله بعد ذلك في فرد شائع من الشفاعة الحسنة، إثر ما رغب فيها على الإطلاق،

(١) وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب، وهو الكساء أو الشيء يبيأ عليه شبيه بالسرحد. ولا يستنكر الطبري التعميم في هذا المعنى كما ذهب إليه بعض المفسرين. انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (١١٧/٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٦٠/٥).

(٣) مسلم (٢٧٣٢).

وحذر عما يقابلها من الشفاعة السيئة، فإن تحية الإسلام شفاعة من المسلم لأخيه المسلم عند الله عز وجل^(١)، والتحية في المجتمع توجد العلاقة المتينة بين المسلمين المبنية على المحبة وإرادة الخير، قال رسول الله ﷺ: « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم »^(٢)، وهنا يقول الله عز وجل:

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (٨٦)

جعل الإسلام تحيته: « السلام عليكم »، أو « السلام عليكم ورحمة الله »، أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته »، فإذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم؛ فالزيادة مندوبة، والمائلة مفروضة؛ لأن الله أمر بالرد في أقل الواجب، وخير في الزيادة^(٣). وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرد ﷺ، ثم جلس فقال: « عشر »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرد عليه، ثم جلس فقال: « عشرون »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد ﷺ، ثم جلس فقال: « ثلاثون »^(٤).

والمراد بقوله «عشر»، و«عشرون»: عشر حسنات وعشرون وثلاثون حسنة لمن سلم وكذلك لمن رد، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (٨٦)، أي حفيظاً^(٥) فيحاسبكم على كل شيء من أعمالكم^(٦).

والسلام من شعائر الإسلام، وهو من أهم الروابط الاجتماعية بين المسلمين التي تجعلهم

(١) روح المعاني، الألويسي (١٤١/٢).

(٢) مسلم (٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣١-٥٣٢).

(٤) رواه أحمد (١٩٤٤٦)، والترمذي (٢٦٨٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٠٥).

(٦) روح المعاني، الألويسي (١٤٥/٢).

صفاً واحداً أمام أعدائهم، جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله: أي الإسلام خير؟ قال: «تطعمُ الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(١).

ومن الروابط بين السلام «تحية الإسلام»، وبين القتال أن الإسلام دين السلام. السلام المبني على تحرير الإنسان من كل ظلم وتسلط، لا السلام الذي تريده الدول القوية من الدول المستعبدة، فهذا استسلام للظلم والقهر.

ولما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾^(٨٦) تلاه مقولاً له الإعلام بصفة الربوبية، وحال الوجدانية، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للثواب والعقاب^(٢):

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾^(٨٧).

التذكير بكلمة التحرير «لا إله إلا الله»؛ أي لا عبودية ولا طاعة ولا خضوع إلا له والتذكير بالحشر، والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة، ضمن الحديث عن القتال، واضح في بيان أن قتال المسلمين أعداء الله وأعداء الإنسانية؛ إنها هو قتال الله وفي سبيل الله، الذي أمر جُنُده أن يقاتلوا الطواغيت وأعاونهم لتحرير البشرية من ذل العبودية والخضوع لغير الله تعالى.

فلا ينبغي للمؤمن المجاهد في سبيل الله أن ينسى أن جهاده لتحرير الناس من عبودية غير الله الخالق المالك، ولا ينبغي أن ينسى المسؤولية بين يديه سبحانه ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) [المطففين: ٦]، هذا ما أخبر به الله سبحانه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾؛ فلا أحد أصدق منه سبحانه في حديثه، وخبره، ووعدته ووعيدته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه^(٣).

وبعد الحديث عن الشفاعة الحسنة والمساعدة في الخير، وعن السلام الذي يستقر في

(١) البخاري (١٢، ٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٨٨/٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٣٢/١).

المجتمع عند وجود الإيذان والحب في الله، وبعد الحديث عن التوحيد والمسؤولية بين يدي الله يوم القيامة يعود السياق إلى الموضوع الرئيسي. فالقتال يقتضي صفاً واحداً، وموقفاً موحداً ومن ثم تأتي الآيات في السياق تنكر على المؤمنين انقسامهم في أمر المنافقين إلى قسمين: قسم يريد قتلهم، وقسم يرى مسألتهم بعد أن أظهر الله ضلالهم:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَلَّا تَرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجوع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ ﴾، وقال النبي ﷺ: «إنها تنفي الرجال كما تنفي النار خبث الحديد»^(١).

وقوله تعالى في الآية التالية: ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يؤيد الروايات التي وردت في أن هذه الآية في أناس نافقوا، وهم في مكة أو خارج المدينة. غير أن رواية سبب النزول عن زيد رضي الله عنه صحيحة وقوية، والهجرة أنواع:

منها: الهجرة إلى المدينة لنصرة النبي ﷺ، وكانت هذه واجبة أول الإسلام إلى أن فتحت مكة، فقال النبي ﷺ: « لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا »^(٢).

والنوع الثاني: هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات.

والثالث: هجرة من أسلم في دار الحرب، فإنها واجبة؛ إلا إذا كان بقاءه فيه عون ومصلحة ظاهرة للمسلمين.

والرابع: هجرة المسلم ما حرم الله عليه، كما قال النبي ﷺ: « المسلم من سلم المسلمون من

(١) البخاري (١٨٨٤)، وفي رواية (٤٥٨٩) قال: «إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة»، ومسلم (٢٧٧٦).

(٢) البخاري (٢٧٨٣، ٢٨٢٥)، ومسلم (١٨٦٤).

لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١). وهاتان المهجرتان ثابتتان الآن. وأقول: إن هجرة المنافقين إلى القيادة الإسلامية للجهاد معها موجودة بعد رسول الله ﷺ^(٢).

لذلك نرجح ما ورد في سبب النزول، ونخرّج الهجرة الواردة بهجرة المنافقين إلى الجهاد في سبيل الله مع قيادتهم عندما يعلن القائد النفير، ويكون الجهاد فرض عين.

ونقول أيضاً لبيان ذلك، والتأكيد على تناسق الآيات وارتباط معانيها: إن الآيات في هذا المقطع من أوله ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ﴾ إلى آخره تتحدث عن قتال الكافرين، وبيان التعامل مع المعسكرات المعادية للإسلام والمسلمين، مما يُسمّى اليوم بالحقوق والعلاقات الدولية، والتي بيّنت هذه الآيات بعضها، وجاءت تمة بيانها في آيات أخرى؛ وفي بداية الحديث عن المعسكرات المعادية جاءت هذه الآية لتنبه إلى معسكر للكفر هو معسكر النفاق، يعيش بين المسلمين، أو قريباً من المدينة المنورة، وتستنكر على المسلمين اختلافهم في إيمانهم وكفرهم، وتؤكد الحكم بكفرهم، غير أن النبي ﷺ لم يقتلهم جرياً على القاعدة الإسلامية العامة في معاملتهم على ظواهرهم، ولا يمنع عدم قتلهم من أن يعلم المسلمون والمنافقون أنفسهم أنهم كافرون، كارهون لما أنزل الله، وأكد الله كفرهم ويُعدّهم عن الإيمان بقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾، فالله أضلهم بسبب اتباعهم الباطل، ومخالفتهم الرسول ﷺ، ولا يستطيع إنسان أن يهدي من أضله الله: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ إلى الهدى^(٣).

ثم يخبرنا الله سبحانه بما في ضمائر تلك الطائفة، طائفة النفاق، لئلا نحسن الظن بهم، ولا نجادل عنهم، ولنعتقد عداوتهم، ونمتنع عن ولايتهم^(٤):

(١) البخاري (١٠، ٦٤٨٤)، ورواه النسائي (٤٩٩٦)، وغيره.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٠٨/٥).

(٣) انظر الأقوال والروايات عند ابن كثير في تفسير القرآن العظيم (١/٥٢٢-٥٢٣).

(٤) زاد المسير ابن الجوزي (٢/١٥٥).

﴿ وَذُؤا لَو تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَحُذِّوْهُمْ وَأَقْبَلُوْهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَوَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ وَأَكْرَمْتُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقْبِلَوكُمْ أَوْ يَقْبِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَاقَلْتُمْ لَوْكُمْ فَإِن أَعْتَزَلْتُمْ لَكُمْ فَلَمْ يَقْبِلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ .

تحدث هذه الآيات عن جانب من جوانب معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات الأخرى المختلفة من معسكرات الكفر، وهو ما يسمى اليوم بالقانون الدولي.

إن القانون الدولي أخذته أوروبا من الفقه الإسلامي عندما ترجم عدد من الحقوقيين في ألمانيا « كتاب السير » في الجامع الصغير لأحد تلامذة أبي حنيفة النعمان (محمد بن الحسن الشيباني) إلى عدة لغات، وتشكلت جمعية الشيباني للحقوق الدولية. وكانت هذه هي النواة لتشكيل عصبة الأمم المتحدة التي فشلت، وخلفتها هيئة الأمم المتحدة؛ وسبب فشل عصبة الأمم أنها أصبحت مجموعة من الدول المستعمرة (المستعبدة) للدول الضعيفة، تسرق خيراتها، وتعبث بأفكارها ومعتقداتها، وتولي عليها عملاء لها، ينفذون مخططاتها في التسلط والظلم بعد خروج الدول العظمى المستعمرة. وهيئة الأمم المتحدة، ممثلة بمجلس الأمن تسيطر عليه الدول العظمى الخمس، وتتنازع أحياناً، وتتفق أحياناً على اقتسام مناطق النفوذ، وهو تسلط واستعباد لشعوب ودول ضعيفة. هذا الاستعباد والتسلط يتميز عن الاستعباد في عهد عصبة الأمم بأنه قلماً يعتمد على التدخل العسكري من دولة على دولة، إنما هو تدخل من مجموعة عسكرية من دول متعددة، تشكل ضغوطاً إرهابية على الدول الضعيفة التي غالباً ما يكون نظام الحكم فيها نظام تسلط وقهر للشعوب؛ يدور في فلك إحدى الدول العظمى. فالقضية تسلط واستعباد جديد بأسلوب جديد، حتى إذا وجد شيء من التدمير والقوة عند بعض الدول والشعوب نتيجة التسلط والكيل بمكيالين الذي يمارسه مجلس الأمن، ومن يسيطر عليه من الدول العظمى وإذا كان من المتوقع تحرر بعض الشعوب من السيطرة أنزلت الجيوش وبالآلوف المؤلفة في العدد،

وبأحدث الأسلحة الحديثة المسموح بها والمحرمة، فعانت بين الشعوب فساداً وقتلاً، بزعم تحريرهم وتحقيق الديمقراطية لهم، وهم يصرحون - ولا يستحون - أنهم يريدون تحقيق مصالحهم، ويصرحون بالحرب الاستباقية، والحرب الاقتصادية، وتجويع الشعوب، مما أوجد أنواعاً من التسلط والفساد تحت غطاء الحقوق الدولية والقانون الدولي.

ومن أوضح ما يظهر واقع الهيئة الدولية الفاسدة: دخول اليهود إلى فلسطين من كل بقاع الأرض، لا رابط بينهم إلا اليهودية، فقتلوا الفلسطينيين، وشرّدوا الكثير منهم في بقاع الأرض واغتصبوا مساكنهم وأراضيهم، كل هذا تحت اسم الهيئة الدولية وبصرها، ثم عادوا إلى احتلال بقية أراضي فلسطين، وساهم مجلس الأمن محتلين حسب قوانينه وأنظمتها، ثم هو يعتبر اليوم اليهود الذين يدكّون بيوت الفلسطينيين في الضفة والقطاع بالطائرات، وما من يوم إلا ويقتلون ويأسرون، ثم ينادي مجلس الأمن أن اليهود يريدون السلام، والمقاومون الفلسطينيون جماعات إرهابية؛ هكذا حكم الطاغوت الأكبر الذي يسيطر على قرارات وأحكام المؤسسة الدولية وهكذا يموت الآلاف من الأبرياء العزل جوعاً، أو تحت نيران وقنابل الدول المتجمعة تحت غطاء الأمن والسلام في كل يوم، وبمتمتهى القسوة والظلم.

هذا هو حال العلاقات الدولية في العصر الحاضر؛ لا هدف لها إلا الظلم، والطغيان والتسلط، وفرض الفساد الأخلاقي والعقدي بأساليب خبيثة، ليتمّ للطغاة السيطرة النفسية، ويستقرّ ظلمهم وفسادهم واقعاً في نفوس المستعبدين من بني آدم.

أما العلاقات الدولية في الإسلام فقد أنزلها الله في القرآن منذ أن استقرّ حكم الله وشرعه في المدينة المنورة.

هدف العلاقات الدولية والقتال -إن دعت الحاجة إليه- هو تحرير الإنسان؛ فرداً أو شعوباً من تسلط الطغاة، ليدين الإنسان بعد ذلك بما شاء، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، بشرط أن لا يصدر منه عدوان مادي أو معنوي على آخر. فحقق النظام الدولي في الإسلام السلم الحقيقي؛ لا سلم الظلم والقهر والتسلط، وسياسة الأمر

الواقع ؛ حيث تُسلب بيوت الضعفاء وأموالهم، ثم يقال لهم: دعونا، لا تقاومونا، ولا تعتدوا علينا، نحن نريد السلام، نحن نريد لكم الديموقراطية، والأمن^(١). الأمن الكاذب الخادع أمن الظالم لا أمن المظلوم.

وقد جاءت أسس وقواعد العلاقات الدولية موزعة في سور القرآن، وقد بَحَثَ فيها وكتب بعض المتخصصين، وهي آية في الإعجاز، تدل على أن هذه القواعد والأحكام العادلة لا يمكن أن يأتي بها إنسان أمي، في بلد لا يعرف القانون والنظام ؛ لا يمكن أن تكون هذه الأحكام إلا من عند الله خالق الإنسان والعليم بنفسه وأحواله وتجمعاته والعليم بكيفية تحريره من الظلم والتسلط، وتحقيق الأمن والسعادة له.

وهذه المجموعة من الآيات التي بين أيدينا تتعلق بالتعامل مع الطوائف والمعسكرات

التالية:

- أ - التعامل مع المنافقين في المدينة وخارجها.
- ب- التعامل مع الذين يرتبطون بقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق.
- ج- التعامل مع المحايدون الذين تضيق صدورهم بحرب المسلمين، أو حرب قومهم كذلك وهم على دينهم.
- د- التعامل مع المتلاعبين بالعقيدة الذين يظهرون الإسلام إذا قدموا المدينة، ويظهرون الكفر إذا عادوا إلى مكة (دار الكفر آنذاك).
- هـ- حالات القتل الخطأ بين المسلمين، والقتل العمد، على اختلاف المواطن والأقوام. وسنجد أحكاماً صريحة واضحة في جميع الحالات ؛ التي تكون جانباً من مبادئ التعامل في المحيط الدولي، شأنها شأن بقية الأحكام التي تتناول شتى العلاقات الأخرى^(٢).

(١) الأمن إذا لم تقاوموا التسلط ومكثتمونا من كل ما نريد.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٦٣-١٦٤).

فبيّن الله سبحانه أن المنافقين كفار، ولا ينبغي الاختلاف في الحكم عليهم بالكفر، ثم بيّن أن الله أوقعهم في الضلال والكفر بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول ﷺ واتباعهم الباطل وعلى هذا فلن تجدوا سبيلاً في هداية من أضله الله بسبب إغلاق قلبه وإصراره على الباطل. ثم عرفنا الله بدخائل نفوسهم، فهم يرغبون ويعملون على تكفير المسلمين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكْفُرُونَ سَوَاءً﴾ في الكفر، أنتم وهم؛ وما ذلك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم ولدينكم الحق^(١). ولأن الذي يكفر لا يستريح لوجود الإيثار في الأرض ووجود المؤمنين، ولا بد له من عمل وسعي، ولا بد له من جهد وكيد لرد المسلمين إلى الكفر، ليكونوا كلهم سواء^(٢).

إذا كانوا كذلك فهم إذن معسكر من معسكرات الأعداء، سواء كانوا خارج حدود الدولة الإسلامية أو داخلها. بل ربما كانوا أشد الأعداء خطراً إذا كانت الأمة المسلمة في حالة ضعف.

وأول ما يجب على المسلمين البراءة منهم، لعدم النصرة بينهم وبين المسلمين: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا﴾. يهاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام مع إخلاصهم في الإيثار، والنصرة للمسلمين والجهاد معهم، أو هجرة المنافقين مع النبي ﷺ في الغزوات، بعد هجر نفاقهم وضعف يقينهم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن الإيثار والالتحاق بركب المؤمنين فأسروهم واقتلوهم^(٣). لأن كلمة التوحيد التي تقال باللسان مع عمل واقعي في مساعدة عدو المسلمين الظاهرين، لا تكون الإنفاقاً، ولا موضع هذا للتسامح أو الإغضاء، ولا يجوز للمسلمين أن يدافعوا عن المنافقين^(٤).

فالتعامل مع هذا المعسكر المعادي، يبيّنه الله لنا، ويعرّفنا حكمه كالتالي:

خذوا المنافقين الكافرين، الذي أظهروا كفرهم بالتحاقهم بركب الكافرين، واقتلوهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٠٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٦٧).

حيث وجدتموهم، ويُستثنى من دخل في عداد من بينكم وبينه ميثاق، والتزم مهادنتكم، كما يستثنى أيضاً من جاءكم، وقد كره قتالكم وقاتل قومه. وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه عنكم، حين جعل هؤلاء يتركون قتالكم، فتقل جبهات القتال ضدكم، ولو شاء الله لسلط هؤلاء عليكم فلقاتلوكم كما يقاتلكم غيرهم. فإن اعتزلوا قتالكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فلا سبيل لكم عليهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرؤُهُمْ وَقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [المتحنة: ٨] (١).

وإذا نقل عن كثير من المفسرين أن هذه الأحكام منسوخة بالآيات في سورة «براءة». فالصحيح عدم النسخ؛ لأن السابقين يعتبرون بالنسخ على تقييد المطلق أو تخصيص العام فيظنه بعض المتأخرين إزالة الحكم بالكلية. وقد وضع الأصوليون الضوابط والتعاريف للنسخ، والتخصيص والتقييد للفرقة بينها، وعدم اللبس بين إزالة الحكم بالكلية، وإزالة عمومه ولذلك جاء في سورة براءة الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤] (٢)، وعلى هذا فالحكم يدور مع قوة المسلمين وضعفهم، ومع مصلحتهم في الدعوة إلى التحرير الذي هو هدف القتال في الإسلام؛ إن كانت مصلحتهم وإمكاناتهم تقضي بقتال معسكرات كثيرة من معسكرات الكفر قاتلوا، وإلا هادنوا من يهادنهم لتخفيف عبء القتال عنهم ريثما يتمكنوا من تحقيق أغراضهم في التحرير، ومن لطف الله تعالى بنا أعطانا فرصة كي لا يقاتلنا الناس جميعاً، أو نُضطر لقتال الناس جميعاً.

وهناك طائفة أخرى لا يتسامح معها الإسلام هذا التسامح؛ لأنها طائفة شريرة كاطائفة الأولى من المنافقين، وليست مرتبطة بميثاق، ولا متصلة بقوم لهم ميثاق. فالإسلام إزاءها إذن

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٩١).

(٢) وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٨/٧١) وما بعدها.

طليق، يأخذها بما أخذ به طائفة المنافقين الأولى^(١):

﴿ سَتَجِدُونَ ءآخِرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوا بِنُفُسِهِمْ وَبِأَمْوَالِهِمْ كُلٌّ مَّارِدٌ وَإِلَىٰ إِلْفِنَةٍ أَرْكُسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْزَلُوا لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقَفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١١﴾ ﴾.

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم في الآية السابقة، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذرائعهم، ويصنعون الكفار في الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَّوْا إِلَىٰ شَيْطٰنِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٤] ^(٢)، وعن بعض المحققين: إن هذه الآية مقابلة للآية السابقة بالإيجاب والسلب؛ لأن إحداها عدمية، والأخرى وجودية. فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْزَلُوا لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ في الآية السابقة، وقوله عز وجل: ﴿ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ في حيز النفي، أي وإن لم يكفروا أيديهم، مقابل لقوله عز من قائل: ﴿ فَلَمْ يُقْتَلُوا ﴾. فالمقدم مركب من ثلاثة أجزاء في الآيتين، وهي في الآية الأولى: الاعتزال، وعدم القتال، وإلقاء السلم، فهذه الأجزاء الثلاثة تتم الشرط، وجزاؤه عدم التعرض لهم بالأخذ والقتل، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾، وفي الآية الثانية: عدم الاعتزال، وعدم إلقاء السلم، وعدم الكف عن القتال، فهذه الأجزاء الثلاثة تتم الشرط، وجزاؤه الأخذ والقتل المصرح به بقوله سبحانه: ﴿ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ مَّارِدٌ وَإِلَىٰ إِلْفِنَةٍ أَرْكُسُوا فِيهَا ﴾ بيان مزيد خبث هؤلاء الآخرين ^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٧٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣٣).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/١٥١).

وبعد أن بين الله سبحانه علاقات المسلمين مع المعسكرات الكافرة المحاربة والمسالمة، بين لنا حرمة دم المسلم عموماً، وبين حكم قتل المؤمن خطأ في شتى الديار المسالمة أو المحاربة، أما قتل المؤمن المؤمن عمداً فلا يقع بين المؤمنين، ولا كفارة له لعظم جرمه:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَتِبَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾.

روي في سبب نزول هذه الآية أن عياش بن أبي ربيعة أسلم بمكة قبل هجرة رسول الله ﷺ، ثم خاف أن يظهر إسلامه لقومه، فخرج إلى المدينة، فقالت أمه لابنيها؛ أبي جهل والحارث بن هشام، وهما أخوا عياش بن أبي ربيعة لأمه؛ والله لا يظلني سقف، ولا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى تأتياني به. فخرجا في طلبه ومعهما الحارث بن زيد، حتى أتوا عياشاً وهو متحصن في أطم، فقالوا له: انزل فإن أمك لم يؤوها سقف، ولم تذق طعاماً ولا شرباً، ولك علينا أن لا نحول بينك وبين دينك، فنزل، فأوثقوه، وجلده كل واحد منهم مائة جلدة، فقدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر، فطرح موثقاً في الشمس حتى أعطاهم ما أرادوا، فقال له الحارث بن زيد: يا عياش، لئن كان ما كنت عليه هدى لقد تركته، وإن كان ضلالاً لقد ركبته، فغضب وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتك، ثم أفلت عياش بعد ذلك، وهاجر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، ثم أسلم الحارث بعده وهاجر، ولم يعلم عياش، فلقيه يوماً فقتله، فقيل له: إنه قد أسلم، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بما كان، وقال: لم أشعر بإسلامه، فنزلت هذه الآية (١).

(١) عزاها ابن الجوزي إلى ابن عباس من طريق أبي صالح، وهذه الطريق جيدة. زاد المسير، ابن الجوزي =

والله سبحانه يقول: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(١)، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد المسلمين أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. لكن قد يقع قتل المؤمن خطأً. وإذا وقع من المؤمن قتل أخيه المؤمن خطأً فعليه واجبان:

أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأً. والكفارة هي عتق رقبة مؤمنة، فلا تجزئ الكافرة. ﴿ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ لا إفتار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين. والعتق تحرير نفس مؤمنة بدل النفس المقتولة خطأً تعويضاً للمجتمع الإسلامي، عند وجود الرقبة المؤمنة.

والواجب الثاني في قتل الخطأ دية مُسَلِّمة إلى أهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم. والدية كما روي عن عبد الله بن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة^(٢)، وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا في ماله. قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة. عن أبي هريرة قال: اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختموا إلى النبي ﷺ، فقضى أن دية جنيها

= (٢/ ١٦٢)، وأضاف ابن الجوزي أن هذا قول سعيد بن جبير والسدي والجمهور. ورواها الطبري

بسند من طريق ابن جريج عن مجاهد، وعن سعيد بن جبير. جامع البيان (٥/ ١٢٨).

(١) رواه مسلم (١٦٧٦)، وعند البخاري (٦٨٧٨): «... والمارق من الدين التارك للجماعة».

(٢) رواه الترمذي (١٣٨٦)، والنسائي (٤٨٠٢)، وأبو داود (٤٥٤٥)، وابن ماجه (٢٦٣١)، وأحمد

(٤٢٩١).

عُرَّة؛ عبد أو وليدة، وقضى أن دية المرأة على عاقلتها»^(١).

وإذا أبرأ الأولياء - ورثة المقتول - القاتل مما أوجب الله لهم من الدية عليه، تسقط الدية لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾^(٢).

هذا حكم قتل المؤمن خطأ، وهو من المسلمين داخل الدولة الإسلامية؛ أما حين يكون المقتول مؤمناً وهو من قوم كافرين فهناك حالتان:

الحالة الأولى: أن يقع القتل على مؤمن، وأهله محاربون للإسلام في دار الحرب. فيجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة فقط، لتعويض النفس المؤمنة التي قتلت، وفقدها المسلمون. وتسقط الدية؛ لأن أولياء القتيل من الكفار المحاربين، فلا يصح أن تدفع الدية إليهم يتقون بها علينا.

الحالة الثانية: أن يقع القتل على مؤمن من قوم معاهدين، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، ويجب في هذه الحالة التحرير لرقبة مؤمنة، وأداء الدية إلى أهل القتيل^(٣).

ذلك القتل الخطأ. فأما القتل العمد، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان؛ والتي لا تكفر عنها دية، ولا عتق رقبة؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله^(٤)؛ ففي الآية تهديد شديد ووعيد أكيد لمن أقدم على هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية حيث يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّمُوا أَوْلَادَكُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

(١) البخاري (٦٩١٠)، ومسلم (١٦٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣٤-٥٣٥).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٩٣).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٧٥).

إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً من ذلك قول النبي ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »^(١)، وقال رسول الله ﷺ: « أول ما يقضى بين الناس في الدماء »^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: « لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً »^(٣)، وقال رسول الله ﷺ: « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركاً، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً »^(٤)، وقال النبي ﷺ: « يخرج عنق من النار يقول وكُلْتُ اليوم بثلاثة: بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس؛ فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم »^(٥)، وقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا »^(٦)، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً؛ لأن آيات الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠]، مكية نزلت بعدها في المدينة آية النساء: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾، نزلت بعدها في المدينة، في آخر ما نزل، ولم ينسخها شيء^(٧). وقد روي هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة، وذهب من السلف إلى أنه

(١) رواه البخاري (١٢١).

(٢) البخاري (٦٥٣٣، ٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) بزيادة: « يوم القيامة ».

(٣) البخاري (٦٨٦٢)، وأحمد (٥٦٤٨).

(٤) أبو داود (٤٢٧٠).

(٥) مسند أحمد (١٠٩٦١).

(٦) النسائي (٣٩٨٦، ٣٩٨٨، ٣٩٨٩)، والترمذي (١٣٩٥)، بلفظ: « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل

رجل مسلم ».

(٧) البخاري (٤٥٩٠، ٤٧٦٢، ٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣).

لا توبة له: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبو سلمة بن عبد الرحمن^(١). والظاهر أن هذه الآية فيمن يستحل قتل المؤمن فهو خالد في النار، أو تُؤوّل بالنسبة لغير المستحل، كما أوله جماعة من السلف: بأن هذا جزاؤه إن جزاه الله. ومذهب أهل السنة أن هذه الآية مخصوصة، ودليل التخصيص آيات وأخبار. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، وأخبر تعالى بأنه يغفر ما دون الشرك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويحمل مطلق آية « النساء » على مقيد آية « الفرقان »، فيكون معناه: فجزاؤه كذا إلا من تاب؛ لا سيما وقد اتحد الموجب وهو القتل، والموجب وهو التوعد بالعقاب^(٢). ثم إن آيات الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [٦٨-٧٠] خبر والخبر لا يجوز نسخه. والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، واستسلم لحكم الله بالقصاص، أو دفع الدية إن أسقط أولياء المقتول حقهم في الدية، وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوّض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته^(٣).

وعلى هذا فالذي لا يسقط بالتوبة مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الأدميين، وهي لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمقتوف، وسائر حقوق الأدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة؛ ولكن لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٣٥-٥٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٣٣-٣٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣٧).

المجازاة ؛ إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، كما جاء في حديث المفلس: « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار »^(١)، أو ربما يعوّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك كما ذكرت قبل قليل^(٢).

ويؤكد ذلك الأحاديث الصحيحة الكثيرة ؛ منها حديث: « تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عفى عنه، وإن شاء عذبه »^(٣)، وقال رسول الله ﷺ: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أهل الأرض، فدلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فأكمل به مائة، ثم سأل عن أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة ؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصّف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاوسه فوجدوه أدنى إلى

(١) مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحد (٧٩٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٣٧).

(٣) رواه البخاري (١٨، ٣٨٩٢)، ومسلم (١٧٠٩).

الأرض الذي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» (١).

واحتراساً من وقوع القتل، ولو كان خطأ، وتطهيراً لقلوب المجاهدين، حتى لا يكون فيها شيء إلا الله، وفي سبيل الله، يأمر الله المؤمنين إذا خرجوا غزاة، ألا يبدأوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام في كلمة اللسان (إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان) (٢):

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنْ بَدَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ ﴾

روي في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقي ناس من المسلمين رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فأخذوه فقتلوه، وأخذوا تلك الغنيمة، فنزلت: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ (٣).

وقال المقداد بن عمرو الكندي، حليف بني زهرة: يا رسول الله، إن لقيت كافراً فاقتلنا، ف ضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذمني بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: « لا تقتله»، قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها أقتله؟ قال: « لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التي قال» (٤). وقال النبي ﷺ للمقداد: « إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل» (٥). ولذا قال سبحانه في أول الآية:

(١) مسلم (٢٧٦٦)، وينحوه مختصراً عند البخاري (٣٤٧٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٧٦/٥).

(٣) البخاري (٤٥٩١)، ومسلم (٣٠٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦٨٦٥، ٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

(٥) رواه البخاري معلقاً عن ابن عباس رضي الله عنه بعد حديث المقداد، رقم (٦٨٦٥)، باب أول كتاب =

﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ ؛ لا تعجلوا حتى يتبين لكم الكافر من المسلم، وكرر الأمر بالتبيين في آخر الآية لتأكيد ما قبله ؛ لكي لا يقتلوا مؤمناً، وصارت الآية عامة لجميع السرايا إذا دخلوا دار الحرب أن يتبينوا لكي لا يقتلوا مؤمناً، فهدف القتال كما قلت - من قبل - تحرير الناس، لا قتلهم، ولا الرغبة في أموالهم، لذلك رغب الله المؤمنين بما عنده من الرزق الحلال في الدنيا والأجر العظيم في الآخرة فقال: ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ﴾، وختم الآية بالتهديد والوعيد فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾^(١).

وتظهر العلاقة والارتباط بوضوح بين القتال لحماية المستضعفين وتحريرهم، وبين محور السورة: « التوحيد الصحيح » الذي هو تحرير للإنسان من التسلط والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: القتال جزء من التقوى، وهو مرتبط بالإيمان بالله، الذي أمر عباده المؤمنين بالقتال لتحرير المجتمعات البشرية من العبودية للطواغيت.

ب- الأحكام الشرعية: صبر المسلمين على الأذى، إلى أن يتمكنوا في الأرض، فيقيموا مجتمعاً إسلامياً، عند ذلك يقومون بواجب القتال في سبيل الله. وبيان أن حكم النفاق هو الكفر، وبيان بعض أحكام القتل في العلاقات الدولية بالنسبة لقتل المسلم خطأ أو عمداً.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على التقوى والعبادة ؛ العبادة التي تركز عليها، وتنبت منها كل قضايا المجتمع الإسلامي، ويترتب عليها أيضاً بذل الدم من أجل التحرير الجماعي (الدولي).

د- الجوانب التربوية: في الآيات توجيه تربوي نفسي وعقلاني في الدفع إلى القتال، ببيان

= الدييات، وقد وصله البزار والدارقطني في « الأفراد »، والطبراني في « الكبير ». انظر فتح الباري، ابن حجر (٥٠٥/١٥)، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير (٩٩/٢).

(١) بحر العلوم، السمرقندي (٣٥٤-٣٥٥).

أن الإنسان صائر إلى الموت لا محالة، وموته وحياته بيد الله، لا بيد غيره، فليكن موته في سبيل الله، لا في سبيل غيره. كما تبين الآيات أهداف القتال، وتكشف دخيلة المنافقين وأفكارهم وأهدافهم، ومن ثمَّ توجههم إلى التوبة، وتصحح مفاهيمهم، وتقرر بأسلوب علمي أن سبب المصائب المعاصي، لا الطاعات.

المقطع السابع: علاقة الهجرة بالتححرر والقتال (٩٥-١٠٤):

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَنُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْنِيَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفَقَّلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ۞

صلة المقطع بسابقه :

هذا استمرار للمقطع السابق، فبعد أن ذكر الله عاقبة القتل العمد، وأمرنا أن نتبين إذا قاتلنا وأن لا نقتل من يقول «لا إله إلا الله»، بين الله عز وجل أنه لا يستوي عنده من يقاتل مع من لا يقاتل، ثم بين وجوب الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، ليكون ولاء المؤمن للمؤمنين، ولا يكون تحت سلطة أعداء المؤمنين، وليقيم مع إخوته المؤمنين أرضاً صلبة للجهاد في سبيل الله، فيكون من المتحررين واقعيًا ونفسيًا من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، ويعمل مع إخوانه المجاهدين في تحرير الناس من العبودية للمتسلطين والمتألهين من الطغاة المفسدين في الأرض.

المعنى الإجمالي :

إن الموضوع الأساسي لهذا المقطع هو الهجرة إلى دار الإسلام - كما ذكرنا في عنوان المقطع - والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال، وترك الراحة النسبية والمصلحة الخاصة في البقاء بمكة، إلى جوار الأهل والمال. ولعلّ هذا هو المقصود في مطلع هذا المقطع: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾^(٢).

لقد وضع الله قاعدة عامة: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وأولوا الضرر الذين استثناهم الله سبحانه من أصابه مرض أو عرج أو عمى، أو أي علة لا يستطيع معها الجهاد في سبيل الله^(٣)، ثم فصل الله سبحانه هذه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٧٨-١٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٨٣١)، ومسلم (١٨٩٨).

(٣) روح المعاني، الألويسي (٢/١٥٩).

القاعدة فقال: ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ والحسنى: الجنة^(١)، وهذه الدرجة يمثلها النبي ﷺ في مقامهم في الجنة فيقول: « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »^(٢) والتفضيل بالدرجات والأجر العظيم للمجاهدين على القاعدين بغير عذر: ﴿ وَقَضَى اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، وبين في الآية التالية الأجر العظيم بأنه الدرجات والمغفرة والرحمة فقال: ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾^(٣).

فالمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بعذر درجة. والأصل أن يكون أجر القاعد بعذر كأجر المجاهد، لأن العذر حبسه عن الجهاد؛ كما قال النبي ﷺ: « إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه »، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟! قال: « وهم بالمدينة، حبسهم العذر »^(٤). وذلك لأنهم مع المؤمنين بنياتهم، فيعطى من حبسه العذر أجر المباشر للجهاد من غير تضعيف، ويزيد الله المجاهد بنفسه وماله « درجة التضعيف » فيفضله الغازي بالتضعيف للمباشرة^(٥).

والمجاهد بالمال والنفس يفضل على القاعد بغير عذر درجات من الله ومغفرة ورحمة، إحساناً من الله وتكريماً^(٥).

هذا كله عندما يكون الجهاد فرض كفاية، أما عندما تتعين فرضية الجهاد، فالقعود بغير عذر قد يكون سببه النفاق، وهو كفر، وقد يكون معصية وذنباً كبيراً، وذلك تحكمه نصوص

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٩٨/٢)، وزاد المسير، ابن الجوزي (١٧٤/٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، ومسلم (١٨٨٤).

(٣) رواه البخاري (٤٤٢٣)، وأبو داود (٢٥٠٨)، وابن ماجه (٢٧٦٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٤٢/٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٩٨/٢).

(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية (٩٨/٢)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢٥٦/١)، وزاد المسير، ابن الجوزي

(١٧٤/٢).

أخرى من الكتاب والسنة.

وهذه الآيات وغيرها كانت تواجه حالات قائمة في الجماعة المسلمة وتعالجها. وهذا كفيلاً بأن يجعلنا أكثر إدراكاً لطبيعة النفس البشرية، ولطبيعة الجماعات البشرية، وأنها مهما بلغت من التفوق في الإيمان والتربية فهي دائماً في حاجة إلى علاج ما يطرأ عليها من الضعف والحرص والشح والتقصير في مواجهة التكاليف، وبخاصة تكاليف الجهاد بالأموال والأنفس مع خلوص النفس لله، وفي سبيل الله. وظهور هذه الخصائص البشرية من الضعف والحرص والشح والتقصير لا يدعو لليأس من النفس والجماعة، طالما أن عناصر الإخلاص والجد والتعلق بالصف، والرغبة في التعامل مع الله موفورة فيها، ولكن ليس معنى هذا هو إقرار النفس أو الجماعة على واقعها، بل لا بد من استنهاضها لتسير في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة.

وتظهر الآية القرآنية قيمة الجهاد بالأموال والأنفس في ميزان الله واعتبارات هذا الدين وأصالة هذا العنصر في طبيعة هذه العقيدة وهذا النظام؛ لما يعلمه الله - سبحانه - من طبيعة تحرير البشرية، بالنسبة لطبيعة الطريق، وطبيعة البشر، وطبيعة المعسكرات المعادية للإسلام في كل حين^(١)؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق»^(٢)، وقال النبي ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»^(٣).

ثم بين الله حال القاعدين عن الهجرة إثر بيان حال القاعدين عن الجهاد، أو بيان لحال القاعدين عن نصرته رسول الله ﷺ والجهاد معه، من المنافقين، عقب بيان حال المؤمنين^(٤). فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٨٣).

(٢) مسلم (١٩١٠)، والنسائي (٣٠٩٧)، وأبو داود (٢٥٠٢).

(٣) الترمذي (٢٦١٦)، وأحمد (٢١٥١١).

(٤) روح المعاني، الألويسي (٢/١٦١).

أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا ﴿١٩﴾ ﴿

قال محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود: قُطِعَ على أهل المدينة بعث، فاكتسبت فيه، فلقبت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ، يأتي السهم فيرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

إن هؤلاء القاعدين في دار الكفر لا يهاجرون إلى رسول الله ﷺ في المدينة ليجاهدوا معه، ويكثروا سواد المسلمين في أرض الإسلام؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق، وهم قادرين - لو أرادوا واعتزموا التضحية - أن يهاجروا، هؤلاء الصنف يصورهم القرآن بصورة مزرية منكرة تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته (٢).

إن هؤلاء القاعدين عن الهجرة تقول لهم ملائكة الموت عندما تقبض أرواحهم، وقد اكتسبوا غضب الله وسخطه فظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة إلى رسول الله ﷺ؛ تقول لهم: في أي شيء كنتم؟ أو أين كنتم عن الهجرة؟ قالوا: كنا مستضعفين في الأرض، يستضعفنا أهل الشرك في أرضنا وبلادنا بكثرة عددهم وقوتهم، فيفتنوننا عن الإيثار واتباع رسول الله، فقد كنا مقهورين في أرض مكة، لا نقدر أن نظهر الإيثار، فترد عليهم الملائكة عليهم السلام: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾، ألم تكن أرض الله واسعة؛ يعني هذه المدينة مطمئنة رجة فتهاجروا إليها؟! فيقول الله سبحانه: ﴿فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، أي

(١) البخاري (٤٥٩٦، ٧٠٨٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٨٥/٥).

بئس المصير الذي يصيرون إليه.

ثم استثنى الله أهل العذر فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، يعني إلا المقهورين من الرجال والنساء والولدان، فليس مأواهم جهنم، وهم الذين ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾؛ لا يجدون سعة في الخروج عن أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام، ولا يعرفون طريقاً إلى المدينة، فأولئك عسى الله أن يتجاوز عنهم، وعسى من الله تعالى متحقق الوقوع، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَاً غَفُوراً﴾، فلا يعاقبهم للعذر الذي هم فيه، وهم مؤمنون، ولم يتركوا الهجرة اختياراً، ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام ولكن للعجز الذي هم فيه^(١).

وكان النبي ﷺ يقنت في الصلاة ويدعو للمستضعفين فيقول إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»^(٢)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنت أنا وأمي من المستضعفين، أنا من الولدان وأمي من النساء»^(٣).

ويمضي السياق القرآني في معالجة النفوس البشرية التي تواجه مشاق الهجرة ومتاعبها ومخاوفها، فبعد أن عاجلتها الآيات السابقة بذلك المشهد المثير للاشمئزاز والخوف معاً، فهو يعالجها بعد ذلك بيث عوامل الطمأنينة في حالة الهجرة في سبيل الله، وبضمانة الأجر للمهاجرين في سبيل الله منذ أن يخرج من بيته، سواء وصل إلى وجهته، أو مات في طريقه^(٤):

﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

(١) جامع البيان، الطبري (١٤٧/٥-١٤٨)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/٣٥٧).

(٢) البخاري (١٠٠٦، ٣٩٣٢)، ومسلم (٦٧٥).

(٣) البخاري (١٣٥٧).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٨٨).

تنوعت أقوال المفسرين في معنى « المراغم »^(١). وأقوالهم كلها تفسير بالمعنى، ولا تضاد بينها، فأما المعنى الخاص باللفظة؛ فإن المراغم: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه، بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة. والسعة: هي السعة في الأرض، وكثرة المعامل، وبذلك تكون السعة في الرزق، واتساع الصدر لهمومه وفكره، وغير ذلك من وجوه الفرح والسرور؛ وهذا المعنى ظاهر في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً ﴾^(٢).

وقد روي من طرق عن سعيد بن جبير، وعن قتادة، وعن عكرمة - وإن اختلفت الروايات في اسم من نزلت الآية فيه - لما نزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ قال رجل من المسلمين يومئذ وهو مريض: والله مالي من عذر، إني لدليل بالطريق، وإني لموسر، فاحملوني فحملوه، فأدركه الموت بالطريق، فنزلت فيه: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾^(٣). و﴿ وَقَعَ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم^(٤).

(١) وأصله من الرغام، وهو التراب الرقيق، ورغم أنف فلان رغماً: وقع في الرغام وأرغمه غيره، ويُعبر بذلك عن السخط، وعلى هذا قيل: أرغم الله أنفه، وأرغمه: أسخطه، وراغمه: ساخطه، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر، ثم تستعار المراغمة للمنازعة. قال تعالى: ﴿ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا ﴾، أي مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ١٩٩.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٠١/٢).

(٣) جامع البيان، الطبري (١٥١/٥-١٥٢)، وهذه الرواية يروها الطبري بالتحديث عن الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرني معمر عن قتادة، والروايات الأخرى عن سعيد بن جبير وعكرمة بنحو هذه الرواية، وبأسانيد متعددة، مع الاختلاف في اسم من نزلت فيه، ولا يضر ذلك في الرواية، وقد روى ابن أبي حاتم هذه الروايات عن عكرمة عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير، انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٤٣).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٠٢/٢).

وبيين الله عز وجل الرخصة التي يبيحها سبحانه للمهاجرين أو الضارين في الأرض للجهاد أو التجارة، وهي رخصة القصر من الصلاة، كما يذكر حكم صلاة الخوف في أرض المعركة:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (١٠١)

إن الضارب في الأرض بحاجة ماسة للصلاة الدائمة بربه تعينه على ما هو فيه، وتكون أساساً لعدته وسلاحه فيها هو مقدم عليه، وما هو مرصود له في الطريق. والصلاة أقرب الصلوات إلى الله، وهي العدة التي يدعى المسلمون للاستعانة بها في الشدائد والملمات. فكلما كان هناك خوف أو مشقة قال لهم: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومن ثم يجيء ذكرها هنا في إبانها المناسب، وفي وقت الحاجة إليها والاضطرار، فما أحوج الخائف في الطريق إلى أن يطمئن قلبه بذكر الله، وما أحوج المهاجر من أرضه أن يلتجئ إلى حمى الله. غير أن الصلاة الكاملة وما فيها من قيام وركوع وسجود، قد تلفت أنظار عدوه فيعرفه، أو قد تمكن لهم منه، وتعوقة عن القتال في حال الاشتباك^(١). لذا فالقصر هنا أعم أن يكون قصر عدد الركعات كما يصلي المسافر الرباعية ركعتين، إنما يدخل تحته قصر الكيفية أيضاً، حيث يكبر ويصلي بالإيماء في حال الاشتباك مع العدو (المسايفة قديماً)، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وذهب ابن عباس إلى أن كل طائفة تصلي مع الإمام ركعة عند مواجهة العدو، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فرضت الصلاة في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة^(٢).

والمشروع قصر الصلاة الرباعية في كل سفر، ولو لم يكن خوف، وسواء أكانت مشروعيته بهذه الآية أو بالسنة، فإن القصر في السفر ثابت، فعن أنس رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٩٠-١٩١).

(٢) رواه مسلم (٦٨٧)، وانظر التسهيل، الكلبي (١/١٤٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٤٦).

الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قال يحيى بن أبي إسحاق - الراوي عن أنس - قلت: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشرًا^(١)، وعن يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، فقد أمن الناس؟! فقال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عجبت فيها عجبت منه، فسالت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »^(٢).

ولم يذكر حد السفر الذي يقع به القصر والفتور، لا في القرآن ولا في السنة، وإنما كان كذلك لأنها كانت لفظة عربية مستقر علمها عند العرب الذين خاطبهم الله في القرآن، فنحن نعلم قطعاً أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافراً لغة ولا شرعاً، وإن مشى مسافراً ثلاثة أيام، فإنه مسافر قطعاً لقول النبي ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة ثلاث ليال إلا ومعها ذو محرم »^(٣)، كما نحكم على أن من مشى يوماً وليلة كان مسافراً، لقوله ﷺ: « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم إلا مع ذي محرم منها »^(٤)، وروى: « مسيرة يومين »، وعند البخاري عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: « لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم »^(٥). ولعل الآثار خرجت على أجوبة السائلين، فحدث كل واحد بمعنى ما سمع، كأنه قيل له ﷺ في وقت ما: هل تسافر المرأة مسيرة يوم بغير محرم؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر: هل تسافر المرأة يومين بغير محرم؟ فقال: لا. وقيل له في وقت آخر:

(١) البخاري (١٠٨١)، ومسلم (٦٩٣)، ورواه بقية الجماعة من طرق عن يحيى بن أبي إسحاق الحضرمي به.

(٢) رواه مسلم (٦٨٦)، والترمذي (٣٠٣٤)، وبقية الجماعة، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٢/١٨٣-١٨٤).

(٣) مسلم (١٣٣٨).

(٤) مسلم (١٣٣٨).

(٥) البخاري (١٠٨٦).

هل تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام بغير محرم؟ فقال: لا. وكذلك معنى الليلة والبريد، وقال أبو حنيفة: ثلاثة أيام بلياليها بسير الإبل ومشي الأقدام^(١)، ومعلوم أن المسافر لا يسير طيلة اليوم، إنما يسير من بعد صلاة الفجر إلى ارتفاع الشمس قرب الزوال، فإذا اعتبرنا زمن السير في اليوم خمس ساعات في ثلاثة أيام، وراكب الإبل، والماشي على قدميه سرعته خمسة كيلومترات في الساعة، فتكون مسافة القصر خمسة وسبعين كيلومتراً.

وقدر الجمهور مسافة السفر بستة عشر فرسخاً ذهاباً، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ستة آلاف ذراع بذراع اليد، وهذا يساوي ثمانين كيلومتراً ونصف ومائة وأربعون متراً^(٢)، وموضع ذلك كتب الفقه.

والجمهور على أنه لا قصر في سفر المعصية، ورؤي عن أبي حنيفة والأوزاعي بإباحة القصر^(٣)؛ لأن القصر عام للمصلين، وهذا العاصي من جملة المصلين، ولا نرى أن قصر الصلاة يعينه على معصية الله، إنما نفسه الأمانة بالسوء، وعدم خشوعه في صلاته هو الذي يدفعه إلى المعصية والله أعلم.

وتختم الآية بالتنبيه والتأكيد على عداوة الكافرين للمؤمنين: ﴿إِنَّ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، فعلى المسلم أن يأخذ حذره منهم.

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب في الأرض، الخائف من فتنة الذين كفروا يجيء حكم صلاة الخوف في أرض المعركة؛ وتحتشد جنات هذا الحكم الفقهي بلمسات نفسية وتربوية شتى^(٤).

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْفُحَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٥٣-٣٥٥).

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة (١/٤٧٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٥٦).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٩١).

سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠١﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها والصلاة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب؛ وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر. ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرّون على الجماعة، بل يصلون مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، ورجالاً أو ركباناً. ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة، كما مرّ في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٣٩] (١)، فالعبادة لا تسقط أبداً عن العبد، فمن ضايقه الخوف على نفسه، في حال المسابقة، أو من سبغ يطلبه، أو من عدو يتبعه، أو سبيل يعمل، فإنه يصلي إيماءً وإشارة بالرأس حيثما توجه (٢). وقصر الصلاة إلى ركعة واحدة كما تقدم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لا تقوم به حجة؛ لأن قصر الصلاة لا يثبت بخبر الأحاد، ولا بد أن يكون النص قطعي الثبوت.

أما إذا استطاعوا أن يقيموا الصلاة جماعة فقد بينت هذه الآية أسسها: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾، وقد حدّث أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نزل بين ضجّان وعُسْفان، فقال المشركون: إن هؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم، هي العصر فأجمعوا أمرهم فمیلوا عليهم ميلاً واحدة. وأن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويصلون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حذرهم وأسلحتهم فتكون لهم ركعة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣/٢٢٣).

ركعة، ولرسول الله ﷺ ركعتان^(١). ولم يذكر الله تعالى في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة، كما في الحديث الذي ذكرته آنفاً، ولكن روي في الأحاديث أنهم أضافوا إليها أخرى^(٢)، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: « غزوت مع رسول الله ﷺ قبلاً نجد، فوازننا العدو، فصاففناهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلت طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاءوا فركع رسول الله بهم ركعةً وسجد سجدتين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعةً وسجد سجدتين »^(٣).

ذكرنا النوع الأول من صلاة الخوف عند الالتحام مع العدو، فيصلي كل واحد منفرداً بالإيماء، والنوع الثاني عندما يكون العدو في غير جهة القبلة، فيقسم الإمام أصحابه شطرين، ويؤم بأحدهما ركعة والأخرى في مقابلة العدو للحراسة، ثم يصلي الإمام بالآخرين ركعة، وتقوم الجماعة الأولى بالحراسة.

والنوع الثالث لصلاة الخوف (أو صلاة الحرب): عندما يكون العدو في جهة القبلة، ولا خطر على المسلمين من التجمع، وهم في مكان يشرفون فيه على العدو، ويبصرون تحركاته فيصف القائد والإمام العسكر خلفه صفين، بدل أن يقسمهم شطرين، ثم يكبرون جميعاً تكبيرة الإحرام بعد تكبير الإمام، ثم يركع الإمام فيركعون معه جميعاً، إن كانوا يرون العدو في الركوع -وإلا فيركع مع الإمام الصف الأول- ثم يرفع من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد بالصف الذي يليه، والآخرين قيام يحرسونهم، ثم يقوم الإمام مع الصف الذي يليه، ويسجد الآخرون في مكانهم، ثم يتقدم الصف المؤخر، ويتأخر الصف المقدم، ثم يركع بهم جميعاً، ثم يرفع الإمام من الركوع فيرفعون جميعاً، ثم يسجد فيسجد الصف الذي يليه، وعندما يرفع ويرفع الصف

(١) سنن الترمذي (٣٠٣٥)، ورواه النسائي (١٥٤٤)، وأحمد (١٠٣٨٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٦٥/٥).

(٣) البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٨٣٩)، والترمذي (٥٦٤)، وغيرهم.

الذي يليه من السجود يسجد الآخرون، ثم يقعدون القعود الأخير جميعاً، وهم يرقبون العدو ثم يسلم الإمام بهم جميعاً^(١).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ، والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود، وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً^(٢).

ثم بين الله للمؤمنين وجه الحكمة في الأمر بأخذ السلاح وأخذ الحذر؛ ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي مستأصلة لا يحتاج معها إلى ثانية^(٣)، وهي رغبة نفوس الكفار تجاه المؤمنين دائمة. والسنون تتوالى، والقرون تمر فتؤكد هذه الحقيقة التي وضعها الله في قلوب المؤمنين، وهو يضع لها الخطط العامة للمعركة كما يضع لها الخطة الحركية أحياناً على النحو الذي رأينا في صلاة الخوف.

على أن هذا الحذر، وهذه التعبئة النفسية، وهذا الاستعداد بالسلاح المستمر، ليس من شأنه أن يوقع المسلمين في المشقة، فهم يأخذون منه بقدر الطاقة وحسب الظروف والأحوال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾،

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٠٥/٢-١٠٦).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٨٤٠)، والنسائي (١٥٤٧)، وأحمد (١٠٣٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٧٢/٥).

فحمل السلاح في هذه الحالة يشق، ولا يفيد، ويكفي أخذ الحذر، وتوقع نصر الله وعونه: ﴿وَحُذُوا حُذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

ولعل هذا الاحتياط، وهذه اليقظة، وهذا الحذر يكون أداة ووسيلة لتحقيق العذاب المهين الذي أعده الله للكافرين؛ فيكون المؤمنون هم ستار قدرته، وأداة مشيئته. وهي الطمأنينة مع ذلك الحذر، والثقة في النصر على قوم أعد الله لهم عذاباً مهيناً في الدنيا والآخرة^(١).

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾، قال: عبد الرحمن بن عوف، وكان جريحاً^(٢).

إن المتأمل في أسرار هذا القرآن، وفي أسرار المنهج الرباني للتربية، المتمثل فيه، يطلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية. ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة.

إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم الفقهي في صفة صلاة الخوف، ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة.

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة، وجماعة - إن أمكن ذلك لرص الصف وجمع القلوب - وهذا طبيعي، بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح مهم من أسلحة المعركة، بل إنها السلاح! فلا بد من تنظيم الاستفادة من هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجو المعركة.

ولقد كان أولئك الرجال - الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني - يلقون عدوهم بهذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٩٣-١٩٤)، وانظر روح المعاني، الألوسي (٢/١٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٩).

السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح. لقد كانوا متفوقين في إيمانهم بإله واحد، يعرفونه حق المعرفة، ويشعرون أنه معهم في المعركة، متفوقين كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً. متفوقين أيضاً في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ عن منهجهم الرباني. وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله، وتذكيراً بهذا كله. ومن ثم كانت سلاحاً في المعركة، بل كانت هي السلاح!

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يترصد بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم، ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف التطمين والتثبيت؛ إذ يخبرهم أنهم يواجهون قوماً كتب عليهم الهوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. وهذا التقابل بين التحذير والتطمين؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة، هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة والصف المسلم في مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم!!^(١)

ثم يوجه الله المؤمنين إلى ذكر الله والاتصال به في كل حال، وفي كل وضع إلى جانب الصلاة:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقِعْتُمْ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١١٣﴾﴾.

يأمر الله تعالى بكثرة ذكره عقيب صلاة الخوف، على حد ما أمروا عند قضاء المناسك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مِّنْ سَكَّكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ لِكُذْرِكُمْ ءَابَاءَ كُمْ أَوْ أَشْدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهو ذكر في اللسان والقلب، وليكن هذا الذكر في سائر أحوالكم، قائمين أو قاعدين، أو على جنوبكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي فأنتموها وأقيموها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/١٩٢-١٩٣).

كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها؛ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾، أي فريضة مؤقتة^(١). روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عقب تفسيرها: لم يعذر الله أحداً في ترك ذكره إلا المغلوب على عقله^(٢).

ويختتم هذا المقطع بالتشجيع على المضي في الجهاد؛ مع الألم والضنى والكلال، ويلمس القلوب المؤمنة لمسة عميقة موحية، تمس أعماق هذه القلوب، وتلقي الضوء القوي على المصائر والغايات والاتجاهات^(٣):

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١٠٤).

لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب عدوكم، عدو الحق والحرية، جدّوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد، فكما يصيبكم الألم والأواء بسبب الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فأنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله الأجر والنصر والتأييد، كما وعدكم إياه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ووعدته حق، وخبره صدق، وأعداءكم لا يرجون شيئاً من ذلك، فهم ضائعون مضيعون، لا يرجون عند الله شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشدّ رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلانها لتحرير الناس من الظلم والاستعباد^(٤)، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾، فيعلم مصالحكم، وما يحقق لكم الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، ويعلم أعمالكم أيضاً، ما تظهرون منها وما تسرون. وهو سبحانه حكيم فيما

(١) والمعنى عند أهل اللغة: مفروض لوقت بعينه، يقال: وَقَّتَهُ فهو موقوت، ووقته فهو موقت. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٣-٣٧٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٤٩-٥٥٠).

(٢) روح المعاني، الألويسي (٢/ ١٧١).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ١٩٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٠).

يأمر وينهى، فجّدوا في الامتثال لذلك، فإن فيه عواقب حميدة، وفوزاً بالمطلوب^(١).

وفي ختام المقطع نقول: إن محور السورة هو التوحيد، الذي حقيقته التحرر والتحرير والهجرة هي الخروج من مجتمع الكفر للتحرر من ضغوطه وتبعاته، والالتحاق بالمجتمع المسلم، الذي يجاهد لتحرير البشرية من الطغيان والظلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: تحرر المسلمين بالهجرة من أرض الكفر إلى دار الإسلام، والمشاركة مع إخوانهم المقيمين في دار الإسلام لتحرير المستضعفين، هو جزء مهم من التقوى، والعبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره.

ب- الأحكام الشرعية: أهمية الصلاة وأحكامها في الحرب والسفر.

ج- الأخلاق الإسلامية: خلق المسلم مبني على البذل والتضحية؛ وفي ترك الوطن لله، وفي القتال في سبيل الله للتحرير أعظم أنواع التضحية والبذل.

د- الجوانب التربوية: إن الأمر بالهجرة، وتهديد المتقاعسين عنها، وتسميتهم بـ ﴿ظالمي أنفسهم﴾ أسلوب تربوي لتحرير أنفسهم من الظلم والتسلط الواقع عليهم في دار الكفر. ثم إن بيان أحكام صلاة الخوف في هذا السياق، وختام المقطع بذكر الله في كل الأحوال والحض على القتال، ولفت النظر إلى الأمل لكلا الفريقين؛ فريق الكفر وفريق الإيمان وتمييز المؤمنين بسلاح الإيمان الذي يرجون فيه من الله ما ليس لأعدائهم؛ كل ذلك حملة تربوية، فيها التوجيه والتعليم، والإعداد ليخوضوا معاركهم، وهم أقوياء في نفوسهم متصلين بالله على الدوام، يستمدون منه العون والقوة، مع وضوح هدفهم الذي يقاتلون من أجله.

(١) روح المعاني، الألويسي (١٧٢/٢).

المقطع الثامن: حكم الله عدل مطلق، وجزاؤه حق وعدل (١٠٥-١٣٥):

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٠٥ ﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَتْ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَتَأْتُمْ هَتَوَلَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٠ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ١١٢ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣ ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَاهُ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦ ﴿ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ١١٧ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ١١٨ وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مُتَّبِعَتَهُمْ وَلَا مَرْتَبَتَهُمْ فَلْيُبْتِغِ كُنْءًا إِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْآتِكُمْ وَلَا مَرْتَبَتَهُمْ فَلْيَغْفِرْ لِكُلِّ خَلْقٍ اللَّهُ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠ أُولَئِكَ مَا أَوْلَانَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَعِدُونَ عَنْهَا حَيْصًا ١٢١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ١٢٢ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ وَلَا يَجِدِ

فيه هذا الخطاب؛ لأنه تابع ومتمم لما قبله، وقد ورد فيه الأمر بأخذ الحذر مرتين [الآية: ١٠٢] وبدأ المقطع السادس قبله بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا نُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾.

والمقطع الثامن هذا لا نجد في أوله الخطاب بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولكننا نجد آخر آية منه مبدوءة بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وفي هذه الآية إشعار بالمعنى الرئيسي، الذي ينتظم معاني المقطع، الذي يعرض لنا معاني من مظاهر العدل، ثم يختم المقطع بآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾.

وصلة هذا المقطع بسابقه تظهر الآن بوضوح؛ فهذا المقطع يتناول العدل، وسابقه يتناول الجهاد والهجرة؛ والهجرة تخلص من الظلم، والجهاد هدفه تحرير الناس من التسلط والظلم وإقامة الحق والعدل.

المعنى الإجمالي:

في الآيات الأولى من المقطع تشريف للنبي ﷺ، وتكريم وتعظيم وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على الجادة في الحكم، وتأنيب على ما رفع إليه من أمر بني أبيرق^(١)، وفي الآيات ما يوجه ويقرر في المجتمع إقامة العدل، وترويض النفوس على الاستقامة على الحق، وتحقيقه في الجماعة بشكل ليس له نظير، مما يدل على إعجاز القرآن.

عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق، بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً، يقول الشعر^(٢) يهجو به أصحاب النبي ﷺ، ثم ينحلّه بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر، قالوا:

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٧٥)، والمحرم الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٠٨).

(٢) ذكر بعض المفسرين أن بشير يكنى أبا طعمة؛ ففعل ما ورد عند بعض المفسرين أن الذي سرق هو طعمة بن أبيرق هذا سببه والله أعلم.

والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة من الدرّمك^(١). ابتاع الرجل منها فخصّ بها نفسه وأما العيال؛ فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام، فابتاع عمي رفاعه بن زيد حملاً من الدرّمك، فجعله في مشربة له^(٢)، وفي المشربة سلاح؛ درع وسيف، فعُدّي عليه من تحت البيت، فُنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعه، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، وذُهب بطعامنا وسلاحنا، قال: فتحسّسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بنو أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم، قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهّل، رجل مثا له صلاح وإسلام، فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟ والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لثيبتن هذه السرقة، قالوا إليك عنا أيها الرجل، فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له؟ قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت مثا، أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعه بن زيد فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: سأمُر في ذلك، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة^(٣)، فكلموه في ذلك، واجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا بّيت، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة من غير بّيت ولا بينة؟! قال: فرجعت

(١) الضافطة: ناس يجلبون الدقيق والزيت ونحوهما، والدرّمك: الدقيق الحواري. انظر جامع الأصول في

أحاديث الرسول (٢/١٠٩)، وروح المعاني، الألويمي (٢/١٧٢).

(٢) المشربة - بضم الراء وفتحها: الغرفة. جامع الأصول (٢/١٠٩).

(٣) عند القرطبي (٥/٣٧٥): أسير بن عروة ابن عم لهم.

وَلَوِ دِدْتُ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أَكَلِمِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِي رِفَاعَةُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ١٠٥ ﴾، بني أبيرق، ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾، مما قلت لقتادة ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ١٠٦ ﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الدِّينِ يُخْتَابُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ ﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ ﴾ هَتَانَتْهُ هَتُورًا جَدَلْتُهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ١٠٩ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظَلِمِ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا ١١٠ ﴾، أي لو استغفروا الله لغفر لهم، ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١ ﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١١٢ ﴾، قولهم للبيد: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُوكَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣ ﴾

فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردّه إلى رفاعة، قال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح - وكان شيخاً قد عشا أو عسى - في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولاً^(١)، فلما أتيت بالسلاح قال لي: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية^(٢)، فأنزل الله: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عِبْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

(١) يعني: أن إيمانه متزلزلاً فيه نفاق والدخّل: العيب والغش. جامع الأصول (٢/ ١٠٩).

(٢) الصواب سلافة بنت سعد بن شهيد كما في الدر المنثور وديوان حسان بن ثابت. انظر الدر المنثور، السيوطي (٢/ ٦٧١).

بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾، فلما نزل على سُلَافَةَ رماها حَسَّان بن ثابت بأبيات من شعره، فأخذت رَحْلَهُ فوضعتة على رأسها، ثم خرجت به فرمت به في الأبطح، ثم قالت: أهديت إليَّ شعرَ حسان، ما كنت تأتيني بخير^(١).

ونلاحظ أن المقطع بدأ بتبيان الحكمة من إنزال الكتاب ؛ فهو حق من الله تعالى، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه وشرعه، وفي ذلك أبلغ رد على من يهمل الحكم بما أنزل الله^(٢)، وقوله سبحانه: ﴿بِمَا أَرْسَلَ اللَّهُ﴾ معناه على قوانين الشرع؛ إما بوحى ونص، أو بنظر جارٍ على سنن الوحي، وهذا أصل في القياس والاجتهاد، والنبى ﷺ معصوم في اجتهاده عن الخطأ؛ لأن الله تعالى يريه الحق ويسدده، والأمة تعبدها الله بالاجتهاد، فلا عصمة^(٣). قال النبى ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر»^(٤)، وحكم الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، إنما هو حكم مستند إلى ما يظهر من الدليل، لهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٥).

وقد وضع حديث قتادة بن النعمان عن بني الأبيرق الآيات، غير أننا نلفت النظر إلى أن

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٣٦)، وأخرجه الطبري (١٧٠/٥-١٧١)، وأخرج الطبري بسنده عن قتادة أن السارق طعمة بن أبيرق... وقذف الدرع على يهودي كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين، وأخرج عن ابن زيد... وطرحه على يهودي، فقال اليهودي: والله ما سرقها يا أبا القاسم، ولكن طرحت علي. جامع البيان في تأويل القرآن الطبري (١٧١/٥-١٧٢)، وأخرج الحاكم في المستدرک رواية الترمذي (٤/٤٢٨)، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٧٦).

(٤) رواه البخاري (٧٣٢٥)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما.

(٥) رواه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، هذا أول مظهر من مظاهر العدل، فلا يجوز التعصب لأهل الريب والمعاصي^(١)، ثم يصدر الأمر بالاستغفار؛ لدقة قضية أهل الحق ولدقة الموقف من أهل الباطل، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته، وفي ذلك دعوة للتوبة من الخوض في الباطل، والرجوع إلى الحق والعدل.

ويظهر بوضوح قضيتان: الحكم بالحق، وترك الدفاع عن أهل الباطل، وينفر الله من الدفاع عن أهل الباطل بذكر صفاتهم المنفرة: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا ۝١٧﴾، فكيف يدافع المؤمن عن من يبغضه الله، ومن صفاتهم المنفرة استخفاؤهم من الناس، وإخفاء قبائحهم عنهم، لئلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بالمعاصي؛ لأنهم منافقون، يبيتون الباطل والظلم، والله معهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٨﴾، وإذا افترض أحد أن هؤلاء الخائنين قد يستفيدون من مجادلة المؤمنين عنهم، فمن يستطيع الجدل عنهم يوم القيامة، أو من يتوكل لهم يومئذ في ترويح دعواهم؟! فلا دفاع من مسلم عن خائن.

وفي عصرنا هذا -عصر القانون والمحاماة- تظهر أهمية هذا التوجيه، حيث تقرر الآيات بوضوح أن صيغة الحق هي ما أنزله الله، وأن الدفاع عن الذين يختانون أنفسهم لا يجوز. ويستمر السياق مقررًا ثلاث حقائق رئيسية:

الأولى: أن المذنب المسيء إذا استغفر الله يغفر له: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾.

والثانية: إن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وأن إثم الآثم لا يتعداه، ويرجع جزاء جريرته على نفسه: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١١﴾.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١١٠).

والثالثة: إن الذي يرتكب الخطيئة أو الإثم، ثم يرمي به الأبرياء، فقد اجتمع عليه ذنبان؛ ذنب البهتان، وإثمه الأصلي: ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١١١)، قال الطبري: وإنما فرق بين الخطيئة والإثم؛ لأن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد، والإثم لا يكون إلا من العمد^(١)، فرمي البريء بهت له، قال رسول الله ﷺ: « أتدرون ما الغيبة؟ »، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذكرك أخاك بما يكره »، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتة، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته »^(٢).

ثم بين الله سبحانه أن وصول الإنسان إلى الحق واستمراره عليه لا يكون إلا بتوفيق الله تعالى، خاصة مع وجود المضللين، الذين لا يضلون إلا أنفسهم ولا يضررون غيرها: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (١١٣)، فالكلام متصل؛ أي ما يضررونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ السنة أو القضاء بالوحي، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ من الشرائع والأحكام^(٣).

وفي هذا منة كبرى وفضل من الله على نبيه ﷺ في إنزال الكتاب والحكمة، وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهي المنة الكبرى على البشرية كلها، ممثلة ابتداء في شخص أكرمها على الله، مع عصمته ﷺ؛ فهذا الكتاب المنزل منة وفضل على البشرية، لا يعلمها ويعرف قدرها إلا المسلم الذي عرف الإسلام وعرف القواعد والتعاليم التي وضعها هذا الكتاب المبارك مع السنة التي هي من وحي الله، تلك القواعد والتعاليم ضبطت الحقوق وأرست قواعد العدل، وأرشدت

(١) جامع البيان، الطبري (١٧٦/٥).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩)، والترمذي (١٩٣٤)، وغيرهما. وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٨٠/٥-٣٨١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٣٨٢/٥).

البشرية إلى كل خير^(١)، بما علم الله نبيه ﷺ وبما تفضل عليه من عظيم فضله ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

والصلة واضحة بين بداية المجموعة المطالبة بالحكم بالقرآن، والنهي عن الجدل عن الخائنين، وبين نهايتها المتحدثة عن نعمة الله على رسوله ﷺ بإنزال القرآن عليه، وتعليمه ما لم يكن يعلم.

وفي سياق هذا المقطع الذي يبين صوراً من العدل والحق، وفي إطار محور السورة عبادة الله وطاعته، يحدد الله عز وجل إطار الخير في أحاديث الناس بعضهم مع بعض؛ هذه الأحاديث التي يكون منها حق وخير فيه صلاح المجتمع وسعادة أفرادها، ومنها افتراء وبهتان وظلم: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١١٤) النجوى مشتقة من نجوت الشيء أنجوه؛ أي خلصته وأفرده، والنجوى: السر بين الاثنين، والمعروف لفظ يعم أعمال البر كلها^(٢). روى سفيان الثوري بسنده عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له، إلا ذكر الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر»، فقال سفيان الثوري: أو ما سمعت الله في كتابه يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهذا هو بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(٣٨) [النبأ: ٣٨]، فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكْفُورٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣]، فهو هذا بعينه^(٣).

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٠٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٥٤)، وقد روى هذا الحديث الترمذي (١٤١٢)، وابن ماجه (٣٩٧٤) بدون ذكر أقوال الثوري، وقد أثبتتها لأنها توضح الآية.

وقال النبي ﷺ: « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً »^(١)، وقال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة »، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة »^(٢)، ويشترط لقبول ذلك والأجر عليه في الآخرة أن يخلص المؤمن فيه ويحتسب الأجر عند الله، ككل عبادة لا أجر عليها بدون الإخلاص، ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

والنص عام، ويندرج فيه أصحاب النازلة بني الأبيرق، وتناجهم في دفع التهمة عنهم وهذا من الفصاحة والإيجاز المتضمن الماضي والغابر في عبارة واحدة^(٣).

وقد ذكر في سبب نزول هذه المجموعة من الآيات أن بشير بن أبيرق قد ارتد والتحق بالمشركين، بعد أن كان في صفوف المؤمنين ثم اتبع غير سبيل المؤمنين، فأنزل الله بيان ذلك بنص عام ينطبق على كل حالة:

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾.

يقرر الله سبحانه حقيقة مرتبطة بقضية الحق والعدل؛ هذه القضية هي أن ما شرعه الله حق، وما أجمعت عليه الأمة الإسلامية حق أيضاً، ويستحق مخالف هذا الحق العذاب الأليم.

إن من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ، أو سلك غير الطريق الذي اجتمعت عليه أمة محمد ﷺ باتفاق أهل الحل والعقد منهم، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً فمن سلك طريق الشقاق لهذا أو لهذا يجازيه الله على ذلك باستدراجه في الدنيا ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ ويجعل

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).

(٢) رواه أبو داود (٢٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (١١٢/٢).

النار مصيره في الآخرة؛ لأن الله تضمن لأمة محمد ﷺ العصمة من الخطأ في اجتماعهم، تشریفاً لهم، وتعظيماً لنبيهم ﷺ^(١).

ولما كان رأس الانحراف عن الحق سببه الشرك واتباع الشيطان جاءت الآيات اللاحقة تبين ذلك، وتقرر ما ذكر سابقاً في السورة: أن الذنب الذي لا يغفر هو الشرك، وأن ما دونه يمكن أن يغفره، وقد ذكرت الآية (٤٨) من هذه السورة في معرض الحديث عن شرك أهل الكتاب^(٢)، غير أن الآية هناك ختمت بالتنفير من الشرك، والتشنيع على أهله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾، وختمت هنا ببيان ضلال المشرك عن الهدى؛ لأنه سلك غير طريق الحق وبعُد عن الصواب فخرس سعادة الدنيا والآخرة^(٣).

ثم بين الله حال هؤلاء المشركين، وأنهم ما يعبدون إلا إناثاً كالأحجار، ومظاهر هذا الكون والطبيعة:

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١٨﴾ وَلَا ضَلَالَةَ لَهُمْ وَلَا مَرْتَبَةً لَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ إِذْ أُنزِلَتْ الْآيَاتُ وَلَا تَرْجِعْنَ إِلَىٰ مَا تُنَادُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١٩﴾ يَعْدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿٢١﴾﴾

كانت العرب تسمي الأصنام بأسماء مؤنثة؛ كاللات والعزى، وقيل المراد الملائكة وصورهن جوارى، وقالوا: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل: ٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَحَرِّقُوا لَهُم بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٥).

(٢) ارجع إلى تفسير الآية (٤٨) من سورة النساء.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٥).

سُبْحَنَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿ [الأنعام: ١٠٠] ^(١). وهؤلاء العابدين للأصنام وغيرها من المعبودات، ويشركونها مع الله في التقديس والتعظيم والحب، ما يعبدون في حقيقة الأمر إلا الشيطان المتمرد على الله، الشديد العتو والإضلال، وإنما قال: إنهم يعبدونه؛ لأنهم يطيعونه في الكفر والضلال، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰٓبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ [يس: ٦٠]، فالشيطان هو الذي يأمرهم بالكفر والشرك، ويزينه لهم وهو الملعون المطرود، المُبْعَدُ من رحمة الله وعن جواره، وهو الذي أخذ على عاتقه أن يُضِلَّ قسماً معيناً، مقدراً معلوماً من الناس ﴿ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكُمْ فَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾، وهم أهل الضلال لأن عباد الله المخلصين ليس للشيطان عليهم سبيل. أما أتباع الشيطان وعباده؛ فإنه يضلهم عن الحق، ويزين لهم ترك التوبة، ويعددهم الأمانى الكاذبة، ويأمرهم بالتسويق والتأخير، ويزين لهم تحريم ما أحل، مثل قطع آذان الأنعام، كالبحيرة، والسائبة، وتأتي في المائة، وتغيير خلق الله بارتكاب ما حرم، كالوشم والنمص وخصي الإنسان، وغير ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: « لعن الله الواشيات والمستوشيات، والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله عز وجل »؛ ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل؛ يعني قوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] ^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: ﴿ إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفَاءَ كُلِّهِمْ، وَإِنَّمَا اتَّهَمَ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمُ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يَشْرَكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ ^(٣). ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾، أي من يطع الشيطان، ويدع أمر الله، فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها؛ لأن الشيطان ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، إنه يخبرهم بالباطل، ويعددهم الوعود

(١) وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٣١)، ومسلم (٢١٢٥)، وفيه أن امرأة من بني أسد جاءت إلى ابن مسعود. وانظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٥-٥٥٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل (١/١٥٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٠٣٠).

الكاذبة، ويمتنيهم بالأمان الكاذبة ليغرر بهم، ويصور لهم أنهم يكونون من السعداء إذا حققوا شهواتهم بارتكاب الفواحش، ويخوفهم بالفقر، حتى لا يصلوا راحماً ولا ينفقوا في خير، كما قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال تعالى مبيناً واقع الشيطان ووعوده الكاذبة: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُوا فِي وِلَايَاتِي وَلَوْ مَا أَنْفَسْتُكُمْ مِمَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي لِي إِني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢]، العذاب الأليم جزاء المستحسنين لإغواء الشيطان ووعوده الكاذبة، وهذا العذاب هو جهنم، فهي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة، ليس لهم عنها مندوحة، ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص ﴿ أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ (١).

فالشرك إذن يسبب الانحراف عن الحق، والشرك في حقيقته عبادة وطاعة للشيطان، ومجيء هذه المعاني في سياق الأمر بالحق والعدل واضح؛ إذ لا حق ولا عدل مع الشرك واتباع الشيطان.

وإذ ذكر حال الأشقياء في الآخرة أتبع ذلك بذكر حال المؤمنين:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ (١٣٣).

أولئك الذين صدقت قلوبهم، وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات، جزاؤهم الخلود الأبدى في جنات تجري من تحتها الأنهار؛ هذا وعد من الله لهم، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة؛ ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله ﴿ حَقًّا ﴾، ثم بعد التأكيد نفي الصدق عن غيره من شياطين الإنس والجن: ﴿ وَمَنْ ﴾

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (١/٣٦٥).

أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٠٥﴾، فلا أحد أصدق من الله قولاً وخبراً سبحانه لا إله إلا هو (١).

ثم يعقب السياق بقاعدة في العمل والجزاء. إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكولاً إلى الأمانى. إنه يرجع إلى أصل ثابت، وسنة لا تتخلف، وقانون لا يجابى. قانون تستوي أمامه الأمم - فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر - وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون:

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا ﴿١٣٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٣٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

لقد كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ ﴾، وكانوا يقولون: ﴿ لن تمسنا النار إلا أتيانا معذودة ﴾، وكان اليهود ولا يزالون يقولون: إنهم شعب الله المختار!

ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس، مع ترك عمل الخير والدعوة إلى الحق، ويزعمون أن الله متجاوز عنهم بما أنهم مسلمون. فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، ويبين أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل؛ وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه على الحق سُمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، فليست النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام، ولهذا وضع القاعدة: ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾، كقوله: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٧﴾

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٦).

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فالله مجازي من يعمل السوء ولا يستطيع أحد أن يحول بين الله وبين مجازاته، فينصره أو يدفع عنه^(١).

ولما ذكر الله الجزاء على السيئات، وأنه سيأخذ مستحقها من العبد؛ إما في الدنيا وهو الأجود، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها»^(٢)، وإما أن يأخذ جزاءها في الآخرة، شرع سبحانه في بيان إحسانه وكرمه في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكورهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة في ظهر النواة^(٣).

وشرط سبحانه الإيمان؛ لأن المشركين أدلوا بخدمة الكعبة وإطعام الحجيج وقرى الأضياف، وأهل الكتاب بسبقهم، وقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، فبين سبحانه أن الإيمان هو الأساس الذي تنبثق منه الأعمال الصالحة التي أمر بها الله، وأن الأعمال الحسنة لا تقبل من غير إيمان^(٤).

ثم خير سبحانه بين الأديان مبيناً دين الحق والعدل وشرطاه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١٢٥)؛ فلا أحسن ديناً ممن اجتمع له إخلاص العمل لربه؛ فعمل إيماناً واحتساباً، متبعاً في العمل ما شرعه الله سبحانه، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق. وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٧)، وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢١٢-٢١٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٤) واللفظ له، والبخاري (٥٦٤٢)، والترمذي (٣٠٣٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٣٩٩).

الشرط الأول: أن يكون العمل خالصاً، والخالص أن يكون لله.

الشرط الثاني: أن يكون العمل صواباً، والصواب: أن يكون متبعاً للشريعة.

فيصح ظاهر العبد بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص؛ ومتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد. فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ومتى فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً، ومن جمعها كان من المؤمنين الذين لا أحسن ديناً منهم، فهم مخلصون محسنون، وهم متبعون لملة إبراهيم، المائل عن كل شرك إلى التوحيد الخالص، ومن ثم اتخذ الله خليلاً، فهو أبو الأنبياء الذين بلغوا الحق إلى الخلق، وقرروا عقيدة التوحيد في الأرض.

ثم بين الله عز وجل أن جميع ما في السماوات والأرض ملكه وعبيده وخلقته ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ فهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته وقدرته وعدله وحكمته، ولطفه ورحمته. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾؛ فعلمه نافذ في جميع خلقه، لا تخفى عليه خافية من عبادته، ولا يعزب عن علمه مثقال ذره في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو المحيط بكل شيء^(١). وفي ظل هذا التصور وهذا الاعتقاد يصلح الضمير، ويصلح السلوك، وتصلح الحياة ويتقرر الحق والعدل في اتباع كتاب الله^(٢)؛ فلا يكون دفاع عن المبطلين، ولا مناجاة بالشر؛ إنما بالخير والإصلاح، ولا طاعة للشيطان؛ إنها الطاعة لله والاستسلام له باتباع رسوله.

فالقطع يوضح جوانب من الحق والعدل، وكل ذلك في إطار السياق الكلي لمحور السورة الذي يُعمق قضية العبادة لله وحده، والتزام التقوى.

ثم يكمل المقطع شرح جوانب من الحق والعدل في موضوع يتامى النساء والمستضعفين

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٥٩-٥٦٠).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢١٥).

واليتامى عامة، فيفتي بها هو حق وعدل:

﴿ وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمِّي النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعْبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.

نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الموارث وغير ذلك، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾؛ أي يبين لكم حكم ما سألتهم عنه.

والذي ذكر الله أنه يُتلى عليهم في يتامى النساء، هو ما تقدم في صدر السورة في أمر النساء وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾^(١)؛ فقد سأل عروة بن الزبير عائشة رضي الله عنها عن قول الله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾، قالت: يا ابن أخي هي اليتيمة تكون في حجر وليها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، ف يريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوا إلا أن يقسطوا لهم، ويبلغوا بهم أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمِّي النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَرَّعْبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ ﴾، قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال^(٢).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١١٨/٢).

(٢) رواه مسلم (٣٠١٨) واللفظ له، والبخاري (٢٤٩٤).

ويظهر من ذلك أن معنى قوله تعالى: ﴿ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ النهي عما كانت العرب تفعله، من ضم اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضل اليتيمة الفقيرة أبدأ، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به المولى منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي ﴿ كُتِبَ لَهُنَّ ﴾ هو توفية ما تستحقه من مهر وإلحاقها بأقرانها.

وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ ﴾ عطف على يتامى النساء، والذي تلي في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالى: ﴿ يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [النساء: ١١]، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبيّة ولا الصبي الصغير - كما مرّ في صدر السورة - وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض الله لكل أحد حقه. وقوله: ﴿ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ ﴾، عطف على ما تقدم، والذي تلي في هذا المعنى هو قوله تعالى في صدر السورة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك مما ذكر في مال اليتيم، والقسط: العدل، وباقي الآية وعد على فعل الخير بالجزاء الجميل^(١).

ثم بين الله عز وجل قضايا من الحق والعدل في الشؤون الزوجية، فذكر ثلاث حالات من العلاقة بين الزوجين، وبين حكمها:

﴿ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمَعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُ اللَّهِ كَلَّا مِنْ سَعْتِهِءَ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١١٨/٢).

النشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حسن العشرة؛ وذلك بأن يتجافى عنها، بأن يمنعها نفسه ونفقتة، والمودة والرحمة التي بين الرجل والمرأة، وأن يؤذيها بسبب أو ضرب. والإعراض أخف من النشوز؛ وذلك بأن يقلل محادثتها ومؤانستها، لبعض الأسباب؛ من طعن في سنّ أو دمامة، أو شيء في خَلْق أو خُلُق، أو ملال، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك.

وقوله سبحانه: « والصلح خير » لفظ عام مطلق بمقتضى أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين خير من الفرقة^(١).

وقد ذكرت الآيات حالات من العلاقة بين الزوجين:

الحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفّر عنها، أو يُعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها، أو بعضه من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها؛ إذ الصلح خير من الفراق، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾، ثم قال: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾؛ أي خير من الفراق. ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾، أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة خشيت أن يفارقها رسول الله ﷺ، فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقد روي عن عائشة أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة، وكان النبي ﷺ يَقْسِمُ لعائشة بيومها ويوم سودة^(٢)، وعن عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أخي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله، يومي لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ، قالت عائشة: ففي ذلك

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١١٩/٢-١٢٠)، والكشاف، الزمخشري (٣٠٢/١).

(٢) رواه البخاري (٥٢١٢)، والإمام أحمد (٢٣٩٥٦).

أنزل الله: ﴿ وَإِنَّ امْرَأَةً حَافَتٌ مِنْ بَعْلِهَا ذُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾^(١).

فالصلح خير من الطلاق؛ لأن الطلاق بغيض إلى الله تعالى، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَحْسَبُوا وَتَقْتُلُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسموا لمن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء^(٣)، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى، والنداء لها باسم الله الخبير بها تعمل، هتاف مؤثر، ونداء مُستجاب، بل هو وحده الهتاف المؤثر والنداء المستجاب^(٤).

والحالة الثانية في الحياة الزوجية: حالة الوفاق، حين يكون للرجل أكثر من زوجه.

إن الله الذي فطر النفس البشرية، فطرها ذات ميول لا تملكها، ومن ثم أعطاها هذه الميول خطأً لينظم حركتها فقط، لا ليعدمها ويقتلها.

من هذه الميول أن يميل القلب البشري إلى إحدى الزوجات، ويؤثرها على الأخريات؛ فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات، وهذا ميل لا حيلة له فيه، ولا يملك محوه أو قتله. إن الإسلام لا يجاسبه على أمر لا يملكه، ولا يجعل هذا إثماً يعاقبه عليه؛ فيدعه موزعاً بين أمر لا يملكه وأمر لا يطيقه! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء -ولو حرصوا- لأن الأمر خارج عن إرادتهم، ولكن هناك ما هو داخل في إرادتهم. هناك العدل في المعاملة. العدل في القسمة. العدل في النفقة. العدل في الحقوق الزوجية كلها، حتى الابتسامة في الوجه، والكلمة الطيبة باللسان، وقد مر معنا في أوائل السورة: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنَّ

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/٥٦٢): «وكذلك رواه أبو داود عن أحمد بن يونس (٢١٣٥)، والحاكم في

مستدرکه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه ابن مردويه بنحو مختصرًا».

(٢) رواه أبو داود (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٣).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢٢٣).

كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿ [النساء: ١٩]، وهذا ما هم مطالبون به، هذا هو الخطام الذي يقود ذلك الميل، لينظمه لا ليقنته! ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾. قال ابن عباس وغيره: المعلقة؛ لا ذات زوج، ولا مطلقة^(١).

وكان النبي ﷺ، وهو الصورة الكاملة للإنسانية حين تبلغ أوجها من الكمال؛ كان يقسم بين نسائه فيما يملك، ويعدل في هذه القسمة، ولا ينكر أنه يؤثر بعضهن بقلبه على بعض، وأن هذا خارج عما يملك، فكان يقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »، يعني: الحب والجماع^(٢).

وفي حالة الإصلاح والتقوى، فإن الله سيغفر ما كان من تفریط عند عدم وجود العدل المطلق؛ لأن القلب لا يملكه الإنسان: ﴿ وَإِنْ تَضَلُّوْا وَتَخْتَفُوا فَاِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾.

والحالة الثالثة: حالة الفراق: حين تحفّ القلوب، فلا تطبق هذه الصلة، ولا يبقى في نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة؛ فالتفريق إذن خير؛ لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال، ولا بالقيود والأغلال؛ إنما يمسكهم بالمودة والرحمة، أو بالواجب والتجمل. فإذا بلغ الحال أن لا تبلغ هذه الوسائل كلها علاج القلوب المتنافرة، فإنه لا يحكم عليها أن تقيم في سجن من الكراهية والنفرة، أو في رباط ظاهري وانفصام حقيقي: ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعْنِ اللَّهُ كِلَا مِّن سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾^(٣)، إن منهج الله واقعية مثالية، أو مثالية واقعية^(٤).

فقد وعد الله كلاً من الزوجين أنها إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هي خير له منها، ويعوضها من هو خير لها منه. وكان الله ولا زال واسعاً؛ عنده خزائن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، والدارمي (٢٢٠٧) وغيرهم. وانظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٤-٢٢٥)، وانظر بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٢٧٠).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٢٥).

كل شيء، وهو سبحانه حكيم في جميع أفعاله وأقداره وشرعه (١).

ولأن هذه الأحكام الخاصة بتنظيم الحياة الزوجية، قطاع من المنهج الرباني لتنظيم الحياة كلها، ولأن هذا المنهج بجملته قطاع من الناموس الكوني، الذي أراده الله للكون كله، فهو يتوافق مع فطرة الله للكون، وفطرة الله للإنسان، الذي يعيش في هذا الكون؛ لأن هذه هي الحقيقة العميقة في هذا المنهج الشامل الكبير، يجيء في سياق السورة بعد الأحكام الخاصة بتنظيم الأسرة، ما يربطها بالنظام الكوني كله؛ وسلطان الله في الكون كله، وملكية الله للكون كله. ووحدة الوصية التي وصى الله بها الناس في كتبه كلها، وثواب الدنيا وثواب الآخرة. وهي القواعد التي يقوم عليها المنهج كله. قواعد الحق والعدل والتقوى:

﴿ وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ * وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ * وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ * وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ * وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ﴾

هذه الآيات كالتعليل لوجوب العمل بمنهج الحق والعدل الذي أنزله الله سبحانه (٢)؛ فأخبر أنه عز وجل مالك السماوات والأرض، وأنه الحاكم فيها، وأنه وصانا بما وصى به من قبلنا من تقواه، وعبادته وحده لا شريك له، وأنه في حالة كفرنا - والعياذ بالله - فإنه لا يضره ذلك، بل يضرنا نحن لابتعادنا عن منهج سعادتنا في الدنيا، وعن السعادة الأبدية في الآخرة، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا * وَأَسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦]؛ وكيف يضره سبحانه كفرنا - والعياذ بالله - وهو مالك السماوات

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٤)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ١٨٥).

والأرض، وهو الغني عن عبادته، وهو المحمود في جميع ما يقدره ويشرعه. وإذن فما دام الله مالك السماوات والأرض، الغني عن خلقه، المحمود في فعله وشرعه، فمن حقه على خلقه أن يطيعوه فلا يعصوه، وأن يشكروه فلا يكفروه، وأن يذكروه فلا ينسوه.

ثم ذكر سبحانه مرة ثانية أنه مالك السماوات والأرض، وأنه القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب الشهيد على كل شيء؛ فكل شيء موكول إليه. وهذا مقدمة لتذكيره سبحانه بأنه هو القادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، إذ هو القادر على كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠، وسورة فاطر: ١٦-١٧].

وإذا كان الله هو المالك لكل شيء، الخالق لكل شيء، المحيط بكل شيء، والمتصرف بكل شيء، والقادر على إذهابنا وتبديلنا بغيرنا إن عصيناه، فلنصرف هممتنا إلى طلب الدنيا والآخرة لا إلى الدنيا فقط؛ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، فإذا سأله السائل من هذه وهذه أعطاه وأغناه؛ كما قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢] ^(١)؛ فالؤمن من همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، أو يطلب الأشرف وهو ثواب الآخرة، فإن من جاهد مثلاً خالصاً لوجه الله تعالى، لم تخطئه المنافع الدنيوية، وله في الآخرة ما الدنيا في جنبه كلا شيء، وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان همه الآخرة جمع الله تعالى شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرق الله تعالى عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له» ^(٢)؛ فمرجع الأمور كلها إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٤).

(٢) مسند أحمد (٢١٠٨٠)، وانظر روح المعاني، الألويسي (٢/١٩٣).

إلا هو، الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذه، ومن يستحق هذه، فهو السميع البصير ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

والآن ينتهي المقطع ببناء المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١٣٥).

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالعدل؛ فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصر فهم عن العدل صارف، وأن يكونوا متعاونين، متساعدين، متعاضدين، متناصرين فيه^(٢)، ونبه سبحانه بلفظ ﴿قَوَّامِينَ﴾، وهو بناء مبالغة، ليدل على أن مراعاة العدالة مرة أو مرتين لا تكفي، بل يجب أن تكون على الدوام، ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة عادلاً^(٣). وبما أن الشهادة هي التي يُعتمد عليها في تقرير العدل، والوصول إلى الحقوق، أمر الله المؤمنين أن يؤدّوا الشهادة ابتغاء وجه الله، فتكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، وأمر سبحانه أن تؤدى شهادة الحق، ولو عاد ضررها على صاحبها، فإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، ولو عادت مضرتك عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه^(٤).

وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقائق، وقوله الحق في كل أمر، وقيامه بالقسط عليها كذلك. ثم ذكر الوالدين لوجوب برّهما وعظم قدرهما، ثم ثنى بالأقربين، إذ هم مظنة المودة والتعصب؛ فإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق، وإن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٥).

(٣) روح المعاني، الألوسي (٢/١٩٣)، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٢٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٥).

عاد ضرره عليهم ؛ فإن الحق حاكم على كل أحد، وإن كان المشهود عليه غنياً أو فقيراً فأدّ فيه شهادة الحق، لا تراع غنياً لغناه، ولا تشفق على فقير لفقره، فالله يتولّى الجميع، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحها^(١). وما يتوهمه بعض الناس أن الانحياز للفقير هو لمصلحة الفقير، إنما هو مضرة للفقير ؛ فإذا أردت مصلحة الفقير فتصدق عليه، واحكم عليه بأداء الحق الذي عليه، وفي إقرار الحق والعدل مساعدة الفقير.

ففي بعض البلدان التي زعمت أنها تنصر الضعيف والفقير، درجت بعض محاكمها على أن تعفيه من ديونه، ويقول القاضي للدائن: أنت غني لا يحق أن تأخذ منه شيئاً. فإذا كانت النتيجة ؟ إذا احتاج الفقير إلى مال يسد حاجته لفترة من الزمن فما عاد يجد أحداً يعطيه قرصاً حسناً ؛ وعلى هذا فالعدل والشهادة بالحق تحقق مصلحة الفقير قبل الغني ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾.

ثم نهى سبحانه أن يميلنا الهوى والعصبية وبغض الناس عن ترك العدل في أي أمر وشأن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، وعن سليمان بن يسار أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر، فيخرص بينه وبين يهود خيبر، قال: فجمعوا له من حلي نسائهم، فقالوا: هذا لك وخفف عنا وتجاوز في القسم، فقال عبد الله بن رواحة: يا معشر اليهود، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إليّ، وما ذاك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سُحّت، وإننا لا نأكلها، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض^(٢).

وحذر الله سبحانه - أخيراً - من تحريف الشهادة وتغييرها فقال: ﴿ وَإِن تَلَوُاْ أَوْ تُعْرَضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾. واللي: هو التحريف وتعمد الكذب ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْهُمْ لَفَرِيصًا يَلُؤْنَ أَلَيْسَتْ لَهُم بِأَلِكْتَابٍ لِّيَتَحَسَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها، مما يسبب ضياع الحقوق، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ

(١) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٢-١٢٣)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٥).

(٢) موطأ مالك (١٤١٣).

يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ» [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها» (١).

وقد بدأ المقطع بذكر الحق وانتهى بذكر العدل وإقامة الشهادة، وبين الحكم بالحق الذي هو القرآن، وتقرير العدل تلازم؛ إذ الحق والعدل لا يكون إلا باتباع كتاب الله، فالحق والعدل في اتباع كتاب الله، وعدم الدفاع عن المبطلين، وترك الشرك وطاعة الشيطان، والاستسلام لله وحده، واتباع رسوله؛ وكل ذلك مرتبط بمحور السورة، إذ يحقق التوحيد الصحيح وتقوى الله سبحانه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة: أنزل الله الكتاب بالحق ليحتكم الناس إليه ويأخذوا بهدي رسوله ﷺ، ويتحرروا عن طاعة غيره سبحانه؛ من الأهواء، أو شياطين الإنس والجن، فذلك الشرك، والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وحقيقة الشرك طاعة للشيطان، فلنحذر وعود الشيطان الكاذبة.

ب- الأحكام الشرعية: يجب الحكم بما أنزل الله، ولا يجوز للمؤمن أن يدافع عن الخائنين، ولا يجوز التناجي إلا بالخير، وكل الذنوب عسى أن يغفرها الله سبحانه إلا الشرك. ويجب مراعاة الحق والعدل في شؤون النساء واليتامى والمستضعفين، كما يجب إحقاق الحق والعدل بين الزوجين، وهما الخلية الأولى في المجتمع، ويجب على المسلم أن يقوم بالعدل دائماً، وأن يشهد بالحق ولا يكتُم الشهادة.

ج- الأخلاق الإسلامية: بناء خلق المسلمين على الإحسان والإصلاح المنبثقين من التقوى.

د - عرض جوانب من الخيانة والظلم، وجوانب من العدل والحق، مع الترغيب والترهيب أسلوب تربوي ينفر من الظلم، ويقرر الحق والعدل في المجتمع المسلم.

(١) رواه مسلم (١٧١٩)، والترمذي (٢٢٩٥، ٢٢٩٧)، وغيرهما.

المقطع التاسع: تولي الكافرين نفاق، والإيمان الصحيح والتقوى تحرر من النفاق والكفر (١٣٦-١٤٩):

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَوَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَوَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأَيَّبُنَعُوْتَ عِنْدَهُمْ ءَعِزَّةٌ فَإِنَّ ءَعِزَّةَ اللَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَأَنبَأَ اللَّهُ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ءَأَكْثَرُ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَرَبُّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا ءَأَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا ءَأَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ءَأَللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَءَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ءَأَلَا يُحِبُّ اللَّهُ ءَأَجْهَرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ۞

صلة المقطع بسابقه :

بدأ المقطع السابق بذكر إنزال الكتاب من الله إلى رسوله بالحق ليحكم بين الناس بالحق والعدل، ولا يستقر الحق ولا يستقيم العدل إلا بطاعة الله وعبادته وحده، والتحرر عن اتباع

يَا اللَّهُ وَرَسُولِهِ»^(١). والذي نراه أن الآية السابقة لهذه الآية خطاب للمؤمنين، والسياق عام في الإيمان والكفر والنفاق، ويدخل في عمومه أهل الكفر بنوعيههم؛ من كان كافراً ابتداءً ومن كفر بعد إيمان، إذا استمر على الكفر حتى الموت، ويدخل في العموم كفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا بالكتاب الذي أنزل عليه، ويدخل تحت هذا العموم أيضاً المنافقون إذا استمروا على الكفر حتى الموت ولم يؤمنوا، وهم الذين يترددون بين الإيمان والكفر. وعلى هذا فالترجح قول مجاهد وابن زيد أن الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر؛ يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً، بأن تمَّ على نفاقه حتى مات. وصفة التردد والتذبذب بين الإيمان والكفر، وبين المؤمنين والكفار هي صفة أهل النفاق حتى يوافي على الكفر؛ ولذلك كانت العبارة: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهي أشد من قوله الذي مرَّ في نفس السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وأشد من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، وهي عبارة تقتضي لسامعها أن يتنبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء. وكل من كفر كفراً واحداً ووافى عليه، فقد قال تعالى إنه لا يغفر له، ولم يقل: لم يكن الله ليغفر له، فتأمل الفرق بين العبارتين، فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأنَّ قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ حكم تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء^(٢).

ويؤكد القول بأن الآية في المنافقين، ويدخل في عمومها أنواع الكفر أمرُّ الله نبيه ﷺ والمؤمنين بأن يبشروا المنافقين بالعذاب الأليم: ﴿بَشِيرِ الْمُتَنَفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

ثم نص سبحانه في صفة المنافقين، فذكر أشدها ضرراً على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار

(١) انظر جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٥/ ٢١١).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٤-١٢٥).

واطراحهم المؤمنين، ونبهه على فساد ذلك لأن لا يقع في بعض أنواعه، غفلة أو جهالة أو مسامحة، فقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويسرون إليهم بالموادة، وربما إذا خلا بعضهم بالكفار من اليهود أو غيرهم: ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة.

ثم أخبر سبحانه أن سبب موالاتهم للكافرين هو: طلبهم العزة، والنصر والجاه في الدنيا (٢)، وقد أخطأ المنافقون الهدف، لجهلهم وعدم فقههم، ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾، وجعل الله العزة للمؤمنين أيضاً، لأنهم يعتزّون به، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، فالعزة كلها له وحده لا شريك له؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]. والمقصود من هذا تهيج القلوب على طلب العزة من الله سبحانه، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد (٣). إن العزة في العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره؛ وإنها لعبودية الله كلها استعلاء وعزة وانطلاق، وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال (٤).

وكان المنافقون يجلسون إلى أحبار اليهود فيسخرّون من القرآن، فخاطب الله جميع من أظهر الإيمان من مُحَقِّقٍ ومنافقٍ؛ لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمثل أوامر كتاب الله (٥):

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيَسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥).

(٢) العزة: العلبة، والشدة، والقوة، ومنه: الأرض العزاز، أي الصلبة، ومنه عزني؛ إذا غلبني بشدته. انظر

المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٣٧٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٦٦).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٣٨).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/ ٤١٧).

مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

ما نَزَّلَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ رَسُولِهِ فِي مَكَّةَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۗ وَإِمَّا يُنسِبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأنعام: ٦٨]. كان المشركون يخوضون في مجالسهم في ذكر القرآن ويستتهزون به، فأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَبَعْدَ عَنهِمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَلَمَّا فَعَلَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ مَا فَعَلَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالْكَفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَقْعُدُونَ مَعَهُمْ، وَيُؤَافِقُونَهُمْ عَلَىٰ هَذَا الْكَلَامِ، فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلَ الْمُنَافِقِينَ، بَلْ إِنْ الْمُنَافِقِينَ إِذَا خَاضُوا فِي النَّيْلِ مِنَ الْقُرْآنِ، أَوْ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ إِذَا جَالَسْنَاهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُنْكَرَ عَلَيْهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَقَدْ أَقْرَرْنَا هُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَشَارَكْنَاهُمْ فِيهِ، وَمَنْ شَارَكَ الْكَافِرِينَ فِي كُفْرِهِمْ فَقَدْ اسْتَحَقَّ أَنْ يُشْرَكَ اللَّهُ مَعَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالْقِيُودِ وَالْأَغْلَالِ.

وهذا يدل على أن من رضي بالكفر فهو كافر، ومن رضي بمنكر يراه وخالط أهله، وإن لم يباشر، كان في الإثم بمنزلة المباشر، بدليل أنه تعالى ذكر لفظة «المثل» ههنا. هذا إذا كان الجالس راضياً بذلك الجلوس، أما إذا كان مكرهاً، أو خائفاً من ظلم لا يطيقه، فالأمر ليس كذلك؛ والفرق أن المنافقين كانوا يجالسون اليهود مع الاختيار، والمسلمين كانوا يجالسون الكفار عند الضرورة^(١).

ثم يبين الله سمات المنافقين، فيرسم لهم صورة زريّة منفرة، تبدأ بتقرير ما يكنّه المنافقون للجماعة المسلمة من الشرّ، وما يتربصون بها من الدوائر^(٢):

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ فَالَوْ أَلَمَ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي (٣/٣٣٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/٢٤٠).

نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

إن المنافقين يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى: أنهم ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفرة عليهم، وذهاب ملتهم. ولكنهم لنفاقهم، إن رأوا نصراً وتأييداً من الله للمسلمين، يتوددون إليهم، ويدعون أن لهم فيه نصيب، بحكم ما يظهرونه من الإيمان^(١). وإن كان للكافرين إدالة على المؤمنين، كما يقع في بعض الأحيان، ابتلاء للرسول وللمؤمنين، ثم تكون العاقبة لهم، يقول المنافقون للكافرين: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لقد ساعدناكم في الباطن، وما ألونا المؤمنين خيالاً وتحذيراً، حتى انتصرت عليهم^(٢). إنهم يصانعون المؤمنين إن كانت لهم غلبة، ويصانعون الكافرين إن كانت لهم غلبة؛ ليحفظوا عند الجميع، ويأمنوا الجميع؛ وما ذلك إلا لضعف إيمانهم وقلة يقينهم. ثم هددهم سبحانه بحكمه الحق يوم القيامة، وهو الذي يعلم ما في الصدور؛ وعليهم أن لا يغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليهم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما لله في ذلك من الحكمة؛ فيوم القيامة لا تنفع الظواهر، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٤)، ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود بهذا النص يوم القيامة، حيث لا يكون للكافرين على المسلمين سبيل وحجة وضعف هذا ابن العربي. وذهب البعض إلى أن ذلك في الدنيا^(٥).

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٢٦/٢).

(٢) يقال: استحوذ على كذا: أي غلب عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. وقيل: أصل الاستحواذ الحوط؛ حاذه يحوذه حوذاً إذا حاطه. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤١٩/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٦٧/٥).

(٤) السبيل: الحجة والغلبة. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (١٢٧/٢).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤١٩/٥).

إنه وعد من الله قاطع، وحكم من الله جامع: أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين؛ وتمثلت في واقع حياتهم منهجاً للحياة، ونظاماً للحكم، وتجرداً لله في كل خاطرة وحرمة، وعبادة لله في الصغيرة والكبيرة؛ فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها! وما من شك أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين، ولم تلحق بهم في تاريخهم، إلا وهناك ثغرة؛ إما في الشعور، وإما في العمل. وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية، ثم يعود النصر للمؤمنين، حين يعودون مؤمنين مسلمين.

ففي «أحد» مثلاً كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول ﷺ، وفي الطمع في الغنيمة، وهي عرض دنيوي؛ وقد أعطى الله المؤمنين درساً عملياً في ذلك: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ ۗ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي «حنين» كانت الثغرة في الاغترار بالكثرة، والإعجاب بها، ونسيان السند الأصيل، وهو الله سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. وأعطانا الله سبحانه درساً عملياً أيضاً من غزوة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۗ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ۗ ثُمَّ وَلَيْتُمُ مُدْرِبِينَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ۗ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: ٢٥-٢٦]؛ ولو ذهبنا نتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذه الثغرات نعرف هذه الثغرة أو الثغرات، أو لا نعرفها. أما وعد الله فهو حق في كل حين.

كذلك حين يقرر النص القرآني: أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً؛ فإنها يشير

إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر، والفكرة المؤمنة هي التي تسود، وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصوراً وشعوراً، وفي حياتها واقعاً وعملاً^(١).

ونستطيع أن نقول إن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً؛ في الدنيا، ويوم القيامة^(٢). فيوم القيامة الأمر ظاهر، إذ الحكم لله الحق. وفي الدنيا؛ فقد ينال الكافرون من المؤمنين أحياناً نظراً لتقصير المؤمنين كما ذكرت، ابتلاء من الله لهم ليصلحوا أمرهم ويثوبوا إلى ربهم، ولكن لن يجعل الله للكافرين سبيلاً يحو به دولة المؤمنين ويذهب آثارهم ويستبيح بيضتهم، كما جاء في حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربا، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكثرين؛ الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوا أنفسهم يستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوا أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال: من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»^(٣). فلن يسلط الله الكافرين على المؤمنين استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض المسلمين، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۗ ﴾ [غافر: ٥١]. وعلى هذا فيكون ردّاً على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه، من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلّكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٢٤١-٢٤٢).

(٢) ورجح ذلك الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ١٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩)، والترمذي (٢١٧٦)، وغيرهما. وقوله ﷺ: «زوى»، أي جمع، والمراد بالكثرين: الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر؛ العراق والشام. «يستبيح بيضتهم»: جماعتهم وأصلهم. والسنة العامة: القحط، بل يكون في ناحية يسيرة بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٤١-٢٤٢).

منهم، إذا هم ظهرُوا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْحِكُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٢] ^(١).

ثم يمضي السياق في رسم صوراً زرية أخرى للمنافقين، مصحوبة بالتهوين من شأنهم:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [١٤٢] مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾.

قد تقدم في أول سورة البقرة: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [٩]، وقال ههنا: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾، ولا شك أن الله لا يُخَادِعُ، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم بالله، وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج على الناس، وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، وكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَحَسْبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ آلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨]. وقوله: ﴿ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾، أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم، ويخذلهم عن الحق، والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة هم مجزيون على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بُابٌ بِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [١٣]، إلى قوله: ﴿ وَيَسْأَلُ الْمَصِيدُ ﴾ [الحديد: ١٣-١٥]، وقال رسول الله ﷺ: « مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يَرَأَى يَرَأَى اللَّهُ بِهِ » ^(٢).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٦٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٤١٩-٤٢٠).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦).

ثم بين الله عز وجل صفة أخرى من صفات المنافقين. وكيف أنهم إذا عملوا أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. قاموا إليها وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية فيها؛ لأنهم لا يعقلون معناها. وهذه صفة ظواهرهم في أدائها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَدِرْهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر الله صفة بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾، فلا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً، كصلاة العشاء وقت صلاة العتمة، وصلاة الصبح في وقت الغسل، كما قال رسول الله ﷺ: «إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار» (١).

ومن كان هذا حاله فلن يخشع في صلاته: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلا يتذكرون الله، إنما يتذكرون الناس، وهم لا يتوجهون إلى الله، إنما يتوجهون إلى الناس؛ فلا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعماً يراد بهم من الخير معرضون. قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق؛ يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً» (٢).

ثم زادنا الله بصيرة في شأن المنافقين، فقال: ﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾، فوصفهم بالحيرة والتردد بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين. فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا هم مع الكافرين ظاهراً وباطناً. بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتره الشك؛ فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك. وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً لهذا التردد فقال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة،

(١) رواه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٥٧) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٦٢٢) وغيره.

وإلى هذه مرة « (١) ».

وهذا حال من أضله الله، وصرفه عن طريق الحق، فلا هادي له إلى الطريق الواضح، ولا منقذ له مما هو فيه، ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٨٦) [الأعراف: ١٨٦].

وبعد أن اتضحت حال المنافقين، وأن أساس نفاقهم هو موالاتهم الكافرين، نهي الله عباده عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ وبين جزاء المنافقين الرهيب، مع التوجيه إلى التوبة وإخلاص الإيمان:

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُنْخِذُوا الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ اَتُرِيدُونَ اَنْ تَجْعَلُوْا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ﴿١٤٤﴾ اِنَّ التّفٰقِيْنَ فِي الدَّرَكِ الْاَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيْرًا ﴿١٤٥﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا وَاَصْلَحُوْا وَاَعْتَصَمُوْا بِاللّٰهِ وَاَخْلَصُوْا دِيْنََهُمْ لِلّٰهِ فَاُولٰٓئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللّٰهُ الْمُؤْمِنِيْنَ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعٰذَابِكُمْ اِنْ شَكَرْتُمْ وَاٰمَنْتُمْ وَاَنَّ اللّٰهُ شَاكِرٌ عَلِيْمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾.

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ وهو نهي عن مصاحبتهم، ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم (٢). ثم يحذر الله الذين يفعلون ذلك بأنهم قد جعلوا الحجة قائمة عليهم من الله في استحقاقهم عقاب الله. وكل «سلطان» في القرآن حجة، كما قال ابن عباس وتلاميذه، وغيرهم. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِيْنَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِيْ شَيْءٍ اِلَّا اَنْ تَكْتُمُوْا مِنْهُمْ ثَقَنَةٌ وَيُحٰذِرْكُمْ اللّٰهُ نَفْسَهُ. وَاِلَى اللّٰهِ الْمَصِيْرُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤)، وزاد النسائي (٥٠٣٧)، وأحمد (٥٠٥٩): « لا تدري أيها تتبع ».

(٢) الولاء والتوالي: أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منها، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية والنصرة. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ص ٥٣٣.

[آل عمران: ٢٨] ^(١).

ثم بين الله عقاب المنافقين، فأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار، ولا ناصر لهم يخرجهم من أليم العذاب. والنار دركات، كما أن الجنة درجات. وأعلى طبقات النار هي جهنم. فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار؛ لأنهم أسوأ غوائل من الكفار، وأشد تمكناً من أذى المسلمين. وروي عن أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار، في توابيت من النار تقفل عليهم.

ثم استثنى الله عز وجل التائبين من المنافقين، وذكر شروط التائب؛ وهي أن يصلح قوله وفعله، ويعتصم بالله؛ فيجعله منعمته وملجأه، ويخلص دينه لله تعالى؛ فيبدل الرياء بالإخلاص ^(٢). ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من كان هذا حاله فهو في زمرة المؤمنين يوم القيامة، ينال ما نال المؤمنين من الأجر العظيم، وهو الجنة؛ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم أخبر تعالى عن غناه عن خلقه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، وأنه سبحانه منزّه عن أن يعذب من أصلح العمل وآمن بالله ورسوله؛ فهو سبحانه يشكر من شكر له، ومن آمن قلبه علمه الله، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ^(٣)، وفي قوله تعالى ﴿عَلِيمًا﴾: تحذير وندب إلى الإخلاص ^(٤).

في هذا السياق الذي علمنا فيه الله عز وجل أنه منزّه عن مقابلة الشكر والإيمان بالعذاب، وأنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب، يؤدبنا سبحانه أديباً فيه تطهير النفس والمجتمع، وإشاعة الثقة في جو الجماعة المسلمة، باستبعاد قالة السوء فيها، مع الانتصاف من الظلم، والحض على العفو والسماحة:

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٧٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٢٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٧٠).

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٢٩).

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (١٣٨) **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا** ﴿١٣٩﴾ .

لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء^(١)، إلا من ظلم، فلا يُكره له الجهر به.

وجهر المظلوم بالسوء أن يدعو على من ظلمه، وقيل: أن يذكر ما فعل به من الظلم وقيل: أن يردّ عليه بمثل مظلمته، إن كان شتمه^(٢).

إن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر اتهامات فردية - سباً وقذفاً - وينتهي انحلالاً اجتماعياً وفوضى أخلاقية؛ تضل فيها تقديرات الناس بعضهم لبعض أفراداً وجماعات، وتندم فيها الثقة بين بعض الناس وبعض؛ وقد شاعت الاتهامات، ولاكتها الألسنة بلا تخرج.

لذلك كله حرّم الله إشاعة قالة السوء في المجتمع المسلم. وقصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم؛ يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم، في حدود ما يقع عليه منه من الظلم. ويُعتبر هذا ردّاً لسوء بذاته، قد وقع بالفعل على إنسان بذاته؛ وتشهيراً بالظلم والظالم في المجتمع، ليتصف المجتمع للمظلوم، وليضرب على يد الظالم؛ وليخش الظالم عاقبة فعله فيتردد في تكراره. عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له، ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير^(٣). قال النبي ﷺ: «لِي الْوَاجِدُ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعَقُوبَتَهُ»^(٤). وعن عائشة رضي الله عنها أنها

(١) الجهر: كشف الشيء وظهوره لحاسة البصر أو حاسة السمع، أما البصر فنحو رأيته جهاراً، قال تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. وأما السمع، فمنه قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ١٧]. المفردات في غريب القرآن ص ١٠١، وانظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٢٩).

(٢) انظر التسهيل، ابن جزى الكلبي (١/ ١٦٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٢٣٨).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٠).

(٤) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب الاستقراض، باب لصاحب الحق مقال. ورواه النسائي (٤٦٨٩)، وأبو داود (٣٦٢٨)، وابن ماجه (٢٤٢٧)، وإسناده حسن. انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/ ٥٠١-٥٠٢). وفي صحيح مسلم: «مطل الغني ظلم»، والليّ: المطل، والواجد: القادر الغني، من الوجد =

سُرِقَ لها شيء، فجعلت تدعو على السارق، فقال النبي ﷺ: «لا تُسَبِّخِي عنه»^(١).

وآخر الآية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ تحذير للظالم حتى لا يظلم، وللمظلوم حتى لا يتعدى الحد في الانتصار. ونَحْلُصُ من ذلك أن لا ندعو على أحد إلا إذا ظلمنا، وأن لا نتكلم على أحد إلا إذا ظلمنا.

ثم ندب الله إلى العفو في مثل هذا، ورغب فيه بقوله: ﴿إِنْ يُبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ نَعَفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾^(١٤٩)، والعفو من صفة الله تعالى، مع القدرة على الانتقام؛ لذا فالعفو عن الناس أجل ضرور فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو، وحيث يتَّجِه حقه^(٢).

والمقطع يتحدث عن الإيثار الصحيح بالله وكتابه ورسوله؛ ولا يكون ذلك إلا بتولي الله ورسوله، والذين آمنوا، وعدم تولي الكافرين؛ أي بتقوى الله والعبودية له، والتحرر من العبودية لغيره، وهذا هو محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة: أهم مقومات التوحيد الصحيح العبودية لله وحده، والتحرر من النفاق والكفر؛ وذلك بترك الولاء للكافرين، والبراءة من كفرهم ومخططاتهم؛ وعدم إلقاء المودة إليهم؛ بإخبارهم بأسرار المسلمين، وإطلاعهم على عوراتهم المادية والمعنوية؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المتحنة: ١]، وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥١) [المائدة: ٥١].

= بالضم بمعنى القدرة، انظر فتح الباري، ابن حجر (٦/٥٠٢)، وجامع البيان في تأويل القرآن، الطبري (٦/٢).

(١) رواه أبو داود (١٤٩٧، ٤٩٠٩)، قال أبو داود: لا تُسَبِّخِي، أي لا تحففي عنه.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٤/٢٠٧)، (٤/٦).

ب- الأحكام الشرعية:

- ١- يحرم الجلوس مع من يستهزئ بالحق إلا على سبيل الإنكار.
- ٢- توبة المنافق مقبولة بشروط: هي أن يصلح قوله وفعله، وأن يعتصم بالله، وأن يخلص دينه لله.
- ٣- لا يجوز للمؤمن أن يقول سوءاً، إلا إذا ظلم، فيدعو على ظلمه، أو يصف الظالم في حدود ما يقع عليه من الظلم. والعفو أفضل.

ج- الأخلاق الإسلامية:

- ١- الاعتزاز بالله، والتوكل عليه، والثقة به خلق أصيل من أخلاق المسلمين.
- ٢- من أخلاق المسلم عدم خوضه في أعراض المسلمين، وعدم إيذائهم بلسانه.
- ٣- من أخلاق المسلم العفو.

د- الجوانب التربوية:

- ١- تربية المؤمن على الاستقامة، وعدم الذبذبة؛ ليكون ظاهره كباطنه.
- ٢- بيان قبول توبة المنافق بشرطها، بعد بيان الجزاء الكبير الأليم في الدرك الأسفل من النار، أسلوب تربوي ليحذر المؤمن من النفاق، وليدفع المنافق إلى الإيمان الصحيح، ويكون في صف المؤمنين.
- ٣- استبعاد حالة السوء من أفراد المجتمع المسلم، مع الانتصاف من الظلم، تطهير للنفس وتطهير للمجتمع، وإشاعة الثقة في جو الجماعة المسلمة.

المقطع العاشر: بيان انحرافات أهل الكتاب الاعتقادية والسلوكية، توضيح معالم الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح (١٥٠-١٦٢):

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ بِحَسَنِ مَّحْسَبِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ۝١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝١٥٤﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّىٰ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بِهَيْئَتِنَا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعِ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ۝١٥٩﴾ فَيُظْهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٍ أُحْلَتَ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢﴾

صلة المقطع بما قبله:

بما أن الله ذكر في المقطع السابق أن المنافقين يتولون الكافرين من أهل الكتاب، واليهود منهم خاصة، ذكر في هذا المقطع انحرافات اليهود الاعتقادية والسلوكية، ليحذرهم المؤمنون ويشتوا على الاعتقاد الحق والسلوك الصحيح.

التفسير الإجمالي:

سبق الحديث في السورة عن الشرك والمشركين، ثم ذكر الله المنافقين، وهنا يذكر الله الكفار من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى؛ إذ كفر اليهود بـعيسى عليه السلام، وهم والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومن كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بالكل؛ لأن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى الأرض، فمن ردّ نبوة واحد منهم فقد ردّ نبوة الكل. وخاصة الإيمان بنبوة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ما من نبي إلا وقد أمر قومه بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومعنى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، أي بين الإيمان بالله ورسله فنصّ سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر؛ وإنما كان كفراً، لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على السنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، وخلقوا لأجلها؛ فكان كجحد الخالق سبحانه، وجحد الخالق كفر، لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية.

وكذلك التفريق بين رسل الله في الإيمان بهم كفر، ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، كاليهود الذين كفروا بعيسى، والنصارى الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، كما ذكرنا قبل قليل^(١).

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ليحررهم من العبودية لغيره من المخلوقات؛ ويقتضي توحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس؛ وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحداية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحداية. فدين الله للبشر ومنهجه للناس، هو هو لا يتغير في أساسه: «تحرير الإنسان من العبودية لغير الله سبحانه»، كما أنه لا يتغير في مصدره^(٢).

ثم قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾، أي يتخذوا بين الإيمان

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٢/٦).

والجحد طريقاً، أي ديناً مبتدعاً بين الإسلام واليهودية، أو بين الإسلام والنصرانية^(١)، مثل المنادين اليوم بوحدة الإيمان؛ فيقولون إن اليهود مؤمنون بالله، والنصارى مؤمنون، وفرعون مؤمن. والله سبحانه يؤكد كفرهم بتوكيد يزيل التوهم في إيمانهم، فيقول: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾؛ إن كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه لو نظروا حق النظر في نبوته. ويأتي بعد التوكيد الوعيد بالعذاب المذل للكافرين عموماً، ويدخل به هؤلاء دخولاً أولياً: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله، وبكل الرسل، فقد أعد الله لهم الجزاء الجزيل، والثواب الجليل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ﴾، يعني بذلك أمة محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولذلك ختمت الآية هنا بالمغفرة لذنوبهم، إن كان لبعضهم ذنوب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(٢).

وبعد تركيز تلك القاعدة الأساسية في العقيدة الإسلامية عن حقيقة الإيمان، وحقيقة الكفر، فيما يتعلق بالرسل والرسالات، يأخذ في استعراض بعض مواقف اليهود في هذا المجال، وفي مجال الجهر بالسوء الذي ختم به المقطع السابق؛ مندداً بموقفهم من النبي ﷺ ورسالاته، وتعتتهم في طلب الآيات، مع أن معجزاته ﷺ واضحة، وأولها صفاته في كتبهم، وأمرهم بالإيمان به ﷺ. ويقرن بين موقفهم هذا، وما كان لهم من مواقف مع نبيهم موسى عليه السلام ثم مع رسول الله من بعده عيسى عليه السلام وأمه مريم؛ فإذا هم جبلة واحدة في أجيالهم المتتابعة. والسياق يوحد بين الجيل الذي واجه الرسول محمداً ﷺ، والجيل الذي واجه عيسى، والجيل

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٥/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٧٢/١).

الذي واجه موسى كذلك من قبل، ليؤكد هذا المعنى، ويكشف عن هذه الجبلية^(١):

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. وإنما سأله هذا على سبيل التعنت والعناد والكفر، كما سأل كفار قريش من قبلهم نظير ذلك: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فبين الله لرسوله ﷺ أن سؤالهم هذا من باب التعنت، لا من باب طلب الدليل، وأن هذه طبيعتهم المتوارثة. فهاهم مع كل ما رأوا من الآيات مع موسى ﷺ طالبوه أن يريهم الله جهرة، فعوقبوا بالصاعقة، بسبب طغيانهم، وعتوهم وعنادهم، وهذا مفسر في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نٰظِرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٦]. وعبدوا العجل من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة، والأدلة القاهرة على يد موسى ﷺ، من فلق البحر، وإهلاك فرعون وجنوده، وغير ذلك. وقصة اتخاذهم العجل وعفو الله عنهم مبسطة في سورة الأعراف، وفي سورة طه^(٢).

وبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ منهم، وهو العمل بما في التوراة، رفع الله فوقهم الجبل ونهاهم عن العمل يوم السبت، وأمرهم أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وأخذ منهم الميثاق الغليظ على الطاعة فعصوا وخالفوا أمر الله. وقد تقدم رفع الجبل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٤/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٧٢-٥٧٣).

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ [البقرة: ٦٣-٦٤]. وتفصيل أمر الله لهم بدخول بيت المقدس سجداً جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ [البقرة: ٥٨-٥٩]. وجاء تفصيل عدوانهم في السبب في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَقْسُقُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الآيات إلى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦] (١).

هذه طبيعة اليهود. إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم، وغياب القهر لهم تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه، وتبجحوا فقالوا: إن قلوبنا غُلف؛ لا تقبل موعظة، ولا يصل إليها قول، وفعلوا كل الأفاعيل الأخرى التي يقصها الله سبحانه على رسوله وعلى المؤمنين (٢)، ليعرفوا كيف يواجهون اليهود، وليأخذوا حذرهم؛ فلا يقعوا بمثل ما وقعوا فيه:

﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلْتُمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

إخبار من الله تعالى عن أشياء واقعوها هي الضد مما أمروا به؛ وذلك أن الميثاق الغليظ الذي رفع الطور من أجله نقضوه، ووقعوا فيما أخبر الله عنه في الآيتين السابقتين مما هو استخفاف بأمر الله، وكفر به. وكفروا بآيات الله، أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على يد الأنبياء عليهم السلام، حتى انتهوا إلى أعظم حرمة، وهي قتل الأنبياء، وغير

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٧/٦).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (١٧/٦).

ذلك من الجرائم الكبيرة، التي كل واحدة منها كفر^(١). ففي الكلام مقدر، والجار والمجرور متعلق بمقدر؛ إذ حذف جواب هذا الكلام بليغ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحثمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم^(٢)؛ وقد ذكر الله سبحانه قتلهم الأنبياء في عدد من الآيات، وأشار إلى أن الدافع إلى ذلك هو كفرهم وعبوديتهم لأهوائهم كما في قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقولهم: قلوبنا غُلف؛ أي في غطاء (مغلقة: جمع أغلف) فلا نفقه ما تقول، وهو كقول المشركين: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقَرْ ﴾ [فصلت: ٥]؛ وغرضهم بهذا درء حجة الرسل^(٣)، أو تئيس الرسول ﷺ من إيمانهم واستجابتهم، أو الاستهزاء بتوجيه الدعوة إليهم، والتبجح بالكذب وعدم الإصغاء. وربما كان غرضهم كل ما ذكر. وينقطع السياق عند قولهم ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ ليكذبهم ويرد عليهم: ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾؛ فهي ليست مغلقة بطبعها؛ إنما كفرهم جرّ عليهم أن يطبع على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة، مختوم عليها، فلا يدخلها الحق، ولا تستشعر نداوة الإيوان، ولا تتذوق حلاوته فلا يقع منهم إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد الله، وغيرهم.

وبعد هذا الاستدراك والتعقيب يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من الذلة والمسكنة، وتحريم الطيبات في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيتها لهم في الآخرة^(٤): ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيءٍ مُّبْتَلًا عَظِيمًا ﴾. قال ابن عباس: إنهم رموها

(١) الباء في قوله: ﴿ فيها نقضهم ﴾ للسببية، و« ما » مزيدة لتوكيد السببية، والإشارة إلى أن ما ذكر سبب قوي. انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٠٩).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ١٣٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ١٧).

بالزنا، وكذلك قال غير واحد من التابعين. وهو ظاهر من الآية؛ أنهم رموها وابنها بالعظام؛ فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك. زاد بعضهم: وهي حائض^(١). مع أنهم عابوا المعجزات التي تدل على طهرها، وعلى نبوة عيسى عليه السلام، من كلامه الناس في المهد وغير ذلك. ثم هم يتبحرون بأنهم قتلوا المسيح عليه السلام، فثبت عليهم الجرم، وإن كانوا قد قتلوا غيره^(٢). ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾.

لقد كان عيسى عليه السلام يسبح في الأرض، ويدعو إلى الله، وكانت بنو إسرائيل تطلبه، وأغروا به ملكهم ليقبله، وزعموا أنهم قتلوه، ولزمهم ذنب هذا الجرم العظيم، من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى، فكأنهم قتلوه^(٣)؛ وقد أوضح الله الأمر وجلّاه، وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والدلائل الواضحات فقال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، أي رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾، يعني بذلك من ادعى قتله من اليهود، ومن سلم إليهم بذلك من أهل الجهل من النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾، أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين. والحقيقة أن الله رفعه إليه، والله سبحانه عزيز منيع الجناب، لا يصل أحد إلى من أراد الله نصره وحفظه، وهو سبحانه حكيم في جميع ما يقدره ويقضيه؛ فهو سبحانه حكيم فيما فعله بعيسى عليه السلام، وسينزله إلى الأرض بعد رفعه إلى السماء، فيكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ويدعو الناس إلى شريعته صلى الله عليه وسلم ودينه، ويؤمن به أهل الكتاب قبل أن يموت كما يموت سائر الناس: ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾^(٤).

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٧٣).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٣٣).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٣٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٢/٥٧٤-٥٧٦).

وقد ذكر الله قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام في سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾، الآيات إلى قوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْأفِعْكَ إِلَىٰ مَوْجِعِكِ وَارْأفِعْكَ إِلَىٰ مَطْعَمِكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٢-٥٥]. وقال ﷺ: « والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » ^(١)، وقال رسول الله ﷺ: « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم » ^(٢).

ثم يعود السياق إلى تعداد منكر اليهود، وما نالهم عليها من الجزاء في الدنيا والآخرة:

﴿ فَيُظَاهِرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدَاقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آمَالُ النَّاسِ بِالْبَطْلِ ؕ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ؕ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ؕ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٣﴾ ﴾.

جعل الله تعالى هذه العقوبة الدنيوية إزاء ظلم بني إسرائيل في تعنتهم، وسائر أخلاقهم الدميمة. والطيبات ذكرتها الآية الكريمة: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]. ﴿ وَبِصَدَاقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾؛ يحتمل أن يريد صداهم في ذاتهم، ويحتمل أن يريد صداهم غيرهم ^(٣). وقد

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥)، وفي رواية لمسلم: «... فأتمكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت: تخبرني، قال: فأتمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنة نبيكم ﷺ. وارجع إلى تفسير القرطبي (١٠١/٤).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٣٥/٢).

رجح الطبري رحمه الله (صدهم غيرهم) فقد صدوا عباد الله عن دينه وسبله التي شرحها لعباده صدأً كثيراً، وكان صدهم عن سبيل الله بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب الله، وتحريف معانيه عن وجوهه؛ وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ، وكتائبهم ما قد علموا من أمر محمد ﷺ^(١). ﴿ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا ﴾ لا عن جهل فقد نُهوا عنه فأصروا عليه، وأكلهم أموال الناس بالرشا وغيره، من أنواع أكل أموال الناس بالباطل. بسبب هذه المنكرات، وما ذكره الله قبل هذه، حُرمت عليهم طيبات أحلت لهم، وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً.

وهكذا تنكشف طبيعة اليهود وتاريخهم المشين، وعدم استجابتهم للرسول ﷺ، وتسقط بذلك وتهاوى دسائس اليهود في الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم، وتعرف الأمة المسلمة ما ينبغي أن تعرفه في كل حين عن طبيعة اليهود وجبائتهم، ووسائلهم وطرائقهم، ومدى وقوفهم للحق في ذاته؛ سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم؛ فهم أعداء للحق وأهله، وللهدى وحمَلته، في كل أجيالهم وفي كل أزمانهم، مع أصدقائهم ومع أعدائهم.

وما كان هذا التعريف بهذا الصنف من الخلق ليقصر على الجماعة الأولى في المدينة؛ فالقرآن هو كتاب هذه الأمة ما عاشت، فإذا استفتته عن أعدائها أفتاها، وإذا استنصحت في أمرهم نصح لها، وإذا استرشدت به أرشدها. وقد أفتاها ونصح لها وأرشدها في شأن يهود، فدانت لها رقابهم، ثم لما اتخذته مهجوراً دانت هي لليهود، كما رأيناها تتجمع فتغلبها منهم الشرذمة الصغيرة، وهي غافلة عن كتابها «القرآن» شاردة عن هديه، ملقية به وراءها ظهيراً! متبعة قول فلان وفلان. وستبقى كذلك غارقة في كيد يهود، وقهر يهود، حتى تثوب إلى القرآن.

ولا يترك السياق الموقف مع اليهود، حتى ينصف القليل المؤمن منهم، ويقرر حسن جزائهم، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق، ويشهد لهم بالإيمان والعلم: ﴿ لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ

(١) جامع البيان، الطبري (٦/١٧).

فِي الْعَالَمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

فالعالم الراسخ، والإيمان المنير، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله؛ كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذي جاء من عند الله الواحد.

وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، لفتة من اللفات القرآنية التي تصور واقع الحال التي كانت يومذاك، كما تصور واقع النفس البشرية في كل حين. فالعلم السطحي كالكفر الجاحد، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة، ونحن نشهد هذا في كل زمان^(١).

ومع ذكر إيمانهم بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله، فهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وكلها صفات المؤمنين المتقين التي جاءت في أول سورة البقرة.

ونلاحظ قوله تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ جاءت منصوبة، على غير سائر ما عطفت عليه، وذلك نصب على المدح، لإبراز أهمية الصلاة. وختمت الآية ببيان أجر هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظراؤه: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢).

ونلاحظ ارتباط هذا المقطع الذي يتناول انحرافات أهل الكتاب عن الاعتقاد الصحيح بمحور السورة، حيث يظهر من سلوك أهل الكتاب المنحرف حقيقة العبودية لله وطاعته.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- قضايا العقيدة:

١- أساس أركان الإيمان بالإيمان بالله رباً معبوداً لا إله سواه، والإيمان برسوله محمد ﷺ،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٢٠-٢١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/ ١٣).

وبالقرآن الذي نزل عليه، وينبني على ذلك الإيمان بما أخبر به القرآن ؛ كالإيمان بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر.

٢- يجب الإيمان بكل نبي بعثه الله إلى الناس ؛ فمن ردّ نبوة واحد من الأنبياء فقد ردّ نبوة الكل، وخاصة نبوة خاتم الأنبياء ﷺ.

٣- التفريق بالإيمان بين الله ورسله كفر ؛ لأن الرسل يبلغون أمر الله وشرعه. وعدم الإيمان بهم تكذيب لشرع الله الذي جاءوا به، وترك لطاعة الله والعبودية له.

ب- الأحكام الشرعية: يجوز التعامل المادي مع أهل الكتاب غير المحاربين ؛ لأن المعاملة بالبر والعدل غير الولاء. قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ بَرُّوهُمْ وَنُقِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [المتحنة: ٨-٩].

ج- الجوانب التربوية:

١- الكشف عن طبيعة اليهود وتاريخهم، وفضح سلوكهم، وكشف نفوسهم أسلوب من أساليب القرآن لتربية المسلمين، وتعريفهم على عدوهم ليحذروهم، ويحذروا عقائده وسلوكه.

٢- من أساليب القرآن مدح العلم وأهله، وبيان أن العلم الراسخ الذي يؤدي إلى الإيمان الصحيح، هو العلم النافع، الذي يكون البحث فيه عن بواطن الأمور، وأهدافها وحكمها. أما العلوم الدنيوية البحتة، والانغماس بالمادية، فإنها تؤدي إلى الغفلة عن الحق والبعد عنه، قال تعالى: ﴿ يَعلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (٧) [الروم: ٧].

المقطع الحادي عشر: الوحي لتحرير الناس لم ينقطع من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ (١٦٣-١٧٠):

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

صلة المقطع بما قبله:

المقطع السابق يتحدث عن انحرافات أهل الكتاب في اعتقادهم بالله وبرسله، ويزعمون أنهم يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض. ويتحدث هذا المقطع عن استمرار الوحي من الله إلى الرسل المتتابعين في البشرية من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ آخر الرسل وخاتمهم. والعامل الذي يريد الحق قد أرسل إليه الرسول محمد ﷺ بالحق، فإن آمن به وبالرسل قبله فقد اهتدى إلى طريق الحق، وإن آمن ببعض الرسل وكفر بمحمد ﷺ، فقد كفر بالحق المنزل من عند الله. فالمقطع يبين وحدة الرسالة، ووحدة المصدر.

التفسير الإجمالي:

مما نلاحظه أن المقطع الثامن بدأ بقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ .. ﴾ الآية، وانتهى بقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوْمِينَ بِأَلْقُسُطِ ﴾. وهذا المقطع يبدأ بقوله: ﴿ إِنَّا

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ. ﴿١﴾، وينتهي بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَاتَمُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾ الآية؛ علماً بأن بداية سورة النساء: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَفَاتَمُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾.

روى الطبري بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال سُكَيْنٌ وعدي بن ثابت^(١): يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولها: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ينحبر الله عز وجل في هذا المقطع أن إنزال الوحي على محمد ﷺ ليس بدءاً، بل أوحى إليه كما أوحى إلى الرسل من قبله، فلم ينقطع الوحي من بداية حياة البشر على الأرض، إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية للأهواء والطواغيت. وعدد الله سبحانه أسماء بعض من أوحى إليه من الرسل؛ فإنزال الكتاب إلى محمد ﷺ ليس بدءاً، فقد أنزل سبحانه كتباً من قبل، منها الزبور الذي أنزله على داود عليه السلام.

والرسل كثيرون، منهم من قصَّ الله على رسوله قصصهم، ومنهم من لم يقصص. والأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن خمسة وعشرون نبياً، وهم: آدم، وإدريس ونوح، وهود وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل، عند كثير من المفسرين، وآخرهم سيدهم وسيدنا محمد ﷺ. وهناك خلق آخرون من الأنبياء لم يذكروا في القرآن، وعددهم أكثر من ألف. قال رسول الله ﷺ: «إني خاتم ألف نبي أو أكثر، وما بُعث نبي يتبع إلا وقد حذرَّ أمته الدجال، وإني قد بُيِّن لي في أمره ما لم يُبيِّن لأحد، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة، ولا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان، ومعه صورة

(١) عند القرطبي (١٥/٦): قوم من اليهود، منهم سُكَيْنٌ وعدي بن زيد، وكذا عند ابن كثير (١/٥٨٥)، وابن عطية في المحرر الوجيز (٢/١٣٦): عدي بن زيد.

الجنة خضراء يجري فيها الماء، وصورة النار سوداء تدخن» (١).

وأخبر الله سبحانه أن من الوحي ما كان كلاماً من الله، كما كان ذلك لموسى عليه السلام، وهذا تشریف له بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم.

ثم بين الله الحكمة من إرسال الرسل، وهي التبشير والإنذار؛ فيشرون من أطاع الله واتبع رضوانه، وتحرر عن العبودية لغيره بالخيرات، وينذرون من خالف أمره، وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وقد أنزل الله كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين سبحانه ما يحبه ويرضاه، مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى لمعتذر عذر؛ فلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، فهو سبحانه عزيز في العقاب على من أنكر الحق، حكيم في بعث الرسل لتحرير الناس من الذل والعبودية لغير الله تعالى. وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَمَنزَجَىٰ (١٣٤ طه: ١٣٤)﴾. وقال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عليه السلام، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين» (٢).

وفي قوله سبحانه: ﴿لَيْتَلَىٰ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، إشعار برحمة الله للعباد، فلا حجة لأحد على الله؛ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٥)﴾ [الأنعام:

(١) رواه الإمام أحمد (١١٣٤٣). قال ابن كثير: رواية الإمام أحمد أثبت وأولى بالصحة، وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لخاتم ألف نبي أو أكثر، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال، وإني قد بين لي ما لم يبين لأحد منهم، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور». تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٨٧/١).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠، ١٤٩٩)، وفي رواية: «من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه». انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٨٨/١).

[١٤٩]، فقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيـان في الأنفس والآفاق. ولكنه سبحانه، رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلـبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ يذكرونهم ويبصرونهم، ويحاولون استنقاذ فطـرهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها، أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيـان في الأنفس والآفاق. ودور العقل أن يتلقى عن الرسالة، ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول، ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام، وينبّه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيـان في الأنفس والآفاق، وأن يرسم للعقل - أيضاً - منهج التلقي الصحيح، ومنهج النظر الصحيح، القائم على الأدلة والحجج، وأن يقيم له القاعدة التي ينهض عليها منهج الحياة العملية، المؤدي إلى خير الدنيا والآخرة^(١).

ثم يأتي الاستدراك عن مفهوم ما قبله؛ كأنهم لما سألوه ﷺ إنزال كتاب من السماء، وتعتنوا وردّ عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾، قيل: إنهم لا يشهدون، أو واقع حالهم أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد. وحاصل ذلك: إن لم تلزمهم الحجة، ويشهدون لك، فالله يشهد^(٢):

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

روي في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من يهود، فقال لهم: إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك فأنزل الله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

(١) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٢٣-٢٤).

(٢) روح المعاني، الألويسي (٢/٢١٧).

بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣١﴾^(١).

في هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، مع إثبات نبوته، والردّ على من أنكرها؛ أي وإن كفر بك من كفر يا محمد ممن كذبك وخالفك، من أهل الكتاب وغيرهم، فالله يشهد أنك رسوله الذي أنزل عليك الكتاب، وهو القرآن، الذي أنزله الله بعلمه؛ مما أراد الله أن يطلع العباد عليه، بمشيئته سبحانه، وحكمته فيما يحقق مصالحهم، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ والدليل أنه أنزله بعلمه ما فيه من أمور لا يمكن أن تكون إلا عن علم الله؛ من ذكر للبينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وغير ذلك من أوجه الإعجاز في القرآن التي تشهد على صدق نبوة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، ويضاف إلى ذلك ما في القرآن من ذكر لصفاته تعالى المقدسة، التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله بها^(٢).

إن في هذا القرآن من العلوم الكونية، والتشريعية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والحقوق العامة والخاصة وغيرها، ما لا يمكن أن يكون إلا من عند رب العالمين، وكفى بذلك معجزة لمحمد ﷺ. فشهادة الله بها أنزله إليه، إثباته لصحته بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات؛ إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب بالمعجزة.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أيضاً بما شهد له الله سبحانه. وقد جعل بعضهم شهادة الملائكة على صدقه ﷺ في دعواه بإتيانهم لإعانتة ﷺ في القتال ظاهرين، كما كان في غزوة بدر وغيرها^(٣).

وعندئذ يجيء التهديد الرعب للمنكرين في موضعه، بعد شهادة الله - سبحانه - وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم^(٤):

(١) رواه ابن جرير عن ابن عباس من طريق محمد بن إسحاق، وهو إسناده حسن. جامع البيان الطبري (٢٢/٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٨٩).

(٣) روح المعاني، الألويسي (٢/٢١٨).

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٣٤).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٤﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

إن الذين كفروا بالله وآياته ورسله، بعد أن تأكدت رسالة الرسول، بشهادة الله، وتأيبه بالمعجزات، ولم يكتفوا بعدم اتباع الحق، بل سعوا في صد الناس عن اتباعه، إن هؤلاء قد خرجوا عن الحق، وضلوا عنه، وبعثوا بعداً عظيماً شاسعاً^(١).

كل من ينطبق عليهم وصف الكفر والصد عن طريق الهدى والحق قد ضلوا ضلالاً بعيداً؛ ضلوا عن هدى الله، وضلوا طريقهم في الحياة؛ فضلوا فكراً وتصوراً واعتقاداً، وضلوا سلوكاً ومجتمعاً وأوضاعاً. ضلوا في الدنيا وضلوا في الآخرة، ضلالاً لا يُرتجى معه هدى؛ ﴿ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾.

ويعيد السياق وصفهم بالكفر، ليضم إليه الظلم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا ﴾.

والكفر في ذاته ظلم. إنه ظلم للحق، وظلم للنفس، وظلم للناس. والقرآن يعبر عن الكفر والشرك بأنه الظلم، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وقوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥]، بعد أن قرر في الآية السابقة على هذه أنهم الكافرون: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وهؤلاء لم يرتكبوا ظلم الكفر والشرك وحده، ولكن ارتكبوا معه ظلم الصد عن سبيل الله أيضاً، فأمعنوا في الكفر، أو أمعنوا في الظلم، ومن ثم يقرر الله بعدله جزاءهم الأخير: ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٤﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٥﴾ ﴾^(٢).

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٤﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾؛ وذلك لعدم استعدادهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٨٩).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٣٤).

للهداية إلى الحق، والأعمال الصالحة التي هي طريق الجنة^(١)، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

إن هذه الأوصاف وهذه التقريرات، مع كونها عامة لكل من كفر وصد عن سبيل الله تنطبق أول ما تنطبق على حال اليهود، وتصور موقفهم عن هذا الدين وأهله؛ بل من الدين الحق كله، سواء منهم الذين عاصروا فجر الدعوة في المدينة، ومن سبقوهم منذ أيام موسى عليه السلام، ومن جاءوا بعدهم إلى يومنا هذا؛ إلا القلة النادرة من الذين فتحوا قلوبهم للهدى فهداهم الله^(٢).

وبعد وضوح الحجة، وظهور هذه الحقائق يأتي النداء إلى الناس جميعاً:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

يا أيها الناس قد جاءكم محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي، المؤيد بالدليل من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم، واتبعوه يكن خيراً لكم. وأما إن كفرتم بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم؛ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣)، وأنتم خلق من خلق في السماوات والأرض؛ فأنتم في ملكه وتحت تصرفه فلا يضركم كفركم، بل تضرون أنفسكم باختيار ما تمليه شهواتكم، وشياطين الإنس والجن، على ما أنزله العليم الحكيم. والله سبحانه عليم بما يكون من إيمان وكفر، وهو حكيم في تكليفكم بما أنزل على رسوله، مع علمه بما يكون منكم^(٤).

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢٠).

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٣٤)، وانظر قول الألوسي في تفسيره روح المعاني (٢/ ٢٢٠)،

والآية في اليهود على الصحيح، وقيل إنها في المشركين، وما قبلها في اليهود.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/ ٥٨٩).

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٥٩).

ونعود إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ في سورة مدنية، إنها دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب، وكشف جبلة اليهود ومناكرهم في تاريخهم كله، وبيان تعنتهم الأصيل، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم من الطغيان والاستعباد. كما سبقها بيان طبيعة الرسالة وغايتها. وهذه الغاية وتلك الطبيعة تقتضيان أن يرسل الله الرسل، وتقتضيان أن يرسل الله محمد ﷺ حتماً؛ فهو رسول إلى الناس كافة، بعد ما مضى عهد القوميات؛ كما قال النبي ﷺ: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصةً ويُبعث إلى الناس عامة»^(١)، فلم يكن بد من تبليغ عام في ختام الرسالات، يُبلِّغ إلى الناس كافة: ﴿لِتَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فانقطعت هذه الحججة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة. فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى، أو بعد موسى عليهما السلام، لا يتفق مع عدل الله في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ^(٢).

ونلاحظ بوضوح الارتباط بين هذا المقطع ومحور السورة (التوحيد الصحيح) بالعبودية لله وحده، والتحرر عن العبودية لغير الله. حيث يبين المقطع وحدة الوحي، واستمراره من بداية البشرية إلى بعثة محمد ﷺ، لتحرير الناس من العبودية لغير الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من السورة:

أ - قضايا العقيدة: الإيذان بالرسل الذين أرسلهم الله لتحرير البشرية من العبودية لغير الله ومحمد ﷺ آخر الرسل، أرسله الله للناس كافة، وليس بدعاً من الرسل: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاً مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ [الأحقاف: ٩].

ب - الجوانب التربوية: السياق التربوي منصب على تأكيد صحة الوحي، وصدق القرآن؛ وقد ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

(١) جزء من حديث رواه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨)، ومسلم بنحوه (٥٢١)، والنسائي (٤٣٢)، وغيرهم.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٣٥/٦).

المقطع الثاني عشر: الغلو عند أهل الكتاب أخرجهم من الإيمان الصحيح، وأوقعهم في العبودية لغير الله (١٧١-١٧٣):

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

صلة المقطع بما قبله:

وضح المقطع السابق وحدة الوحي، ووحدة مصدره، واستمراره لتحرير البشرية وسعادتها، ثم دعا الناس عموماً إلى الإيمان بالحق والرسول، ويأتي هذا المقطع خاصاً بأهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان، والعمل الصالح، وترك ما يتنافى مع توحيد الله والعبودية له.

التفسير الإجمالي:

ينهى الله أهل الكتاب عن الغلو والإطراء^(١)، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعموا أنهم على دينه، فادعوا فيهم العصمة، وأتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً

(١) الغلو: الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السعر. زاد المسير، ابن الجوزي (٢/ ٢٦٠)، وقد أفرط اليهود في الغلو في حط المسيح ﷺ عن منزلته، بعدما رأوا معجزاته، حتى قالوا: إنه ابن زنا، تفسير القرطبي (٦/ ٢١)، والغلو باب واسع، يدخل فيه أشياء كثيرة من قضايا العقائد إلى غير ذلك.

أَوْ صَاحِبًا أَوْ كَذِبًا، وهذه هي العبودية لغير الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ اُنْكُذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤] ^(١).

ولابد لنا أن نلفت النظر هنا في موضوع الغلو والإطراء للبشر، حتى يصلوا إلى درجة العصمة، فيحلّوا ويحرموا للناس ما لم يأذن به الله؛ فيذلوهم، ويستعبدونهم، وهم يحسبون أنهم يتقربون إلى الله بهذه الطاعة للمعصومين، وهذا متحقق في البابا والأخبار والرهبان، كما وضحت ذلك آية سورة التوبة، التي ذكرت قبل قليل. ويدخل في ذلك ما تفعله بعض الفرق الإسلامية عندما تغلوا في مرجعياتها الدينية وتوصلها إلى حدّ العصمة لتكون معبودة من دون الله. ويدخل في ذلك بعض الشيوخ الضالين المضلين، أو المغضوب عليهم، حين يدعون الناس بأسلوب مباشر أو غير مباشر، إلى تقديسهم، وإطرائهم، وطاعتهم طاعة عمياء، كالميت بين يدي الغاسل. وقلت: « بعض الشيوخ الضالين أو المغضوب عليهم » لأنهم إن كانوا يعلمون من دين الحق أن العبادة لله، والإخلاص له، ثم يتجاوزون حدودهم بدعوة الناس إلى تقديسهم وطاعتهم طاعة عمياء، ليصلوا إلى التسلط على الناس، والوصول إلى أهوائهم ومصالحهم فهؤلاء من المغضوب عليهم؛ لأنهم يعلمون الحق ولا يتبعونه. أما إذا كان الشيوخ جهلة لا يعلمون حقيقة الدين، وحقيقة العبودية لله والتحرر عن العبودية لغيره، ويظنون أنهم بخضوع الناس لهم يجرونهم إلى الصلاة والصيام وطاعة الله... إن كانوا كذلك فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم. والضال هو الذي لا يعرف الحق ولا يتبعه.

فهذا درس تربوي مهم في عدم الانسياق في تيار العبودية لغير الله سبحانه، عن طريق

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٨٩).

الغلو أو الإطراء. ولذا قال النبي ﷺ: « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله »^(١).

وهكذا نهى الله أهل الكتاب عن الغلو في دينهم، ثم نهاهم أن يفتروا على الله، وأن يجعلوا له صاحبة أو ولداً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزهه وتقدس، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وإذ كان من أعظم ما وقع من غلو ما ادعاه النصارى أن المسيح هو الله أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فقد قرر الله حقيقة المسيح ﷺ: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾. إن المسيح ﷺ عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له كن فكان، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨]. فهو ﷺ رسول من رسل الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فكان عيسى بأمره عز وجل، ولهذا قيل لعيسى كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال بها كن فكان والروح التي أرسل بها جبريل، وليس غريباً في قدرة الله أن يخلق عيسى بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ من غير أب، فقد خلق آدم ﷺ بلا أب ولا أم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]^(٢)، وقال النبي ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »^(٣).

(١) رواه البخاري (٣٤٤٥)، وأحمد (١٥٥، ١٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٩٠).

(٣) رواه البخاري (٣٤٣٥).

و « من » في قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ لابتداء الغاية، وليست تبعية. وقد توهم بعض النصارى أن لهم مستمسكاً من القرآن بالنص أن عيسى منه في هذه الآية ؛ أي جزء منه، فردّ عليهم بعض أهل العلم، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجن: ١٣]، فيلزم إذن أن يكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه وتعالى علواً كبيراً، فانقطعت حجة النصارى. وكذلك خلق آدم ﷺ، فلا يقول أحد أنه جزء من الله في قوله تعالى: ﴿ فَاِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] (١).

وبعد أن قرر حقيقة عيسى ﷺ نهاهم أن يجعلوه وأمه - أو ما يسمونه الروح القدس - مع الله شريكين، فنهاهم عن التثليث بعد أمرهم بالإيمان بالله (ورسله): ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ. انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. وهذه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله، ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد ﷺ بوصفه خاتم النبيين، والانتهاه من تلك الدعاوى والأساطير تحيي في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف (٢). وهذا النهي عن التثليث هو نهي لكل فرق النصارى عن ضلالهم في هذا الشأن ؛ لأن فرق النصارى - بعد ما فني أهل التوحيد الخالص منهم - كلها تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت - في زعمهم - هل اتحداً أو ما اتحداً، أو امتزجا، أو حل فيه، على آراء كثيرة، وكلها كفر، ولا يقرها العقل والمنطق السليم. ولهذا أمرهم سبحانه أن ينتهوا عما هم فيه ؛ لأن في هذا الانتهاه الخير لهم. ثم قرر الله سبحانه الوحداية الصحيحة: ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾، ونزه ذاته أن يكون له ولد: ﴿ سُبْحٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، وذلك لأن كل ما في السماوات والأرض - بما فيهم عيسى وغيره - ملكه وخلقته، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد، وهو الحافظ والمدبر

(١) انظر روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٢١-٢٢٢).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/ ٤٠).

للجميع، كما قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَفَنُكُونُ لَهُ وُلْدًا﴾ [الأنعام: ١٠١] (١).

وفي قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ إشارة إلى دليل آخر؛ لأن الوكيل بمعنى الحافظ، فإذا استقل سبحانه وتعالى في الحفظ لم يحتاج إلى الولد، فإن الولد يعين أباه في حياته ويقوم مقامه بعد وفاته، والله سبحانه منزّه عن كل هذا، فلا يتصور له ولد عقلاً، ويكون افتراؤه حقاً وجهلاً. ثم يأتي الاستئناف المقرر لما سبق من التنزيه (٢):

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿٧٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٧٤﴾﴾

لن يستكبر ولن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون يستكبرون عن العبودية لله، بل هي فخرهم وشرفهم. وهذا ينفي عن الملائكة صفة الألوهية، كما افتراها بعض أهل الجهل، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]. ثم بين الله عز وجل أن من يستكبر عن عبادة الله والتحرر عن العبودية لسواه، فإن الله سيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، الذي لا يجور ولا يحيف؛ وحكمه جزاؤه ضمن قاعدة هي: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيعطيه من الأجر والثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه، وسعة رحمته وامتنانه (٣). وتحتل أن تكون هذه الزيادة المخبر عنها أن الحسنه بعشر أمثالها، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ويحتمل أن يكون

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٩١).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٣١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (١/٥٩١).

التضعيف سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١] (١).

وأما الممتنعون عن طاعة الله وعبادته، المستكبرون عنها، فإن الله يعذبهم عذاباً أليماً؛ لا يحيط به الوصف، ولا يجدون من يلي أمورهم ولا من ينصرهم من بأس الله تعالى وينجيهم من عذابه (٢). وفي ختام هذا المقطع نرى أنه يطالب أهل الكتاب بتوحيد الله ومعرفته، وترك العبودية لسواه؛ ويكون ذلك بالعمل الصالح بعد الإيمان الصحيح. فدل ذلك على أن العبادة مجموعة أمور: معرفة الله بذاته وصفاته، والإيمان به، والعمل الصالح الذي أمر به وشرعه سبحانه وهذا مضمون محور السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - قضايا العقيدة:

- ١- الدعوة إلى التوحيد: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾.
- ٢- الدعوة إلى العبادة والعمل الصالح: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، والعمل يصدق الإيمان.
- ب- الجوانب التربوية: عرض حال النصارى، ونهيمهم عن الغلو الذي أوقعهم في التثليث والشرك، والترغيب في الإيمان والعمل الصالح مع التهيب لمن استكبر واستنكف عن الإيمان والطاعة. كل ذلك أساليب تربوية تبين حقيقة التوحيد وتدعو أهل الكتاب إلى الحق، وتقرّ في قلوب المؤمنين الثبات عليه.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٢/ ١٤٠).

(٢) روح المعاني، الألوسي (٢/ ٢٣٥).

المقطع الثالث عشر: القرآن دليل قاطع وحجة واضحة (١٧٤-١٧٦):

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسُخِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنِّهِ وَفَضْلِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّسْفَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾.

صلة المقطع بما قبله:

يتناول المقطع السابق دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد الصحيح، وترك الشرك والغلو، كما تناولت المقاطع السابقة انحرافات اليهود وتعتتهم قبل بيان غلو النصارى، وأهل الكتاب عموماً، وتناولت الآيات سابقاً بيان العبودية لله، وأن التوحيد الصحيح لا يكون إلا بالتححرر من النفاق؛ وتحرير النفس والقلب من كل عبودية لغير الله تبارك وتعالى؛ يأتي المقطع الأخير في السورة ليدعو الناس كافة: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾، كما بدأت السورة بـ ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾. يدعو الله الناس جميعاً إلى الرسالة الأخيرة، التي تحمل برهاناً من الله، وهي نور كاشف للظلمات والشبهات، فمن أطاع الله ورسوله، واستقام على أمره سبحانه سُدَّ في الدنيا والآخرة.

التفسير الإجمالي:

يقول الله تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم^(١)، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة المزيلة للشبهة، وهو القرآن الذي هو الضياء الواضح على الحق كله في كل شؤون الحياة، فهو حق، وفيه برهانه ودليله^(٢).

فالقرآن هو معجزة الرسول ﷺ الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وإذا

(١) البرهان: الحجة النيّة الواضحة، التي تعطي اليقين التام. المحرر الوجيز، ابن عطية (١٤١/٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٥٩٢/١).

كان كثير من الناس ظنوا أن إعجاز القرآن في الجوانب اللغوية فقط، لكثرة الكتابة فيه، فإن أوجه إعجاز القرآن كثيرة، إضافة إلى اللغة والبيان، نذكر منها بإيجاز:

أ - فالقرآن معجز في أساليبه التربوية؛ من تدرج في الأحكام، وتحرير للنفس البشرية، وترغيب وترهيب، وتشبيه وتمثيل، وغير ذلك من الأساليب التي نقل بها الأفراد والمجتمعات، بل البشرية جميعاً، لا من آمن به فقط، رويداً رويداً؛ نقلهم من جاهلية جهلاء إلى حضارة إنسانية ومادية فريدة لا مثيل لها. وقلنا «البشرية جميعاً»؛ لأنه لا يستطيع أحد أن ينكر أثر القرآن والإسلام في الشرق بعد غزو التتار، وأثره في الغرب بعد الحروب الصليبية.

ب- والقرآن معجز في أخباره عن الماضي والمستقبل.

ج- وهو معجز أيضاً، حيث لم يأت فيه شيء لا يقره العقل السليم.

د - وهو معجز حين أخبر عن بعض الظواهر الكونية والعلمية، مما لم تصل إليه البشرية إلا في

القرن العشرين؛ من ذلك تلقيح الرياح: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، حيث

تلقيح الرياح السحاب والنبات، ومن ذلك إخباره عن النبات والجيولوجيا، واختلاف

الكائنات الحية: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨]، ومن ذلك إخباره عن خلق الإنسان في ظلمات ثلاث؛ ظلمة

الأنف، والظلمة المشيمة، وتكوين الجنين نطفة فعلقه فمضغة فعظاماً، ثم

كائناً إنسانياً متكاملًا: ﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [١٢] ثم جعلناه نطفة في

قرارٍ مكين ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا

فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون:

١٢-١٤]. فهل كان محمد ﷺ، وهو أمة متخصصة في علوم الأجنة، مما لم تصل إليه العلوم

الحديثة إلا في العصر الحديث. لا شك أن هذا من عند خالق الإنسان.

هـ- والقرآن معجز بعلومه الشاملة لكل جوانب السلوك الإنساني في هذه الحياة، وبيّنت السنة وفصلت ذلك كله:

١- فقد وضع أسس العلاقات الاجتماعية السليمة.

٢- ووضع أسس الاقتصاد والعلاقات المالية؛ فحرم الربا، والغش، والغرر، والرشوة والاحتكار، وكل تصرف مالي يؤدي إلى تكدّس الثروة بأيدي جماعة قليلة في المجتمع، ولذلك فتت الثروات بالإرث الذي يتوافق مع فطرة الإنسان وحقق النمو الاقتصادي المتوازن: ﴿ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧]. وحلّ القرآن مشكلة الفقر بسنوات قليلة، وعجز العالم عن حلها.

٣- ووضع القرآن القواعد والأسس للحقوق المدنية، وبنى قواعد الالتزام على العدل والساحة.

٤- ووضع القواعد والأسس للحقوق الدولية. ولقد قامت عصبة الأمم المتحدة قبل هيئة الأمم المتحدة على المبادئ الفقهية التي ترجمها أعضاء جمعية الشيباني للحقوق الدولية، من كتاب السير (الجهاد) في الجامع الصغير للإمام محمد بن الحسن الشيباني أحد تلاميذ أبي حنيفة النعمان رحمه الله. ولكن - مع الأسف - انحرفت المؤسسات الدولية عن العدالة الإسلامية في السلم والحرب، إلى سياسة المصالح، والتسلط من الدول العظمى، كما وضحنا ذلك سابقاً.

فمن أين لإنسان أمي أن يأتي بهذه العلوم، التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وترسم للإنسانية طريق السعادة، وقد عجزت البشرية كلها - بمجالسها النيابية والشعبية، وعلومها المادية والإنسانية، وبتعاون أعمها وشعوبها، وتبادل خبراتها - أن تصل إلى تحقيق العدل والخير في بعض ما وصلت إليه العلوم والمعارف التي جاء بها القرآن؛ بعد أن تحبّطت البشرية طويلاً:

﴿ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولا نريد أن نطيل في موضوع الإعجاز، ولكن لا بد لنا من هذه الإشارات، حتى نعلم أن القرآن نفسه حجة وبرهان للناس جميعاً على أنه حق، أنزله الله سبحانه لإسعاد البشرية ونقلها من ظلمات المصالح الخاصة والشهوات، وتضليل شياطين الإنس والجن إلى طريق النور والسعادة الأبدية، في الدنيا والآخرة؛ فهو الحق، وهو برهان ودليل على الحق.

وهذا القرآن الذي هو البرهان والحجة هو النور المبين الذي تتجلى تحت أشعته الكاشفة حقائق الأشياء واضحة، فيه العقائد والشرائع، والأحكام والمواعظ، التي تفرق بين الحق والباطل في داخل النفس، وفي السلوك، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأَهَّلَ لِكِتَابٍ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] ^(١).

وإذا جاء البرهان والبيان، فلا بد من الإيمان لمن يدرك البرهان، ويعي بقلبه النور المبين. ومن استنكف تعتاً واستكبر عن الحق بعد بيانه، فقد ذكره السياق قبل قليل في قوله: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، وهنا يذكر في الختام من استنار بالنور وآمن بالحق: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ ﴾، الذين

(١) اتفق علماء التفسير على أن النور المبين هو القرآن، وقال بعضهم عن البرهان والحجة: إنها محمد ﷺ وقال بعضهم: إشارة إلى محمد ﷺ، والمعنى؛ قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه. انظر المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٤١)، وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/٢٧)، وروح المعاني، الألوسي (٢/٢٣٥).

آمنوا بالله حسبما يوجبه البرهان الذي جاءهم. آمنوا بالله رباً خالقاً مالكاً متصرفاً في ملكه لا معبود سواه، واعتصموا به سبحانه، فاستمسكوا بدينه وعصموا أنفسهم بالله من زيغ الشيطان^(١)؛ والاعتصام بالله ثمرة الإيمان الصحيح، فمتى عرفت النفس حقيقة الله بصفاته، وعرفت حقيقة عبودية الكل له، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وتثق به وتتوكل عليه؛ لأنه وحده صاحب السلطان والقدرة. وهؤلاء يدخلهم الله في رحمة منه وفضل. رحمة في هذه الحياة الدنيا - قبل الحياة الأخرى - وفضل في هذه العاجلة - قبل الفضل في الآجلة - فالإيمان هو الواحة الندية التي تجد فيها الروح الضلال من هاجرة الضلال في تيه الحيرة والقلق والشroud. كما أنه هو القاعدة التي تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه في كرامة وحرية واستقامة، حيث يعرف كل إنسان مكانه على حقيقته: « عبدٌ لله وسيد مع كل من عداه»، وليس هذا في نظام غير نظام الإيمان كما جاء به الإسلام، وهذا كله رحمة وفضل من الله في الدنيا قبل الآخرة، وما في الآخرة خير وأبقى^(٢).

إن الله وعد المؤمنين المعتصمين بالله بأمور ثلاثة: الرحمة، والفضل، والهداية. فالرحمة الجنة، والفضل ما يتفضل به عليهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والهداية إلى الصراط المستقيم هي الهداية إلى الدين القويم، الذي يكون باتباعه سعادة الدنيا، وهو الطريق إلى الجنة^(٣).

وتقديم ذكر الوعد بالإدخال في الرحمة، والثواب الجزيل على الوعد بهذه الهداية إلى الصراط المستقيم، للمساعدة إلى التبشير بها هو المقصد الأصلي^(٤)؛ ففي الكلام تقديم وتأخير كأنه يقول: يهديهم في الدنيا صراطاً مستقيماً، يعني ديناً لا عوج فيه، ويثيبهم على ذلك، ويدخلهم

(١) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٣٥)، وزاد المسير، ابن الجوزي (٢/٢٦٤).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٦/٤٨).

(٣) التفسير الكبير، محمد الرازي (٣/٣٥٠).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢/٢٣٦).

في الآخرة في رحمة منه وفضل^(١).

وبمناسبة كون هذا القرآن نوراً وضياءً، فقد ختمت السورة بجواب استفتاء في قضية من قضايا الإرث، ليعلم أن التوحيد الصحيح يكون في طاعة الله في كل شأن، والاستسلام لحكمة في كل قضية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنَّ أَمْرًا هَلَاكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾

وقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين، فأغمي عليّ، فتوضأ رسول الله ﷺ ثم صبّ عليّ من وضوئه فأفقت، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يردّ عليّ شيئاً حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾^(٢).

وقد ورد شطر من أحكام الكلاله في أول السورة، وهو الشطر المتعلق بإرث الكلاله من جهة الرحم، حين لا توجد عصبه، ونصه هناك: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أُخٌ أَوْ أُخٌ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾^(٣).

فالآن يستكمل الشطر الآخر في وراثه الكلاله، وهو من يموت وليس له والد ولا ولد، والمراد بالأخوه هنا الإخوه للأب والأم، أو للأب، فإن كان للميمت أخت فلها نصف التركة، وإن كان له أختان فلها الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما. وإن ماتت المرأة كلاله ولها أخ فإنه يرثها بالتعصيب، وإذا كان الورثه للكلاله إخوه ذكوراً ونساءً فيكون الجميع عصبه، ويُعطى الذكر مثل حظ الأنثيين. ثم بيّن الله حكمته في هذا البيان فيقول: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

(١) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (١/٣٨٦).

(٢) رواه مسلم (١٦١٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦/٢٨).

أَنْ تَصُفُّوا ﴿١﴾، أي يوضح لكم فرائضه، ويحدّد لكم حدوده، ويوضح شرائعه، لثلاث تفضلوا عن الحق. ثم يختم الله سبحانه الآية والسورة بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو سبحانه عالم بعواقب الأمور ومصالح العباد^(١).

وهكذا تختم السورة التي بدأت بالأمر بتقوى الله، والتقوى: عبادة الله وحده وترك الشرك. والله الذي يجب على الناس أن يعبدوه وحده هو الذي خلقهم من آدم وحواء، أول أسرة خلقها الله، ثم تحدثت السورة عن علاقات الأسرة، وذكرت كثيراً من تنظيماتها الاجتماعية والحقوقية، وختمت السورة بتكملة أحكام الكلاله.

الهدايات المستنبطة :

- أ - قضايا العقيدة: الإيمان بالقرآن الذي أنزل على محمد ﷺ مبني على القناعة والبرهان.
- ب- الأحكام الفقهية: إتمام أحكام الكلاله من الإخوة والأخوات لأب وأم، أو لأب فقط.
- ج- الجوانب التربوية: إذا تراكم الصدأ على فطرة الإنسان، فلا بدّ من تكرار الأساليب التربوية، وتنوعها لجلاء الفطرة، وإنقاذ العقل من الانسياق وراء المألوف إذا كان غير صحيح، وتحريره من سلطان الشهوات ؛ لذلك كرر القرآن الدعوة إلى استعمال العقل كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وغيرها من الآيات كثير كثير. وأحياناً يأتي القرآن بأسلوب التحدي ليثبت الإعجاز وقيم الحجة، وأحياناً يشير إلى الحجة والبرهان مع أسلوب الترغيب والترهيب كما في هذا المقطع الذي ختمت به السورة.

(١) بحر العلوم، السمرقندي (٣٨٧/١)، وفي ظلال القرآن، سيد قطب (٤٩/٦).

سورة المائدة

بين يدي السورة :

(أ) أسماؤها :

١ - تسمى سورة المائدة لورود قصة المائدة فيها. ولما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو (آخر سورة أنزلت المائدة)^(١) ولما رواه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد (... أنزلت عليه المائدة...) ^(٢).

٢ - تسمى سورة العقود لورود هذا اللفظ في أولها ولما فيها من عقود.

٣ - تسمى المنقذة. لقوله ﷺ (سورة المائدة تدعى في ملكوت السموات المنقذة لأنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب) ^(٣).

(ب) فضائل السورة :

١ - عن عبد الله بن عمرو قال: (نزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته. فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها) ^(٤).

٢ - عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكادت - من ثقلها - تدق بعضد الناقة) ^(٥).

(ج) مدنية : بالإجماع لأنها نزلت بعد الهجرة.

(١) الترمذي ج ٥ / ٢٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٤٥ / ٥٥٧.

(٣) التفسير المنبر ج ٦ / ٦٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ١١ / ٢١٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ج ٤٥ / ٥٥٧.

(د) عدد آيات السورة:

- ١ - مائة وعشرون آية عند القراء الكوفيين كالطبري والنسفي والبغوي وغيرهم.
- ٢ - مائة وثمان وعشرون آية عند الحجازيين والشاميين.
- ٣ - مائة وثلاث وعشرون آية عند البصريين. والخلاف بينهم في فاصلتين فقط^(١).

(هـ) مرحلة نزولها:

- ١ - في روايات كثيرة أنها نزلت بعد سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية في شهر شوال سنة (٦ هـ)^(٢).
- ٢ - في رواية أنها نزلت جملة واحدة ما عدا آية: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في مسير رسول الله ﷺ في حجة الوداع^(٣).
- ٣ - يورد الشهيد سيد قطب تحليلاً منطقياً لهذين الرايين نوجزه فيما يلي:
* محادثة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة والتي وردت في السورة كانت معلومة للمسلمين لاستشهاد سعد بن معاذ بقول بني إسرائيل حين جمع النبي ﷺ المسلمين في ساحة بدر بعد ذهاب العير ومجيء النفير قال: «لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إناها هنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون». وغزوة بدر وقعت في رمضان سنة (٢ هـ).
- * الحملة على اليهود في السورة تبين أن لهم نفوذاً قوياً اقتضى هذه الحملة عليهم لكشف موقفهم وإبطال كيدهم وخول ذكركم بعد هذا الكشف بعد غزوة الخندق التي انتهت فيها الدور اليهودي نهائياً في المدينة.

(١) تفسير المنارج ١١٦/٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣/٦.

(٣) في ظلال القرآن: ٨٣٢/٦.

* يرجح أن بعض مقاطع السورة - في أولها - نزلت بعد الفتح، وبعض المقاطع نزلت بعد ذلك^(١).

وأقول:

١- أرجح نزول بعض آياتها نزل في العام التاسع قبل سير النبي ﷺ لحجة الوداع وذلك لقدم وفد نصارى نجران في هذا العام، في الجزء الأخير منه فأبوا أن يسلموا ودعوا للمباهلة فأبوا وأقروا الجزية.

٢- حادثة العرنيين الذين قدموا المدينة في السنة الخامسة قبل صلح الحديبية واستوخوا المدينة فأرسلوا إلى إبل الصدقة ليشربوا من ألبانها وأبوالها، والذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... ﴾ (المائدة: ٣٣).

ويقول ابن عاشور:

ولذلك اختلفوا في أن هذه السورة نزلت متتابعة أو متفرقة؟ ولا ينبغي التردد في أنها نزلت متفرقة^(٢).

(و) المحور الذي تجري فيه السورة:

- ١- التشريع لإقامة المجتمع المسلم المستمد أمره من الله.
- ٢- توحيد الله ومحاربة الشرك في عقيدة التثليث عند النصارى.
- ٣- إبطال تحريم وتحليل وأمر ونهي الجاهلية ورد ذلك كله لله.

(ز) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قصة المائدة وردت في آخر السورة حيث طلبها حواريو عيسى - عليه السلام - فطلبها عيسى من

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٨٣٢.

(٢) التحرير والتنوير: ٦/ ٧٢.

الله آية وعيدا. واشترط الله لها شروطا، والسورة من محورها محاربة عقيدة التثليث التي يعتقدونها النصارى فارتبط الاسم بالمحور.

(ح) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالأمر بالوفاء بالعقود وهي ما أحل الله وما حرم، وأمر ونهى، وختمت الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وختمت السورة بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلْتُمْ بِالْعُقُودِ﴾ فناسب البدء الختام، فالكون ملكه يفعل ويحكم ما يريد.

(ط) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة النساء بآية الكلاله، وورث الله تعالى أخوانه وأخواته الأشقاء وقال في ختامها ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ ءَأَن تَصَلُّوْا﴾ فكان البيان بهذا التشريع الذي قسّم به هذا الميراث، وافتتح سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلْتُمْ بِالْعُقُودِ﴾ فختم سورة النساء بالتشريع وافتتح سورة المائدة بالتشريع تميميا لما بدأه في تلك فناسب ختام تلك افتتاح هذه.

(ي) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

يقول صاحب التفسير المنير: (هناك أوجه تشابه بينها وبين سورة النساء، لاشتغال كل منهما على عدة عقود وعهود وأحكام ومناقشة أهل الكتاب والمشرّكين والمنافقين، ففي سورة النساء الكلام على عقود الزواج والأمان والحلف والمعاهدة والوصايا والودائع والوكالات والإيجارات، وابتدأت سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود، ومهدت سورة النساء لتحريم الخمر وحرمتها سورة المائدة بنحو قاطع، وتضمنت السورتان مناقشة أهل الكتاب والمشرّكين^(١)).

(١) التفسير المنير: ٦٨/٦.

ما اشتملت عليه سورة المائدة:

(ورد في سورة المائدة أحكام تشريعية وقصص للعظة والعبرة.

فالأحكام: أحكام العقود مع اليهود والنصارى، ونكاح الكتابيات والوصية عند الموت، والمطعومات من ذبائح وصيد، وصيد الإحرام وجزاء من وقع فيه، والطهارة من غسل ووضوء وتيمم وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكفارة اليمين وحد السرقة وحد الحراة وإبطال وتشريع الجاهلية للأنعام والحكم لمن ترك العمل بما شرع الله، ومناقشة اليهود والمشركين والمنافقين. وفيها قصة موسى مع بني إسرائيل في دخول بيت المقدس وردهم القبيح ومفارقة موسى لهم، وقصة ابني آدم وقتل قابيل لهابيل، وقصة المائدة)^(١).

(١) التفسير المنير: ٦/٦٨.

المقطع الأول: العهود والمواثيق مع أمة محمد ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَنَسَى الْيَوْمَ بَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣﴾ يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّلَكُمْ وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَةِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ۝٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْلَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا اللَّهَ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ١-٨].

افتتح الله تعالى هذه السورة بجملة عهد، أخذها على أمة محمد ﷺ وألزمهم العمل بها، وتشمل: تحليل الأنعام كلها، وتحريم التعدي على شعائر الله ومحارمه، وحرم من الأنعام الميتة وغيرها، وأحلّ الطيبات عموماً، وما أمسكت الجوارح بعد التسمية عند إرسالها، وأحلّ الطعام تبادلاً بين الملل الثلاث، وأحلّ للمسلم الزواج بالعفيفة، المسلمة والكتابية، شرط الإحصان، ودوام العشرة، وبيّن اكتمال الدين، ويأس الكفار من هزيمة المسلمين، وبيّن الطهارة بأنواعها، وأمر بالعدل.

والآن نأخذ بالتفاصيل:

١- يأمر الله تعالى عباده أهل الإيثار أن يوفوا بالعهد التي أخذها عليهم، وهي كثيرة منها جميع ما ورد في سورة النساء من تحليل وتحريم وأمر ونهي (لأكل مال اليتيم وتحريم لبعض النساء، والميراث الذي ورد في أول السور وآخرها، والكلالة والذي قال الله تعالى عنه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦].

ومنها ما بدأ وروده من هذه السورة من تحليل الأنعام فكلها عهد ومواثيق يأمر الله بالوفاء بها.

٢- التحريم والتحليل والأمر والنهي الذي سيرد تباعاً بعد هذه الآية كلها عهد ومواثيق مطلوب الوفاء بها.

٣- ما أخذها الله على الخلق من ميثاق في الأزل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قلنا بل كلها مواثيق يوجب الوفاء بها.

﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾. أحلت أكلًا وبيعاً وشراءً. والأنعام الإبل والبقر والضأن والمعز ويدخل معها الطباء والغزلان والأراوي أحلها الله تعالى هذه الأمة منذ القدم، ولكن (عمرو بن لحي بن قمئة) الذي غير ملة إبراهيم ﷺ جلب الأصنام من

الشام وعلم الناس عبادتها، وحرم وحلل وأمر ونهى من تلقاء نفسه، فحرم بعض الأنعام التي ورد ذكرها في سورة الأنعام المكية والتي جاء فيها: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ حَجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حَرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨-١٣٩]، وقالوا فما حرمة الجاهلية أصبح سائداً حتى جاء القرآن ليهدمه ويبنى على أنقاضه ما أحل الله تعالى فقال: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ فهي حلال بكل أصنافها إلا ما استثنى الله تعالى منها بقوله: ﴿ إِلَّا مَا بَيَّنَّا عَلَيْكُمْ ﴾ وهي أصناف من الأنعام حرما الله لعله فيها سيأتي تفصيلها.

﴿ عَيْرٌ مُحَلَّى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ حرم علينا الصيد ونحن محرمون بعمرة أو حج - فإن الحاج والمعتمر يحرم عليه الصيد، فلا تستحلوا ما حرم الله عليكم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ هذا حكم الله تعالى: يحل لعباده ما يشاء ويحرم عليكم ما يشاء والله يحكم ما يريد.

فالآية تبين أن الأنعام حلال أكلها إلا ما استثنى منها، والصيد حرام علينا ونحن محرمون بحج أو عمرة، وهو مصدر التشريع للخلق.

﴿ لَا تَحْلُوا ﴾ لا تستحلوا ما يأتي، فهي محرمات (شعائر الله) شعائره هي متعبداته التي يأمرنا بها.

فالصلاة شعيرة والحج شعيرة والعمرة شعيرة والوقوف بعرفة شعيرة ورمي الجمرات شعيرة والأشهر الحرم (ذو القعدة، ذو الحجة، محرم، ورجب) شعائر. فأمرنا ألا نستحلها ومنتهاك حرمتها. وقد كانوا يعتدون على الأشهر الحرم فيستحلون واحداً من الأربعة ويحرمون آخر غيره غير ما حرم الله ليكتمل عدد الأشهر الحرم أربعة كما أمر الله بها، وفي العام الذي يليه يحلون شهراً آخر محرماً ويحلون غيره مما لم يحرم وهكذا، يعتدون على الأشهر الحرم.

﴿وَلَا أَلْهَدَى﴾ والهدي البهيمة التي يهديها المحرم بحج أو عمرة لتذبح في منى أو في المروة بعد حج أو عمرة فمحرم الاعتداء عليها بسرقة أو نهب.

﴿وَلَا أَلْفَلَكَيْدَ﴾ وهي البهائم التي توضع في أعناقها فلائد من صوف أو وبر أو قطعة من لحاء الشجر ليعرف أنها مهداة لتذبح في الحرم فلا يتعرض لها.

﴿وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

ولا تستحلوا التعدي على قاصدي بيت الله تعالى للحج أو العمرة طالين رضوان الله بهذه العبادة وطالين فضله بالكسب الذي يمارسونه وهم حجاج ومعتمرون يبعاً وشراءً وعملاً.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أما إذا أتمتم الحج أو العمرة وتحللت منهن فاصطادوا إن شئتم بعد أن كان ذلك محرماً عليكم. في غير أرض الحرم.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾.

سبب النزول:

روى ابن كثير بسنده عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدّهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة. فقال أصحاب النبي ﷺ: نصده هؤلاء كما صدوا أصحابنا. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ الآية^(١).

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ والآية تحاطب المسلمين الذين صدّهم المشركون عن العمرة بالحديبية وقد لاقوا مشركين من أهل الشرق ذاهبين إلى العمرة فكروا في صدّهم عن العمرة كما صدّ مشركو مكة المسلمين، فنهاهم الله تعالى وقال: (لا يحملنكم بغضكم للمشركين الذين صدّوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم عن العمرة أن تصدوا هؤلاء المشركين الذاهبين إلى العمرة تعاملًا

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٢/٢

بالمثل فالله ينهى عن ذلك، ويأمرهم أن يتعاونوا على فعل الخير لا على فعل الشر، والله يذكرهم بعد ذلك بقدرته على عقاب من خالف أمره بأنه شديد العقاب).

الآن بعد أن أحل لنا بهيمة الأنعام في أول السورة، واستثنى ﴿إِلَّا مَا يَتَلَبَّسُ عَلَيْكُمْ﴾ جاء الآن بما استثنى محرماً مفصلاً فقال:

ما حرمت عليكم من الأنعام: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ وهي التي فارقتها الحياة، وكانوا يعدونها مما قتل الله فيستحلون أكلها، ويقولون أننا نأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله؟ ﴿وَالدَّمُ﴾ وهو المسفوح الذي يسيل خارجاً من البهيمة بعد ذبحها، وكانوا قديماً يستحلونه أكلاً وشراباً، وحديثاً كذلك.

﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ وابن عاشور يقول: وهذا إيحاء إلى أن ما عدا أكل لحمه من أحوال استعمال أجزائه، هو فيها كسائر الحيوان في طهارة شعره إذا انتزع منه في حياته بالجز وطهارة عرقه وطهارة جلده بالذبيح، إذا اعتبرنا الذبيح مطهراً جلد الميتة اعتباراً بأن الذبيح كالذكاة^(١) مستشهداً بالحديث (أيما إهاب ذبح فقد طهر)^(٢).

وعندي أنه محرم كله لقوله صلى الله عليه (لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوهما وباعوها وأكلوا ثمنها)^(٣). ذلك أن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه.

فقد يكون التحريم شاملاً - والخنزير مستقذر لحماً وجلداً وما استخرج منه ﴿وَمَا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وهو الحيوان الذي يرفع الذابح صوته به عند ذبحه، ولا يذكر اسم الله جل جلاله عليه كأن يقول باسم فلان اذبح.

﴿وَالْمُنْخَفَةَ﴾ هي التي حبس نفسها شيء فماتت.

﴿وَالْمَوْقُوذَةَ﴾ هي التي ضربت بعصا أو بشيء ثقيل لم يخرقها فتموت قال عدي ابن حاتم

(١) التحرير والتنوير، ج٤/ ص ١٢٥.

(٢) الترمذي، ج٤، حديث رقم (١٧٢٨).

(٣) البخاري حديث رقم (٣٤٦٠).

سألت رسول الله ﷺ عن صيد المعراض فقال: (إذا أصبت بحده فكل، وإذا أصبت بعرضه فقتل فإنه وقيد فلا تأكله) (١) فالموقودة محرمة لأن الدم لم ينزل منها بعد ضربها.

﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾ التي سقطت من علو فماتت فهي محرمة.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ والتي ماتت بسبب نطح أختها لها فماتت بهذا النطح.

﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والسبع، الحيوان المفترس، فإن اصطاد بهيمة وأكل منها وترك بقيتها وفيها حياة وروح وذكيناها حلت. وإلا فهي ميتة. والتذكية: هي الذبح لا يصلح فيها السن والظفر والعظم. والنبى ﷺ يقول: (وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته) (٢) وإذا كان في بطن البهيمة المذكاة جنين فإن ذكاة أمه له ذكاة. أشعر أم لم يشعر.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ والنصب الحجارة التي كانت موضوعة عند الكعبة يذبحون عندها تقرباً للآلهة فما ذبح عندها أصبح محرماً لا يؤكل.

﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ والأزلام قدام ثلاثة مشهورة موضوعة في كيس عند السادن قرب الكعبة مكتوب على أحدها (افعل) وعلى آخر (لا تفعل) والثالث (غُفَل) لا كتابة عليه. فمن أراد السفر أو الزواج أو فعل شيء لا يعرف عاقبته استقسم بالأزلام أي طلب من السادن أن يستقسم له بأن يخرج أحد الأقداح من الكيس فإن خرج ما كتب عليه (افعل) سافر إذا قصد السفر أو تزوج إن أراد الزواج أو باع أو اشترى فإن الآلهة أمرته أن يفعل. أما إن خرج القدح (لا تفعل) ترك السفر إن كان مسافراً أو ترك الزواج إن استقسم للزواج وإن خرج القدح (غُفلاً) لا كتابة عليه أعاد الاستقسام من جديد حتى يخرج (افعل) أو (لا تفعل).

وكذلك كانوا يستقسمون لمن شكوا في نسبه ولهم قدام ثلاثة مكتوب فيها (منكم) (مصلق) (من غيركم) فإن خرج (منكم) كان ذا نسب وإن خرج من (غيركم) سقط النسب.

(١) البخاري ج ٥ ص ٢٠٩٠.

(٢) مسلم: ٣/١٥٤٨، حديث: ٥٧.

﴿ذَلِكُمْ فَسْقٌ﴾ كل ما بدأته الآية من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير إلى الاستقسام بالأزلام كله فسق وخروج من الدين ومعصية لله، فحرمه... ومن فعله كان فاسقاً عاصياً لله خارجاً عن الطاعة والدين.

﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ﴾ اليوم: الجمعة في عرفة في التاسع من شهر ذي الحجة العام العاشر من الهجرة وبناء آخر أركان الإسلام وهو الحج واكتمال الدين، يبس الكفار الآن أن يخرجوكم من دينكم ويردوكم كفاراً، وقد حاربوكم في عدة معارك انهزموا فيها فما عادوا قادرين على إخراجكم من الدين بالحرب ولا بالتعذيب، ولا بالتخويف فقد يبسوا من كل تلك الوسائل... ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ فقد انكسرت شوكتهم، ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ خافوني، واتفقوني، فيني القادر على الإهلاك والتعذيب والتنكيل والنبى ﷺ في حجة الوداع قال: (أن الشيطان قد يبس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)^(١)، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. اليوم جاء الإعلان من الله تعالى: أن الدين اكتمل عبادات وتشريعات ومعاملات. ولم يعد فيه نقص. وقال النبي ﷺ بعدئذ: (بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإيقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان)^(٢).

وقال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(٣).

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

المضطر: الذي الجأته الضرورة التي هي المجاعة إما أن يأكل من الميتة التي لم يجد غيرها فيحيا. أو يتركها فيموت، هنا أباح الله لهذا المضطر أن يأكل من تلك المحرمات قدر الضرورة

(١) الترمذي ١٣٨/٢.

(٢) البخاري: ١٩/١، حديث: (٨).

(٣) البخاري: حديث: (٢٥٥٠).

وقدر ما يمسك الرمق لا أن يشبع منها، والله يغفر له تعاطيه ما حرم عليه، ما دام لم يفعل ذلك افتراقاً لإثم أو تعدياً لحدود الله.

بعد أن ذكر لهم ما حرم عليهم من المطعومات في الآيات السابقة: الميتة والدم ولحم الخنزير. سألوا النبي ﷺ ماذا أحل لهم فجاء الجواب من الله تعالى: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾. والطيبات الأطعمة الطيبة الحلال، كما قال الله لرسوله الكرام ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [المؤمنون: الآية ٥١] فهو الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه، وأحل لكم كذلك ما أمسكت لكم الجوارح - من كلاب وصقور وغيرها - التي دربتموها على الصيد - بفضل الله عليكم وتعلمكم ذلك فعليكم عند إرسال الكلب أو الصقر أن تقولوا ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ثم تطلقونه، فإن أمسك وقتل فقد حل لكم ما أمسك عليكم، شريطة ألا يأكل مما أمسك فإن أكل فلا يحل لكم وإن كانت فيه روح وذكي لأنه إنما صاد لنفسه لا لصاحبه لأنه غير مدرب ومعلم. وكذلك إذا شاركه كلب غيره. ولهذا قال الرسول ﷺ لعدي بن حاتم وقد سأله عن الكلب (وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك لنفسه)^(١).

ثم يذكرهم بتقوى الله ويذكرهم بالدقة في تصرفاتهم حتى لا يأكلوا مما أمسك الجراح لنفسه وأكل، مستحلين لما أكل الجراح وإن كان فيما أكل وترك بقية من حياة فلا يحل. ويذكرهم بأن عقاب الله سريع لمن يعصى.

اليوم مكررة مرة بعد مرة لما لها من وقع طيب، وتعظيم لهذا اليوم الذي يكتمل فيه الدين ويكتمل فيه التبيين. أحل لكم الطيبات بكافة أنواعها من مأكولات فلا يبقى أثر لما كانت تحرمه الجاهلية، وطعام الذين أتوا الكتاب من يهود ونصارى حل لكم وطعامكم حل لهم، والآية تشي بساحة الإسلام في المخالطة بين الملل الكتابية وإن اختلفت فلا عزلة لأهل الكتاب وإن اختلفت الديانة والعقيدة. مع ذلك يبيح الالتقاء والمؤاكلة، ثم يمضي لبيح الزواج من

(١) البخاري: حديث: (١٧٥).

المؤمنات العفيفات اللاتي لم يمارسن الجنس قبل الزواج.

ثم يمشي خطوة أوسع من المخالطة فيبيح للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة ويسمي عفتها (المحصنة) فإن فيهم إباحية كما معلوم اليوم، فإن الفتاة التي لم تصاحب في حياتها ولم تزاول الجنس قبل الزواج تعتبر منبوذة في عرفهم أما التي لها صاحب يؤانسها ويمارس معها الجنس في بيت أسرتها وعلى مرأى ومسمع منهم فإنها راقية منصهرة في مجتمعها ومقبولة فيه. وهي ليست المعنية في الآية فأراد للمسلم أن يتزوج الكتابية العفيفة التي لم تشارك في هذا الفساد.

وبهذا يعلن الإسلام سماحته وفضله وأنه دين المخالطة والمشاركة فقد يكون المسلم وقد جمع في بيته بين الكتابية اليهودية والكتابية النصرانية ويرزقه الله منهما نسلاً يكون جده يهودياً أو نصرانياً، وعماته وخالاته، وأخواله وأعمامه كتابيون.

ويشترط في هذا الزواج من الكتابية والمسلمة أن يكون زواجاً مبنياً على نية الاستدامة مدفوع المهر لانية في سفاح ولا مخادنة. والسفاح زنا المرأة مع كل راغب فيه والمخادنة صحبة رجل لامرأة لا تأتي غيره.

كل هذا الذي قال الله تعالى في تحريم المأكولات وتحليلها، وما أباح من صيد وما حرم وما أباح من طعام وزواج من أهل الكتاب قبول هذا كله من الإيمان، فمن أحل ما أحل الله وحرم ما حرم الله وقبل به فهو الإيمان الكامل المحض، ومن لم يقبله وكفر به فقد فارق الإيمان فلا إيمان. وقد حبط عمله... والجزاء في الآخرة هو الخسران المبين... الذي يقود صاحبه إلى النار.

سبب النزول:

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: سقطت قلادة لي البيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه في حجري راقداً، وأقبل أبو بكر، فلكز في لكمة شديدة وقال: حبست الناس في قلادة، ثم إن النبي ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء، فلم يوجد فنزلت: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿. وكان ذلك في غزوة المُرَيْسِعِ. فقال أسيد بن حُضَيْرٍ: (لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أنتم إلا بركة لهم) (١).

وروى الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا، أخرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه. فقال لي أبو بكر: (بُئِيَّةٌ في كل سفر تكونين عناء وبلاء على الناس؟ فأنزل الله الرخصة في التيمم فقال أبو بكر: إنك لمباركة) (٢).

الآن بعد المطعومات والمنكوحات يأتي دور العبادات وأولها الصلاة لأنها دليل الإيمان الذي وقر في القلب وصدقه العمل وهو الصلاة. والتي قال رسول الله ﷺ: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) (٣).

ينتقل القرآن الكريم إلى عهود الطهارة بأنواعها الثلاثة: الوضوء والجنابة والتيمم. بعد عهود الحلال والحرام في المطعومات وأنواعها ووسائل صيدها والمنكوحات.

والقرآن يقول إذا قمتم - وهي النية في أداء الصلاة - فرضاً أو نفلاً يسبق القيام لها الطهارة بالوضوء لأجزاء محددة؛ هي: فرائض الوضوء، غسل اليدين وغسل الوجه، ومسح الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين، وأن يتم ذلك بلا انقطاع أو تراخ بين غسل الأجزاء المحددة وإن يصحب ذلك ذلك للأجزاء مع صب الماء، وإلا فصب الماء على الجزء لا يعني غسله ما لم يصحبه ذلك. والنبى ﷺ رفع صوته قائلاً (ويل الأعقاب من النار) (٤) حينما رأى القوم يتوضئون وأعقابهم تلوح - لم تغسل. لهذا تكون فرائض الوضوء سبع - أضافت السنة إليها بقية ما لم يذكر في الفرائض، وهي المضمضة والاستنشاق والاستنثار وغسل اليدين إلى الكوعين.

(١) البخاري: ٤٣٣٢.

(٢) موطأ مالك: ١/١٣٣.

(٣) سنن ابن ماجه: ١/٢٦٣.

(٤) البخاري: ١/١٠٥، حديث رقم (٥٨).

هذا هو الوضوء، وقد شرع أولاً لكل صلاة، ثم نسخ عام الفتح فصلى النبي ﷺ بوضوء واحد خمس صلوات^(١).

والجنابة أسبابها، خروج المنى، بلذة معتادة وبغير لذة، أو مغيب خشفة البالغ في فرج أو مطيقه، (وإذا رأَت المرأة الماء)^(٢) أي: احتلمت، وإذا التقى الختانان فقد وجب الغسل. والغسل تعميم الجسد بالماء الطهور.

والتييم، قصد التراب ليتطهر به بديلاً عن الماء، في حالة المرض المانع من استعمال الماء أو السفر أو جاء الشخص من الغائط أو جامع النساء فلم يجد الماء ليتطهر به فالبديل هو التيمم. لأجزاء مخصوصة من الجسم هي التي ذكرها القرآن؛ الوجه واليدين إلى الكوعين، وأضافت السنة إلى المرفقين. مع سبق النية في ذلك والتتابع.

هذه هي الطهارة - ما فرضها الله تعالى على عباده ليشق عليهم ويضيق، ولكنها رحمة ونظافة وطهارة تحمي الإنسان من القدر ووساوس الشيطان وتبيح التعبد ومس المصحف ودخول المساجد والصلاة على الأموات والنفل وغيرها، تماماً للنعمة وهي نعمة الإسلام المذكورة وفضل الله الذي ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ثم لعلكم تشكرون الله تعالى هذا الاهتمام نظافة وقرى ورفعة بهذا الدين وهذا التشريع.

يذكر الله تعالى بالنعمة؛ نعمة الإسلام ونعمة التحليل والتحرير، التي هي منهج الله الذي رسمه للعباد ورضيه لهم ليكونوا على بصيرة في دينهم.

﴿وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ وهي موثيق متعددة أولها ما كان عليه العباد في عالم الذر ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ

(١) انظر التحرير والتنوير: ١٢٨/٦.

(٢) الترمذي: حديث: ١٠٤.

وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَنْهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والميثاق الذي أخذه الرسول ﷺ على الأنصار يوم بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر:

- ١ - السمع والطاعة في المنشط والمكروه.
- ٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.
- ٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤ - ولا تأخذكم في الله لومة لائم فكلها موثيق، يذكر الله بها^(١).

إذ قلتُم سمعنا وأطعنا... والسمع والطاعة عهد وميثاق، ثم يذكر بالتقوى ويأمر بها لأن في الخوف منه نجاة، وفي التهاون مهلكة والنبوي ﷺ يقول: (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل)^(٢). فمن خاف الله ابتعد عن محارمه والله يذكر العباد أنه مطلع على ما في صدورهم من شيء وإن لم يذكره فهو عالم به مطلع عليه.

جاء في سورة النساء ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، وسورة النساء سورة للعدل في كل أوجهه بدءاً بإيتاء اليتامى أموالهم، والعدل في اليتيمة في حجر الوصي لا يعطيها مهر مثلها إن أراد الزواج بها فأمر بتركها والعدل في أموال اليتامى لا تؤكل أموالهم إسرافاً وبداراً، وتقسيم ميراث الميت لأبنائه ووالديه، وميراث الزوجة لزوجها إن كانت ذات ولد أو لم تكن، وميراث الزوج لزوجته إن كان له ولد أو لم يكن له ولد، وميراث الكلاله، ثم الحديث عن أصحاب الفواحش وعقوباتهم، إلى تحريم بعض النساء بلغ عددهن خمس عشرة امرأة، وإباحة ما سواهن إلى آخر السورة فكلها تحقق العدل والتوجه، والآن جاء الحديث (قَوَّامِينَ لِلّٰهِ) وهي مبالغة القيام لله، أن نقوم وفاء بعهوده وموآثيقه وأن نقوم لله ملتزمين بما أمر متتهين عما نهى خوفاً وخشية منه.

(١) انظر ابن هشام ج١/٤٤٠/٤٤١.

(٢) المستدرک، ج٤/٤٣٤.

﴿ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ ﴾ شهادة مجردة لله عدلاً لا حيف فيها ولا جور ولا ظلم. حتى لو كان الذي يُشهد له أو عليه قريباً من أقرب أقربائنا أو خصماً من الخصوم، لا يحملنا هذا التخاصم - الذي يولد العداوة - على ألا نعدل، فالله يأمر بالعدل، مع وجود البغضاء لأن الشهادة هنا لله مجردة من كل شبهة وريبة خالصة لله تعالى، فالله يأمرنا أن نعدل في الشهادة ولا نقول إلا ما علمنا إقامة للحق والعدل، فالعدل يقربكم للتقوى أكثر من الجور والحيف، ثم يذكر بالتقوى ويأمر بها ويقول أنه ﴿ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كما قال قبلاً ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ كلاهما دليل وتذكير باطلاع الله على ما نكن وما نعلن.

المقطع الثاني: المواثيق والجزاء:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ① ﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ② ﴾ [المائدة: ٩-١٠].

هذه هي العهود بدءاً من فاتحة السورة وانتهاءً بالقوامه بالشهادة والآن جاء الحديث عن أوفى بهذه العهود فما جزاؤه؟ ومن خالف فما جزاؤه.

وعد من الله تعالى للمؤمنين من عباده الذين التزموا عهوده وبذلوا جهدهم في صالح الأعمال بالمغفرة لذنوبهم وتكفيرها لهم فيأتون يوم القيامة وقد مح الله ما كسبوا من المعاصي ووعدهم الأجر العظيم على ما قدموا من خير، ووعد الكفار الذين لم يؤمنوا مع وجود دلائل الإيمان المثورة في كتابه الكريم أو المثورة في كتاب الكون العظيم بأنهم هم أصحاب الجحيم. ويذكر الله تعالى المؤمنين بنعمة من نعمه ذات وقع خاص وأثر، قريب الحدوث عند نزول سورة المائدة، حدث له دلالة، واطلاع الله تعالى عليه وهو صرف البلاء عنهم.

المقطع الثالث: البلاء وصرفه عن المسلمين:

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١].

بعد الحديث عن نعمة الإسلام وإكمالها، وغيرها من النعم، كالصيد الذي أباحه للناس، ونعمة الطهارة يمضي القرآن لبيان نعمة أخرى وهي نعمة النبي ﷺ من محاولة اغتياله، فحياته ﷺ نعمة من نعم الله حفظها بفضلها، وهو القائل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنَفَىٰ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

نقمة كادت أن تقع فصرفها الله تعالى بحكمته وقدرته، والمسلمون لا يعرفونها حتى عرفهم الله بها، هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، بالضرب والتنكيل والقتل، فصرف الله عنكم هذا وكف أيدي الظالمين بعد أن هموا بإحداث ما انطوا عليه وهموا به. فَصَرَفُهُ عَنْكُمْ نِعْمَةً مِنْ نِعْمَةِ ذَكَرَهُمْ بِهَا، وهم غافلون عنها. ثم يأمرهم بالتقوى التي تجلب الخير وتصرف عنهم السوء، ويأمرهم بالتوكل عليه، فالمتوكل حسبه الله كافياً، حسبه الله صارفاً عنه السوء، حسبه الله منجياً من كل هول وشدة.

الحديث عن هذه النعمة كثير. فقد تعني نجاة جميع المسلمين أو أفراداً منهم، أو الرسول ﷺ نفسه فإن تعرضه للأذى تعرض للأمة كلها ونجاته نجاة للأمة كلها وهنا يروي:

١ - إنه كان نائماً وهم قادمون من غزوة وسيفه معلقاً على الشجرة، فجاء إعرابي تسلسل إليه وأخذ سيف رسول الله ﷺ وسل السيف وأيقظ النبي ﷺ وقال: من ينجيك مني؟ قال ﷺ: (الله) فسقط السيف من يده وسقط الإعرابي على الأرض ونادى النبي ﷺ الصحابة وأراهم ما حدث^(١).

(١) مسند الإمام أحمد: ٢٩/٤٥٠ حديث: (١٤٤٠١).

- ٢ - نجا النبي ﷺ من سحر لبيد بن الأعصم والذي قصد إهلاك رسول الله ﷺ^(١).
- ٣ - نجا النبي ﷺ من محاولة قتل بني النضير له^(٢).
- ٤ - من قبل نجا من تأمر قريش على قتله^(٣).
- كلها نعم من الله بها على المؤمنين ونجاهم. فلا بد من ذكر، ولا بد من شكر الله على ذلك.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

الآن بعد هذه الجولة من العهود والمواثيق التي ألزم الله تعالى بها عباده المؤمنين نلخص هذه العهود ونبينها فنقول:

- ١ - أن كل أمر من الله، وكل نهي، وكل تحليل وكل تحريم لأمة المؤمنين هو عهد وميثاق بين العباد وربهم سبحانه وتعالى، عهد ملزم إن فعلوه أثابهم وإن تركوه عاقبهم.
- ٢ - بينت العهود التي مرت: إن كل الأنعام أكلها حلال، حلله الله تعالى، وأن المحرمات هي الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به عند ذبحه. وكل أنواع الميتات محرمة ما عدا التي تذكى، وأن المضطر يأكل قدر ما يمسك الرمق.
- ٣ - الصيد للمحرم بحج وعمرة حرام، فإذا قضى حجه وعمرته حل له الصيد خارج منطقة الحرم. وإن أرسل كلبه وصقره للصيد عليه أن يسم الله عليه فإذا قبضه وجاء به حل له وإن مات.
- ٤ - العدل أساس هذا الدين لا ينبغي أن ينحرف الناس عنه بسبب الخصومة والبغضاء والأذى الذي أصابهم من الفئة التي آذتهم حين كانوا قلة وشردتهم من المسجد الحرام الذي هم أهله، فعليهم أن يعدلوا وقد مكن الله لهم في الأرض فلا يعتدوا على الذين آذوهم من قبل ولكن فليسموا وليعلوا فوق الجراحات ويتعاونوا على البر لا على الشر.

(١) ينظر: البخاري: ٥/٢١٧٤.

(٢) تفسير الطبري: ٢٣/٢٥٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٣.

- ٥ - الاستقسام بالأزلام من الفسق، وكانوا يتعاملون به كشفاً للغيب فالإسلام يعتبر التعامل به من المعاصي وكذلك المحرمات من المطاعم في حالة المخصصة حلال للضرورة.
- ٦ - الكفار يؤسوا من إرجاع المسلمين كفاراً بعد إيمانهم، بشرهم الله تعالى بذلك... ولكن كما قال الرسول ﷺ: (أن الشيطان قد يؤس أن يعبد في بلدكم هذا ولكنه رضي منكم ما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على أنفسكم)^(١).
- ٧ - اكتمل الدين اليوم عبادات ومعاملات وتشريعات فلا نقص، ومن أحدث في الدين شيئاً فهو رد. قال ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)^(٢).
- ٨ - كانوا يسألون رسول الله ﷺ عند ذكر المحرمات، فسألوه عما أحل الله لهم، فأحل الطيبات من المأكولات وأحل طعام أهل الكتاب للمسلمين وطعام المسلمين لأهل الكتاب، وأحل نكاح المحصنات العفيفات من المسلمين، ومن أهل الكتاب للمسلمين. ولكن لا ينكح المسلمون أهل الكتاب وان يكون زواج إحصان ويراد به دوام العشرة.
- ٩ - ثم أمر بالطهارة في أوجهها الثلاثة: الغسل والوضوء والتيمم وبين أجزاءها المفسرون.
- ١٠ - ثم أمر بالقوامة في الشهادة ابتغاء وجه الله. والعدل في كل الأمور.
- ١١ - ثم بين جزاء من التزم وأوفى بتلك العقود والمواثيق وجزاء من خالف.
- هذه هي عهود الله وموآثيقه مع أمة محمد ﷺ والقرآن ينقلنا إلى الأمم السابقة ويرينا موآثيقه معها وموقفها من المواثيق والجزاء الذي نالته على ذلك.
- بعد الحديث عن العهود مع أمة محمد ﷺ وجزاء من التزم ومن خالف يمضي القرآن ليرينا موآثيق الله مع أممي اليهود والنصارى، وجزاء نقضهم المواثيق.

(١) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٢٤.

(٢) البخاري: حديث: (٢٤٩٩).

المقطع الرابع: ميثاقه مع اليهود والنصارى:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوهُمُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٢-١٦].

جاء هذا القول من الله تسمية لما ذكره تعالى في سورة آخر سورة النساء وأنزل عقوبات على بني إسرائيل بسبب جرائم ارتكبوها عددها الحق عز وجل فبلغت إحدى عشرة جريمة، قال: ﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّى وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٧].

قد أخذ الله تعالى الميثاق على بني إسرائيل، كان ذلك في عهد موسى عليه السلام، والذين أخذ

الله عليهم الميثاق هم رؤساء بني إسرائيل ونقبائهم المنبثقون من أبناء إسرائيل الاثني عشر فالنقباء هم من كل سبط من هؤلاء الأسباط حتى يشمل الميثاق بني إسرائيل أجمعين، وجاءت بنود الميثاق كما يلي:

إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالرسول، وتعزيزهم وهو تقويتهم بالتأييد والنصرة، وإقراضهم الله قرضاً حسناً كناية عن البذل في سبيل الله والإنفاق على المساكين كل ذلك إقراض الله فمن التزم هذه البنود الخمسة فالجزاء؛ الكفارة لكل ذنوبهم ومحوها لهم، وإن يدخلهم الجنة الموصوفة أنها تجري من تحتها الأنهار. أما من كفر ولم يؤمن فقد ضل عن الصراط السوي المستقيم فما اهتدى، والعاقبة هي النار.

والله تعالى يخبرنا أن بني إسرائيل لم يؤمنوا ولم يلتزموا بتلك المواثيق بعد إبرامها وعرضها عليهم وموافقتهم عليها وقبولها. فكان العقاب.

﴿فِيمَا نَقَضُوا مِيثَقَهُمْ﴾ (لَعْنَهُمْ) و ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾ (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ نَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [المائدة: الآية ١٣].

فبنو إسرائيل، نقضوا الميثاق الذي التزموا به لهذا استحقوا لعنة الله عليهم وطردهم من رحمته ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً﴾ لا تدخلها رحمة ولا لين ولا عطف، شبهها بالحجارة وقال أن في الحجارة نداوة ولين، وقلوب بني إسرائيل ليست كذلك وعلامة هذه القسوة الجراءة على تغيير كلام الله بالتحريف والتبديل، فما أحلوا ما أحل الله لهم، ولا حرموا ما حرم عليهم، بل أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله وقد غيروا وصف النبي ﷺ الموجود في التوراة والإنجيل لما جاء النبي ﷺ مهاجراً ووجدوا وصفه ينطبق على ما في كتبهم حرفوا ذلك حتى لا يؤمن بقية بني إسرائيل.

ولا يزال بنو إسرائيل تظهر منهم الخيانة بين الحين والحين نقضاً للمواثيق وتحريفاً للكلم عن مواضعه وتحيتهم للنبي ﷺ بغير ما حيّاه الله بها يقولون (السام عليك)

يعنون الموت (وراعنا) لياً بألستهم حتى تأتي الكلمة (راعنا) المعنى بها انظرنا إلى (راعن) التي هي أحق... في إساءة للنبي ﷺ.

ونسوا - إهمالاً - كثيراً مما أمروا به من عبادات ومعاملات، تركوه وراء ظهورهم - ويكفي أن الله شبههم بالحمار يحمل أسفاراً كناية عن إعراضهم عما في كتابهم من أوامر ونواهي وتحليل وتحريم أهملوه وتركوه ومع ذلك يقدسون الكتاب (التوراة) لأنه أنزل عليهم.

فالتوجيه للنبي ﷺ إزاء هذا ﴿ فَأَعَفَّ عَنْهُمْ وَأَصْفَحَ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
وكما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا
حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالعضو المطلوب
ليس رحمة بهم ولا على الإطلاق وإنما كما قال حتى يأتي الله بأمره. فقد جاء أمره بإجلاء بني
قينقاع وبني النضير من المدينة وقتل وسبي وتقسيم أموالهم بني قريظة... فهو إهمال حتى
تأتي الضربة القاصمة لهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص :

أنه تعالى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً يمثلون القبائل التي انبثقت من أبناء إسرائيل
الاثني عشر، وأخذ عليهم الميثاق الذي وردت بنوده، فما التزموا، فاستحقوا اللعنة والطرده من
رحمته. والقصة ساقها الله تعالى عظةً وعبرةً حتى لا يقع أحد في نقض الميثاق مع الله تعالى، أو
مع آخرين. فإن للمواثيق قدسيته واحترامها، وقد قصَّ الله تعالى قصة الذي عاهد الله لئن آتاه
مالاً ليعطين كل ذي حق حقه، فلما آتاه نقض عهده، وضرب على قلبه النفاق فمات عليه.

والعهود مع النصارى أخذت في عهد عيسى عليه السلام، فقد أخبرهم بمجيء نبي من بعده
اسمه أحمد حتى يكونوا على علم فإن جاء عليهم أن يؤمنوا به ويتبعوه:

أخذ الله تعالى الميثاق على النصارى أن يؤدوا نفس ما كلفهم الله به في عهد موسى، ولكنه تجديد لذلك لطول الزمن وهجران ما أمروا به فإن عيسى عليه السلام متمم ومكمل لرسالة موسى عليه السلام لأنها من أمة واحدة فهو كما قال ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ [الصف: ٦].

فنسوا ما جاءهم به رسولهم وأهملوه، وجاء الجزاء على ذلك التمزيق لهم... فهم مختلفون في أمر عيسى عليه السلام. فبعضهم يقول: هو الله، وبعضهم يقول: هو ابن الله جل وعلا، وبعضهم يقول: ثالث ثلاثة، وبعضهم يقول: أنه عبد الله ورسوله. وتبعاً لهذا الاختلاف عقيدة اختلفوا فيه عبادة... وأصبح كل فريق يبغض الآخر ويخالفه، تماماً كما قال: تعالى: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

فمزقهم وأشاع بينهم العداوة والبغضاء ولن تنفك ولن تنتهي هذه العداوة إلى يوم القيامة، جزاء نقضهم الميثاق.

والآن بعد التفصيل في أمر بني إسرائيل يهوداً ونصارى، خاطبهم مجتمعين وشملهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾.

نداء لأهل الكتاب من يهود ونصارى وإعلان، أن الله تعالى بعث هذا الرسول الكريم وزوده الله بعلم ما أخفى اليهود والنصارى من علوم ومعارف بينها الله تعالى وأخفوها هم... فهو يعلمها وسيكشفها لهم، فما أخفوه:

١ - حكم رجم الزاني المحصن.

٢ - وصف هذا النبي الكريم في كتبهم، حتى لا يتبعه عامة بني إسرائيل.

٣ - نفى أن يكونوا هم أبناء الله وأحبائه.

٤ - ما قالوه في عيسى عليه السلام وأمه وما تأمروا به لقتله.

فكان مجيء الرسول ضرورة لإبطال باطل بني إسرائيل وإظهار الحق... فالله تعالى يقول:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ ۗ﴾ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾﴾ [البينة: ١-٢].

فهو نور جاء يمحو أباويلهم وادعاءاتهم.

فنداء الله لهم يا أهل الكتاب من يهود ونصارى، قد جاءكم رسولنا بين ويكشف كثيراً مما كنتم تخفون من أحكام الله الواردة في التوراة، حتى تعرف، ويتبع ويعفو عن كثير من جرائمكم وادعاءاتكم.

سماه الله نوراً، لأنه يكشف ظلمة ما أشركتم وظلمة كذبكم، وظلمة ما أخفيتم وظلمة ما ادعيتم أنكم أبناء الله ومعه كتاب واضح العبارة والدلالة والأحكام، هذا الكتاب المبين ان اتبعتموه يهديكم به الله إلى صراطه المستقيم، السبيل الآمن من العذاب، ومن غضب الله، المفضي إلى جنته ورضوانه، ويخرجكم هذا الكتاب مع هذا النبي من الظلمات، ظلمة الشرك وظلمة الكفر المتمثلة في عبادتكم لعيسى عليه السلام وعزير والعجل، وإهمالكم لكتب الله وتحريفها، يخرجكم إلى ساحة الإسلام وهدى الله.

بعد أن أعطانا الله سبحانه وتعالى معلومات عن اليهود والنصارى ومواقفهم وعدم التزامهم بها وعقاب الله لهم ثم دعاهم إلى إتباع هذا النبي والكتاب الذي معه.

المقطع الخامس: فساد عقيدة أهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ. وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ ۗ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ [المائدة: ١٧-١٩].

ولأن هذه السورة نزلت كما ورد آخر أيام النبي ﷺ، وهو في طريقه إلى حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة وهو عام الوفود والذي قدم فيه وفد نصارى نجران لاليؤمن ولكن ليقول للنبي ﷺ: إن عيسى إله، أو ثالث ثلاثة. أو هو ابن الله... والله جل وعلا أنزل على نبيه ﷺ آيات تبين حقيقة عيسى منذ بدء الخليقة إلى أن رفعه الله.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

قال تعالى هنا - لتلك المناسبة ولذلك الوفد: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ والحديث عن عيسى عليه السلام في هذه السورة يبدأ في ثلاث حلقات، هذه هي: الحلقة الأولى: والتي يكفر الله تعالى من قال أن عيسى هو الله.

والحلقة الثانية: في هذه السورة هي الآية (٧٢) التي يقول الله فيها: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ويقول عيسى نفسه عليه السلام داعياً بني إسرائيل إلى عبادة الله ربه وربكم وبين أن من أشرك بالله غيره فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار.

والحلقة الثالثة: في آخر السورة. مقررًا عيسى بنعمه عليه وعلى والدته أمام الخلق أجمعين ثم يسأله أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله؟. كل ذلك لفضاعة الشرك، ولأنه الذنب الذي لا يغفره الله، ولأنه الظلم المبين أن تجعل المخلوق نداً للمخالق.

والله تعالى يقول لنبيه ليسألهم ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ إنهم خلقه وأنه قادر على إهلاكهم ومن في الأرض، فإن أراد ذلك فمن يمنعه؟

والواقع أن أمه ماتت، ومن حوله يومئذ ماتوا جميعاً، فأين إلهيتهم إن كانوا آلهة؟ وأي إله هذا الذي لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة وهو يولد كما يولد البشر وتموت أمه، وسينزل هو في آخر الزمان، ليقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية، ثم أي إله هذا الذي يغيب فلا يرى وليس له أثر؟ أي إله هذا والله يقول عنه وعن أمه: ﴿ كَأَنَّا يَاكُلَانِ الْأَطْعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥] وهي من صفات البشر، فهو يطلب الرزق كغيره ومن أكل الطعام أخرجه: ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ - السموات بما فيها ملك لله والأرض بما فيها ملك لله وعيسى وأمّه في هذا الملك، والله تعالى في ملكه هذا يتصرف كيف يشاء ويهدي من يشاء ويقتل من يشاء ويحيي من يشاء ويميت من يشاء فهو على فعل كل شيء قدير. ولهذا القدرة خلق الله عيسى من غير أب، وآدم من غير أب ولا أم.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّنَاهُ ﴾

سبب النزول:

روى البيهقي في دلائل النبوة أن ابن أبي، ونعمان بن قصي، وشاس بن عدي جلسوا إلى النبي ﷺ فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته. فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآيات.

بعد دعوى المسيح هو الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - جاءت مقالة أهل الكتاب أشنع وأفظع، ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ وهو يقول جلّ وعلا: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى دحضاً لهذه المقالة، وإن كنتم - كما تزعمون أبناءه: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

فقد عذبهم عذاباً مستمراً، فقد سلط عليهم فرعون أذاقهم مر العذاب يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، وطردهم من رحمته، وجعل منهم القردة والخنازير وعبداء الطاغوت قطعهم في الأرض أمماً، ولم يعطهم وطناً يستقرون فيه، ووعدهم بعذاب سرمدي لا ينقطع عنهم أبداً يأتيهم بين حين وآخر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبَتُكَ لِیَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْسَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] إن كنتم أبناءه فهل يعذب الأب ابنه؟؟ فأنتم في عذاب، وكنتم في عذاب، وسيستمر معكم العذاب إلى يوم البعث، ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أنتم جزء صغير في هذا الخلق الكبير بشر لا تملكون حولاً ولا قوة، ﴿يَعْفُرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يتصرف فيكم وفيمن معكم كيف يشاء. لا حجر عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١ - من أخطر الجرائم نسبة الولد لله تعالى.
- ٢ - كذب الله تعالى اليهود والنصارى في ادعائهم أنهم أبناءه ونفاهم عنه. وبين عذابهم نتيجة هذا الادعاء.

٣ - بهذا الادعاء ازدادوا من الله بغضاً وبعداً وزاد أهل التوحيد عند الله حباً وقرباً.

بين آخر رسول وهو عيسى عليه السلام، وبين محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل أكثر من ستمائة عام، فترة طويلة انقطعت فيها رسالات السماء إلى الأرض، وضاعت فيها كثير من معالم الدين وظهرت فيها دعاوى بني إسرائيل المذكورة... فجاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بعد طول انقطاع، جاء حتى لا تقوم

لليهود والنصارى حجة عند الله يوم القيامة ما جاءنا من بشير ولا نذير.

ها هو البشير والنذير قد جاء، فلا حجة أن الرسول لم يأت فقد جاء، وهي فرصة ينبغي أن ينتهزها بنو إسرائيل فيؤمنوا لينجوا من عذاب الله. فقد جاءكم الرسول. وانقطعت الحجة فإن أمتهم فقد نجوتهم وإلا، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على تعذيبكم بكل وسيلة وطريقة.

المقطع السادس: سوء أدب اليهود:

والقرآن ينقلنا إلى اليهود مرة أخرى ليبين بعض فسادهم وسوء أدهم مع الله والرسول وأهل الخير.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكَبُوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

ذكر موسى عليه السلام قومه بكثير نعم الله عليهم، إذ انتقى منهم فئة جعلها أنبياء تحمل رسالة الدعوة إلى الله، وهذه منة ونعمة لا تتوفر لكل الخلق فكثير في بني إسرائيل الأنبياء لفسادهم وجعلكم ملوكاً. روي عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً (كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة سمي ملكاً) (١).

(١) الدر المنثور: ٤٦/٣.

ففيهم أنبياء ملوك كداود وسليمان عليهما السلام، وفيهم ملوك، ومن عليهم بمنن ونعم لم ينعم بمثلها على آخرين، فقد أنقذهم من فرعون وقد استعبدهم وأذلهم، وقلق لهم البحر فأنجاهم - وظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، في سيناء من غير ثمن، وفجّر لهم الماء من حجر... كلها ممن اعترف بها نبيهم موسى ﷺ وذكرهم بها.

فالآن يحثهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، بيت المقدس، وما حوله بعد أن خرجوا من مصر ولا بد من صبر وقوة لمدافعة من يمنعهم من دخول الأرض المقدسة. والأرض المقدسة يومئذ يسكنها العماليق، طوال أشداء أقوياء، فقالوا لموسى: أن سكان الأرض المقدسة أقوياء ولا نستطيع أن نقاومهم فإن خرجوا منها طوعاً دخلناها، وقام رجالان ممن خصهم الله بالإيمان وقوة العزيمة والرغبة في تنفيذ أوامر الله حاثين بني إسرائيل على الدخول فإن ذهبوا متوكلين على الله وجاهدوا فإنهم سيدخلونها منتصرين.

ولكن بني إسرائيل لم يستجيبوا لقول الرجلين، فقالوا لموسى: ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَاهَا قَاعِدُونَ﴾ قد وصلوا بقبح القول متتهاه، فكأنها الله عز وجل هو رب موسى فقط وليس ربهم ولا إلههم هم، ويقعدون هم ويقاتل موسى وربّه - ويأتون بني إسرائيل بهذا النصر ليدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بغير جهاد ولا بذل ولا شيء.

بعد هذا القول القبيح من بني إسرائيل يتوجه موسى ﷺ إلى ربه ضارِعاً، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]. فهم فسقه يريد الخلاص منهم. ويحيب الله تعالى دعاءه ويقرر - عقوبة لهم - التيه في هذه الصحراء - أربعين سنة حتى ينشأ منهم جيل جديد لم يعرف الذلة، ولم يعرف الخوف لسمع ويطيع ويدخل الأرض المقدسة. أما هذا الجيل فلا خير فيه، لذا يظل محبوساً في هذه الصحراء أربعين سنة حتى يفنى ويموت وينضج الجيل الجديد ويدخل الأرض المقدسة.

هؤلاء هم اليهود...

سوء أدب وألفاظ جارحة، وغلظ في القول ومعصية لكل أمر، كل هذا ليس مع بعضهم

البعض، وإنما مع رب العزة جل وعلا ورسلمهم الكرام، هذه صورة سيئة رسمها القرآن لليهود. وكان لها العقاب، وهو تمهيد بصورة أخرى أكثر عنفاً وأشد ضراوة. ولقد ظلّ سوء أدبهم إلى اليوم، حيث رسم يهود ونصارى الدنمارك رسماً (كاريكاتيرياً) لرسول الله ﷺ في صحفهم في وضع مسيء، علّقوا عليه أنه إرهابي، وتناقلت دول النصارى وبعض صحف ضعاف النفوس من المسلمين تلك الصور بإعادة رسمها إمعاناً في الإساءة، والله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

بعد هذه الجولة الطويلة مع بني إسرائيل تخرج منها بالدروس التالية:

١ - بنو إسرائيل (اليهود) لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق ومن وثق فيهم وعاهدهم فقد ظلم نفسه فإنها فئة ناقضة للعهد ولا تحترم رباً ولا رسلاً ولا ملائكة ولا بشراً. وهم مطرودون من رحمة الله، وهم قساة القلوب لا رحمة في قلوبهم.

٢ - فيهم الخيانة والغدر.

٣ - النصارى: لا يلتزمون طاعة الله التي أخذها عليهم وهم الآن فئات مختلفة في دينها وعقيدتها، تبغض كل فئة أختها ولا يلتقون في دين ولا نهج. فبعض يعتقد أن عيسى ابن الله وبعضهم يعتقد هو الله، وبعضهم يعتقد ثالث ثلاثة. وبعضهم يعتقد عبد الله ورسوله.

٤ - جاء الرسول ﷺ ليخرج بني إسرائيل من ظلمات الشرك والكفر ان اتبعوه، مع هذا الكتاب الكريم.

٥ - دعاوى بني إسرائيل الباطلة بأنهم أبناء الله وأجباؤه أبطلها الله، بل هم مغضوب عليهم ومطرودون من رحمة الله.

٦ - لمخالفتهم لموسى عليه السلام، في كل ما أمرهم به، ولتطاولهم على الله تعالى طلب موسى من ربه أن يفرق بينه وبينهم، فقد كرههم.

٧ - مات موسى عليه السلام، ولم يدخل بنو إسرائيل بيت المقدس، وإنما دخلوه بعد سنوات التيه وهي أربعون سنة بعد نشأة جيل جديد وفناء الجيل القديم المعاند.

المقطع السابع: جرائم وعقوبات:

قال تعالى: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمَانِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلْنِي عَجْرًا أَنِ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢].

في الآيات السابقة قال الله تعالى لرسوله: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ [المائدة: ١١] فالله تعالى يقص عليه ما هو أشد وأنكى.

ويقول للنبي ﷺ أتل على أمتك ما حدث من ابن آدم، وهي واقعة حقيقية ينقلها الله لعباده ليريمهم سوء خلق بعض الناس، والواقعة نشأت في بيت نبي كريم لكل الخلق، ونحن في بداية البشرية وهي تخطو أولى خطواتها على الأرض.

آدم عليه السلام ربي أبناءه على التقرب إلى الله بصالح الأعمال وخالص النية، والولدان

هاييل وقاييل قريبا قرابين فتقبل الله قربان هاييل لخلوص النية وحسن الاعتقاد، ولأنه قدم أطيب ما عنده، فأرسل ناراً أحرقت قربانه دليل قبوله، أما قربان قاييل فظل كما هو لم تمسه نار دليل على عدم قبوله، فدب الحسد في قلبه على أخيه هاييل، وهو لم يجن ذنباً ولم يقترف جريمة، فأعلن الحقد على أخيه وأنذره بالقتل، وهاييل بين لأخيه طريقة قبول القربان، التقوى فإن اتقيت الله حين تقديمه، وقدمت طيباً بخلوص النية وصلاح الكسب قبل منك، أما إن صممت على قتلي فلست مصمماً على قتلك، وستبوء بإثمي إن قتلتني وتبوء بإثمك الذي عليك قبل ذلك. فتكون من أصحاب النار، والنار جزاء الظالمين، فحسنت له نفسه قتل أخيه رغم هذا الذي قاله له؛ فقتله فأصبح من الخاسرين، خسر الدنيا والآخرة، ثم لم يدر ما يفعل بأخيه الذي قتله؟ فهو أول قتيل وأول ميت في الدنيا. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (جاء غراب إلى غراب ميت فحث عليه من التراب حتى واره، فقال: ﴿يَوَيْلَٰيَٓ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي﴾، فدفنه)^(١) ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ التَّائِبِينَ﴾ وهكذا إندفع للقتل حتى ارتكب الجريمة فبقي للحسرة والندم والغم. بهذا أصبح ابن آدم هذا أول من سن سنة القتل، ولهذا قال الرسول ﷺ: (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)^(٢).

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- أهل الإيمان أبعد الناس عن سفك الدماء بغير حق، وكلما قوي الإيمان بعد المؤمن عن الإجرام؛ لهذا يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢].

٢- القاتل في الآخرة إذا سفك الدم الحرام، واجه قول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٤٤.

(٢) الترمذي، حديث رقم (٢٦٧٣).

عَظِيمًا ﴿١٣﴾ [النساء: ٩٣] ويقول النبي ﷺ: (ما يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا) ^(١).

٣- يجيء المقتول يوم القيامة متعلقاً بالقاتل يقول: يا رب سله فيم قتلني ^(٢).

٤- يصيب الغم القاتل بعد جريمته، لا يكاد ينفك عنه، وقد من الله على نبيه موسى عليه السلام بالنجاة من الغم فقال عز وجل: ﴿وَقَلَّتْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠].

من أجل ذلك الظلم والقتل بغير جريمة وسبب، ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

بعد هذا القتل الذي وقع على هايبيل بغير ذنب، كتبنا وشرعنا لبني إسرائيل أنه من قتل نفساً لم تقتل نفساً تستحق عليها القصاص، ولم ترتكب جرماً تستحق عليه القتل، فكأنما قتل الناس أجمعين، ومن تركها حية ولم يقتلها فكأنما أحيا الناس أجمعين، وبلغت هذه الأحكام بني إسرائيل عن طريق رسلهم، ولكنهم مع ذلك، ظلت فئة كثيرة منهم تمارس القتل بلا هوادة ولا رحمة، ولم توقفها أوامر الله ولا ما قال الرسل، وأسرفوا في القتل كثيراً، وما زالوا والقصة تبين أن بعض النفوس تبغض أهل الخير والصلاح، ولا ترضى عن الاستقامة والهدى، ولهذا هم حرب على كل صالح ومستقيم، ولهذا شرع الله لعباده العقوبة لهؤلاء المجرمين.

(١) البخاري: ٦٤٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد: ١٣٦/٤٧.

المقطع الثامن: عقوبة الحرابة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

سبب النزول:

روى البخاري عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام واستوخوا المدينة وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: (ألا تخرجون مع راعي في إبلة فتصيبون من أبوالها وألبانها؟). فقالوا: بلى - فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا. فقتلوا الراعي، وطردهوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا^(١).

جاء رجل من مراد إلى أبي موسى الأشعري وهو على الكوفة إمارة عثمان ؓ، بعدما صلى المكتوبة فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذين أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله. وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقدروا عليّ. فقام أبو موسى وقال: إن هذا فلان بن فلان وأنه كان حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، وأنه تاب من قبل أن نقدر عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه. فأقام الرجل ما شاء الله ثم أنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله^(٢) ولم يك صادقاً في توبته.

(١) البخاري، حديث رقم (٦٥٠٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٠/٢.

روى ابن كثير: أن علياً الأسدي حارب الله ورسوله وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال. فطلبه الأئمة والعامّة فامتنع ولم يقدرُوا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فوقف عليه فقال يا عبد الله أعد قراءتها فقرأها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السَّحَر، فاغتسل ثم قدم مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه، فلما أسفروا، عرفه الناس فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائباً من قبل أن تقدرُوا عليّ. فقال أبو هريرة صدق فأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية، فقال: هذا على قد جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله. قال وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر فلقوا الروم فقربوا سفينة إلى سفينته من سفنهم فاقتحم على الروم من سفينتهم. فهربوا منه إلى شقها الآخر فمالت بهم فغرقوا جميعاً^(١).

تلك خاتمة طيبة لتائب من عباد الله صدق في توبته وجهاده.

والآية سميت آية الحرابة، وهي تعني الحديث عن قطاع الطرق، وقطاع الطرق إنما يتصيدون ضحاياهم في الأماكن البعيدة المعزولة عن الناس، وعن الغوث لمن استغاث. فلذا روى ابن عباس: أن قطاع الطرق، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإن قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا. وإن أخذوا المال ولم يقتلوا قطعتم أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإن أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض^(٢).

فكان هذا حكم الحرابة... وهو ما عليه جمهور المسلمين الآن وهو جزاء موافق يناسب الجرم المرتكب، وهذه واحدة من الحدود التي أوجب الله العمل بها. وهي آية محكمة واجبة الأداء.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٠/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩/٢.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١ - ما وقع من عكل ما يزال يقع في مجتمعاتنا، فبعض الناس تحسن إليهم وتؤويهم وتقدم لهم كل عون، وآخر الجزاء ارتكاب جريمة ففي حق المحسن.
- ٢ - وجوب الحذر من كثير من الناس، فلا بد من ترك السذاجة التي يعقبتها الأذى.
- ٣ - وفي المثل: (اتق شر من أحسنت إليه)^(١).

المقطع التاسع: في التقوى نجاة من النار:

يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَابَتَّغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقْبِلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٥-٣٧].

بعد الحديث عن الخرابة جاءت الآية تأمر بتقوى الله، وترك ما نهى عنه وحرّم، وفي التقوى الفلاح ويرزق الله العبد التقى من حيث لا يحتسب ويجعل له من كل ضيق مخرجاً، ويجعل له من أمره يسراً وهو معه بالتأييد والنصرة والمؤازرة، ويأمرنا أن نتخذ الوسيلة لمرضاته فالدعاء وسيلة، والسؤال بأسماائه الحسنی وسيلة، والتقرب إليه بأحب الأعمال الصالحة الخالصة إليه وسيلة، والتقوى وسيلة، فابتغوا إليه الوسيلة لتصلوا إلى غاياتكم، وجاهدوا في سبيله بالمال والنفس والكلمة الصالحة وتبيين الحق والوقوف في وجه الباطل. قال ﷺ (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى ذي سلطان جائر فأمره ونهاه فقتله)^(٢) وقولنا بعد الأذان (اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته)^(٣) وهي

(١) اللؤلؤ المرصوع: ٣٢/١.

(٢) المستدرک: ٣٦٩.

(٣) البخاري حديث رقم (٥٨٩).

أعلى درجة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو رسول الله ﷺ، ومن قال ذلك حلت له الشفاعة من رسول الله ﷺ. فهذه الكلمة وسيلة لمرضاة الله ودخول الجنة.

والله يرينا أن الكفار والذين لم يدخلوا في هذا الدين ولم يعبدوا الله ويوحده لو جاءوا يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ليفدوا به أنفسهم من العذاب لن يقبل منهم، فلا بد من عذاب ولن ينجيهم من النار شيء، فهم في عذاب مقيم، سرمدى.

المقطع العاشر: حد السرقة:

بعد حد الحرابة الآن يأخذ في حد السرقة.

فيقول تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ [المائدة: ٣٨-٤٠].

روى ابن كثير: (أن أول من قطع يد السارق في الجاهلية قريش، فقد قطعوا يد دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة.

وحد السرقة واحد من أعمال الجاهلية التي أقرها الشرع واستمر العمل بها، هي والدية والقسامة والقراض)^(١).

واشترط بعض الفقهاء النصاب الذي تقطع فيه واتفقوا على ألا يكون القطع في أقل من ثلاثة دراهم وبعضهم سهاها ربع دينار وكان الدينار يومئذ يساوي اثني عشر درهماً وهي ربع الدينار فلا خلاف في ذلك، ومن قال ذلك الإمام مالك فعنده (النصاب ثلاثة دراهم) إن سرقها أو بلغ ثمن ما سرقه ثلاثة دراهم، مستشهداً بفعل رسول الله ﷺ فيها رواه أصحاب

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٢/٢.

الصحيحين (قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم)^(١).

وقد حاول بعض الناس أن يؤجل أو يخفف حكم القطع فاغضب ذلك النبي ﷺ وقال لأسامة (أتشفع في حد من حدود الله عز وجل) وخطب الناس فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

(أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)^(٢).

واختلفوا في رد المسروق بعد القطع وقيل لا يرد.

عن عبد الله بن عمر أن امرأة سرقت حلياً فجاء الذين سرقتهم رسول الله فقالوا: هذه المرأة سرقتنا. فقال رسول الله ﷺ (اقطعوا يدها اليمنى) فقالت - بعد القطع - هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ: (أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك)^(٣) فأنزل الله تعالى: ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

والآية ترد على المعارضين لحكم الله، والذين يثيرون الشبهات حول أحكام الله، والذين يرون في قطع السارق والسارقة عملاً لا إنسانياً كما كتبت بعض الصحف والأقلام، وكما يقول المعارضون لحكم الله تعالى:

ورد الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه حقيقة ثابتة، وما

(١) البخاري: (٦٤١١).

(٢) البخاري: (٤٠٥٣).

(٣) المصدر نفسه.

داموا اعترفوا بأن السموات بها فيها والأرضين بها فيها ملك لله خالصاً فمن ذا الذي يعترض على صاحب الملك أن يتصرف في ملكه؟ فيعذب المجرم، ويغفر للتائب المقصر في حق الله عليه، لا في حق العباد، فلا بد من رد المظالم. والناس يعترضون على عقاب المجرم المعتدي على حقوق الشرفاء والكادحين العاملين الذين يسعون لعيشهم الشريف فيأخذ هذا جهدهم وعرقهم ولا يقدرون بذل المعتدي عليهم والذين يسعون من أجل أسرهم وعيشتهم، يكرمون المجرم ولا ينظرون للمظلوم، تلك غاية الإجحاف. والله على التعذيب والعفو قدير، فهو العالم بمن يستحق عفوهِ ومن يستحق عقوبته.

هذه هي جريمة السرقة وعقوبتها، وسبقها عقوبة الحرابة، ومن قبلها عقوبة من قتل نفساً بغير ذنب في قضية ابني آدم فالقاتل كأنما قتل الناس جميعاً، ولا بن آدم القاتل نصيب في كل جريمة قتل لأنه أول من سن القتل - والآن نأخذ في جريمة الزنا.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

إن من الأدب مع الله أن نتقبل أحكامه، وأوامره بنفس طيبة ورضاً بما أمر؛ لقوله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

المقطع الحادي عشر: تلاعب أهل الكتاب بأحكام الله:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
وَإِنْ لَمْ تَأْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ
لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهَرَ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾
سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ
عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ
بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّيْبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا
تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيَّتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ
وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤١-٤٥].

والآية تبدأ الحديث بالمنافقين الذين قال الله لرسوله عنهم لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فهؤلاء آمنوا باللسان قولاً ولم يؤمنوا بقلوبهم فعلاً، فاختلقت الجوارح واختلقت النتائج، والمشركون من العرب هم الذين يعينهم القرآن بهذا القول، ثم يضيف إليهم الصنف الثاني في النفاق والكفر، من الذين هادوا، وهؤلاء سماعون للكذب استماع تصديق وإيمان وقبول، ﴿سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ فهم مرسلون من جهة، تأبى أن تظهر: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ يتأولونه تأويلاً خاطئاً عامدين قاصدين بتبديل أحكام الله وشرعه. يقولون لمن أرسلوهم إلى رسول الله ﷺ وقد

زنا رجل وامرأة منهم إن قال: لكم حكم الزنا الجلد فاقبلوه، وإن قال حكم الزنا الرجم فلا تقبلوه. فلما قدم الذين بعثوهم لرسول الله ﷺ وسألوه عن حكم من زنا من الرجال والنساء وهم محصنون، فسألهم رسول الله ﷺ عن الحكم عندهم في التوراة فقالوا: نجلدهم مائة جلدة ثم نحمهما بالسواد، ونركبهما حمارين مقلوبين يطوفون بهما في الأسواق، وكان قد اصطلحوا على ذلك مبطلين حكم التوراة وهو الرجم، فلما قالوا ذلك كذبهم عبد الله بن سلام وقال حكم التوراة فيها الرجم، فجاءوا بالتوراة، فنشروها ووضع أحدهم إصبعه على آية الرجم ليخفيها وقرأ ما قبلها وما بعدها. فأمره عبد الله بن سلام برفع يده فقرأوا آية الرجم فأمر بها فرجما^(١).

فالله يقول لرسوله ﷺ لا تحزن لمسارة المنافقين في الكفر، ولا تحزن على بعض اليهود الذين يجبون سماع الكذب بما ينقله المنافقون لهم كذباً وبهتاناً عن المسلمين، والبعض من اليهود سماعون لقوم آخرين من مرتكبي الجرائم الذين يبحثون لها عند حلول بإرسال هؤلاء لرسول الله ﷺ ولم يظهروا بأنفسهم يقولون لهم أسألوه عن الحكم عندهم في الإسلام لمن زنا.

فهؤلاء أراد الله فتنتهم بوقوعهم في هذا النفاق والتحريف لأحكام الشرع فلن يملك لهم أحد من الله شيئاً، ولن يرُد ما قد أراده الله بهم، لم يرِد الله لهم طهارة القلب ولا صفاء النفوس ولا الرغبة في هذا الخير. فلهم في الحياة هذه الخزي والذل والمهانة، ومن الأخرى العذاب العظيم.

من أخلاقهم أنهم سماعون للكذب المنقول إليهم، أكالون للحرام بكل أنواعه رشاوى وربا وغيرهما من المحرمات. فالله يقول لرسوله ﷺ. إن جاءك هؤلاء يطلبون الحكم فيما ارتكبوا من حرام، فأنت بالخيار أن شئت فاحكم بينهم وإن شئت فاعرض عنهم وفي كلا الحالين لن يضروك شيئاً. فإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط والعدل ان الله يحب المقسطين فحكم رسول الله ﷺ بحكم التوراة وهو الرجم الذي أرادوا أن يتفادوه، فرجم للذين زنيا.

والسؤال ... لم يحكموك وعندهم التوراة التي يؤمنون بها وفيها الحكم؟ - إنما هو الهروب

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٥.

والتخلي عن أحكام الله والتنصل مما أمر الله به. والله يقول أنهم بهذا التصرف ليسوا مؤمنين.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّيْبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرَوْا بِبَابِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

والله يقول إنه أنزل التوراة. فيها هداية تبين للناس وحدانية الله، والطريق المستقيم المؤدي إلى جنة الله ورضوانه، المتمثل في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإن يقولوا للناس حسناً، وإن يحسنوا إلى الوالدين ويبروهم وان يحسنوا إلى الجار، وغيرها من الفضائل مما يسمو بالأخلاق والنفوس، وفيها نور يبين الحلال من الحرام والخير من الشرك والحق من الباطل، والطيب من الخبيث، وأمر الله أن ينفذ أحكام التوراة في بني إسرائيل النبيون موسى وهارون وداود وسليمان وعيسى الذين استسلموا وخضعوا لله مؤتمرين بما أمر متتهين عما نهى عنه مُحلِّين ما أحل محرِّمين ما حرم، ويحكم بها وينفذ أحكامها كذلك الربانيون وهم الموحدون الله الذين لا يشركون به، والأحبار، وهم العلماء فهؤلاء الثلاثة. هم المنفذون لأحكام التوراة المطالبون بالحكم بها في بني إسرائيل لأنهم مؤمنون بها، ولأن الله تعالى وَكَلَّ إِلَيْهِمْ حِفْظَهَا ورعايتها من التحريف والتبديل وكانوا شهداء، أنها من عند الله، وعلى ما فيها من خير لبني إسرائيل وسعادة، فلا تخشوا يا منفي حكم الله في التوراة من الناس إذا حكمتم بها، فإنكم ستجدون من يعارضكم في تنفيذ أحكامها، فلا تخشوا الناس واخشوني، ﴿ وَلَا تَسْتَرَوْا بِبَابِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٤١]، أي لا تحرفوا كلام الله وتبدلوه وتبعوه للناس محرِّفاً على أنه كتاب الله الحق ولا تقبلوا الرشوة مقابل ترك الحكم به ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾. روى الحاكم في مستدركه (أنه ليس الكفر الذي تذهبون إليه أي ليس الذي يخرج من الملة والله أعلم)^(١). ولكنه الكفر الذي وصفه

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٩/٢.

الله والذي يخرج من الملة لأن التهاون بشرع الله وأوامره لا يقابل بالتهاون.

﴿ وَكُنِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسَانَ بِاللِّسَانِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ساوت التوراة في أحكام القصاص والدماء، فمن قتل نفساً قُتل بها ومن فقأ عيناً فقئت عينه ومن جدد أنفاً جددت أنفه ومن صلح أذنأً صلحت أذنه ومن كسر سنأً كسرت سنه، ومن جرح شخصاً جرح بمثل ما جرح وبنفس الكيفية والموقع، حتى يرتدع بنو إسرائيل، وهي غاية العدل والإنصاف، لكن بني إسرائيل حرفوا هذا الحكم، وجعلوا بين القبائل تفاضلاً، فبنو النضير يعتبرون أنفسهم سادة اليهود، ويعتبرون بني قريظة أضعف اليهود فلا يتساوون معهم في الدية والقتلى فإذا قتل قرظي نصرياً قتل به وإذا قتل نصرني قرظياً لم يقتل به وإنما يدفعون دية لأهل القتل، وهذا حكم مخالف لما شرع الله تعالى وبين أن النفس بالنفس... قصاصاً، كما حرفوا حكم الرجم السابق إلى ما تعارفوا عليه من الجلد والإركاب فلم يحكموا بها ولم يتعاملوا بما شرع الله فوصفهم بالظالمين^(١). فإما هو ظلم الشرك، أو هو ظلم التعدي على حدود الله، وكلاهما مهلك، وصاحبه إلى النار.

وشرع من سبق شرع لنا إلا إذا نسخ فلهذا طبق رسول الله ﷺ هذا الحكم على المسلمين، روى البخاري بسنده أن (الربيع) عمه أنس بن مالك كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا فقال رسول الله ﷺ: (القصاص) فقال أخوها، أنس بن النضر يا رسول تكسر ثنية فلانة؟ فقال رسول الله ﷺ: (يا أنس كتاب الله القصاص) قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة، قال فرضي القوم فعفوا وتركوا القصاص. فقال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)^(٢).

(١) سنن البيهقي الكبير: ٢٠ / ٨.

(٢) البخاري: (٢٥٥٦).

فهذا تطبيق لأحكام هذه الآية التي نزلت في التوراة وعمل بها رسول الله ﷺ لأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ.

عن عمران بن حصين: أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله: إنا أناس فقراء. فلم يجعل عليه شيئاً^(١). وعن قتادة أنه ذو إسناد قوي ورجاله ثقات، وعلل: لعل أن الغلام الجاني لم يبلغ فلا قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء واستعفاهم عنه.

بهذا يكون قتل النفس بالنفس معمولاً به في الإسلام^(٢) وكسر السن بالسن، والأذن بالأذن الذي ورد في الحديث يكون كله شرعاً للمسلمين إلى يومنا هذا مع بقية ما ورد في الآية.

وفي عهد ابن الخطّاب رحمته الله، لطم جبلة بن الأيهم في الحج أعرابياً وطوى ثوبه، فاشتكاه إلى عمر فاستدعى، عمر جبلة وطلب منه القصاص فقال جبلة: أنا ملك وهذا سوقة. وقال عمر بن الخطّاب: إن الإسلام ساوى بينكم، وطلب من عمر أن يمهلته إلى الغد فهرب وتنصر ومات على كفره. والشاهد أن الجروح قصاص.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (تقتل النفس بالنفس وتفقس العين بالعين، وتقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسأؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونسأؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس^(٣)).

وبهذه الآية النفس بالنفس روى العلماء أن الرجل يقتل بالمرأة إذا قتلها. ويقول رسول الله ﷺ:

(١) النسائي: (٦٩٥٣).

(٢) البخاري: (٦٤٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٦٠ / ٢.

(المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد من على من سواهم)^(١).

وروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليه إلى أوليائها نصف الدية لأن ديتها على النصف من دية الرجل. وإلى هذا ذهب أحمد بن حنبل. وللإمام أحمد بن حنبل قول صريح أن الرجل لا يقتل بالمرأة بل تجب ديتها.

كذلك نهى رسول الله ﷺ: (أن يقتل مسلم بكافر)^(٢) لقوله ﷺ: (لا يقتل مسلم بكافر)^(٣).

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ من فقتت عينه فعفا عن الجاني فهو كفارة

للمجنى عليه، وكذلك من كسرت سنه أو أصابه أحد بجروح فعفا.

روى ابن جرير: عن أبي سفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصاري إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل قال شأنك وصاحبك قال وأبو الدرداء عند معاوية. فقال أبو الدرداء، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وخط عنه به خطيئة)^(٤).

فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي. فخلى

سبيل القرشي. فقال معاوية مرواله بهال.

وفي القصاص في الجراحة لا يجوز أن يقتص في الجراحة حتى يندمل جرح المجني عليه، والدليل روى البيهقي أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني. فقال ﷺ: (حتى تبرأ) ثم جاء إليه فقال: أقدني، فأقاده. فقال يا رسول الله، عرجت فقال ﷺ: (قد نهيتك فعصيتني فأبعدك الله وبطل عرجك)^(٥) ثم نهى

(١) سنن أبي داود: ٢٧٥١.

(٢) البخاري: (١١١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) الترمذي: (١٣٩٣).

(٥) البيهقي الكبير: ٦٧/٨.

رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ. وذلك مخافة أن يتطور الجرح إلى شيء آخر فيفسد الجسد كله فيضيع حق المجنى عليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - شرع من قبلنا شرع لنا، فلهذا استمر العمل بهذه الآية التي كانت عند أهل الكتاب في أحكام المسلمين إلى اليوم.

٢ - في الجاهلية أحكام ارتضاها الإسلام كالدية والقسامة، وارتضى ما كانت تقوم به قريش من سقاية وحجابه. وأمر بحفظ العهد التي أبرمت في الجاهلية، وأمر بامضائها، وقال ﷺ: (كل حلف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة^(١)).

المقطع الثاني عشر: رسالة عيسى وإنجيله:

قال تعالى: ﴿ وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۗ وَإِنِّي نُنزِّلُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦-٤٧].

والآن بعد الحديث عن التوراة يأتي الحديث عن الإنجيل. فيقول تعالى: أنه أتبع - على أثر أنبياء بني إسرائيل السابقين - عيسى بن مريم، وجاء عيسى مصدقاً بالتوراة التي نزلت على بني إسرائيل في عهد موسى، فهو مؤمن بها وباعتباره من أنبيائهم مأمور أن يحكم بها، وآتينا عيسى بن مريم الإنجيل، والإنجيل نفسه مصدق بالتوراة التي سبقته متفق معها ليس مخالفاً وفي الإنجيل هدى ونور، يهدي بما فيه من تعاليم إلى الطريق المستقيم بدعوة الناس إلى الصلاة والعبادات وطاعة الوالدين والإحسان إلى الجار وغيرها من مكارم الأخلاق، ونور يبين الحلال من الحرام والخير من الشر ومعلوم أن الإنجيل جاء بالتخفيف على بني إسرائيل

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢٨٩/٢.

من كثرة المحرمات التي عوقبوا بها نتيجة معصيتهم لله تعالى فقال عيسى عليه السلام ﴿وَلَأَجَلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

﴿وَهُدَى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ في الإنجيل هدى، وفيه موعظة وعبرة عن ارتكاب المعاصي حتى لا يجرم عليهم أشياء أخرى فهو يزرهم عن ذلك.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وبنو إسرائيل لم يحكموا بما أنزل فهم فاسقون. والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، وهو كفر محض، وصاحبه إلى النار.

إن بني إسرائيل الآن وصلوا في المعاصي حداً بعيداً، ولم يعد يردعهم عما هم فيه كتاب ولا رسول ولا قول، فهم قتلة سفاحون نشروا في العالم كل أنواع الفساد وقبائح الأخلاق، وفرقوا بين الشعوب في داخل البلد الواحد وأشاعوا الفتن، ودمروا النفوس والبيوت والقيم في ديار المسلمين وغيرها. فهم بهذا كافرون ظالمون فاسقون وكل من ترك منهج الله هذا قول الله تعالى وحكمه فيه.

القرآن المهيمن:

تحدث المولى عز وجل عن التوراة والإنجيل وما فيهما من أحكام، وبين أنه سبحانه وتعالى وكل بتنفيذ أحكامهما إلى النبيين والرسل والأحبار، وجعلهم حفظتها وأصاب التوراة والإنجيل التحريف لقصور البشر عن الحفظ.

وجاء الحديث عن كتاب الله الأخير إلى البشر، القرآن، والذي تكفل الله تعالى بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الحجر: ٩] فهو أولاً محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير بحفظ الله له.

المقطع الثالث عشر: القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠].

وأول القول في القرآن: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ فهو منزل من عند الله تعالى، ليس من صنع محمد ﷺ، وليس مما يعلمه بشر، نزل بالحق والصدق نزل والحق موضوعه الذي جاء بحقيقته، جاء من عند الله بالحق، مع هذا الرسول الحق، جاء (مصدقاً) لما سبقه من كتب معترف بها، فالمصدر الذي جاءت منه واحد، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ ﴾ [آل عمران: ٢-٤].

﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ أمينا عليها معترفاً بها، مادته التي فيه تشمل كل ما في تلك الكتب وتزيد. (فاحكم بينهم) بالأحكام التي تضمنها هذا الكتاب، فاقطع يد السارق، واجلد الزاني غير المحصن، وهكذا، وليعملوا بما فرض عليهم من عبادات، وما نهاهم عنه أشياء، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، وقد عارض العرب أحكام الميراث التي نزلت، وعجبوا أن يقسم الله تعالى للجارية وللغلام وللمرأة وهم لا يحوزون الغنيمة ولا يدفعون عن القبيلة، وقالوا اسكتوا عن هذا حتى نكلم محمدًا ﷺ فيغيره، ولقد وجدت أحكام الله معارضة شديدة في البداية وما زالت طوائف من المسلمين يعطلون أحكام الله ويقفون ضدها. فامض مع أحكام الله تنفيذاً ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨] فالناس أعداء لما جهلوا

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ كل أمة لها تشريع يناسب ظرفها وزمانها، فلليهود شرعة ومنهاج في الحياة يخالف ما عليه النصارى، فقد جاء الإنجيل بالتخفيف من كثرة المحرمات التي حرمت على بني إسرائيل بسبب المعاصي وقال عيسى عليه السلام ﴿ وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] ففي شريعته تخفيف عما كانوا عليه في عهد موسى عليه السلام وجاءت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مكتملة تخالف في بعض تشريعاتها ما كان عليه النصارى وما كان عليه اليهود ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لو شاء الله لوحد كل التشريعات في كل الأمم ولكن الله تعالى أدرى بمصالح العباد فجعلها تختلف تشريعاً وتتفق توحيداً لله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ فهو ابتلاء لكم أتقبلون تشريع الله لكم وتنفذون أحكامه أم تأبون؟؟

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ تسابقوا في تنفيذ شرعه وأحكامه وطاعته فهو مجال التنافس للفوز بمرضاة الله تعالى ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ إليه المصير يوم القيامة ليجازي الناس على ما قدموا من خير وتنافسوا فيه فهناك الجزاء على هذا التسابق... والجزاء على التخلف عنه ﴿ فَيُنْتِجُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴾ بين لكم من هو على الحق ومن هو على الباطل، من هو المهتدي ومن هو الضال. من وحد الله ومن أشرك به.

﴿ وَإِنْ أَحَكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ تأكيد العمل بهذا الكتاب والتحذير من أهواء المعارضين وشبههم التي يريدون بها التحلل من بعض هذا الشرع، إن اليسير من التحلل من هذا الشرع يهلك الأمة ويوجب سخط الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتٍ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبُرُهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ. فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ [محمد: ٢٥-٢٨].

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فإن انصرفوا عن الحكم بهذا الكتاب، ﴿ فَأَعْلَمْنَا أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ

ذُنُوبِهِمْ ﴿ فلا بد من عقاب لبعض الذنوب وليس كلها، وعقاب الله إذا وقع رادع، فكيف إذا حبس رزقه؟ إذ أصابهم بالفحط؟ وكيف إذا زرع بينهم الفتنة؟ وكيف إذا أصابهم بالأوجاع والأسقام؟ إن الأمم السابقة لم تحتمل عقاب الله فكيف بهذه الأمة؟ إن الله يوجه أنظار العباد إلى الأمم السابقة عظة وعبرة ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف: ١٠٩] ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ القلة من العباد هي الشاكرة الحامدة لربها والكثيرة هي الفاسقة ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ أيريدون الرجوع إلى الوراء للجاهلية لتحكم بينهم؟ أيجبون حكم من لا يملك حق التشريع والتقنين ويتركون حكم الله الذي يرفعهم به؟ وتنزل به عليهم رحماته وبركاته؟ - فما من حكم تنزل به الرحمة وتعم به البركة، ويأمن فيه العباد إلا حكم الله، لقوم يوقنون أنه الحق وأن العدل فيه.

تمَّ الحديث عن القرآن المهيم على ما سبق من كتب.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - اليهود والنصارى يقدسون - ظاهريًا - التوراة والإنجيل، ولا يعملون بها فيهما من أحكام، لهذا شبه الله تعالى اليهود بالحمير فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥].

٢ - السعادة تكمن في العمل بما أنزل الله؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٦]. ولكنهم فسقوا وظلموا وكفروا ومصيرهم إلى النار.

والآن بعد أن فضح اليهود والنصارى وبيان فسقهم يوجه القرآن الأمة المؤمنة أمة محمد ﷺ إلى المفاصلة بين المسلمين، وأهل الكتاب.

المقطع الرابع عشر: المفاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبَهُمْ أَوْ يَكْفُرْ بِهِمْ فَإِن أَخَّرْنَاهُم مِّنَ الْقِتَالِ قَدْ حَسِبُوا بِأَفْئِسَتِهِمْ أَن يُجَاهِدُوا وَهُمْ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ كَأَن يُصِيبُوا فَاصْبِرُوا حَسْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جَاهِدْ أَيْمَنِيهِمْ إِنَّمَا لَكُمْ حَيْطَتُ أَعْمَالِهِمْ فَأَصْبِرُوا خَشِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

أسباب النزول

روى ابن كثير عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي (يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) قال: قد قبلت فأنزل الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ (١).

روى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب (٢) رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: (يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً) فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦٥/٢.

(٢) سنن أبي داود: ٢٣٤/٨ (٢٦٠٧).

لم تلتق مثلنا). فأنزل الله: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢] (١) فقال عبادة بن الصامت: إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم، كثيراً سلاحهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله ابن أبي بن سلول: لكني لا أبرأ من ولاية يهود إنني رجل لا بد لي منهم فقال رسول الله ﷺ: (يا أبا الحباب أرايت الذي نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه) فقال: إذن أقبل فأنزل الله فيه الآية.

(وروى أنه عندما نقض بنو قينقاع العهد مع رسول الله ﷺ بعد غزوة أحد، حاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول فقال: يا محمد أحسن في موالي، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: (أرسلني) وغضب رسول الله ﷺ حتى روى بوجهه ظللاً ثم قال: (ويحك أرسلني) قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني أمرؤ أخشى الدوائر - فقال رسول الله ﷺ: (هم لك) ثم أمرهم بالجللاء فخرجوا) (٢). بهاتين الروایتين، يبدو الآن موقفان، موقف مستجيب لله تعالى منفذ لأمره بترك موالاته اليهود والنصارى، والآخر عاص لله لم يستجب لأمره متشبث بموالاته اليهود والنصارى، والله حينما حذر من موالاتهم وصف من والاهم بأنه منهم، منهم ديناً وخلقاً وسلوكاً ومنهجاً، فهذا عبادة بن الصامت مستجيب لله، وعبد الله بن أبي بن سلول عاص لله متشبث باليهود والنصارى. فهو بهذا ارتد عن دينه الذي لم يدخل فيه أصلاً.

بهذا ينهي الله تعالى عبادة المؤمنين من موالاته اليهود والنصارى ونهاهم أن يستنصروا بهم، فإنهم أعداء وقد سبق القول من الله تعالى في سورة آل عمران لهذه الأمة فقال: ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ

(١) ابن هشام: ٥٥١/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/١٣٤.

وَلَا يُجِبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

[آل عمران: ١١٨-١٢٠].

والآن ينهاهم أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء ويقول من يتخذهم أولياء بعد هذا فإنه منهم، والله تعالى ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يهدي من خالف أمره عمداً وخالف نهجه عمداً وخالفه شرعه عمداً. فهو ظالم، والله لا يهديه.

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْأَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

المنافقون ابن أبي ورهطه يتعشمون أن تكون لليهود دولة، فهم يتمسكون بهذا الأمل، فإن صارت لهم دولة كانت للمنافقين حظوة عند اليهود لهذا استمسكوا بموالاتهم، ولم يتخل عنهم ابن أبي في حين تخلى عنهم عبادة بن الصامت، وهم في عتادهم القوي وعددهم الكثير ووالى الله ورسوله. والله يقول: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ فعسى الله أن يأتي بفتح مكة وهزيمة قريش وحلفائها، وصعود نجم المسلمين والإسلام أو أمر من عنده بضرب الجزية على اليهود والنصارى، أو بطردهم من المدينة... فيصبح المنافقون بموالاتهم لهؤلاء ومخالفتهم لأمر الله نادمين، وهذا ما حدث فقد انتهى كل وجود لليهود في المدينة، فبعد خمس سنوات من هجرة النبي ﷺ للمدينة لم يبق فيها يهودي، وتحسر المنافقون فعلاً بما أصاب اليهود في المدينة حين أجلى الله بني قينقاع وبني النضير وقتل مقاتلي بني قريظة وسبي النساء والأطفال وقسّم الأموال وذهبت أمانى المنافقين أدراج الرياح، وتصرّف ابن أبي أخذ عند الله تعالى منحى آخر وحكماً جديداً، وهو حكم الردة.

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ

يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿٥٤﴾ .

تتحدث الآيات عمن ارتد عن دين الله، والردة إما بقول يخرج صاحبه صريحاً من الملة أو بفعل أو ترك شيء من الدين عمداً أو إنكاره.

فتصرف عبد الله بن أبي بن سلول خروج من الدين صريح وردة، وكذلك من رجع من الحق للباطل فقد ارتد فالله تعالى يأت بخير ممن ارتد، وأول صفات من يأت به الله، يكون ممن أحبه الله، وكذلك هم أحبوه، ويكون لين الجانب متواضعاً خاضعاً خلقاً وسلوكاً مع إخوانه من المؤمنين، أما جانبه مع الكفر فهو شديد عليهم لا يريهم جانب اللين ولا الرحمة، مجاهداً في سبيل الله لإعلاء كلمته ونشر رسالته، ولا يخشى في الله لومة لائم، فلا يخضع لقرابة ولا لعظيم ولا لملك ولا لقبيلة، أمر الله تعالى أعظم عنده وأهم. والذي يصفه بهذه الصفات من الله عليه من فضله وأسبغ عليه من نعمه، وهو فضل الله يؤتبه من يستحقه من عباده. وهو العليم بمن يستحق.

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

بعد أن نهى الله تعالى عن موالاته اليهود والنصارى، أمر بموالاته الله تعالى ورسوله ﷺ وموالاته المؤمنين، الذين وصفهم بأفعالهم التي تثبت أيمانهم حقيقة وهي ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَرُونَ ﴾. والإيمان كما بين الرسول ﷺ (ما وقر في القلب وصدقه العمل)^(١) فأفعالهم تدل على إيمانهم، والصلاة علامة الإيمان.

ومن يتول الله ورسوله والمؤمنين فهو لاء هم حزب الله وحزب الله غالب، وحزب الله منتصر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - النهي عن موالاته اليهود درءاً لخطرهم لأنهم أهل الدسائس والمؤمرات والفتن، ولا يستطيعون العيش الأوسط أمة ممزقة، وكذلك كانوا في صدر الإسلام حتى حسمهم ﷺ جلاءً وقتلاً.

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٤٠٤) رقم (٥٢٣٢)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٠٩٨): موضوع، وروي من كلام الحسن البصري.

٢ - الجماعة في الإسلام أصل يدعو الله عباده إليها لما فيها من القوة والتمكين والرفعة. وهم الحزب الإلهي الغالب.

٣ - لا ينصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من توحيد الله والنهج النبوي الكريم.

٤ - من حالف اليهود فقد إرتد كما فعل عبد الله بن أبي ولقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُمْ مِنْهُمْ ﴾.

والآية لم تتحدث عن عقوبة دنيوية لمن إرتد عن الدين وإنما بين ﷺ حكم الردة فقال: (من بدل دينه فأقتلوه) ^(١) وقوله ﷺ (لا يجل دم إمري مسلم إلا بإحدى ثلاث النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة) ^(٢) ويحتج أهل الشبهات بأن القرآن لم يبين حكماً عقابياً في الدنيا للمرتد وعلى الناس الرجوع الى السنة الميينة للقرآن فنحن نأخذ الأحكام من السنة لا من القرآن.

٥ - عقاب الردة القتل فقد قاتل أبو بكر الصديق المرتدين وأعادهم للصف الإسلامي ونفذ عقوبة الردة في إمرة إرتدت والصحابة متوفرون حوله ولم ينكروا ^(٣).

٦ - ونفذ معاذ بن جبل عقوبة الإعدام في يهودي، إرتد باليمن تنفيذاً لوصية ﷺ له (أيما رجل إرتد عن الإسلام فأدعه فإن عاد وإلا فأضرب عنقه وأيما إمرة إرتدت عن الإسلام فأدعها فإن عادت وإلا فأضرب عنقها) ^(٤).

٧ - وفي عصرنا الحديث نفذ جعفر محمد نميري في السودان حكم الردة في محمود محمد طه بعد أن إستتابه فلم يتب.

(١) البخاري حديث رقم ٢٨٥٤.

(٢) البخاري حديث رقم ٦٤٨٤.

(٣) سبل السلام للصنعاني ج٣/٥٠٠.

(٤) سبل السلام للصنعاني ج٣/٥٠٠.

المقطع الخامس عشر: الدين بين المستهزئين والكارهين له:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلِعِبَاءَ مَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلِعِبَاءَ ذَلِكَ بَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ۝٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِيبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ۝٦١﴾ وَرَبِّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّحْتَ لِيَتَسَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْثِلَهُمُ الشَّحْتَ لِيَتَسَّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝٦٣﴾ [المائدة: ٥٧-٦٣].

بعد الحديث عن الردة يأتي الآن الحديث عن الاستهزاء بالدين وشعائره. فالكفار الآن، وأهل الكتاب من يهود ونصارى كلهم مجتمعون على حرب المسلمين، لضعف حكامهم وارتمائهم في أحضان اليهود والنصارى والخوف منهم. فالحجاب المأمورة به المرأة المسلمة موضع سخرية من أمة اليهود والنصارى وشرعت بتحريمه في بلادهم وأمر اليهود والنصارى حكام المسلمين الآن بتغيير منهاج الدراسة الدينية وإبعاد كل آية تحارب اليهود، وتدعو إلى الجهاد، وتكفر أهل الكتاب من منهاج الدراسة كلها أوامر أطيعت من قبل حكام المسلمين وحتى الدراسة التي تقوم على الدين وتحفيظ القرآن محاربة تماماً، وكذلك أوقفوا ما كانت تجمعه الجمعيات الخيرية المسلمة من أموال المسلمين المغتربين وردها على الفقراء والمحتاجين في بلاد المسلمين منعت وجففت منابعها وسُجن القائمون بها حرباً لدين الله.

فالإسلام الآن محارب في بلاد الغرب ومحارب داخل بلاد المسلمين عن طريق بعض ذوي النفوذ. فالولاء مع أهل الكفر قائم بينهم وبين بعض المسلمين حتى أصبحنا الآن نشهد مع بداية القرن الحادي والعشرين الميلادي نشهد أحوط أيام المسلمين، فالسيادة الآن لهم أمراً ونهياً وتشريعاً وتقنياً... وسكوت الحكام عن مخازي أهل الكتاب دفع أهل الكفر إلى الاستهزاء

بشخص رسول الله ﷺ فالدنهارك جرائدها رسمت رسول الله ﷺ في صورة خنزير وصورته على أساس أنه إرهابي واستهزأت برسول الله وقامت المظاهرات في كل مكان مطالبة بمقاطعة الدول التي تسيء إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ولم تستجيب الدول وظلت الإساءات تترى حتى تناول بابا الفاتيكان نفسه على شخص رسول الله ﷺ بالسب والشتم.

هؤلاء هم أهل الكتاب وجدوا الساحة خالية من رادع فتجاوزوا الاستهزاء بالصلاة إلى الاستهزاء بالرسول الكريم والأمة كلها، ﴿ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقد غاب العقل عنهم حقيقة وحسبوا أن نشوة الانتصار الآن، والقدرة التسلحية التي يمتلكونها حسبوها دائمة، وأن المسلمين لن ينهضوا، لكنها الأيام دول، وسيتهي تجبر الطغاة ويأتي النصر للمسلمين بإذن الله ليصبحوا على ما فعلوا نادمين.

روى ابن كثير^(١) بسنده عن عبد الله بن محيريز أخبره - وكان يتيماً في حجر أبي محذورة قال قلت لأبي محذورة - يا عم: إني خارج إلى الشام وأخشى أن أسأل عن تأذنيك فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ في بعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحاكه ونستهزئ به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ: (أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟) فأشار القوم كلهم إليّ وصدقوا فأرسل كلهم وحسني وقال: (قم فأذن) فقامت ولا شيء أكره إليّ من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ فألقى على رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه قال: (قل الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله) ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمرها على وجهه ثم

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦٧/٢.

بين ثدييه ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سررة أبي محذورة. ثم قال له رسول الله ﷺ (بارك الله فيك وبارك عليك) ^(١) فقلت يا رسول الله: مرني بالتأذين بمكة. قال: (قد أمرتكم به) وذهب كل شيء من كراهية لرسول الله ﷺ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ وأخبرني ذلك من أدركت من أهل محمد من أدرك أبا محذورة واسمه (سمرة بن معير بن لوزان) أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة وكان مؤذنه بمكة.

يمضي القرآن في الحديث عن اليهود والنصارى فبعد أن نهى عن موالاتهم، واستهزاء الكفرة والمشركين بالدين وشعائره بيّن في الآيات الآتية أسباب كراهيتهم للمسلمين، وعقاب الله لهم.

الخطاب موجه لرسول الله ﷺ يقول لأهل الكتاب ﴿ هَلْ تَعْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾.

هل غير هذا الإيمان من جانبنا بالله وبالقرآن الذي أنزل الله لهذه الأمة وبالتوراة والإنجيل اللذين أنزلا عليكم، هل غير هذا من سبب لهذه الكراهية البادية منكم لنا. نحن آمننا بالقرآن وصدقنا أنه الحق وأنه نزل من عند الله وأننا نعمل بما فيه نحل حلاله ونحرم حرامه ونهتدي بهديه وأنتم كذبتهم ولم تؤمنوا ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قل لهم يا محمد هل أخبركم بشر عقاب جازى الله به عباده العصاة، شر عقابه ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ وأنتم ملعونون فقد قال الله فيكم ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨] ولعنكم بقوله ﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ ﴾ [سورة المائدة، الآية ١٣].

وقال عنكم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩].

(١) المستدرک: ٢/ ١٩٩.

﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ وأنتم مغضوب عليكم بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المتحنة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسَأْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١].

شر عقاب أصابه (اللعة وهي الطرد من رحمته) وغضبه عليكم ومن غضب عليه الله فقد (هوى) وسقط فلا رفعة ولا حياة. ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ وأنتم مسخكم الله قردة حين اعتديتم في السبت الذي أمرتم بالطاعة فيه فصدتم السمك فيه، وجعلكم خنازير وعبدة للشيطان بالعجل والأصنام والمال، وغير ذلك فأنتم بهذا الذي حل عليكم من الله أنتم في شر منزلة وشر مكان وشر مقام، فأنتم أبغض الخلق إلى الله تعالى وهل بعد ذلك عقاب.

وقال تعالى عنكم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ؕ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ ﴾ [البينة: ٦].

ومن صفات هؤلاء اليهود إلى جانب ذلك النفاق والمخادعة فقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾.

هذه صفاتهم إذا لقوا المؤمنين قابلوهم بالبشر والترحاب الظاهري والقلوب نحو المسلمين تقطر دماً عليهم وحقداً. وكذلك فعل بنو النضير مع رسول الله ﷺ وأصحابه عندما جاءهم ليأخذ دية القتيلين فرحبوا به وأجلسوه وتأمروا على قتله وطلبوا من يلقي عليه حجراً فجاءه الخبر من السماء فقام ثم أجلاهم. وقدموا له الطعام في خبير وهو مسموم.

﴿ وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ لم يكن في قلوبهم إيمان ولكنها عامرة بالكفر فدخلوا عليكم بالكفر وخرجوا به لم يتغيروا ولم يتبدلوا ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ فهم مرصودون من الله وتحت إحاطته.

﴿ وَرَأَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ ﴿١٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيذِيُّونَ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۗ ﴿١٣﴾ ﴾

أكثرهم يسارع في فعل ما يوجب الإثم، كقولهم للرسول ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾ (السام عليك). ويسارعون في شتم المسلمين والتشيب بنسائهم ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ هم معتدون ولا يعتدي عليهم. ويسارعون في أكل كل مال حرام ولا يباليون في ذلك فقد حَرَفُوا التوراة وباعوها وأكلوا ثمنها وحرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس غشاً وخداعاً هذه هي أخلاقهم، وهذه هي حقيقتهم.

أين الربانيون والأجبار علماء اليهود والمؤحدون منهم؟ لم لا ينهاون هؤلاء عن هذه المفسد وعن قولهم الكلام الذي ياثمون فيه؟ وأكل المال بالباطل والمحرم لولا ينهاونهم عن ذلك!! ولكنهم لم يفعلوا فلماذا حلت عليهم اللعنة لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس الصنيع صنعهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١- هناك أهل سعادة أراد الله بهم خيراً فردهم عن طريق الشر الذي ساروا فيه إلى طريق النعمة التي أرادها لهم. فمثال أبي محذورة كمثل عمر بن الخطاب ذهب ليقتل النبي ﷺ، فأخبر أن أخته أسلمت فذهب إليها وضربها ثم أسلم. وحزرة ﷺ أخذته الحمية لابن أخيه رسول الله ﷺ لما آذاه أبو جهل فنتقم لابن أخيه، وأعلن أنه على دينه.

٢- الكراهية قائمة بين من يعصي الله ويطيع الله، وبين اليهود والمشركين من جهة وأهل الإيمان وهي عداوة لا تنتهي حتى تقوم الساعة، ولا بد من تذكر ما جرى بين ابني آدم وقول الله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢].

٣- وقوله عز وجل ﴿هَاتِئِمَّ أَوْلَاءٌ لِّمُؤْمِنَيْكُمْ وَلَا يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامِنًا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ أَلَا تَأْمَلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلُ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٤- الحديث يقول: (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)^(١).

المقطع السادس عشر: سب اليهود للمولى عز وجل:

يتواصل الحديث عن أهل الكتاب وفسادهم. وكرهيتهم للمسلمين، والآن يأتي تطاولهم على الحق بالشتم.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْفِتْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْنَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [المائدة: ٦٤-٦٦].

يخبر الله تعالى: أن اليهود لعنهم الله وصفوه بالبخل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - وقالوا يد الله مغلولة، كناية عن عدم العطاء. فرد الله تعالى عليهم بدعوة أصابهم جميعاً. قال تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (فلا تخرج من بين أيديهم رحمة ولا عطاء، فهم أبخل الناس وأجبنهم في إخراج المال والبذل ﴿ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ بهذا القول القبيح طردهم الله تعالى من رحمته. ثم يبين سبحانه عطاءه فقال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ بل عطاؤه ممتد، ويداه بالإنفاق مبسوطتان ليلاً ونهاراً، ينفق كيف يشاء.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء^(١) الليل والنهار، رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه قال وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الغيض أو الفيض يرفع ويخفض وقال يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك^(٢)).

(١) السح: الصب الكثير. الفيض: النقص.

(٢) البخاري: (٦٩٧٦).

عطاءه لم ينقطع وما في يده لم ينقص منذ خلق السموات والأرض وهو تعالى يأمر بالإنفاق وينهى عن البخل، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]. وينهى عن التقدير والتبذير ويقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

أن إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ نعمة، من أجل النعم يرفع الله به شأن هذه الأمة وشأن حاملي هذا الكتاب منزلة ومقاماً في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(١)، وقال: (إن الله أهلين من الناس)، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)^(٢) فهي خيرية وشرف لحامل القرآن بشهادة الرسول الكريم وقوله هذا القرآن الذي يعرف اليهود قيمته ومنزلته، زاد كثيراً منهم حقداً وحسداً لهذا الرسول ولهذا الأمة، جاوزوا به الحد طغياناً وجاوزوا به الحد كفراً. ﴿وَاللَّيْتَنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاةُ وَالْبَغِضَاءُ﴾.

وكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة، لهذا ألقى بينهم العداوة والبغضاء، فلا تأتلف قلوبهم ولا تجتمع أرواحهم فهم في فرقة وشتات ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤] ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

يبين الله تعالى: أنهم دعاة فتنة وأصحاب كيد ومكر، ومشعلوا الحروب فما دخلوا

(١) البخاري: (٤٧٣٩).

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/١٢٨.

في مجتمع إلا فرقوا أهله ومزقوه، فهم لا يأمنون إلا وسط افتراق الناس وتمزقهم، فعاشوا في المدينة بين الأوس والخزرج وقد مزقوا القبيلتين وباعوا السلاح في هذا الجو وأثروا، فالحروب سوق تجارتهم، وراحة أنفسهم، ومكان أمنهم، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله وأبطل كيدهم، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ هم أسباب الفساد في الأرض هم الذين نشروا تعري النساء وبيع الخمر وموائد القمار، والربا... واللواط وغيرها من الموبقات.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهو سبحانه وتعالى يبغضهم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١- بعد تعديهم على المولى جل وعلا، فلن يتورعوا عن التعدي على مَنْ دونه من الخلق، فلا كبير ولا عظيم عند اليهود.
 - ٢- العالم الإسلامي والعربي مُمزق الآن بفعل اليهود والنصارى، وتعديهم على المسلمين والعرب حكماً وشعباً.
 - ٣- أوصى الله عز وجل هذه الأمة أن تعتصم بكتابه وتجتمع عليه، قال عز وجل: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. بعد محاولة اليهود تمزيق شمل المسلمين في المدينة نزلت هذه الآية.
 - ٤- جهل أهل الكتاب بالدين جعلهم أبغض الناس إلى الله.
 - ٥- تكذيبهم الرسل صفة دائمة فيهم، وهي سبب تعاستهم، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].
- رحمة الله ونعمته مربوطة بتقوى الله وإقامة شرعه فمن فعل ذلك فالغنى والنعمة والرحمة تنزل عليه.

المقطع السابع عشر: لو أنهم آمنوا:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

أهل الكتاب - باعتبار علمهم بهذا الرسول الموصوف في كتبهم، وحدثهم به رسلهم، ورأوه عياناً - هؤلاء مع هذا العلم الوفير عن الرسول والدين والمؤمنين لو آمنوا وخافوا الله واتقوه لكان الخير الذي ينتظرهم جزاء الإيمان والتقوى عظيماً؛ لكفر الله عنهم سيئاتهم - وما أعظمها - ولأدخلهم جنات النعيم، ولكنهم أبوا فحرموا هذا الخير. ولو أنهم - قبل مجيء رسول الله ﷺ - وعندهم التوراة والإنجيل فأقاموها وما تبعها من أحكام منتزلة من عند الله لو أقاموا ونفذوا ما فيها من أوامر ونواهي وأحلوا ما أحلتنا وحرموا ما حرمتنا لأغدق الله عليهم النعمة فبسط رحمته غيثاً يعم الأرض فتنتبت فتخرج الأرض من باطنها من البقول والخير وهو ما تحت أرجلهم، وتثمر حدائقهم الفواكه والثمار، فأكلوا من فوقهم، ولكنهم أجرموا ولم يفعلوا ولو فعلوا لذاقوا من النعم ما لم يكن لهم في حسابان، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خُلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٥].

عن زياد بن ليلى، أنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: (وذلك عند ذهاب العلم) قال: قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقره أبناءنا، وأبناؤنا يقرؤونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: (ثكلتك أمك يا ابن أم ليلى إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يتنفعون بها فيها بشي؟) (١).

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (١٨٤٠٣).

فالتوراة والإنجيل العمل بهما معطل، فلم ينتفعوا بهما، مع هذا في أهل الكتاب أمة ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة وسطية في دينها لا تفريط ولا إفراط بين وبين ولكن الأكثر منهم فاسقون.

المقطع الثامن عشر: عصمة الرسول ﷺ:

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِزِيدَ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّابِقُونَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٧-٦٩].

بعد الحديث عن الاستهزاء بالدين وشتم الله عز وجل يأتي الحديث لرسول الله ﷺ أن يُبَلِّغَ الرسالة مهما وجد في طريقه من إساءات وتجريح. فالنبي والمسلمون عندما هاجروا إلى المدينة ونجوا من كيد كفار قريش بعثت قريشاً تهديداً للمسلمين. أن لن تنجوا منا حتى لو وصلتكم المدينة وكذلك هددوا الأوس والخزرج لأنهم آووا المسلمين. فلهذا كانوا لا يبيتون إلا في السلاح. لهذا روى أن عائشة رضي الله عنها قالت أن رسول الله ﷺ بات ليلة وهي إلى جنبه قالت فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: (ليت رجلاً صالحاً يحرسني الليلة) قال فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال: (من هذا؟) فقال: (أنا سعد بن مالك) فقال: (ما جاء بك؟) قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ^(١).

هذا الدين الذي جاء الكتاب منزلاً به، كل أوامر الله ونواهيه طلب من رسوله أن يبلغها للناس، كل الناس، فإن لم يفعل النبي ﷺ ما أمر به من بلاغ خوفاً من أحد، أو جماعة أو تهاوناً - وحاشاه - فما بَلَّغَ الرسالة ولا أدى ما أمر به، والله يضمن لرسوله ﷺ (العصمة) فلا تمتد إليه

(١) صحيح مسلم: (٢٤١٠).

يد بقتل ولا تمتد إليه يد بضر فهو آمن بحراسة الله له، سالم برعاية الله له، فليمض وقد تحققت العصمة له ﷺ.

حين كان في غزوة ونام تحت شجرة علق عليها سيفه فجاء أعرابي وأخذ السيف وسله ثم أيقظ الرسول ﷺ والسيف مسلط وقال له: (من يعصمك مني؟) قال ﷺ (الله) فوقع السيف من يده وسقط الأعرابي على الأرض مبهوتاً، ونادى رسول الله ﷺ أصحابه وأراهم الأعرابي ساقطاً على الأرض والسيف بجانبه عاجزاً أن يقتل رسول الله ﷺ. تحقيقاً لعصمة الله له.

ووضعت اليهودية له السم في ذراع البهيمة الأيمن في خير، ونجا منه لأن الذراع أخبره أنه مسموم ونجا من محاولة سحر لبيد بن الأعصم له.

إن الله لا يهدي الكافرين الذين لم تقنعهم آيات الله في الكون، والقرآن ليؤمنوا فهم ضالون عنه الطريق ولن يهتدوا إليه.

والرسول ﷺ لو كان كاتماً شيئاً لكتم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ولكتم: ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ولكتم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١-٢].

ولكنه ﷺ بلغ في غير توارٍ ولا حرج، حتى أشهد أمته في حجة الوداع، على أنه بلغ وشهدوا له. قال: (أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون؟) قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: (اللهم هل بلغت) ثلاثة مرات^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (أيها الناس أي يوم هذا؟) قالوا: يوم حرام قال: (أي بلد هذا؟) قالوا: بلد حرام. قال: (وأي شهر هذا؟)

(١) مسلم ١/٣٩٧.

قالوا: شهر حرام، قال: (فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا) ثم أعادها مراراً ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال: (اللهم هل بلغت؟) مراراً. قال يقول ابن عباس والله لو صيبة إلى ربه عز وجل - ثم قال: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)^(١).

وظل كذلك رسول الله ﷺ يؤدي رسالة ربه محروساً من أمته حتى نزل عليه قوله في هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ عند ذلك أخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، وقال لحراسه (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل)^(٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فعلى الرسول البلاغ، أما الهداية فمن الله، والله لا يهدي القوم الذين اختاروا طريق الكفر.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ من أكبر الشواهد والدلائل على قدرة الله تعالى، وصدق الآية في حماية النبي ﷺ، وأن يمشي بين الناس بلا حرس ولا رقيب إلا الله، ولهذا باءت كل محاولات قتله بالفشل، وحماه الله تعالى وهو نائم، وحماه وهو يجاهد، وحماه وهو يدخل دور الأعداء.

٢ - والآية تذكر بحماية الله لإبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا تحرقه، وحمايته لإسماعيل عليه السلام وأبوه يمرر السكين على حلقه فلا تذبح، وكذلك يُنجي الله المؤمنين.

٣ - ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ أي لستم على دين أو على هدى ما لم تنفذوا ما في التوراة والإنجيل والتوراة والإنجيل يأمرانهم بإتباع هذا النبي وهذا الدين ومن لم يتبع فلن يقبل منه دين والله يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾

(١) مسند الإمام أحمد، حديث رقم (٢٠٣٧).

(٢) الترمذي، ج ١٠، حديث رقم (٣٠٤٦).

بعد أن أمر الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة، وبلغ الرسول ﷺ يأمره ربّه أن يقول لأهل الكتاب

بين الله تعالى في آخر سورة النساء كفر من فرق بين الله ورسله واتبع بعضاً وترك بعضاً. فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۗ ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

والآن يخاطب أهل الكتاب الذين كفروا برسول الله وكتابه وأبوا أن يؤمنوا به ويتبعوه، يقول: لستم على دين، ولا على منهج ولا تقولوا أنكم أتباع موسى وعيسى حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم، إقامة التوراة والإنجيل إلتباع ما فيها من وصف لهذا النبي ﷺ وإتباع منهجه وما أنزل عليه من قرآن للهداية، ويؤكد الله أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ، الذي أكرم الله به العرب لغة وأمة، هذا القرآن يزيد أهل الكتاب طغياناً وتكبراً وحقداً على هذه الأمة المصطفاة المختارة، فلن يؤمنوا ولن يستجيبوا، فلا تأس ولا تحزن على من كفر، فهم كافرون.

ويؤكد الله تعالى جزاء من آمن بالله ووحده واتبع الرسول الذي أرسل إليهم، وآمن باليوم الآخر بعثاً بعد الموت، للجزاء، وعمل في هذه الحياة الصالحات من صلاة وصيام وحج وبر للوالدين وغيرها من الصالحات من كل الملل من أمة محمد ﷺ ومن ملة اليهود في عهد نبيها موسى عليه السلام والنصارى في عهد نبيها عيسى عليه السلام والصائين في عهد نبيها، واتبع محمداً ﷺ بعد مجيئه ومنهجه فلا دين بعد ظهور محمد ﷺ إلا الإسلام ومن اتخذ ديناً غير الإسلام لن يقبل منه، هؤلاء الذين آمنوا لا خوف عليهم عند الموت مما هم مقدمون عليه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على من فارقوا من الأهل والأموال والأولاد في الدنيا فالله تعالى وليهم بعدهم وكافلهم.

المقطع التاسع عشر: طبيعة بني إسرائيل

ويحدثنا عن طبيعة بني إسرائيل فيقول: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَبِيرَ مَنَظَرٍ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٠-٧٧].

يحدثنا الله تعالى عن طبيعة بني إسرائيل التي لا تلتزم المواثيق ولا العهود المبرمة معهم والتي أخذها الله تعالى على الاثني عشر نقيباً منهم وغيرهم من الرسل، لم يلتزموا بها ولم يوفوا بما عاهدوا الله عليه، فكلما جاءهم رسول هديهم إلى طريق الحق والنهج القويم مخالفاً ما هم عليه من الالتواء والتحلل وما تهواه أنفسهم، إما قتلوه وإما كذبوه وأغراهم إمهال الله لهم بعدم تعجيل العقاب لهم فعموا، عن طريق الحق فلم يسلكوه وصموا آذانهم عن سماع الحق ولم يصغوا إليه.

وحسب بنو إسرائيل أن إمهال الله لهم أن ليس وراء عقاب فزادوا التهادي في التعامي والتصامم، ولكن الله يمهل ولا يهمل وهم تحت رقابة الله تعالى، ورضده - وهو بصير بما يعملون.

هذا هو الموقف الثاني الذي يعرض فيه كفر من ألّٰهوا عيسى عليه السلام، فقد مر قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ١٧].

بين الله تعالى كفر من قال عيسى إلهاً، وبين قدرته في إهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعاً، فبين أن عيسى عليه السلام لا حول له ولا قوة أمام قدرة الله إن أراد إهلاكه وأمه ومن في الأرض جميعاً، فهم في قبضته وقدرته، والآن يعرض نفس المقالة في كفر من قال أن الله هو المسيح بن مريم، ولكن هنا يقف عيسى عليه السلام مخاطباً مؤلّٰهيه قائلاً: اعبدوا الله ربي وربكم، فهو يعترف بربوبية الله له كما هو ربهم سواء بسواء، فهو مثلهم عبد مملوك لله تعالى، وقال أن تأليهه شرك يدخل صاحبه النار، ولن يجد له يوم القيامة ناصرأ ينجيته من عذاب الله وعقابه.

ثم يبين كفر الله الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجعلوا عيسى وأمه إلهين والثالث هو الله. وسموا الأقانيم الثلاثة هي الإله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. وما من إله إلا إله واحد، فالإله لا يتعدد إنما هو واحد لا شريك له، ويتوعد الله تعالى القائلين بذلك، بالعذاب الأليم أن لم ينتهوا عن هذا الزعم.

هذا تكون السورة قد نفت مقولات بني إسرائيل الثلاثة التي قيلت: فنفت عقيدة التثليث بهذه الآية. ونفت ألّٰهوية عيسى وقال لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح بن مريم. ونفى أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقال: (قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر من خلق).

سبحانه الله الحليم، بعد هذا الشرك والكفر العظيم من النصارى وجعل عيسى إلهاً وثالث ثلاثة وابن الله ويعبدونه من دون الله، يفتح لهم - مع هذا القول - باب التوبة والصفح والمغفرة ليلجوه ويدخلوا منه تائبين مستغفرين، ويبين أنه غفور رحيم، فما أحلم الله وما أرحمه بالعباد.

أفلا يتوبون، وباب التوبة مفتوح قبل أن يولج؟ أفلا يسارعون مستغفرين قبل أن تمضي

الدنيا وتأتي الآخرة، والله تعالى غفور رحيم. فإذا ذهبوا بهذا المعتقد إلى الآخرة فقد خسروا.

قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه رسول مرسل من عند الله ليدعو بني إسرائيل ليعبدوا الله ويوحده، سبقه في هذا الطريق موسى، وداود وسليمان وغيرهم، فهو جاء بعدهم، متمماً لما بدءوا ومجدداً للعهد والدعوة والرسالة، وأمه صديقة... ﴿وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْمَانًا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وصدقت حين قيل لها ﴿فَادْنِيهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ ﴿٢١﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجْمَعُ التَّخْلَةَ تُسْفِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤-٢٦]، وفعلت وخاطب ابنها الناس وهو في المهد، صدقت كل ذلك، ولم تكن إلهاً ولا نبياً ولا رسولاً، لأنها من خصوصيات الرجال.

كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤] فالرجال فضلوا بالنبوة والرسالة والإمامة والتأذين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمُ﴾ [يوسف: ١٠٩] ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

﴿كَأَنَّا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ ومن احتاج للطعام فهو بشر كسائر الخلق يأكل ليعيش فإن نفذ الطعام فقد الحياة، فما هذه صفة الإله، فالله تعالى ﴿يُطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وليس له أم وليس لله أب ومن أكل الطعام أخرجه فكلها صفات تنفي الإلهية عن عيسى وتثبت بشريته.

انظر كيف نبين للنصارى الآيات الدالة على بشرية عيسى وأمه، وأنها ليسا إلهين، ثم انظر كيف ينصرفون عن القول ولا يعيرونه انتباهاً.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦].

يعبد النصراني عيسى وأمه راجين منها النفع والضرر، والنبى ﷺ مأمور أن يسأل النصراني: أتعبدون غير الله راجين منه النفع والضرر وهو لا يملك أن يدفع عنكم الضرر إذا وقع ولا يملك أن يجلب النفع والخير إذا أردتم إلا الله تعالى هو القادر على ذلك يسمع إذا دعوتوه جهراً ويعلم إذا أخفيتم في صدوركم وعيسى وأمه لا يملكان من ذلك شيئاً.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُهُمْ كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

أمر النبى ﷺ أن يقول لأهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم وتبالغوا حتى تتجاوز الحق إلى الباطل بتعظيمكم أمر عيسى حتى أخرجتموه من بشر إلى إله، ورفعتموه فوق ما وضعه الله تعالى فكفرتم بهذا الفعل، وكذلك ما فعله اليهود بعزير فقالوا هو ابن الله... كل ذلك غلو وتجاوز، ولا تتبعوا في ذلك أسلافكم الذين سبقوكم في هذا الطريق ضالين، فضللتم بضلالهم كما ضل أسلافكم بضلال من سبقوهم فخرجتم من الطريق السوي المستقيم. ولهذا كان رسول الله ﷺ يحشى على أمته أن تبالغ بتعظيمه فتخرجه من بشريته إلى الإلوهية فقال في آخر أيام قبل وفاته: (لا تطروني كما أطرت النصراني عيسى بن مريم، إنما عبد فقولوا عبد الله ورسوله)^(١). وقال: (لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ألا لا تتخذوا قبوري وثناً...)^(٢).

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١ - فلا بد من حساب ولا بد من عقاب لكل جريمة، فالله يمهل ولكنه لا يهمل، ليتوب العباد وإلا فالعقاب قائم.
- ٢ - دلائل بشرية عيسى كثيرة، وكونه عبداً لله لم ينكره عيسى عليه السلام، ولكن عقول أهل الكتاب لا تقبل المنطق، وإنما يعيشون على ما ورثوه من آبائهم.

(١) البخاري: (٣٢٦١).

(٢) البخاري: (١٢٦٥).

٣ - الغلو مضر، لقد أراد بعض المسلمين ليزدادوا في العبادة فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: (فإنَّ المُنْبِتَ لا أرضاً قطع ولا ظهرأً أبقى)^(١).

٤ - ومن غلو أهل الكتاب الحرية المفرطة، في السلوك والأخلاق والعلاقات، فأفسدوا المجتمعات التي يعيشون فيها، والحرية عندهم لا حدود لها، حتى أنهم يدخلون في حدود الآخرين فيسيئون إليهم ويعتدون على مقدسات غيرهم.

المقطع العشرون: لعنة الأنبياء على الكفرة من بني إسرائيل:

لم تجد الأقوال لتمنع بني إسرائيل عن التعدي على حدود الله والشرك، فجاء الجزاء لعنة الأنبياء عليهم

فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٧٨-٨١].

الكفرة من بين إسرائيل من قديم عرفوا بالعصيان والتعدي على الآخرين، فمعصيتهم لله كثيرة، عددها الله تعالى في هذا الكتاب، وكذلك تعديهم على الله بالشتم والسب، وعلى الأنبياء والملائكة، وعلى مريم وابنها، وعلى كل صالح وخير، وعصيانهم أوامر الله تعالى وأوامر رسلهم بدءاً من موسى وهارون حتى كادوا أن يقتلوا هارون عندما نهاهم عن عبادة العجل في غياب أخيه النبي موسى ﷺ. فقال هارون لموسى ﴿قَالَ ابْنُ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] لهذا ظل العناد

(١) سنن البيهقي حديث رقم ٤٥٢٠.

والعصيان والتعدي خلتهم الذي جبلوا عليها، فتخلى عنهم موسى عليه السلام وقال لربه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَأَ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٥)

[المائدة: ٢٥]، وكادوا أن يقتلوا عيسى عليه السلام فرفعه الله، ولهذا لعنهم داود عليه السلام ولعنهم عيسى من بعده.

وبنو إسرائيل يرون من يستحل محارم الله، وينتهك الحرمات، ويعيث في الأرض الفساد فلا ينهاون عن ذلك، بل يجالسون من يفعل ذلك ولا يستحيون، فلهذا لعنهم الله.

قال رسول الله ﷺ قال: (أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)^(١).

وعندهم مع أهل الكفر والفسق، التقاء في التفلت والانحلال والعصيان، ولهذا يتولى بنو إسرائيل كل فاسق وكافر ومجرم، يعينونه ويناصرونه. بهذا الفعل سخط الله عليهم وغضب، فعاشوا في عذاب النفس في الدنيا وأعد لهم في الآخرة العذاب الأليم السرمدي.

فلذلك أمرنا رسول الله ﷺ ألا نكون كبنو إسرائيل فقال:-

(والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)^(٢).

وقال: (من رأى منكم منكراً ليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيذان)^(٣).

ولو كان بنو إسرائيل مؤمنين بالله موحدين له، وبالنبي ورسالته والقرآن المنزل على هذا

(١) سنن أبي داود، ج١٢/٤٧٤.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥١/٢٤.

(٣) مسلم، ج١/٦٩.

النبي، والذي هو مصدق لما معهم، ما اتخذوا الكافرين والفسقة أولياء من دون المؤمنين. ولكن كثيراً من بني إسرائيل فاسقين خارجين عن طاعة الله وعصاة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص :

١ - هكذا عجز أنبياء بني إسرائيل عن التعايش معهم وعن هدايتهم، فموسى عليه السلام سأل الله أن يفرق بينه وبين بني إسرائيل، ولعنهم داود وعيسى عليهما السلام.

٢ - مسخهم الله تعالى قردةً وخنازير.

٣ - قطعهم الله تعالى في الأرض، وحرهم نعمة الوطن والانتساب إليه، فلذا انتزعوا فلسطين من أهلها في محاولةٍ لإيجاد وطنٍ لهم، والله وعد أن ترجع فلسطين إلى أهلها.

٤ - توعد الله تعالى بني إسرائيل بأن يسلب عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة، وآخر من عذبهم (هتلر).

المقطع الحادي والعشرون : من يواد ويعادي أهل الإيمان :

بعد أن بين الله تعالى من لعن اليهود من الأنبياء بين الله تعالى في الآيات الآتية من يواد ويعادي المؤمنين وجزاء كل قال: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبِعْهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ [المائدة: ٨٢-٨٦].

سبب النزول:

روى القرطبي بسنده عن عروة بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه، وروى الطبراني عن ابن عباس نحوه^(١).

يكشف الله تعالى لهذه الأمة حقيقة ما في قلوب اليهود والمشركين من عداوة وبغضاء لأهل الإيمان من هذه الأمة، اليهود يبغضون هذا الدين وهذا النبي الكريم وهذه الأمة بغضاً شديداً. يقول صاحب كتاب الرحيق المختوم:

(عندما قدم النبي ﷺ مهاجراً إلى قباء ذهب إلى لقائه ورؤيته حيي بن أخطب زعيم بني النضير وأخوه أبو ياسر، فلما رأياه وعادا في المساء إلى المدينة تقول السيدة صفية أم المؤمنين قاصة هذه القصة: لما قدما في المساء قال عمي أبو ياسر لأبي حيي ... أهو هو؟؟ يعني أهو النبي الموصوف في كتبنا؟ قال حيي لأخيه: نعم هو هو ... قال أبو ياسر لحيي بن أخطب: فما موقفك منه؟ قال حيي: عداوته ما حييت!! وصدق الخبيث فقد ظل من تلك اللحظة عدواً للإسلام وللمسلمين ولرسول الله ﷺ، وهو الذي كان يدير العداوة ويؤلب الخصوم ويشعل نار الفتنة، كان يصل قريشاً محرصاً على القتال. وهو الذي جاء بعشرة آلاف مقاتل من كل القبائل العربية وقريش، ومجموعة اليهود الذين أجلاهم النبي ﷺ بعد غزوتي بدر وأحد ... وأجبر قبيلة قريظة بنقض عهدها مع النبي ﷺ والدخول مع الجيوش لاجتثاث الإسلام حتى أقنعهم في نقض عهدهم مع النبي ﷺ والمسلمين، ولما انتهت غزوة الأحزاب بنصر الله للمسلمين وحوصرت بنو قريظة قبض حيي معهم. وحوكم بالقتل، وفي طريقه لقطع رأسه مر برسول الله ﷺ وقال: والله ما لمت نفسي في عداوتك أبداً. ولكن من يغلب الله يغلب، لا بأس قضاء كتبه الله على بني إسرائيل، ثم قتل^(٢)!!

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧٢/١١.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم: ٢٩١.

هذه هي العداوة في اليهود. أما عداوة المشركين فيكفي قول أبي لهب لابن أخيه رسول الله ﷺ على الصفا والدعوة في بداية الجهر بها (تباً لك ألهذا جمعتنا؟).

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةَ الَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ والآية تبين أن في النصارى أتباع عيسى والذين هم على منهجه بأنه عبد الله ورسوله رقة ومودة لأهل الإسلام، وخير مثال لذلك ما قاله النبي ﷺ للمسلمين عندما اشتد عليهم أذى مشركي قريش (إن بالحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد. فلو هاجرتم إلى الحبشة)^(١) شهادة من رسول الله ﷺ للنجاشي الذي كان نصرانياً حين هاجر المسلمون إلى أرضه وحماهم من مشركي قريش ووجدوا عنده وفي أرضه الأمن والأمانة وعاشوا في أرضه سنوات وأسلم هو أخيراً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يشهد الله لهم بأن القسيسين لا يتكبرون، وإنما من شيمتهم التواضع وكذلك رهبانهم وهم العباد.

وهذا الذي قاله الله تعالى عن هذه الفئات هو القائم الآن. فاليهود لا تحب الأرض الآن من الدماء التي يريقونها من المسلمين، وكذلك بقية المشركين من الطوائف التي تدعي الإسلام نفاقاً وتؤذي المسلمين. والنصارى الآن طوائف فبعضها يدعي أن عيسى عبد الله ورسوله وهم الأقرب للمسلمين مودة ومعاشرة، وبعضهم من قال المسيح ابن الله ومن قال ثالث ثلاثة ومن هو الله، أولئك الآن أشد عداوة للإسلام والمسلمين.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٢)

هذا موقفهم إذا سمعوا القرآن، أحدث فيهم تأثيراً فذرفت منه أعينهم دموعاً بكاءً من حلاوة ما سمعوا وصدق ما قال الله ونطقوا داعين الله وقائلين ربنا آمنا فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. ويقولون: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ

(١) انظر مختصر السيرة، ص ٦٢، والرحيق المختوم، ص ٨١.

الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ما لنا لا نُؤْمِن والشواهد والأدلة حاضرة، والبراهين شاخصة في السموات والأرض دالة على الله ووحديته وشاهدة قدرته، وما لنا لا نُؤْمِن بهذا القرآن الحق والناطق بالحق، ونطمع ونتعشم أن يدخلنا ربنا مع الصالحين - جازاهم الله تعالى على هذا القول الطيب، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وهذا الجزاء هو جزاء المحسنين، المحسنين العمل والمحسنين القول والمحسنين الإيمان ﴿ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾.

وأما الذين كفروا ولم يؤمنوا، وكذبوا بآيات القرآن والآيات الكونية أولئك أصحاب الجحيم.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١ - ليس اليهود كلهم شر ولا النصارى كلهم شر. ففي بعضهم خير، رغم اختلاف العقيدة والتوجه، والله تعالى يقول: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ولوجود هذه الفئة جاز مصاهرتهم ومعاشرتهم.
- ٢ - الله تعالى يقول: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِمْ قَائِمًا ﴾ [آل عمران: ٧٥].

المقطع الثاني والعشرون: النهي عن الغلوف في الدين:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

أسباب النزول:

روى ابن جرير بسنده^(١) عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في رهط من الصحابة منهم عثمان ابن مظعون قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا: نعم فقال ﷺ: (لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء. فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني)^(٢).

هذه الآيات تتحدث عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ حين جاءوا إلى السيدة عائشة وسألوا عن عبادة رسول الله ﷺ، فتقالوا ما يعملون فقررروا أن يزيدوا في العبادة.

والرفعة في الدين ليس بكثرة العبادة وإنما بالإخلاص فيها فالمولى عز وجل يقول ﴿يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فلنحسن العمل ولتجوده ففيه الخير. ودخل الجنة قوم بعمل قليل، وقلب خال من الأحقاد.

فرجعوا عما أرادوا، وتركوا الغلوف في الدين والتشدد فيه.

وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. لا تحرموا الطيبات مما يؤكل أو يشرب أو يلبس أو ينكح طالما كانت من الطيبات ومما أحل الله تعالى، ولا تعتدوا على ما أحل الله فتحرموه فتؤثموا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يبغضهم، ولا يجبهم. ومن حرم على نفسه

(١) تفسير الطبري ١٠/٥١٨.

(٢) البخاري: (٤٧٧٦).

شيئاً من ذلك فليرجع عنه ولا كفارة عليه عند كثير من العلماء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَرَكُمْ مِنْ مَوْتِكُمْ﴾.

اتقوا الله وخافوه، فالتقوى أعظم زاد وأرفع منزلة عند الله تعالى اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، بها ترفعوا وليس بزيادة العبادة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله المسلمين عن الغلو في الدين، وهذه الآية خير شاهد على ذلك وأمرنا أن نكلف من العمل ما نستطيع.

٢ - نهى رسول الله ﷺ عن الغلو فقال: (إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فإنّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)^(١).

٣ - قال ﷺ: (القصد القصد تبلغوا)^(٢).

٤ - وقال ﷺ: (إنّ من بعدي من أمّتي قوم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حلاقيمتهم، يخرجون من الدّين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه، هم شرّ الخلق والخليقة)^(٣).

(١) سنن البيهقي الكبرى ٤٥٢٠

(٢) نظم الدرر: ٤٥٤/٢.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٨.

المقطع الثالث والعشرون: اليمين وكفارتها:

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ، إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [المائدة: ٨٩].

اللغو: الكلام الذي لا عزيمة عليه ولا نية فيه. فهذا لا يؤاخذ ولا يحاسب الله قائله، فوالله لتأكلن والله لتركين والله لتفعلن كذا هذا لا حساب عليه عند الله تعالى ولكن اليمين المنعقدة التي فيها تأكيد الفعل والجد بما قال، هذا ما يحاسب الله عليه خاصة وأنه مرتبط بآخرين، أصبح الوفاء بها واجبا وأن نكث فمحاسب ولهذا رتب العقوبات (إطعام عشرة مساكين من أوسط من تطعمون أهليكم من طعام ما عليه عامة أهل البلد، وعامة ما يأكل الناس وجبة واحدة لكل، أو يجمعهم على إناء واحد وهم عشرة) أو ﴿كَسَوْتُهُمْ﴾ ما يستر العورة، يكفي القميص، ويكفي السروال وتكفي العمامة عند العلماء، ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ والرقبة المملوكة الآن موجودة في بعض البلاد كموريتانيا، ولكنه ملك محرم دولياً وغير معترف به. فحقوق الإنسان والمنظمات العالمية ترفض ذلك ولا تقره، والإسلام نفسه لا يقره ولقد وجده وحل المجتمع منه لأنه من أمور الجاهلية.

وأخيراً إن لم يجد ما يطعم به المساكين أو يكسوهم به أو يشتري به الرقبة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

وفي الإطعام والكسوة وتحرير الرقبة نفع للمسلمين فهو الخير فإن لم يجد ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ متابعات في أغلب أقوال العلماء، ﴿ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ﴾ الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة والصيام كفارة أيانكم، لا كفارة لها إلا بذلك ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ فلا تحلفوا، وإن حلفتهم فاحفظوها بالكفارة. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هكذا بين الله تعالى تفاصيل هذه الكفارات رحمة بهذه الأمة لعلها تشكر ربها على هذا الفيض من النعم

والعناية والتخفيف، يرفع عن كاهلها ثقل الذنوب والمعاصي لتعود إليه خالية من كل ذنب. هذا حكم الأيوان وكفاراتها

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

(١) من نعم الله على العباد أن جعل الكفارات لبعض المعاصي تعود على فقراء المسلمين بالخير إ طعاماً وكساءً وفيها مخرج للمسلمين للتحلل من أيانهم، فكفارة اليمين إ طعام للمساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، كله يعود على المسلمين بالخير.

(٢) الكفارات مرتبة تبدأ بالإطعام ثم الكسوة ثم تحرير الرقبة ثم الصيام.

المقطع الرابع والعشرون: خمس محرّمات:

والآن مع القرآن تشريع جديد وحكم جديد للخمر والميسر والأنصاب والأزلام والصيد، وتميماً لما سبق من تحريم حكم السرقة والحراة والزنا.

بعد اليمين التي يكفر عنها صاحبها يدخل فيها هو أشد تحريماً وأكثر ضرراً، ويحرم الخمر والاعتداء على قتل الصيد وهم حُرْمٌ وبيّن ما أحل لهم

فيقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا كُنْتُمْ تَكْفُرًا إِنَّمَا نَحْنُ بِمُنْعِكُمْ لِئَلَّا تُفْسَدُوا بِهِ سُلُوكِكُمْ وَتَذَكَّرُوا بِهِ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامَ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْقُصِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٥﴾

أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ تُحْشِرُونَ ﴿٩٦﴾ [المائدة: ٩٠-٩٦].

ذكر الله تعالى في هذه الآيات أربع مفاصد من مفاصد الجاهلية أراد الله لهذه الأمة أن تتخلص منها في الإسلام الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

وبدأ بالخمر، وفي هذه الآية تحريمها الأبدي بعد أن تركها الإسلام مباحة منذ بدء الرسالة إلى ما بعد الهجرة بسنوات، وسبق تحريمها النهائي تضيق في كميتها وزمان شربها. وبدأ الحديث عن الخمر بقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] دعت الآية الناس للتوازن بين الإثم الكبير والمنفعة ولم يجرمها، ثم صلوا وهم سكارى وقرؤوا القرآن في الصلاة قراءة خاطئة، فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. فضيقت أوقات الشرب وكمية المشروب، إذ أن يبين الظهر والعصر لا يستطيع أن يشرب وإلا أتاها وهو سكران، وكذلك لا يستطيع أن يشرب بين العصر والمغرب لضيق الوقت، ولا يستطيع أن يشرب بين المغرب والعشاء، ولا بعد العشاء لأنه إن شرب ونام بما شرب قام كما نام سكراناً، فلذا كان عليه أن يقلل إن أراد أن يشرب وينام، والوقت الذي فيه فسحة بين الصلاتين هو بعد الفجر إلى الظهر وهو وقت المعاش والكسب، ولذا إذا شرب يقلل حتى يستطيع الكسب ويعيش أولاده. ثم جاء التحريم أخيراً وقد سبقته تلك الضوابط فأمكن أن يتخلوا عن الخمر. وعندما جاء وفد عبد القيس في العام العاشر مباحياً. طلبوا أن يسمح لهم رسول الله ﷺ بقليل من الخمر يشربونه فأبى، وحرّم عليهم حتى الأواني التي يصنعون فيها الخمر فقال: (وأنهاكم عن الدّباء، والحتتم والنقير والمزفت) والمراد لا ينبذ في هذه الأواني الأربعة^(١).

والميسر القمار. كسبه يورث الحقد بين الغالب والمغلوب وكثيراً ما أدى إلى القتل فلذا نهوا

(١) البخاري: (٥٣).

عن الخمر والميسر.

وأضاف إليها العلماء (النرد) وهو الطاولة لما ورد فيه من أحاديث موقوفة فحرمه العلماء وإن كان في الأحاديث ضعف، قياساً على الميسر.

والأنصاب هي الحجارة الموضوعة حول الكعبة والتي كانوا يذبحون عندها تعظيماً للآلهة ولا يذكرون الله على ما يذبحون. والذبح عندها عبادة وقربى للآلهة، ويلطخون الأصنام بدم الذبائح ويشرون اللحم عليها. فنهوا عن ذلك.

والأزلام ثلاثة قداح مكتوب فيها (افعل) (ولا تفعل) وآخر لا كتابة عليه فمن أراد السفر أو الزواج أو البيع أو الشراء استخدم الأزلام، فادخل يده في الكيس الموضوعة فيه هذه القداح فيخرج واحداً فإن كان الذي خرج (افعل) إذا أراد سفرًا سافر وإذا أراد بيعاً باع وإذا أراد شراءً اشترى لأن الآلهة أمرته بذلك أما إذا خرج قداح (لا تفعل) ترك ذلك كله. وإذا خرج القداح الذي لا كتابة عليه أعاد من جديد حتى يخرج قدح (افعل) أو (لا تفعل). وبالأزلام يعرفون نسب من شكوا في نسبه، وهي كشف للغيب بغير دليل فنهوا عنه.

فالخمر مضيعة للصحة والمال والوقت والدين والأخلاق، ومبعدة عن طاعة الله وفي الآخرة صاحبها في تعاسة وشقاء من ذلك: أن صاحبها والمدمن عليها لا يدخل الجنة لقوله ﷺ (لا يدخل الجنة مئان ولا عاق ولا مدمن خمر)^(١).

وصاحبها ملعون: لقوله ﷺ (لعنت الخمر على عشرة وجوه لعنت الخمر بعينها، وشاربها وساقبها، وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها)^(٢). وإذا أسكر الكثير فالقليل حرام (وكل مسكر حرام)^(٣).

(١) سنن النسائي: (٥٦٧٢).

(٢) ابن ماجه: (٣٣٨١).

(٣) مسند الإمام أحمد: (٢٦٢٠).

ذكر المولى عزّ وجلّ هذه الأربعة من مفاسد الجاهلية أمراً بتركها وسماها ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وقال ابن عباس رضي الله عنهما الرجس (سخط من عمل الشيطان) وقال زيد بن أسلم الرجس (شر من عمل الشيطان)^(١) وأمرنا تعالى باجتنابه وقال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وفي ترك الرجس وهو الشر أو السخط في تركه طاعة لله تعالى واجتناب لما أمر به الشيطان، والشيطان إنما يريد أن يوقع الفتنة بين المسلمين بشرب الخمر ولعب الميسر فإن الأصدقاء يظلمون على خير حال، حتى يجتمعوا على شرب الخمر فتتفصم عرى المودة والمحبة بينهم وينتهي الأمر بهم إلى عداوة وخصومة وقتل، وكذلك إذا لعبوا الميسر فإن قلب المغلوب يمتلى حقدًا على الغالب وربما قتله.

والقرآن يبين بعد هذا التحريم العلة في ذلك:

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر. فالعداوة والبغضاء في الخمر والميسر أول ما يحدث بين الإخوان والأصدقاء والجالسين للشراب ولموائد القمار، فإذا شربوا خفت عقولهم وأساءوا القول وتعادوا وقد يقتل بعضهم بعضاً، أما إذا لعبوا الميسر فلا بد من نهاية أليمة لهذا الغلب.

فالعداوة والبغضاء أول ما يجنيه شارب الخمر ولاعب الميسر والإغراء بشرب الخمر ولعب الميسر من الشيطان للصد عن سبيل الله وذكر الله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ^(١٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ^(١٣) ﴿ [المائدة: ٩١-٩٣].

والآية تتحدث عن الذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا وهم سكارى، وهي في

(١) تفسير القرآن العظيم: ٨٧/٢.

بطونهم وماتوا وقد أكلوا ثمنها، وكذلك أكلوا مال الميسر ما حكمهم؟ سألوا ذلك النبي ﷺ فجاء الجواب من الله تعالى يبين أنه لا جناح عليهم ولا إثم ولا حرج طالما كانوا مؤمنين أتقياء، وعملوا الصالحات من صلاة وصيام وغيرها ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين، فلا جناح ولا إثم في ذلك لأنه كان قبل التحريم، وتمضي الآيات بعد هذا في ابتلاء الله لعباده ليعلم - علم الواقع من يخافه بالغيب.

في بداية السورة جاء الحديث عن الصيد فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١].

فأمرهم ألا يستحلوا الصيد وهم محرمون. ثم قال: وإذا حللتم فاصطادوا - في غير الحرم. وأمرهم بذكر الله عند إرسال ما يصطادون به من كلاب أو صقور أو غيرها، فإن أمسكن عليهم أكلوا وإن أمسك الحيوان لنفسه وأكل فلا يأكلون منه.

والآن:

يبين الله للمؤمنين أنه سيبتليهم بشيء من الصيد بعضه من الصغار الذي يستطيع الإنسان أن يقبضه بيده وبعضه من الكبار الذي يحتاج للرماح لصيده وأمرهم ألا يعتدوا على النوعين لا باليد ولا بالرماح. وألاً يصيدوا، وأراد المولى بهذا الابتلاء أن يعلم علم الواقع من يطع الله ورسوله فلا يتعرض للصيد ممن يعتدي، فمن اعتدى بعد النهي وصاد فله عذاب.

ثم نهاهم عن قتل الصيد وهم حرم فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [سورة المائدة، الآية ٩٥].

واختلف العلماء في مَنْ قتل ناسياً، ومن قتل متعمداً، وأورد ابن كثير أن جمهور العلماء قالوا إن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء، ولكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم^(١).

فمن قتل متعمداً فحسابه - كما عليه جمهور العلماء - الجزاء من مثل ما قتل المحرم إذا كان

(١) الدر المنثور في التاويل بالمأثور ٩٣/٣.

له مثل من الحيوان الأنسي. وحكم الصحابة في النعامة ببدنه، وفي بقرة الوحشي ببقرة، وفي الغزال بعنز ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يحكم بهذا الحكم اثنان عدلان من المسلمين واخرج ابن أبي حاتم بسنده أن أعرابياً جاء لأبي بكر الصديق ﷺ، فقال: قتلت صيداً وأنا محرم فما ترى عليّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر ﷺ لأبي بن كعب وهو جالس عنده، ما ترى فيها؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك فإذا أنت تسأل غيرك!! فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلْتُمِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به^(١).

وروى الطبري عن ابن جرير البجلي قال: أصبت ظيباً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر فقال: إئت رجلين من إخوانك فليحكما عليك فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما عليّ بتيس أعفر.^(٢)

وروى الطبري بسنده عن وكيع أن (أوطأ أريد ظيباً فقتله وهو محرم فأتى عمر ليحكم عليه فقال عمر: أحكم معي فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ثم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) وهذا فيه جواز أن القاتل أحد الحكمين^(٣).

مع هذا أحل رسول الله ﷺ جواز قتل خمس سماهن من الفواسق. فيما روته عنه عائشة رضي الله عنها: (خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب والفأرة والكلب العقور)^(٤).

وشبهوا الذئب بالكلب العقور فإنه يقتل:

واختلفوا في قتل الغراب وقسموه إلى ثلاثة أنواع (الأبغ) وهو الذي يخالط سواده بياض.

(١) ابن أبي حاتم ٩٣/٥.

(٢) تفسير الطبري ٤٧/١٠.

(٣) تفسير الطبري ٢٥/١٠.

(٤) تفسير الالوسي ١٣٣/٥.

و(الأدرع) الأسود الكامل السواد (والأعصم) وهو الأبيض لما رواه النسائي عن عائشة رضي الله عنها، (أن رسول الله ﷺ قال: (خمس يقتلن في الحل والحرم الحية والفأرة والحدأة والغراب ألابقع والكلب العقور)^(١).

وفي رواية (ويرمي الغراب ولا يقتله)^(٢).

(هدايا بالغ الكعبة) أن يدفع هدياً يصل الحرم فيذبح هناك ويفرق لحمه على المساكين - ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ إذا لم يجد المحرم مثل الذي قتله من النعم جاء التخيير في الجزاء بين الأ طعام والصيام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد أي من قتل ظيباً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل إيلاً أو نحوه فعليه بقرة، فإن لم يجدها، أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حمار وحشي فعليه بدنة من الإبل فإن لم يجد، أطعم ثلاثين مسكيناً فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً^(٣). ويحرم عليه أكل ما قتل.

﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ من أعمال الجاهلية.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

ومن عاد فقتل في الإسلام فينتقم الله منه مع الكفارة، وقال ابن عباس من قتل وحكم عليه، وعاد فقتل لا يحكم عليه، بل يترك لينتقم الله منه.

هذه أحكام الصيد، جعلها الله ابتلاء وقع للصحابة في صلح الحديبية كان الصيد يحوم وسطهم ونجحوا في الامتحان به فلم يتعرضوا له. والآن بعد التحريم بين ما أحله لعباده.

(١) البخاري: (٣١٣٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: ١١٢٨١/٢٣.

(٣) سنن البيهقي ٩٦٨١.

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِلنَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة: ٩٦].

أحل الله تعالى هذه الآية نوعين من صيد البحر، ما صدتموه، وما قذفه البحر فمات كلاهما حل لكم. أحل الله تعالى صيد ما في البحر طعاماً طرياً تأكلونه وأحله لكم يابساً، وقيل طعامه: (ما قذفه). قال ﷺ: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته)^(١) فما قذفه فهو حل. ويابساً ما كان ميتاً متاعاً لكم مقيمين ومسافرين ﴿ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تذكير بأمر الآخرة والحشر والجزاء ﴿ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ حرم عليكم أن تصطادوا وأنتم حرم... أما إن اصطاده غيركم من غير إشارة منكم أو طلبه أو أعتتم عليه فهو حلال لقوله ﷺ (صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم)^(٢).

روى أبو قتادة أنه صاد حماراً وحشياً وكان حلالاً غير محرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا في أكله ثم سألو رسول الله ﷺ فقال (هل كان منكم من أشار إليها وأعان على قتلها؟) قالوا: لا قال: (فكلوا) وأكل منها رسول الله ﷺ^(٣).

هكذا تبين أمر الصيد: فهو حلال لكم وأنتم حرم ما لم تصيدوه بأنفسهم، أو تشيروا لمن يصيده لكم، أو يعن على صيده، ومن صاد حكم عليه بمثل ما صاد من الحيوان الأنسي ولا يأكل مما صاد. هذه أرزاق أحلها الله تعالى للمحرم ما لم يصدها - وما دام في ظل الإحرام والكعبة والأشهر الحرم - فالله تعالى يرينا رحمته بسكان الحرم.

(١) مسند الإمام أحمد: ٣٤٩/١٤.

(٢) أبو داود: (١٨٥١).

(٣) ابن أبي شيبة: ١٢٢/١.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

- ١ - لعن رسول الله ﷺ بالخمر عشراً: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقها، وبائعها، وآكل ثمنها، والمشتري لها، والمشتراة له^(١).
- ٢ - الأزلام نوع من الكهانة وهو كشف للغيب الذي لا يعلمه إلا الله، والجاهلية استخدمت أنواعاً لكشف الغيب: كالتنجيم والعرافة والفتجان وقراءة الكف، ففقد نهى عنها رسول الله ﷺ فقال: (من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)^(٢). جعل رسول الله ﷺ الإستخارة في الأمور مكان الكهانة التي أبطلها الإسلام.
- ٣ - ذهب الأنصاب وحل محلها ما نواه الذابح، فإن كان ما قدمه للذبح لله حل أكله، وإن كان غير ذلك فقد حرم.
- ٤ - المحرم محكوم بضوابط الإحرام ألا يصطاد وهو محرم ومن فعل ذلك حكم عليه ومن صاد فلا يحاكم إنها يترك لو عيد الله.

المقطع الخامس والعشرون: من نعم الله على العباد:

جاء هذا المقطع مواصلة لما تم في المقطع السابق من تحريم الصيد للمحرم وعقابه إن صاد، ثم أحل لنا صيد البحر، وتلك أرزاق، والآن فتح أبواب رزقٍ أخرى للعباد

فقال تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْبَأْسَ وَالْأَلْبَنِي لَمَلَكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المائدة ٩٧-١٠٠].

(١) الترمذي: (١٢١٦).

(٢) مسند الإمام أحمد: (٩١٧١).

بيّن الله تعالى: أنه جعل الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد جعلها تعالى مصادر رزق للعباد، فالحاج والمعتمر القاصد بيت الله تعالى وحرمه في إقامته بمكة صرف يصرفه على إقامته وأكله وشربه وبيعه وشرائه وفي كل هذا رزق لأهل مكة وللعاملين في الكعبة من سدنتها وخادميها ومديريها. وكذلك في الشهر الحرام الذي يقدم فيه الناس للحج والعمرة فيه أرزاق ونعم لأهل مكة وللمقيمين بها ببيع الهدي والقلائد وللذين يذبحون ويطبخون وفي كل عمل يقوم به أهل مكة رزق ومعاش لهم - رحمة منه بهم فهو يعلم حاجتهم فيكفيهم.

ذلك لتعلموا أن الله تعالى لا تحفى عليه صغيرة ولا كبيرة من أمر هذا الكون ﴿ذَلِكَ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩٨)

الله تعالى يقول أنه شديد العقاب لمن خالف أمره، مَنْ سرق وظلم وأفسد في الحرم واعتدى في الشهر الحرام والهدي القلائد فعقاب الله شديد لمن قصد الإفساد. ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وأن الله غفور رحيم لمن فعل شيئاً لم يقصده فعفو الله حاضر ومعرفته كذلك.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ﴾ فالرسول مأمور أن يبلغكم رسالة الله تعالى فإن فعل فقد أدى ما عليه وعليكم ما حملتم وإثم ما فعلتم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.
يعلم ما أبديتم من قول وفعل ويعلم ما أخفيتم.

ويتنقل القرآن - بعد أن بين أنه جعل الكعبة وغيرها قياماً للناس، ليبين الفرق بين الخبيث والطيب من الأرزاق، والأفعال والأقوال.

أمر الله تعالى رسوله أن يبلغ العباد، أن الخبيث كالمحرم من الأموال والأطعمة والمشروبات والملبوسات محرمة لخبثها فهي لا تستوي مع الطيب الحلال المباح. ولو كان الخبيث كثيراً والطيب قليلاً، فالقليل الحلال خير من الكثير الحرام وفي الحديث (ما قل وكفى خير مما كثر وأهمل).

وكما قال ﷺ ﴿ قَلِيلٌ تُوْدِي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تَطْبِقُهُ ﴾ ﴿ فَأَتَقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ اتقوا وخافوه يا أصحاب العقول الذين يفقهون قول الله ويتدبرونه ويعملون به ويوازنون بين الخيِّث والطيب فيميلون إلى ما فيه نفع الآخرة والدنيا ويتركون ما فيه خبث يفسد الدنيا والآخرة على السواء، اتقوه لعلكم بالتقوى تصلوا إلى الفلاح ودخول الجنة.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - من الخبائث التي يارسها المسلمون اليوم: السجائر والقات والتبغ، وهي إن لم تُحرَّم صراحةً فإنَّها مستقدرة؛ لما ثبت أن لها علاقةً بأمراض السرطان، وأنها تُؤذي من لم يستعملها برائحتها ومنظرها وضياع الوقت فيها.

٢ - القليل الحلال خير من الكثير الحرام. والنفوس تميل إلى الكثير من الأموال والمقتنيات، ولكن كما قال رسول الله ﷺ (ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى عن النفس)^(١).

٣ - والكثرة ليست هي الغالبة وليست هي الأفضل وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

المقطع السادس والعشرون: تحريم السؤال عن ما يضر:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن بُدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن سَأَلْتُمُوهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْءَانُ بُدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ءأُولُو كَأَن ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنبِتِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٥].

وتنتقل الآية تميمًا للحديث عن الخيِّث والطيب إلى السؤال الملحَّ على الرسول ﷺ،

(١) البخاري: (٦٤٤٦).

والذي هو من الخبائث، والمكروه عند الله تعالى، كما كُرِهت مناجاته ﷺ إلا بصدقة، ثم رفعت الصدقة.

والإكثار من السؤال لرسول الله ﷺ هو الذي جعل القرآن يضع حداً لذلك وواضح أنه أغضب النبي ﷺ. فلذلك نهى الله تعالى عباده أن يسألوا عن أشياء ان أجيبوا عنها وعرفوها ساءهم ذلك وأضر بهم، وقد كان بعضهم يسأل النبي ﷺ استهزاء فيقول أين ناقتي؟ من أبي؟ وأكثروا عليه فأغضب النبي ﷺ فصعد يوماً المنبر وقال (لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيته لكم) فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ وخافوا أن يكون لأمر ما قد وقع. فقام رجل فقال: (من أبي؟) فقال النبي ﷺ (أبوك حذافة) وكان الرجل يدعى لغير أبيه. فأثبت نسبه، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، أعوذ بالله من شر الفتن، قال رسول الله ﷺ (ما رأيت في الخير والشر كالיום قط صوّرت لي الجنة والنار حتى رأيتها دون الحائط)^(١).

إن الإلحاح على النبي ﷺ بالأسئلة مضر، فقد يُجرّم شيئاً كان حلالاً، أو يوجب أمراً ما كان واجباً كما روى أنه ﷺ لما نزلت الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. قالوا: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت: فقالوا: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال (لا ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم)^(٢) فنزلت هذه الآية ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.

في شأن التحليل التحريم، يمضي القرآن في نفي ما حرمت الجاهلية من أنعام أعطتها مسميات من عندها ما أنزل الله بها من سلطان.

وجاء في بداية قوله محلاً الأنعام إلا ما استثنى فقال: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَّةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا

(١) البخاري: (٦٠٠١).

(٢) مسلم: (١٣٣٧).

يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ ﴿ [المائدة: ١]، ثم ذكر ما استثنى فقال: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ٣].

هذا ما حرمه والآن ينفي الله تعالى ما حرّمته الجاهلية وأول المحرمين والمفترين على الله الكذب عمرو بن لحي بن قمته كان أول من ولي ولاية البيت في عهد خزاعة بعد جرهم فذهب إلى الشام فرأى أهلها يعبدون الأصنام فقالوا نعبدها فتعطينا ونستمطرها فتمطرنا، فأعجبه ذلك فجاء بصنم ووضع في الكعبة وعلم الناس عبادتها، فهو أول من سيب السائبة وبحر البحيرة وحمى الحامي^(١). وقال رسول الله ﷺ لأكثم بن الجون: (يا أكثم رأيت عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلاً أشبهه برجل به منك ولا منك به). فقال أكثم: تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (لا، إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم بحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي)^(٢).

عن ابن عباس البحرية: الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى جدعوا آذانها وقالوا هذه بحيرة لا يركب عليها ولا تذبح ولا يحلب لبنها.

والسائبة: الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينهن ذكر سبيت فلم يُجَزَّ وبرها ولم يركب ظهرها ولم يحلب لبنها. وكان الرجل إذا عوفي من مرض أو قضيت حاجته سيب من ماله فإنه يجعله للطواغيت.

والوصيلة: من الغنم إذا أنتجت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين ليس بينهما ذكر سميت الوصيلة وتركت للآلهة. وما ولدت بعد ذلك - ذكراً أو أنثى - جعلوه للذكور دون الإناث وإن جاء ميتاً اشتركوا في أكله رجالاً ونساءً.

(١) ينظر: مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب: ١٧.

(٢) البخاري: (٣٣٣٣).

والحامسي: إذا لقع فحله عشر إناث. وقيل الحام من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمي ظهره فتركوه للآلهة^(١).

بين الله تعالى أنه لم يجرمها، أنها هي من أعمال الجاهلية وكان والسبب في تحريمها عمرو بن لحي فتحريمها افتراء على الله وكذب.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما دل فعلهم على عقل ونضج، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لآبَائِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٠٤)

وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليبين لهم ما أحل الله لهم وما حرمه عليهم في كتابه، أبوا وقالوا: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، فاكتفوا بما اعتادوا عليه، ورفضوا الاستجابة لما دعاهم له رسول الله ﷺ، وهو الهدى وظلوا مع البحيرة والسائبة والوصيلة والحام التي حرمها الآباء جهلاً بغير علم وضلالاً بغير هدى.

يمضي القرآن في شأن التحليل والتحريم تشريعاً، فالآن يأمر الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعَتُمْ جَمِيعًا فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١١٥) وأنكم تضعونها في غير موضعها وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعذبهم بعقابها)^(٢).

وروى أن ابن مسعود رضي الله عنه سئل عنها فقال: إن هذا ليس زمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٠٣/٢.

(٢) ابن ماجه: (٤٠٥).

أنفسكم لا يضركم من ضل) (١).

والواقع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل زمان حتى من قبل بدء أمر عهد الرسول ﷺ إلى يومنا هذا يتبعه أذى، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧] فإن الأذى يصيب الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر - ومع هذا الأذى يتوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتبع الناس ما قاله الرسول ﷺ (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فقلبه وهذا أضعف الإيمان) (٢).

وأخيراً: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فقد أدبت ما أمرت به، ولا يضرك بعد ذلك ضلال من ضل - وإذا وقع العذاب نجوت منه كما نجا العلماء في عهد موسى عندما نهوا أصحاب السبت فقيل لهم: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمُ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (١٦٤) ﴿فَلَمَّا سَأُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعِيسٍ يَمَّا كَانُوا يَقْسِفُونَ﴾ (١٦٥) [الأعراف: ١٦٤-١٦٥] لقد نجا العلماء من عذاب الله لأنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وكما قالوا ﴿مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعتذرون لله عز وجل يوم يسألهم، يقولون ربنا أمرنا ولم يطيعونا. فهم مسئولون عن الأمر وليسوا مسئولين عن الاستجابة).

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - نهى الله تعالى عن الأشياء التي سكت عنها من غير نسيان كما بين الحديث: (وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تسألوا عنها) (٣).

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٠٤/٢.

(٢) مسلم: (٤٩).

(٣) سنن الدارقطني: (٤٤٤٥).

٢- (ذروني ما تركتم فإننا هلك من كان قبلكم بكثرة سؤا لهم واختلافهم على أنبيائهم ما نهيتكم عنه فاتتوها وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)^(١).

هذه الأشياء التي نهى الله أن يسأل عنها، قد سأها قوم في الأمم السابقة لأنبيائهم فلما كتبت عليهم كفروا بها ولم يعلموا. ومعلوم أن اليهود سألوا عن حكم زنا المحصن في الإسلام، وهو مكتوب عندهم - فلما عرفوه كفروا به وإن كان النبي ﷺ قد عاقبهم بما في التوراة من رجم، لمحاولتهم التفلت من العقاب.

كسؤا لهم النبي ﷺ (من يأتيه بالوحي من الملائكة فقال: (جبريل) فقالوا: لو كان الذي يأتيك بالوحي غيره لا تتبعناك فرد الله عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨] فعادوا بسؤا لهم بعداوة الله لهم.

٣- التحليل والتحریم شأن إلهي ليس للبشر ومن فعل ذلك كان عقابه النار كما فعل بعمر و ابن لحي.

٤- البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي أنعام رزقهم الله إياها فأعطوها هذه المسميات، وجعلوها للآلهة جهلاً منهم، كما قتلوا أولادهم جهلاً، وكما أعطوا الثمار للآلهة جهلاً.

٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي ميزة أهل الإيمان وبها ارتفعوا وبها أصبحت لهم منزلة ومكانة عند الله تعالى فهو القائل: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٦- والحديث (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة)، يُبين أن النجاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) مسند الإمام أحمد: (٧٠٦٣).

المقطع السابع العشرون: الإشهاد والقسامة:

هذا تشريع جديد بالوصية لمن حضره الموت في غربة، يقول الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّ إِثْمًا فَءَاخِرَانِ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَىٰ لَنْ يُقْسِمَانَ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا وَمَا عَدَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدَّىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنْتُمْ ءَالِلٌ وَأَلَلَّةٌ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦-١٠٨].

أسباب النزول

هذه الآية قال تميم الداري: (برئ الناس منها غيري وغير عدي بن بقاء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليه مولى لبي سهم يقال له - بديل بن أبي مريم، بتجارة معه جام من فضة، يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض فأوصى إليها وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله^(١)). قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم، واقتسمناه أنا وعدي، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجاه فسألونا عنه فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره، قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة فتأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها، فوثبوا عليه فأمرهم النبي ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم على أهله دينه فحلف فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِهِمَا ﴾ فقام عمرو بن العاص فحلف ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من

(١) البخاري: (٢٦٢٨).

عدي بن بداء^(١).

يبين الله تعالى: أن من حضرته الوفاة وهو على سفر أن يوصي اثنين من إخوانه المسلمين، فإن لم يجد مسلمين فمن غير المسلمين، فإن فعلاً ذلك ووجد أهل الميت شيئاً مفقوداً ووجدوه مباعاً فيحلف اثنان من أهل الميت على أنهم فقدوا هذا ووجدوه عند آخرين ويسأل الآخرون من أين جاءوا بهذا فإن استبان أنها اشترياه من اللذين جاءا بالوصية، يدفع لهما ما وجدا ويدفع حاملاً الوصية من الميت قيمة المفقود لمن باعاه إليه.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الوصية عند الموت من كمال الإنسان، فأمرنا أن نوصي عند الموت، قال رسول الله ﷺ: (لا ينبغي لإمرئ مسلم له ما يوصي فيه يأتي عليه ليلتان ليست عنده وصية) ^(٢) فطبق ابن عمر هذا الحديث في حياته.

٢ - وعلى الموصي أن يحفظ حقَّ الموصي فيؤدِّي ما اتتمنه عليه.

٣ - الوصية من الأمانات التي أوصى الله تعالى بأدائها والتي يسأل عنها العبد يوم القيامة، يقول ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾.

٤ - جاز للموصي أن يعدل في الوصية إذا كان الموصي ظالماً يقول ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٠٦/٢.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٢٤٤٤

المقطع الثامن والعشرون : عيسى بين يدي الله في القيامة :

والآن يأخذ القرآن في الجولة الأخيرة بشأن عيسى عليه السلام وتأليه النصارى له، وعبادتهم له هو وأمه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُيُوبِ ۗ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٩﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١٠٩-١١١].

هذه نقلة الى القيامة مع عيسى في يوم الهول، والناس شهود، والرسول موقوفون ويسألهم رب العزة ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ { فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ إن الرسل قدموا دعوة الله إلى الناس، فالله كما بين يسألهم أجمعين الرسل والناس الذين أرسلوا إليهم ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦] فكلهم مسئول عما قال: ماذا قال الرسل؟ وماذا قال المرسل إليهم؟ وتحمي إجابة الرسل لا علم لنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُيُوبِ﴾ فنحن إنما نعلم ظاهرهم ولا نعلم باطنهم، إنك أنت يا الله العالم بظاهرهم وباطنهم من اتبع ومن ضل.

ثم يوجه الله الخطاب الى عيسى عليه السلام أمام الجميع ليقرره بنعمه ليبين أنه لا حول له ولا قوة وأنه أحد عباده المرسلين فيسأله عما أنعم عليه. وتبدأ النعم بأنه ولد آية من آيات الله من أم بلا أب، نفخ في فرجها روح القدس بأمر الله، وأيده جبريل أن يتكلم يوم ولد لساعته، فتكلم في المهدي، وسيتكلم - عند الكهولة في آخر الزمان بعد أن رفعه الله إليه حين أرادوا قتله. ومن نعمه عليه ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ علمه الخط وعلمه الحكمة فكان ينطق

بها، وعلمه التوراة التي نزلت على موسى فهو على نهج موسى مؤمناً بالتوراة ومنفذاً لأحكامها وعلمه الإنجيل الذي أنزل فيه التخفيف من المحرمات الكثيرة التي حرمت على بني إسرائيل بسبب معاصيهم لله فقال ﴿وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وكان يصنع من الطين طيراً، ثم ينفخ فيه فيصير طيراً حقيقياً آية من الله له، كل ذلك بإذن الله تعالى ﴿وَتَبَرَّئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ والأكمة الذي خرج من بطن أمه أعمى فهو يبرئه بإذن الله مساً بيده من غير أدوية، ويبرئ الأبرص وهو الداء العضال المعروف يبرئه بإذن الله مساً بيده. ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ فكان يقف على القبر وينادي صاحبه فيخرج بإذن الله حياً. ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنُّهُمْ إِنَّا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. بنو إسرائيل خالفوه وأبوا أن يتبعوه وهم كعادتهم مع الأنبياء أما قتلوا النبي أو كذبوه، فكف أيديهم أن تصل إليه، مع عرضه لهم آيات الله البينات من إحياء الموتى وإبراء الأكمة، والأبرص والنبؤ ما ادخروه في بيوتهم من أشياء.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾. مما أنعم الله تعالى به عليه أن جعل له حواريين وتلاميذ يؤمنون بالله تعالى موحدين له ومؤمنين برسالة عيسى وأنه عبد الله ورسوله واتبعوه ﴿قَالُوا ءَأَمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فآمنوا وشهدوا برسالته وأشهدوه على إيمانهم بالله رباً ربه رسولاً) إلى هنا وعيسى مقر بهذه النعم. ثم يمضي القرآن مع عيسى عليه السلام. وطلب الحواريين معجزة تثبت نبوته. وتكون لهم عيداً.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - لا ينجو من سؤال الله أحد، فلذا جاء قول عمر بن الخطاب (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)^(١) استعداداً لهذا اليوم. ثم يمضي السؤال إلى عيسى عليه السلام وإلى كل واحد من البشر لقوله تعالى.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٤.

- ٢ - هذه معجزات أنعم الله بها على عيسى لتكون دليل صدق على نبوته وأنه لا حول له ولا قوة والسؤال حتى يعلم الخلق أن عيسى وأمه عبدان من عباد الله.
- ٣ - العلم والحكمة من أجل النعم، وهي زاد زود الله تعالى به عباده المرسلين، فما من رسول إلا آتاه الله العلم والحكمة ليبلغ الناس ما علمه الله آياه بحكمة وروية.

المقطع التاسع والعشرون: المائدة:

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

هذه تذكرة تبين طلب الخواريين من معجزة مادية هي أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء برروا أسبابها فقالوا: نريد أن نأكل منها فهم جياح (وثانياً) وتطمئن قلوبنا بصدق ما جئتنا به وصدق إتباعنا لك ﴿ وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ فيما قلت وفيما وعدت به من أمر الآخرة، وازدنا يقيناً، ونكون شهداء عليها، فلا مرأ بعد ذلك ولا شك، ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

اقتنع عيسى عليه السلام بطلب الخواريين وعلم صدقهم فطلب من الله المائدة، لتكون عيداً يفرحون فيه بإنزالها ويبتهجون، وعيداً لمن بعدنا يحتفلون فيه بيوم هذا الإنزال، وآية من الله دالة على صدق رسالتك التي بعثني بها للناس وصدق ما وعدتنا به من أمر الآخرة.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ

الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ استجاب الله لطلب عيسى عليه السلام واشترط للطالبيين للمائدة أن من يكفر بعد إنزال المائدة فإنه سيعذبه عذاباً لم ينزل بأحد من العالمين.

واختلفت الأقوال في أمر المائدة هل نزلت أم لم تنزل؟ ولم يأت خبر من رسول الله ﷺ في أمرها ويرى بعض المفسرين أنها لم تنزل، ويعتمد المفسرون بأن النصارى في كتبهم لا يجدون شيئاً عن المائدة فلم تذكر في كتبهم.

ويقرنها بعض المفسرين بما طلبه مشركو قريش من رسول الله ﷺ أن يدعو الله ليجعل الصفا ذهباً فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ أنهم إن لم يؤمنوا بعد أن يجعل لهم الصفا ذهباً فيأخذهم العذاب، وأن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة فاخترار رسول الله ﷺ باب التوبة والرحمة بدلاً أن يجعل الصفا ذهباً^(١). ثم يمضي إلى السؤال الجوهرى لعيسى عليه السلام.

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - التعنت من البشر بطلب المعجزات من الرسل قديم، واجهه المرسلون أجمعون، وأشدّه في عهد نبينا محمد ﷺ والله يعلم أن طالبي المعجزات طلبوها لا ليؤمنوا، ولكن تعنتاً، لهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيكَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١].

٢ - ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

٣ - ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١١٣/٢.

المقطع الثلاثون: التبرؤ من التآليه:

القرآن يمضي في أمر عيسى عليه السلام ليكشف مصدر أكبر جريمة في الوجود مارسها

النصارى

فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَنعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَال سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

أمام العالمين أجمعين والنصارى حضور أجمعون وفي حضرة المرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وعليهم أجمعين يسأل الله تعالى عبده ورسوله عيسى عليه السلام وهو العليم بكل شيء ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إنها الجريمة التي لا يغفرها الله جريمة الشرك، من صنعها ومن أمر بها؟ ويجب عيسى عليه السلام ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ يجب عيسى عليه السلام، سبحانه تنزهت على الشريك والمثيل والنديد، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق فإننا لم أمرهم بعبادتي ولا عبادة أمي بل قلت لهم ما أمرتني به فقلت: اعبدوا الله ربي وربكم. وإن كنت قلت غير هذا فقد علمته لأنك تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. وكنت شاهداً عليهم قبل أن ترفعني إليك، فلما رفعتني كنت أنت الشهيد عليهم.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادُكَ﴾ - فالمشيئة لك ولا يحول بينهم وبين ما أردت وما أمرت شيء، فأنت ﴿الْعَزِيزُ﴾ القوي الذي لا يغلب و ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور في نصابها ويحكم بالعدل فإن أردتهم بعذاب وقع العذاب الذي يناسب جرمهم بحكمتك وعلمك. وإن تغفر لهم، فإنك تغفو وتغفر عن قدرة وقوة.

المقطع الحادي والثلاثون: كلمة الحق والختام:

قال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْتَبِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٩-١٢٠].

يقول الله وقد رد عيسى عليه السلام على ما سأله الله عنه، وكانت إجابته شافية، وكان صادقاً فيما قال... وقال الله تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ هذا يوم الانتفاع بالصدق، فالذين صدقوا المرسلين واتبعوه وجاءوا الله بصالح العمل، ينفعهم هذا التصديق، فمن صدق واتبع فالجنة مشواه ﴿ لَمْ يَجْتَبِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ فالجنة ذات الأنهار المتعددة جزاء الصادقين يعيشون فيها مخلدين أبداً أبداً، رضي الله تعالى على سلوكهم وطاعتهم، وهم رضوا عنه فيما أعطاهم مقابل هذا الإيمان والتصديق.

والآن يختتم الله تعالى هذه السورة بمثل ما بدئت به بدئت بالحديث عن الوفاء بالعهود والعقود، وختمت بالذين أوفوا بعقود الله معهم فكان جزاؤهم يوم القيامة هذه المقالة الطيبة من الله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ الذين صدقوا فيما عاهدوا الله عليه، والتزموا بما أمرهم به ونهاهم عنه، هذا يوم الجزاء والجزاء ﴿ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بما فعلوه وما التزموا له وما صدقوا فيه ورضوا عنه ورضوا عن جزائه لهم.

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الكون كله ملكه وفي ملكه يتصرف كيف يشاء، وهو على كل شيء قدير، على العطاء قادر على البذل قادر ولا يقف أمام إرادته شيء سبحانه!

الهدايات المستخلصة من هذا النص:

١ - الصدق موعده القيامة ينتفع به مَنْ تعامل به في الدنيا، فصدق في كل ما قال، وصدق في كل ما فعل، وجزاء الصدق الجنة، قال رسول الله ﷺ (عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً)^(١).

٢ - يذكر الله تعالى عباده بأن الكون ملكه، وهم داخل هذا الملك، وأنه القادر على فعل كل شيء.

٣ - ختام هذه السورة بتذكير العباد الذي ورد في بداية السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ يتناسب مع قوله في الختام: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٢٠﴾ فتناسب البدء مع الختام ملكاً وتصرفاً.

(١) مسلم: (١٠٥).

سورة الأنعام

تمهيد

بين يدي السورة :

سورة الأنعام سورة مكية: نزلت على قلب النبي ﷺ بمكة، لنقض عقائد الشرك وإبطالها، وتقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها.

وكان نزولها في مرحلة الجهر بالدعوة التي واجهها أساطين الكفر وصناديد الضلال بالصدود والإعراض، والتكذيب والاستهزاء، والمطالب التي تنم عن تعنتهم وإصرارهم على الكفر مهما عاينوا من آيات.

نزلت هذه السورة جملة واحدة على غير المعهود في السور الطوال لتكون دفعة واحدة بحججها الساطعة، وبراهينها القاطعة، وآياتها المتتابعة، التي تُرهِفُ الأذان، وتخطب الوجدان، وتحاور العقول، وتصل إلى القلوب.

أ - اسم السورة الكريمة :

أما عن اسمها: فسميت بسورة «الأنعام»: وذلك لما ورد فيها من ذكر الأنعام والشيء قد يسمى بجزئه، فسميت هذه السورة الكريمة سورة الأنعام لورود كثير من أحكام الأنعام فيها، وليبيان السورة لجهالات المشركين فيها، كتخليطهم وتحريمهم حسب أهوائهم وتقاليدهم البالية وتقربهم بها إلى أصنامهم، فنزلت هذه السورة لتبين بطلان ما اتخذوه من أمرها ديناً، لم يأذن به الله.

قال الإمام السيوطي: « وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان لفظ الأنعام ورد في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسٌ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٤٢) تَمَنِينَةَ أَرْوَجٍ مِنْ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلْتِ

عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثِيِّينَ نِيُؤْمِنُ بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِكْرَيْنِ حَرَمَ أَمِ الْأُنثِيِّينَ أَمَا أَسْتَمَلْتِ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيِّينَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ (١٤٤): هذا التفصيل: لم يرد في غيرها»^(١).

ب - فضائل السورة:

* هذه السورة الكريمة من السور السبع الطوال، ومما ورد في فضائل هذه السبع:

١ - ما رواه الإمام أحمد وغيره عن وائلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِثْنُ وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِثْنِي وَفُضِّلَتْ بِالْمُفْضَلِ)^(٢).

* فالكتب السماوية جميعها خرجت من مشكاة واحدة ودعت إلى غاية واحدة، ولقد جاء

القرآن الكريم مهيمنا على ما سبقه من كتب ومستوعبا لها ومصداقا بها.

(١) الإتيان في علوم القرآن للإمام جلال الدين السيوطي - النوع السابع عشر في معرفة أسماؤه وأسماء سورة ١ / ٥٥

(٢) مسند الإمام أحمد ٤ / ١٠٧ حديث ١٧٠٢٣، ورواه الطبراني في المعجم الكبير عنه ١٥ / ٤٥٠ حديث ١٧٦٤٧، ورواه الإمام البيهقي في دلائل النبوة ٦ / ٩٥ حديث ٢٢٢٠ وفي شعب الإيمان ٢ / ٤٦٥ حديث ٢٤١٥، والطيالسي في مسنده ١ / ١٣٦ حديث ١٠١٢، والطحاوي في مشكل الآثار مشكل الآثار للطحاوي - ٣ / ٣٩٦ حديث ١١٨٠، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد عن وائلة ٧ / ١٣٢ حديث ١١١٠٩ وقال «رواه أحمد وفيه عمران القطان وثقه ابن حبان وغيره وضعفه النسائي وغيره، وبقية رجاله ثقات»، وأورد الهيثمي رواية للطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه فقال: «وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعطاني ربي السبع الطول مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالفضل». رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وقد وضعفه جماعة ويعتبر بحديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٧ / ٣٢٩ حديث ١١٦٢٦ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة حديث (١٤٨٠) وقال حديث حسن.

- ٢ - وروى الحاكم وغيره عن جابر رضي الله عنه، قال: لما نزلت سورة الأنعام سبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق) ^(١).
- ٣ - وأخرج أبو عبيدة وابن الضريس والطبراني وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون بالنسيح» ^(٢).
- ٤ - وروى الدارمي في مسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «الأنعام من نواجب القرآن..» ^(٣) وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد قال: «نزلت سورة الأنعام كلها جملة» ^{(٤)(٥)}.

- (١) رواه الحاكم في المستدرک ٢ / ٣٤٤ حديث ٣٢٢٦، وقال «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» «فإن إسماعيل هذا هو السدي، ولم يخرج البخاري»، وقد تعقب الذهبي الحاكم بقوله: «لا والله لم يدرك جعفر السدي، وأظن هذا موضوعاً». لكنه على شرط مسلم في المعاصرة؛ فإن وفاة السدي كانت سنة ١٢٧هـ وولادة جعفر بن عون سنة ١٠٩هـ؛ فاللقاء بينهما محتمل أما قول الذهبي: «أظنه موضوعاً»: فلا وجه له؛ لأن رجال إسناد الحديث رجال مسلم، ورواه البيهقي في شعب الإبان ٢ / ٤٧٠ حديث ٢٤٣١ وفيه موسى بن عبيدة ضعفه ابن حجر وضعفه الذهبي، وقال السيوطي في الإتيان معقباً على الأحاديث الواردة في نزولها جملة: «فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً». الإتيان في علوم القرآن - النوع الثالث عشر: ما نزل مفرداً وما نزل جمعاً ١ / ٣٧
- (٢) فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ حديث ٨-٣٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠. ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن وابن مردويه كما في الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣ / ٢٤٣، والطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٢١٥ حديث ١٢٩٣٠.
- (٣) سنن الدارمي ٢ / ٥٤٥ حديث ٣٤٦٤، وقال محققه: حسين سليم أسد: «إسناده جيد إلى عمر رضي الله عنه وهو موقوف عليه»، فضائل القرآن للقاسم بن سلام ص ١٢٩ حديث ٣٧١، فضائل القرآن لأبي عبيد ص ١٢٩ والنواجب العتاق.
- (٤) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره في أول سورة الأنعام ٢ / ٢٠٣ وإسناده حسن وأورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣ / ٢٤٤ وقال أخرجه عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ.
- (٥) وعن حكمة نزولها جملةً وليلاً: يقول الإمام البقاعي في نظم الدرر: «وإنزالها على الصورة المذكورة يدل على أن أصول الدين في غاية الجلالة، وأن تعلمه واجب على الفور لنزولها جملةً، بخلاف الأحكام =

ت - مكية السورة:

وهذه السورة مكية، وهي أول سورة مكية في السبع الطوال، حسب ترتيب المصحف وقد انتظمت في عقد السور المكية التي نزلت لترسيخ العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الكفر من ضلالات وجهالات، وتقرير أصول الشريعة.

ث - عدد آيات السورة:

وعدد آياتها: (١٦٥) مائة وخمس وستون آية^(١).

ج - محور السورة:

أما عن المحور الأساسي الذي تدور حوله السورة الكريمة: فهو إقامة الحجّة على الكفار بنقض عقائدهم الباطلة وتقرير العقيدة الصحيحة بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة والحجج المتنوعة.

فهي أصلٌ في محاجة جميع الكفار، وكشف ما هم عليه من ضلالٍ وتفنيدهم شبهاتهم، وبيان العقيدة الصحيحة وإثباتها بالأدلة والبراهين، والسورة الكريمة زادٌ للدعاة ومنهجٌ للمحاورين.

يقول صاحب الأساس في التفسير: « إن السورة حوارٌ شاملٌ مع الكافرين في كل الاتجاهات الرئيسية للكفر سواء كانت نظرية، أو كانت عملية، ولذلك فإن الداعية إلى الله

= فإنها تُفرّق بحسب المصالح، ولنزولها ليلاً دليلٌ على غاية البركة لأنه محل الأُنس بنزوله تعالى إلى سماء الدنيا، وعلى أن هذا العلم لا يقف على أسراره إلا البصراء الأيقاظ من سنة الغفلات، أولوا الأبواب أهل الخلوات، والأرواح الغالبة على الأبدان، وهم قليل «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥٧٩/٢».

(١) لمزيد بيان: يراجع في ذلك: جمال القراء وكمال الإقراء لعلم الدين السخاوي ٢٠٢/١ ط مكتبة التراث مكة، وفنون الأفتان في عيون علوم القرآن لابن الجوزي ص ٢٨٢ ط دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨ هـ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي النوع التاسع عشر في عدد سوره وآياته ٦٨/١.

أن يتملَّ حُججها ويعرف كيف يقرع بها»^(١).

وقد وردت فيها كلمة «الحجة» مع بعض أخواتها في الاشتقاق في مواضع عديدة:

منها قوله تعالى ﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أَحْضِرْ لَنَا آيَاتِكُمْ فَسَاءَ مَا تَدْعُونَ بِهَا بِرَبِّكُمْ وَمَا تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقوله جلَّ وعلا ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله عز وجل ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فقد نزلت هذه السورة لتقوض وتدحض عقائد أهل الشرك وتقرر وترسخ العقيدة الصحيحة التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال صاحب الظلال: «هذه السورة مكية، من القرآن المكي القرآن الذي ظل ينتزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملة، يُحدِّثُه فيها عن قضية واحدة قضية واحدة لا تتغير ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر؛ ذلك أن الأسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة، حتى لكأنها يطرقها للمرة الأولى، لقد كان يعالج القضية الأولى والقضية الكبرى والقضية الأساسية في هذا الدين الجديد: قضية العقيدة»^(٢).

وهذه السورة الكريمة: «هي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية وأشدُّها مقارعة لهم واحتجاجا على سفاهتهم»^(٣).

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ٣ / ١٦٦١

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله ٢ / ١٠٠٤

(٣) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام تأليف دكتور إبراهيم الكيلاني ص ٢٠

ولقد كشفت هذه السورة الكريمة كثيرا مما كان عليه أهل الجاهلية من زيغ وضلال، وانحرافات ومخالفات وأباطيل وشبهات: « عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَأَقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ » ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٤٠) ^(١).

من هنا: فقد اشتملت هذه السورة على أساليب متنوعة في تقويض دعائم الشرك وترسيخ قواعد الإيثار ودحض شبه أهل الزيغ والضلال وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من معتقدات فاسدة وتقاليد راکدة.

من هذه الأساليب التي اشتملت عليها السورة: أسلوب التقرير وأسلوب التلقين وأسلوب الاستفهام التقريري، وأسلوب القصص وضرب الأمثال، وأسلوب الوعد والوعيد.

وخلاصة القول في محور السورة الكريمة: أنها نزلت بالحجج القاطعة والآيات الساطعة التي تقوض دعائم الشرك وتدحض شبهة، وتقرر عقيدة التوحيد وأصول التشريع، وتثبت فؤاد النبي ﷺ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وتُفصِّحُ عن أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق مع ظهور حُجَجِهِ، وجلاء براهينه.

ح - المناسبات في السورة: تميز القرآن الكريم بنظمه الفريد، وسبكه النضيد، وتصريفه العجيب، وروعة الأساليب، مع امتزاج المعاني وتناسقها، واتساق الآيات وتعانقها، وتناسب السور وانتظامها.

كالدُّرُّ يَزْدَادُ حُسْنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ وَلَيْسَ يَنْقُصُ قَدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
وفي السطور التالية أتناول جملة من أوجه المناسبات على النحو التالي:

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب قصة زمزم وجهل العرب - حديث ٣٣٣٤.

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

تدور السورة الكريمة حول دحض شبهات وأباطيل المشركين في العقيدة والأحكام وبيان جهلهم وسفاههم، والذي تجل واضحا في مواقفهم المتناقضة في شأن الأنعام من تحليلٍ وتحريمٍ حسب أهوائهم وأهوامهم.

من هنا يظهر الارتباط بين اسم السورة ومحورها، حيث أوردت السورة الكريمة صورا ومشاهد لما عليه المشركون من جهلٍ وضلالٍ، وشركٍ في العقيدة والأحكام والسلوك، وقد تمثل ذلك في موقفهم من الأنعام، فمع كونهم يُقرُّون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق إلا أنهم يحرمون ما أحلَّ الله افتراءً عليه.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* بدأت السورة الكريمة ببيان تفرده تعالى بالحمد وانتهت السورة ببيان تفرده تعالى بالوحدانية فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

* استهلَّت السورة الكريمة بالحديث عن نعمة الإيجاد الأول « المبدأ » قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ. ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾، واختتمت السورة بتقرير نعمة الإيجاد الثاني « المعاد » قال تعالى ﴿ قُلْ أَغْنَىٰ اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزْرُ وَأَزْرَةٌ وَلَا نَزْرُ وَآخِرَىٰ ثُمَّ لِي رَيْبٌ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾. »

* في مطلع السورة إشارة إلى نعمة الخلق، وفي خاتمتها إشارة إلى نعمة الاستخلاف في الأرض، وبيان للحكمة من هذا الاستخلاف وهو الابتلاء.

* وفي مطلع السورة حديثٌ عن إحاطة علمه تعالى بأحوال عباده وأعمالهم ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي

السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يُعَلِّمُ سِرَّهُمْ وَجَهْرَهُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وفي خاتمتها بيان لمصير الخلق إلى ربهم لينبئهم بما عملوا ويمجازيهم بما كسبوا.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

- لما قال سبحانه في ختام سورة المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٣٠﴾ ناسب ذلك بيان وتقرير تفريده تعالى بهذا الملك لأنه تعالى خالق السموات والأرض وما فيهن فقال سبحانه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ [الأنعام: الآية ١].

- قال السيوطي رحمه الله «.. لما ذكر في آخر المائدة ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٣٠﴾ [المائدة ١٢٠] على سبيل الإجمال...!! افتتح جل شأنه هذه السورة: بشرح ذلك وتفصيله؛ إذ بدأ - سبحانه - بذكر خلق السماوات والأرض، وضم إليه تعالى: أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ في آخر المائدة.

- ثم ذكر تعالى أنه خلق الإنسان، وقضى له أجلاً، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه تعالى منشئ القرون، قرناً بعد قرن.

- كذلك لما ختمت سورة المائدة بفصل القضاء بين العباد وجزاء الصادقين قال تعالى ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمَّا جَنَّتْ جَمْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ [المائدة ١١٨]: ناسب ذلك حمده تعالى على نعمة القضاء بين خلقه وعلى نعمة إثابة الصادقين فاستفتح سورة الأنعام بالحمد... كما قال سبحانه ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر ٧٥].^(١)

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للإمام جلال الدين السيوطي ص ٤٧: ٤٩ بتصرف.

- وقال الشيخ أبو زهرة رحمه الله: « كان ختامُ السورةِ السابقةِ: إثباتُ سلطانِ اللهِ تعالى الكاملِ وقدرتهِ الشاملةِ وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وفي مستهل سورة الأنعام يبين سبحانه السببَ في كمالِ سلطانه والمظهرَ الأعظمَ لكمالِ قدرتهِ سبحانه وتعالى »^(١).

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها :

سوف نتجلى لنا تلك المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها العام عند تناولنا لهذه المقاطع وتدبرنا فيها حيث تدور جميعها حول المحور العام لهذه السورة الكريمة وهو تقرير العقيدة الصحيحة وإبطال ما عليه أهل الشرك من زيغ وانحراف وجهل وضلال، وذلك من خلال الحجج الساطعة والأدلة المتتابعة التي اشتملت عليها السورة، وبيان أسباب إعراض المشركين وصدودهم عن الحق.

٥ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

- ومن أوجه الصلات بين سورتي المائدة والأنعام: التشابه في المضمون؛ حيث الردُّ على كثيرٍ من الانحرافات العقديَّة التي ضلَّ بها الكافرون ودحضُ شبهاتهم، وتفنيدُ مزاعمهم: ففي سورة المائدة يأتي الحديثُ موجهًا إلى أهل الكتاب مع بيان بعض ضلالات المشركين وفي سورة الأنعام تبين السورة ما عليه أهل الشرك من أباطيل وأوهام، مع بعض الإشارات إلى ضلالات أهل الكتاب.

- من هنا نلمس التنوع في العرض والتناسب والتكامل بين سور القرآن، فمع تفرُّد كلِّ سورة بأسلوبها ومحورها وهدفها إلى أننا نجد التناسب والتناسق بين جميع السور.

« فالمائدة فيها حجاجٌ لأهل الكتاب وردُّ على اقتراحهم الآيات، وتقريرٌ لرسالة محمد ﷺ ونبوته، وللقرآن ودعوته، والأنعام فيها حجاجٌ للمشركين وردُّ عليهم في اقتراحهم الآيات وتقريرٌ لعقيدة التوحيد ولدعوة محمد ﷺ ورسالته... فالغرضُ واحدٌ من السورتين، أو كالواحد

(١) زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة رحمه الله ٥ / ٢٤٣١.

والمغزى والهدفُ واحدٌ أيضاً»^(١).

- كذلك تعالجُ السورتان قضية التحليل والتحرير فتصحح تلك المفاهيم التي سادت بين المشركين فدفعتهم إلى تحكيم أهوائهم وتقديم مصالحهم على شرع الله فتراهم يجرّمون ما أحل الله ويستحلّون ما حرم الله^(٢).

- كذلك أشارت سورة المائدة إلى استنثاره تعالى بعلم الغيب وجاءت سورة الأنعام مفصّلة ومقرّرة لذلك فضلا عن إحاطته تعالى بعالم الشهادة: بكل دقائقه وتفصيلاته^(٣).

مقدمة السورة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

الاستفتاح بالحمد

قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾.

استهلّت السورةُ الكريمة ببيان تفرّد الله تعالى بالحمد، فهو تعالى وحده المستحقُّ للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال، وهو المحمود ولا يزال لما أسداه من نعم وأبداه من كرم، وهو تعالى المحمود في الأولى والآخرة، وفي جميع الأحوال، وله الحمد على أن علمنا

(١) تفسير القرآن الحكيم، محمد عبد المنعم خفاجي ٢٠٣/٧ بتصرف.

(٢) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآيات (٤٨، ٤٩، ٥٠) والآيتان (٨٧، ٨٨) وسورة الأنعام (١٣٩، ١٤٠).

(٣) من ذلك ما جاء في سورة المائدة الآية (١٠٩) وسورة الأنعام (٥٠، ٥٩: ٦٧).

كيف نحمده.

والفرق بين الحمد والشكر أن الشكر لا يكون إلا في مقابل نعمة لذلك أمرنا أن نشكر من أحسن إلينا، أما الحمد فإنه على النعمة وعلى ذات المنعم.

ومن أعظم النعم وأجلها نعمة خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثَّ فيها من عوالم ومخلوقات، وما أودع فيها من دلائل وآيات، تشهد له بكمال القدرة وتنطق بجمال الصنعة.

قال الإمام الشوكاني: « ثم وَصَفَ نفسه بأنه الذي خلق السموات والأرض؛ إخباراً عن قدرته الكاملة، الموجبة لاستحقاقه لجميع المحامد، فإن من اخترع ذلك وأوجده، هو الحقيق بإفراده بالثناء وتخصيصه بالحمد»^(١).

﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ جعل بمعنى: صيّر، والفرق بين الخلق والجعل: أن الخلق إيجاد من عدم، أما الجعل فيتضمن معنى « التصيير والتحويل»، ذلك أن الظلمات والنور متولدة عن حركات الأجرام وناجئة عن التغيرات الطارئة في الكون والتي بسببها يكون الظلام والنور ويتعاقب الجديدان الليل والنهار.

وجمع الظلمات لتعددتها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، كما يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي، وعلى هذا فالنور واحد وهو نور الحق لا يتعدد: كما قيل: الطرُقُ شتى وطريقُ الحقِّ واحدةٌ والسالكون طريق الحقِّ آحادٌ، فَجَمَعَ الظلماتِ وَأَفْرَدَ النورَ لأن الهدى واحد، والضلال متعدد، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٥٣)، فوَحَّدَ الصراط المستقيم وجمع السبل وسيأتي مزيد بيان لذلك في موضعه.

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ٢ / ٩٨

فالظلمات والنور هنا تشمل المادّي منها والمعنويّ بدليل السياق العام للسورة الكريمة التي دار الحديث فيها عن الظلمات الحسية والظلمات المعنوية.

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا عَلَيْكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلَّهُ ۗ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴿ ۞ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يُنحِصِكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ الَّتِي وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ۗ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ۞

وتقديم الظلمات على النور: لأن الظلمات كانت أولاً ثم خلق الله النور ولقد أثبت ذلك العلم الحديث.

﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقرر استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفردّه بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره؛ إذ يسوون الأصنام به.

لذا جاء التعبير بـ «ثم» لاستبعاد الشرك بعد وضوح الأدلة والبراهين المقررة للتوحيد.

كما تقول: يا فلان أعطيتك وأكرمك وأحسنك إليك ثم أنت تشتمني، أي بعد هذا كله تقابل الإحسان بالإساءة والإكرام بالإهانة!

« فيا للمفارقة الهائلة بين الدلائل الناطقة في الكون، وآثارها الضائعة في النفس! »^(١)

(١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢ / ١٠٣٠.

ويا عجباً كيف يجحده الجاحدون وكيف يُعرض عن آياته المعرضون؟

* فيا عجباً كيف يُعصى الإله
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ
* تلكَ الطَّيِّعَةُ قِفَ بنا يا ساري
للأرضِ حَوْلِكَ وَالسَّمَاءِ اهْتَرَّتَا
مِن كُلِّ نَاطِقَةِ الْجَلَالِ كَأَنَّهَا
دَلَّتْ عَلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ فَلَمْ تَدَعِ
مَنْ شَكَّ فِيهِ فَنَظَرَةً فِي صُنْعِهِ

أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ
حَتَّى أُرِيكَ بَدِيعَ صُنْعِ الْبَارِي
لِرَوَائِعِ الْآيَاتِ وَالْآثَارِ
أَمْ الْكِتَابِ عَلَى لِسَانِ الْقَارِي
لِأَدْلَى الْفُقَهَاءِ وَالْأَحْبَارِ
تَمْحُواثِيمَ الشَّكِّ وَالْإِنْكَارِ

خلق الإنسان، وإمكانية البعث

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ. ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ينتقل الحديث من خلق السموات والأرض إلى خلق الإنسان وهذا من باب ذكر الخاص بعد العام؛ تشريفا وتكريبا وعناية؛ إذ الإنسان جزءٌ من هذا الكون، لكنه من أشرف المخلوقات وأكرمها على الله تعالى.

والطين: هو المادة التي خُلِقَ منها آدمُ عليه السلام ومنه خلق الله زوجه حواء رضي الله عنها أما سائر البشر: فإن الطين عنصرٌ أساسي في تكوينهم؛ ذلك أن الغذاء يستخلص من الأرض، ومن الغذاء ينمو الإنسان.

﴿ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ. ﴾

أصل الأجل في استعمال اللغة: الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان الوقت المضروب لانهاء عمره، والمعنى هنا: أن الله تعالى قدر للإنسان أجلين: الأجل الأول هو انقضاء عمره في الدنيا، فكل يوم يمر عليه انتقاصٌ من أجله واقترابٌ من مواعده

والمرءُ يفرحُ بالأيامِ يقطعُهَا وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ
والأجلِ الثاني: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾: هو ما بعد الموت حيث ينتقلُ إلى الحياة الآخرة،
فإذا مات الإنسانُ انقضى أجلُهُ الأولُ وابتدأ أجلُهُ الآخرُ.

وقيل الأجلُ الثاني: هو انتهاء الدنيا بما عليها وبعث الناس من قبورهم.

ولا تعارض بين المعنيين إذ النص القرآني يستوعبهما.

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات البيّنات والدلائل الباهرة الناطقة بكمال قدرته تعالى
وعجائب صنعه تمترّون في أمر البعث وغيره من أصول الإيمان!
إحاطة علمه تعالى.

قال تعالى ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (١٣)

لما استهل الحديث بنعمة الخلق والإيجاد: خلق السموات والأرض وخلق الناس: ناسب
ذلك بيان إحاطة علمه تعالى بهذا المخلوق وإطلاعه على أحواله، ونحو ذلك قوله تعالى ﴿وَأَسْرَأُوا
قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) [الملك:
١٣، ١٤].

ولما كان الحكمة من البعث مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته: أشار هنا إلى علمه
بأحوال البشر محسنهم ومسيئهم، كما في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُخْصِيهَا
لَكُمْ ثُمَّ أُوفِيكُمْ بِهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ) (١).

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن نبينا صلى الله عليه وسلم عن رب العزة جلّ وعلا - كتاب البر والصلة
والآداب - باب تحريم الظلم حديث ٥٥ - (٢٥٧٧)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٦ / ٩٣ وابن
حبان في صحيحه حديث ٦٢١ والطيالسي في مسنده حديث ٤٥٩.

الصلة بين مقدمة السورة ومحورها

إذا كان محور السورة كما ذكرنا آنفا يدور حول تقرير العقيدة الصحيحة بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والدلائل المتتابعة والأدلة المتنوعة: فلقد استهلّت السورة الكريمة بالحديث عن الركيزة الأساسية للعقيدة الإسلامية، وهي الإيمان بالله تعالى، حيث يُعرِّفنا ربُّنا بذاته وصفاته وأفعاله ويُذكرنا بنعمه وعنايته ولطفه بعباده، وسنرى كيف أجملت المقدمة ما فصلته السورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة من مقدمة السورة

- * استهلّت السورة الكريمة ببيان تفرّد الله تعالى بالحمد، وهو الثناء على الله تعالى بما هو أهله من صفات الكمال والجلال.
- * من أعظم النعم وأجلّها نعمة خلق السموات والأرض وما بينهما وما بثّ فيهما من عوالم ومخلوقات وما أودع فيهما من دلائل وآيات تشهد له بالوحدانية، وتنطق بكمال قدرته وبيدع صنعه، ومع التقدم العلمي الهائل فسوف يظلّ خلق السماوات والأرض سرّاً يعجز عن إدراكه العلماءُ مهماً تقدموا ومهما تعمقوا في البحوث والدراسات.
- * جمع الظلمات لتعددها واختلافها من ذلك ظلمات البر وظلمات البحار وظلمات الأرض وغير ذلك، وقد يراد بها الظلمات المعنوية مثل ظلمة الكفر وظلمة الضلال وظلمة الهوى وظلمة النفاق وظلمة المعاصي وقدّم الظلمات على النور لتقدمها في الوجود.
- * مع وضوح الدلائل وظهور الحجج التي تقرّر استحقاق المولى عز وجل للحمد وتفرده بذلك فإن الكافرين يعدلون به غيره ويسوون أصنامهم به!
- * وفي خلق الإنسان من طينٍ دليل على قدرة الله عز وجل وإبداعه في صنعه، وفيه أيضاً دليل على إمكانية البعث فالذي خلقهم من طينٍ قادرٌ على أن يعيدهم كما بدأهم.
- * وفي مطلع السورة الكريمة ردٌّ على كافة المشركين الذين يسوون بين الله وهو الخالق سبحانه

وبين الآلهة التي يعبدونها من دون الله، وفيها إبطال لما عليه بعض طوائف المجوس من عبادة إلهين من دون الله أطلقوا عليهما: إله النور وإله الظلمة، فبين تعالى أنه هو الذي أوجد الظلمات وأوجد النور فكيف تعبد من دون الله! وردُّ على منكري البعث مع وضوح الحجج والبراهين القاطعة، وردُّ على منكري القدر حيث بين عز وجل قضاءه في عباده، وتقديره لآجالهم، وبيان لإحاطة علمه عز وجل بكل الأمور والتفصيلات والكتليات والجزئيات، والجليات والخفيات، وتقرير لكمال قدرته عز وجل والتي تجلَّت في خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وفي خلق الإنسان وتقدير الآجال، مع ذلك فإن الكافرين يمترون! ويعرضون ويكذبون ويستهنئون ويتعتنون كما ستكشف لنا الآيات التالية.

- ١ -

موقف المشركين

(إعراض المشركين)

قال تعالى ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنُوا لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آسَأْنَاهُمْ بَرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المناسبة: ما زال الحديث موصولاً عن موقف المشركين من تلك الحقائق الدامغة والحجج البالغة بين امتراء وامتعاض، وصدود وإعراض، وغفلة وتكذيب، وسخرية واستهزاء، فوق

ما اقترحوه من مطالب تَمُّ عن تعنتهم وعنادهم، وفي هذه الآيات تفصيل لما أُجملَ في مقدمة السورة حول موقف المشركين: وهو العدول عن عبادة الله تعالى، وتسويته سبحانه بأصنامهم التي يعبدونها من دونه، وامتراؤهم مع وضوح الحجج وتجلي الآيات.

التفسير الإجمالي

صدود وإعراض

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ ﴾

قال الإمام الألوسي رحمه الله: « كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله تعالى وإعراضهم عنها بالكلية بعد بيان كفرهم بالله تعالى وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد وامتراثهم في البعث»^(١).

فالإعراض ديدنهم أمام كل الآيات الجلليات آيات القرآن المسطور وآيات الكون المنظور آيات الأنفس والآفاق، آيات الأجواء والأعماق، فهم في غفلة عنها وإعراض، ونظير هذا قوله تعالى في سورة القمر ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التَّذْرُؤَ ﴿٥﴾ ﴾.

فهم معرضون عن جميع الآيات الكونية والإنسانية مع وضوحها وجلالتها، وتجدها وتتابعها، كما يستفاد من التعبير بالفعل المضارع ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ ﴾ - ومع قربها منهم ومجيئها إليهم دون تكلف البحث عنها كما يفيد التعبير بـ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أنها تقبل عليهم وتتجلى أمامهم، ومع ذلك فهم معرضون عنها بالكلية، وموقفهم في الإعراض ثابت - كما يفيد التعبير عن ذلك باسم الفاعل ﴿ مُعْرِضِينَ ﴾ الدال على ثبات موقفهم وإصرارهم وعتوهم ونفورهم من أي آية.

(١) روح المعاني للألوسي ٧ / ١١٨.

وإضافة الآيات إلى «رهم»: بيانا لمصدرها، وتفخيماً لشأنها، وتعظيماً لها، ومع ذلك فقد أعرضوا عنها!

وهذا الإعراض كما أسلفنا: ليس مرجعه إلى خفاء الأدلة وغموض البراهين بل إنها واضحة ووضوح الشمس في رابعة النهار، وإنما مرجع الإعراض إلى قلوبهم القاسية ونفوسهم المعتلة، وقد قيل:

* قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ وينكر الفم طعم الماء من سقمٍ

* وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليلٍ

فنفوسهم غير مهية لتقبل الحق، وأذانهم صمتت عن سماعه، وقلوبهم غلفت عن تدبر الآيات والانتفاع بها، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥]

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

[يونس: ١٠١].

يقول صاحب الظلال: «إنهم يتخذون موقف الإعراض عناداً وإصراراً، فليس الذي ينقضهم هو الآيات الداعية إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة، هي التي يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها.. ليس هذا هو الذي ينقضهم، إنما تنقضهم الرغبة في الاستجابة، ويمسك بهم العناد والإصرار، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، وحين يكون الأمر كذلك: حين يكون الإعراض متعمداً ومقصوداً - مع توافر الأدلة، وتواتر الآيات ووضوح الحقائق - فإن التهديد بالبطش قد يحدث الهزة التي تفتح نوافذ الفطرة حين تسقط عنها حواجز الكبر والعناد»^(١).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٦، ١٠٣٧ بتصرف يسير.

تكذيب واستهزاء

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ ﴾

ليس إعراضهم عن هذه الآيات: توقفا في شأنها، أو انشغالا عن النظر فيها، أو تسويفا للبحث في شأنها: وإنما هو التكذيب والاستهزاء، ولو أنهم تجردوا من الأهواء وأبصروا الآيات بعين النظر والتأمل وأعملوا عقولهم: لما كذبوا بكل ما جاء به النبي ﷺ وطرق قلوبهم وقرع أسماهم وهو الحق من عند ربهم! ولكنهم عموا وصموا!

قال الإمام الرازي رحمه الله: « اعلم أنه تعالى رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب، فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البيئات، والمرتبة الثانية: كونهم مكذبين بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به، بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض، والمرتبة الثالثة: كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار، فين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب»^(١).

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

وعيدٌ شديدٌ لما ينتظرهم من الويل والثبور وعظائم الأمور؛ جزاء تكذيبهم الواقع واستهزائهم المستمر، وسوف يعلمون حين تنكشف لهم الحقائق، وترفع الحجب، ويعاينون العذاب أنهم كانوا على ضلال مبين.

قال صاحب الكشاف: « ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ ﴾ الشيء الذي ﴿ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ وهو القرآن، أي أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأي شيء استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٤ / ٤٨٣.

الإسلام وعلو كلمته»^(١).

وقال صاحب الظلال: «ويتركهم أمام هذا التهديد المجمل، الذي لا يعرفون نوعه ولا مواعده.. يتركهم يتوقعون في كل لحظة أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون! حيث يتكشف لهم الحق أمام العذاب المرتقب المجهول!»^(٢).

وإذا لم يتهيئوا لقبول الحق فليتهيئوا لهذا العذاب المقيم الذي ينتظرهم، ولقد جاء تفصيل هذه الأنباء في ثنايا السورة الكريمة.

غفلة عن السنن الربانية

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

إلى جانب الامتراء والإعراض والتكذيب والاستهزاء فلقد ضموا إلى سجلهم الحافل الغفلة عن سنن الله تعالى في الأمم الماضية ومن ذلك سنة الاستدراج، وسنة إهلاك المكذبين.

فلما توعد الله المشركين في الآية السابقة بسوء العاقبة: أمرهم أن يصرفوا أنظارهم ويسترجعوا تاريخ الذين مضوا من المكذبين المعرضين لعلمهم يعتبرون بهم، «وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب وفي رحلة الصيف للشمال، كما كانوا يمرون بقرى لوط المحسوفة ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث - فالسياق يلفتهم إلى هذه المصارع وبعضها منهم قريب»^(٣).

﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾: دعوة لهم إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية، وتوبيخ لهم: إذ كيف يمرون على مصارع أولئك الأقوام دون أن يعتبروا ويتعظوا بتلك الأمم

(١) الكشاف للزخشري ٢ / ٥

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢ / ١٠٣٧

الغابرة والحضارات البائدة كيف أصبحت أثراً بعد عين، وأطلا لا خربة بعد أن كانت مدائن عامرة وقصوراً زاخرة.

﴿مَكَتَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ﴾ : أي جعلنا لهم مدائن عامرة وقرى ظاهرة وآلات ومرافق ومزارع ومصانع وغير ذلك من مظاهر الحضارة والرفي.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ «أمطرت فأخرجت لهم الأشجار ثمارها، وأعطتهم الأرض ريع نباتها، وجابوا صحور جبالها، ودرت عليهم السماء بأطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها، فغمطوا نعمة ربهم، وعصوا رسول خالقهم، وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا حتى حق عليهم قولي، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة، وبعضهم بالصيحة، وغير ذلك من أنواع العذاب»^(١).

والخطاب في ﴿مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ﴾: لقريش خاصة وللعرب عامة: ولا شك أن الأمم ذات الحضارات البائدة كالفراعنة والرومان والإغريق والفينيقيين والبابليين قد مكَّن الله لهم ما لم يمكن لقريش ولا لغيرهم من سائر العرب.

ولكن: هل يمكن حمل الخطاب هنا على عمومهم فيشمل العرب وقت نزول القرآن ويشمل كل من بلغه الخطاب في جميع العصور؟ بما فيها عصرنا هذا؟

أقول: التمكين مسألة نسبية؛ فنحن في عصرنا هذا - والذي كثرت مسمياته وكلها تدور حول التقدم العلمي الهائل: فسمي: عصر العلم وعصر الذرة وعصر الفضاء وعصر الحاسوب - حيث تمكن العلم من ارتياد الفضاء والغوص في أعماق البحار والمحيطات، إلى جانب الثورة العلمية الكبرى في عالم الاتصالات، وعالم البنائيات ناطحات السحاب وعلم الهندسة الوراثية وغيرها من العلوم، مع ذلك فلا يزال العلم عاجزاً عن معرفة أسرار وهندسة

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٧ / ١٧٦.

البناء والتشييد عند الأمم البائدة من ذلك الأهرامات، وغيرها، كذلك أسرار التحنيط عند الفراعنة، بل وجدنا العودة إلى الطب الشعبي القديم القائم على التداوي بالأعشاب والأغذية وغيرها، بعد المخاطر والأضرار التي سببتها الأدوية الكيماوية، كذلك شهدت هذه العصور الغابرة من فنون العمارة والزخرفة والصناعات اليدوية الدقيقة: ما يثير الدهشة والإعجاب وما يعجز عنه المهرة من الصناع والحرفيين.

أَلَا يُفَهُمُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنْ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ قَدْ مَكَّنَ لَهَا فِي أُمُورٍ لَمْ يُمْكِنَ لَنَا فِيهَا؟

ومن حكمة الله عز وجل وأقداره أن وعت لنا ذاكرة التاريخ وبواطن الأرض وظواهرها وجدران الكهوف وودائعها: كثيرا من أخبار وآثار الأمم البائدة والحضارات الغابرة لتكون عبرة على مر العصور وكرِّ الدهور، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

تعنت وعناد

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لِمَنْ لَا يُنظُرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

طلبهم كتابا من السماء!

ما زال السياق في تتبع مواقف المشركين الذين جمعوا بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين الجحود والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآيات اقترحوها، لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا؛ فكان في ذلك هلاكهم، وماذا يُنتظرُ ممن عموا وصموا عن الشواهد اليقينية والبراهين الإيمانية ولجوا في عتو ونفورٍ وأغلوا في الضلال والغرور؟

والمعنى ولو نزلنا عليهم كما طلبوا كتاباً من السماء، فلمسوه بأيديهم، لقالوا إن هذا إلا

سحرٌ مبين، فهم لن يؤمنوا مهما تنزلت عليهم الآيات وتواترت الحُجُجُ وتتابعَت الدلائلُ.

طلبهم ملكا رسولا!

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ شَرًّا لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾؟ أي قال الكافرون: هلا كان مع محمد مَلَكٌ نراه ونصافحه ونسمع حديثه، ونحاوره! ومع أن هذا المطلب صدر عن بعضهم إلا أن الآخرين لم يعترضوا عليه فكان إقرارٌ منهم بذلك، والراضي عن القول كفائله.

﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ شَرًّا لَا يُنظَرُونَ ﴾: إن نزول المَلَكِ سيعجّل بعذابهم لأنهم لن يؤمنوا به وحينئذ لن يُمهّلوا ولن يُؤخّروا؛ فإن سنة الله قد جرّت في الكفار أنهم متى اقترحوا آيةً، ثم لم يؤمنوا: استؤصلوا بالعذاب.

قال تعالى في سورة الحجر ﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُرِىٰ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

قال قتادة: « لو أنزلنا ملكا ثم لم يؤمنوا العُجّل لهم العذاب ولم يؤخروا طرفة عين^(١) ».

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ ﴾: أي ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا، أو أنزلنا مع الرسول ملكا كما طلبوا: ﴿ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾: أي لأرسلناه في صورة رجل لأنهم لن يطيقوا رؤيته بصورته الحقيقية، لأنهم لم يتهيئوا لذلك، لأن الحواس البشرية تقصُر عن إدراك بعض الموجودات بل ولا تطيقُ أشياء كثيرة؛ فالأذن مثلا لا تسمع الأصوات التي تقلُّ ذبذبتها عن ١٣ ذبذبة في الثانية، ولا تطيق سماع الأصوات التي تزيد عن ٣٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية، وكذلك العين لا ترى كثيرا من الأشياء المحيطة بها مع أنها محسوسة فما بالنا بعالم الغيب!

(١) معالم التنزيل للبيغوي ٣ / ١٢٩.

﴿وَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾: أي لأوقعناهم في اللبس والإشكال والخلط، كما يفعلون ذلك مع أتباعهم من الضعفاء وكما يسعون إلى التلبيس عليك، وهنا يختلط الأمر عليهم أملك هو أم بشر؟

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «أي لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ لأنهم إذا رأوه في صورة إنسان قالوا هذا إنسان وليس بملك، فإن استدللّ لهم بأنه ملك كذبوه، قال الزجاج: المعنى للبسنا عليهم، أي على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويشككونهم، فأعلم الله عزّ وجلّ أنه لو نزل ملكاً في صورة رجل، لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون»^(١).

عاقبة المستهزئين المكذبين، وتسليّة وثبیت لخاتم النبيين.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾^(١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ بعد أن قطعت عليهم الآيات السابقة كل السبل المفضية إلى التكذيب والإعراض، وفندت مزاعمهم وبددت مطالبهم وأفصحت عن عنادهم، وكشفت عن تعنتهم في طلب الآيات، ينتقل الحديد إلى النبي ﷺ تسليّة لقلبه وتسرية لروحه وثبیتا لفؤاده وترويحاً عن نفسه بيان أن ما يحدث من تكذيب وإعراض وسخرية وعناد إنما حدث لإخوانه النبيين من قبله على أيدي الكفرة ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

حلّ بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه تكديماً واستبعاداً له واستخفافاً واستهانةً به.^(٢)

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني - ٢ / ١٠١ ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢ / ٢٣١.

(٢) فائدة في الفرق بين السخرية والاستهزاء: هما مترادفتان، إذا افترقتا اجتمعتا وإذا اجتمعتا افترقتا أي دلت كل واحدة على معنى، وقد يكون ورودهما في آية واحدة من قبيل التفنن والتنوع في الكلام، والاستهزاء أعم من السخرية فالاستهزاء قد يكون بذات الشخص أو بفعله أو بكلامه أو بوعيده، أما السخرية فإنها تكون من فعلٍ أو قولٍ أو حالٍ، ويقال سَخِرَ بنفسه أو سَخِرَ من حاله ولا نقول استهزأ بنفسه، واستهزأ =

دعوة إلى السير والنظر

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴾ (١١)

هذه دعوة إلى السير والنظر للاستبصار بالقرون الذاهبة، والاعتبار بالأمم الغابرة والتأمل في الحضارات الآفلة، ويحمل لنا التعبير ب (ثم) ضرورة النظرة المتأنية والتأمل العميق في مصير الأمم البائدة: « أَنْعَمُوا النَّظَرَ وَبَالِغُوا فِي التَّفَكُّرِ وَأَطِيلُوا التَّدْبِيرَ إِذَا رَأَيْتُمْ آثَارَ الْمَعْذِبِينَ لِأَجْلِ تَكْذِيبِ الرِّسْلِ، فَإِنَّكُمْ إِذَا شَاهَدْتُمْ تِلْكَ الْآثَارَ كَمَّلَ لَكُمْ الْإِعْتِبَارَ وَقَوَّى الْإِسْتِبْصَارَ، وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ فِي غَايَةِ الْإِنْكَشَافِ، فَكَلِمَا طَالَ الْفَكْرُ فِيهِ إِزْدَادَ ظَهْوَرًا »^(١).

قال أبو السعود: « وكلمة (ثم) إما لأن النظر في آثار الهالكين لا يتسنى إلا بعد انتهاء السير إلى أماكنهم، وإما لإبانة ما بينهما من التفاوت في مراتب الوجوب وهو الأظهر، فإن وجوب السير ليس إلا لكونه وسيلة إلى النظر »^(٢).

وقال ابن عاشور: « و { ثم } للتراخي الرتبي، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإن النظر في عاقبة المكذبين هو المقصد من السير، فهو مما يرتقى إليه بعد الأمر بالسير، ولأن هذا النظر محتاج إلى تأمل وترسُّم فهو أهمُّ من السير »^(٣).

وقال ابن المنير رحمه الله: « ... حيث دخلت الفاء فلاظهار السببية وحيث دخلت ثم فللتنبية على أن النظر هو المقصود من السير، وأن السير وسيلة إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم »^(٤).

= تتعدى بالباء لتفيد الإلصاق لإصاق الاستهزاء بالشخص وإن لم يستحقه، أما سخر فإنها تتعدى بمن . والله أعلم.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ٢ / ٥٩٣

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود ٢ / ٣٥٩

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢ / ٣٥٩.

(٤) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام أحمد بن المنير الإسكندري بهامش الكشاف ٢ / ٨.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تبدأ الآيات الكريمة في محاوره المشركين وعرض الحجج واستجلاء البراهين، مع تفنيد الأباطيل والشبهات، والإجابة المُفحِّمة على اعتراضات المشركين ومطالبهم التي علقوا إيمانهم بحصولها، كنزول الملائكة عليهم ومعهم الكُتُب التي يبصرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم وفي هذا ما لا يخفى من الامتراء والتعنت.

الهدايات المستنبطة

* كشفت لنا الآيات مواقف المشركين من الحقِّ لما جاءهم، فهم بين صدود وإعراض وسخرية وعناد ونفور واستكبار ومكابرة ولجاج وصدٌّ عن الحق ومكرٍ بأتباعه وغفلة عن سنن الله وآياته.

* تضمنت الآيات دعوة إلى النظر والاعتبار في سنن الله الماضية والجارية وفي مصير الأمم الغابرة، والاستبصار بالقرون الذاهبة، والتأمل في الحضارات الآفلة.

* التمكين مسألة نسبية فلقد مكن الله تعالى لبعض الأمم الغابرة ما لم يمكن لنا كما مكن الله لنا ما لم يمكن لمن سبقنا.

* السياحةُ مستحبةٌ إذا كان الهدف منها النظر والاعتبار في آيات الله تعالى المبثوثة في أرجاء الكون والتأمل في مصير الأمم والشعوب البائدة وآثارهم الشاهدة، أما سياحةُ العري والابتذال والخمر والميسر والتمرغ في أحوال الرذيلة فهي محرمةٌ شرعاً.

* جمع المشركون بين الإعراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء وبين التعنت والعناد من خلال مطالبهم المتعنتة لآياتٍ عجيبة لو نزلت عليهم لما ازدادوا إلا عنادا وإعراضا فكان في ذلك تعجيلٌ بهلاكهم.

* اتهام المشركين الرسول ﷺ بالسحر وهو لونٌ من ألوان التخيل والخذاع: اتهامٌ قديم تواطأ عليه المشركون في كل العصور وكأنهم يتوارثونه أو يتواصون به قال تعالى في سورة

الذاريات ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾: وهو نفس الاتهام الذي « يوجهه الماديون في كل عصر؛ لتغطية تمسكهم بالماديّ وحده، وإنكارهم ما عداه من القيم العليا في حياة الإنسان، فبالأمس رموا دين الله بأنه سحرٌ وأساطير، ويُرمى اليوم بأنه أفيون الشعوب، والسحر والأفيون كلاهما لا يعرض الواقع، ولكن يموه به في التصور فحسب، مع أن الماديين أنفسهم لا يسايرون الواقع؛ لأنهم انتهازيون وأثانيون ونفعيون ومخادعون؛ ومسيرة الواقع تقضي بالصرامة وسلوك الطريق المكشوف»^(١).

* تضمنت الآيات الكريمة تسليّة لقلب نبينا ﷺ وتسرية لروحه وتثبيتاً لفؤاده وترويحاً عن نفسه، ببيان أن ما يحدث من تكذيب وإعراض وسخرية وعناد إنما حدث من قبله لإخوانه النبيين عليهم السلام.

* تضمنت الآيات الكريمة الإيمان بالقدر فهو ركنٌ من أركان الإيمان لا يتمُّ إلا به.

* الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم وحلول النقم، فليحذر الكفرة والعصاة من سوء العاقبة.

* لو جاءهم الملكُ في صورته الحقيقية لما أطاقوها ولو تشكل في صورة بشرية لأنكروا كونه ملكاً.

* التكذيب والاستهزاء بالرسول دأب الجهلة والمعاندين في كل العصور، وقد جرت سنة الله تعالى بإهلاك المكذبين المستهزئين بعد إقامة الحجج عليهم وإمهالهم.

(١) التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - تفسير سورة الأنعام لمحمد البهي رحمه الله ص ١٨ بتصرف.

-٢-

مع الله

حجج بالغة

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنُبٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْأَنْبِلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْيَبَ اللَّهُ آخِذَ بِلِثَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنَّ أَمْرًا أَنْ كُنْتُمْ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المناسبة

تستأنف هذه الآيات الكريمة جولةً جديدةً بعد استفتاح السورة بالحمد وبيان جملة من دلائل القدرة وآيات الوحداية، ثم الحديث عن موقف المشركين الذين أعرضوا وكذبوا واستهزؤوا، وتعتوا وعاندوا، ثم أعقب ذلك تسليية نبينا ﷺ وتثبيتته، والدعوة العامة إلى السير والنظر للتبصّر والاعتبار.

بعد هذا البيان: يأتي الحديث عن تفرد الله تعالى بالملك واتصافه بالرحمة، وما يستتبع ذلك من جمع الخلائق يوم القيامة، وبيان أن الخسران لمن حرم نفسه من نعمة الإيمان، يعقب ذلك بيان دلائل قدرة الله وشواهد عظمتة جلّ في علاه وبراهين تفردّه فلا ربّ غيره ولا معبود سواه.

* ولما كانت السموات والأرض من الآيات الجليلة الظاهرة ناسب ذلك الحديث عن الآيات اللطيفة الخفية فقال تعالى ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣).

* ومن وجوه المناسبة أيضاً أنه تعالى لما تحدث عن الجمع يوم القيامة وما يستتبعه من حساب: بين هنا إحاطة علمه تعالى بأحوال البشر ما خفي منها وما ظهر، فهو السميع لكل قول، العليم بكل فعل، المحصي لأفعال العباد، وبهذا تنتظم هذه الآيات مع الهدف العام للسورة الكريمة، وهو تقرير العقيدة وبيان أركانها.

التفسير الإجمالي

سعة رحمته.

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٢)

﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾: في تعاقب الأمم وتوالي الأجيال وتبدل الأحوال وتداول القوى وانحيار الحضارات أعظم العبر؛ فلا يبقى أحد على حاله ولا يحتفظ ملك بملكه، ويظل الملك الحقيقي لله تعالى وحده، فالملك ملكه والتدبير تدبيره وإليه المرجع والمآب.

﴿كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾: قضى بذلك وكتبه على نفسه، ووعد وعدا مؤكداً لا يخلفه، وقال ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ لإفادة الاختصاص ونفي أي وساطة بينه وبين خلقه.

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تقرير للإيمان بالبعث فهو من الأمور اليقينية، وتذكير بيوم الحشر.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: وهذا من أعظم الخسران، خسران لا يعقبه ربح أبداً.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ

الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ [الشورى ٤٥]

عموم ملكه وشمول علمه:

﴿ وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾: فكل ما في هذا الكون ملكٌ

له تعالى، وتحت قهره وتدبيره وتصريفه.

قال صاحب اللطائف: « الحادثات لله ملكاً، وبالله ظهوراً، ومن الله بدءاً، وإلى الله رجوعاً»^(١).

والتعقيب بصفتي السمع والعلم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أفاد الإحاطة التامة بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركين بأن الله مطلعٌ عليهم، وتسليّةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.

الوليُّ

قال تعالى ﴿ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَخِيذٌ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

بعد تلك الأدلة والبراهين التي تقوّض معتقدات أهل الشرك وتقرّر عقيدة الحقّ: استنكر هنا إصرار المشركين على الشرك مع صاحب الملك وهو الخالق الرازق، وأمّر أهل الإيمان بالإعلان عن الإيمان والبراءة من الشرك والعصيان، ثم بين عز وجل أن من يُصرّف عنه العذاب يوم القيامة فهو المرحوم حقاً والفائز صدقاً.

ولما جاء الحديث في الآيات السابقة عن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بين هنا من هم الفائزون؟ وهم الذين نالوا رحمة الله، ولما قال فيما سبق ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ بين هنا من يستحقّها، ولما أشار فيما سبق إلى جمع الخلائق يوم القيامة، قسّمهم إلى فريقين: فريقٌ نال الخسران، وفريقٌ فاز بالرضوان.

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٠٧.

وأمر الله تعالى رسوله الكريم أن يُعلن البراء من اتخاذ وليٍّ من دون الله، أي ناصرًا ومعينًا، فهو تعالى فاطر السموات والأرض أبدعها وأنشأهما، ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ وفي هذا ردُّ على من ادعى ألوهية إنسانٍ أو حيوانٍ.

فالولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافع.

وهنا يُفسَّح المجال لإعلان الحقِّ، وإظهار المسلم لهويته في وجه هذا العالم المادي، ورفع لواء التوحيد وتنكيس رايات الشرك: ﴿قُلْ إِنْ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: ومع هذا الولاء لله تعالى والبراء من الشرك وأهله فإنه يُعلن خوفه ورهبته من الله تعالى وحذره من عذابه ﴿قُلْ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، «، ففي الآية تحذيرٌ شديدٌ من مقاربة المعاصي ومقارفتها»^(١).

أمر الله رسوله الكريم أن يصدع بهذا الحق ويعلن استنكاره على المشركين الذين لجثوا تارة إلى أسلوب الملاينة والمداهنة وتارة أخرى يستخدمون منطق القوة وسلاح الإيذاء ولغة العنف والتنكيل.

وفي وجه هذا الأسلوب المزدوج أمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ بهذا الاستنكار في الوقت الذي يعلن فيه خطورة الأمر ﴿مَنْ يُصِرْفَ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾: وأيُّ فوز أعظم من النجاة من النيران والفوز بالجنان!

القادر

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

بعد بيان إحاطة ملكه وعموم تصرّفه سبحانه في الآخرة، بين أن الأمر كذلك في الدنيا،

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام للشيخ عبد الحميد طههاز ص ٢٧.

فالتصَّرف فيها لله وحده، وفي هذه الآية تقريرٌ لتفرده تعالى بالولايةِ لأنه لا يدفع الضر ولا يجلب الخير سواه.

والمعنى إن تنزل بك شدةٌ من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ أو أذى فلا كاشف لها ولا يصرفها إلا الله، وإن يصبك بعافيةٍ أو رخاءٍ أو نعمةٍ فهو على كل شيءٍ قدير.

أما تلك الآلهة المزعومة فهي لا تملك نفعاً ولا ضراً؛ فكيف يتخذونها أولياء من دون الله! وإنما قابل الضر بالخير لأن الضر من الله ليس شراً في الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقاً وأدباً وعلماً وخبرة. وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدّم على نيل مقابله، كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدّم على النعيم.

القاهر

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٨)

هذه الآية تقريرٌ لما سبق، وبيان أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما جرى بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادته تعالى مبنيةٌ على حكمة وخبرة بما يصلح هذا الكون ويحقق التوازن في هذه الحياة.

فهو تعالى القاهر فوق عباده: فسبحان من خضعت له الرقاب، وذلت لقدرته الصعاب وعنت له الوجوه، وسجدت له الجباه، ودانت له الخلائق تواضعا لعظمته وخشوعاً وهيبة لجلاله وكبريائه وعلوه وقهره وإذعاناً لحكمته.

قال الألوسي: « والفوقية بمعنى الفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضاً وهي متحققة في ضمن الفوقية المطلقة، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى، منزهين له سبحانه عما يلزم ذلك مما يستحيل عليه جل شأنه، ولا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا يعدلون عن الألفاظ الشرعية نفيًا ولا إثباتًا، لئلا يثبتوا معنى فاسدًا أو ينفوا معنى صحيحًا فهم

يثبتون الفوقية كما أثبتها الله تعالى لنفسه»^(١).

الشهيد

﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ما زال السياق في بيان عظمته تعالى، وتفردّه بصفات الكمال، ونقض الشرك وتبديد ظلماته وأوهامه، ودحض شبهاته.

ومن قبل طلب المشركون نزول الملائكة والكتب في قراطيس عليهم وما زالت قائمتهم حافلة بالمطالب العجيبة والتي من بينها أنهم طلبوا من يشهد لرسول الله ﷺ: بصدق رسالته: روى الإمام الواحدي في أسباب النزول: « قال الكلبي: إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية»^(٢).

وبين سبحانه أن القرآن أعظم شهادة وأبلغ إنذار وأجلى بيان وأقوى حجة وأظهر محجة لكل من بلغته الدعوة من عرّب ومن عجم في كل عصر ومصر.

ثم أنكر عليهم شهادتهم الباطلة ودعواهم الكاذبة دعوى الشرك التي لن ينحاز لها عاقل ولن يقرّ بها صادق ثم أعقب ذلك بالإعلان عن شهادة الوحداية، شهادة الحق، وأتبعها بالبراء مما هم عليه من شرك، قال تعالى ﴿ أَيْتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

(١) روح المعاني للألوسي - ٧ / ١٤٩.

(٢) أسباب النزول للإمام الواحدي ص ١٢٢ ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ١٣٣.

موقف أهل الكتاب

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠)
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ بعد الحديث عن إعراض المشركين مع ظهور الحجج وتجلي البينات، أشارت الآيات إلى موقف أهل الكتاب الذين يعلمون أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين، وهو المبشَّر به في التوراة والإنجيل وقد جاءت كثيرٌ من أوصافه وشمائله فيها، لكن كثيرا منهم كتمَّ شهادته، وأثر الشرك؛ بغياً وحسداً وإيثاراً للهِوى، بدلا من المسارعة إلى الدخول في الإسلام والانضواء تحت لواء النبي الخاتم الذي بشرت به كتبهم.

قال ابن عادل: «اعلم أن الكفار لما سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد ﷺ، فأذكروا دلالة التوراة والإنجيل على نبوته بين الله - تعالى - في الآية الأولى أن شهادة الله على صحة نبوته كافية في ثبوتها، ثم بين في هذه الآية أنهم كذبوا في قولهم: لا نعرف محمداً، لأنهم يعرفونه بالنبوة والرسالة، كما يعرفون أبناءهم» (١).

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي قيل عنها مدنية، والصحيح أنها مكية، وإنما كان أهل الكتاب طرفا في تلك المعركة بين أهل الكفر وأهل الإيمان؛ حيث كان المشركون يرجعون إليهم للتحقق من نبوة نبينا محمد ﷺ حيث كانوا يرسلون إليهم، أو يقابلونهم في أسفارهم، ولعل بعضهم كان يعيش في مكة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾: « جمعوا بين أمرين باطلين، فكذبوا على الله مالا حجة لهم عليه وكذبوا بما ثبت بالحجة حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وسموا القرآن والمعجزات سحراً! » (٢).

(١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٦ / ٣٧٧، ويراجع: لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢١٤.

(٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ٧ / ٢.

فجمعوا بين الكذب والتكذيب، بين الافتراء على الله وتكذيب أنبيائه، فكذبوا على الله وكذبوا بآيات الله، فوقعوا في تناقضٍ عجيبٍ!

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يظفرون بمطالبتهم في الدنيا والآخرة، بل يبقون في الحرمان والخذلان، وكيف يُفْلحُ من كان الكذبُ له ديدناً، والظلمُ له معدناً!

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تتنظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث بيانٌ لدلائل القدرة وشواهد الوحدانية، وشهادة المولى جلّ وعلا لرسوله الكريم بصدق نبوته، ونزول القرآن الكريم بالإندار والتبليغ، واشتغال الكتب السابقة على أوصافه ﷺ، وبيان صدود المشركين وجحود فريقٍ من أهل الكتاب.

الهدايات المستنبطة

- * تحملُ لنا الآياتُ الكريمةُ نسماتٍ حانيةً تفوحُ منها عبيرُ الرحمة وتفتحُ بابَ الأمل والرجاء أمام المحرومين من نعمة الإيمان بأن يستدرکوا ما فاتهم، ويلحّقوا بقافلة الهدى ويستقلوا سفينة النجاة.
- * في الآياتِ الكريمةِ بيانٌ وتقريرٌ: لعمومِ ملكه وإحاطةِ سمعه وشمولِ علمه.
- * أفاد التعقيبُ بصفتي السمع والعلم الإحاطة التامة بجميع الخلائق، وبكل ما يصدر عنها، وفي هذا وعيدٌ للمشركين بأن الله مطلعٌ عليهم، وتسليّةٌ للمؤمنين بأن الله تعالى لا يخفى عليه حالهم.
- * إن الولاية لا تكون إلا لله فهو تعالى الخالق الرازق وهو الضارُّ النافع، وإن منطلق الحقِّ وميزان العقل يقضي بأن الذي يستحقُّ العبودية هو الخالق الرازق.
- * من أراد السلامة في الدنيا والآخرة فعليه بالتوجه إلى خالقه، وإنزال حوائجه بربه، ولزوم بابه والمداومة على عبادته والإقامة على خدمته، وانتظار فرجه، واستمطار رحمته.
- * على المسلم أن يعلن الحقَّ ويصدق به، وأن يُظهر شعائر دينه، ويعلن عن هويته في وجه هذا

العالم المادي، ويرفع لواء التوحيد ويُنكس رايات الشرك بالحجة والبيان، وفي هذه الآيات الكريمة توجية لإخواننا المستضعفين والأقليات المسلمة في بلاد الغرب وغيرها من الدول ذات الأغلبية الكافرة أن على المسلم أن يعلن عن هويته ويُصرِّح بدعوته وقيم شعائر دينه، ويحذر من الاندماج الذي يؤدي إلى الذوبان والانصهار والتبعية للغرب والتخلي عن جوهر الإسلام ومظاهره، مستعينا على ذلك بالعقيدة الراسخة.

* استشعار المؤمن خشية الله تعالى، واستحضاره عظمتُه سبحانه وتذكره عذاب الآخرة كلما غفلت نفسه عن الله تعالى، أو شردت عن باب فضله ورحمته، أو همت بمعصيته.

* درس عظيم للرسول الكريم ﷺ ولصحابته الذين اختاروا طريق الهدى وواجهوا في سبيل ذلك الكثير من العقبات، وبذلوا كثيرا من التضحيات، فجاءت هذه الآية ببيان حقيقة كونية وسنة إلهية على دعاء الحق أن يتمثلوها ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧ ﴾.

* ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما يجري بإرادة المولى عز وجل وسلطانه لا بإرادة العبد واختياره، وإرادته تعالى مبنية على حكمة وخبرة بما يصلح هذا الكون ويحقق التوازن في هذه الحياة.

* قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: « صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذرٌ لكل من بلغه هذا القرآن العظيم كائناً من كان، ويفهم من الآية أن الإنذار به عامٌ لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك، وأما من لم تبلغه دعوة الرسول ﷺ فله حكم أهل الفترة الذين لم يأتهم رسول، والله تعالى أعلم^(١) ».

* معرفة أهل الكتاب بالنبي الخاتم من خلال كتبهم التي يؤمنون بها، فمع ما حدث لهذه الكتب من تحريف بالزيادة والنقصان والتبديل إلا أنها لا تزال تحمل أثاراً من الحق تشهد بصدق النبي ﷺ.

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١ / ١٨٨ باختصار.

* أما كان من الأحرى لأهل الكتاب أن يكونوا من أول المؤمنين بالنبى ﷺ المناصرين له؟ بلى ولكنهم عرفوا الحق فجحدوه إلا من شرح الله صدورهم منهم لقبول دينه. فائدة حول حديث السورة عن رحمة الله.

ومع أن هذه السورة سيقت لإقامة الحجج على أهل الشرك وتفنيدهم وشبهاتهم ومواجهة عنادهم وإعراضهم وتبديد أوهامهم وإبطال معتقداتهم الفاسدة وتقاليدهم البالية إلا أنها حملت لنا نساءم معطرةً بعبق الرحمة الإلهية ﴿ قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فقدّم تعالى رحمته على إعلامه عباده بهذا اللقاء الموعد وذلك اليوم المشهود، ومن رحمته تعالى أن أمهل العصاة والمسرفين علمهم يرجعون ويثوبون.

ثم تهب نساءم الرحمات التي اختص الله بها أحبابه الذين آمنوا بآياته وصدقوا برسله: قال تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا سَلَّمْتُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْهُ بِعَدْوٍ وَأَصْلَحَ فَأِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

ومن رحمته تعالى أن أمهل المعرضين وهو الغني عنهم: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَدْلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾، ثم يهزّ تعالى بهذه الرحمة الواسعة قلوب المكذبين هزاً عليهم ينجلون من تكذبيهم ويستحيون من ربهم الذي لو شاء لعجل لهم العذاب البئس حيث لا راد له ولا رجعة فيه ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ وبيّن سبحانه أن الرحمة من المقاصد الأساسية لإنزال الكتب: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

ثم كان مسك الختام بالرحمة التي تجلّت مظاهرها وظهرت آثارها وهبت نساءمها ولاحت معالمها في نهاية المطاف: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُوكُمْ فِي مَاءِ أَنْتُمْكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

وحول رحمة الله تعالى نقتطف من كنوز السنة ما يلي:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَأَى خَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةً أَنْ تُصِيبَهُ) (١).

* وعنه رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وَضِعَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي) (٢).

وعنه رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَأَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوُحُوشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (٣).

وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبِي فَأِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِي تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِي أَحَدْتُهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَتَرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ) قُلْنَا: لَا وَاللَّهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا) (٤).

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب جعل الله الرحمة مائة جزء حديث ٥٦٥٤، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٧ - (٢٧٥٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] حديث ٦٩٦٩، وصحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٦ - (٢٧٥١).

(٣) صحيح مسلم كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ١٩ - (٢٧٥٢).

(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله - حديث ٥٦٥٣، وصحيح مسلم كتاب التوبة. باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢ - (٢٧٥٤).

-٣-

في موقف الحشر

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَظُنُّ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۗ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا أَيُّهُ لَا يَأْمُرُونَ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَجِدُونَكَ يَفْعَلُونَ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ عَنْهُ ۚ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْلِنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَوْ رَدُّوهُ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمَلُونَ أَوْرَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ ۖ وَلَهُمْ وَلَدَارٌ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْفَقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

المناسبة

بينت هذه الآيات مصير أولئك الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعاً، فيسألهم سؤال التهكم والسخرية في موقف العرض حيث لا مفر من الحقيقة التي طالما أعرضوا عنها في الدنيا وكذبوا بها، فيعربون عن أسفهم ويبدون ندمهم وحسرتهم على ما فاتهم ويُقرُّون بضلالتهم وانحرافهم بعدما كان منهم في الدنيا من مكابرةٍ وبَطَرٍ وامْتِراءٍ.

فيُقرعون بهذا الاستفهام الإنكاري ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ أين تلك الآلهة المزعومة؟ وهكذا تنقلهم الآيات إلى هذا المشهد المهيب الذي ينتظرهم بين يدي الحق فهل يتعظون؟ ويتراجعون عن إعراضهم وصدودهم، ويقبلون على الحق قبل فوات الأوان؟

التفسير الإجمالي

توبيخ وتهمكم!

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

تنتقل بنا هذه الآيات الجليلة إلى صورة حيّة من صور القيامة ومشهد من مشاهد الحشر حين يُعرض أولئك المعرضون المعتنون المكابرون على ربهم، ويمثلون أمام المحكمة الإلهية العادلة، لا يتخلف منهم أحد، ويسألهم ربهم سؤال تهكم وتوبيخ ﴿ أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟

براءة وحسرة

﴿ ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

- الفتنة: بمعنى الاختبار والسؤال، والفتنة أيضا بمعنى الإعجاب يقال فلان افتتن بكذا إذا أعجبه ووقع في حبه، وعلى هذا فالمعنى: ثم لم تكن نهاية حبهم للأصنام لما سئلوا عنها ووقفوا على عجزها إلا التبرؤ منها وإنكارها، أو المعنى ثم لم يكن جواب اختبارهم عن آلهتهم يوم القيامة إلا التبرؤ منها، «... وفي هذا توبيخ لهم كما تقول لرجل كان يدعي مودة آخر ثم انحرف عنه وعاداه يا فلان لم تكن مودتك لفلان إلا أن عاديته وبابنته...»^(١)، أو ثم لم يكن جوابهم إلا الكذب على الله طمعا في النجاة بأي وسيلة^(٢).

قال مجاهد: إذا جمع الله الخلائق ورأى المشركون سعة رحمة الله وشفاعة رسول الله ﷺ للمؤمنين قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد فإذا قال لهم الله: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيختتم الله على أفواههم

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤ / ١٦٥، ويراجع معالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٣٥.

(٢) مدارك التنزيل للنسفي ٧ / ٢، ويراجع: معالم التنزيل للبغوي ٣ / ١٣٥ وروح المعاني للألوسي ٥ / ٢٧٦.

فتشهد عليهم جوارحهم^(١).

ويؤيد هذا المعنى ما في الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَضَحِكَ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟) قَالَ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (مِنْ مُحَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبِّهِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟) قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ: فَيَخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، فَيَقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطَقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكِنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكَنْ كُنْتُ أَنْضِلُ)^(٢).

- أو المعنى ثم لم تكن ففتنتهم إلا الاعتراف بأنهم كانوا يعلمون الحقيقة وما منعهم من الإقرار بها إلا الجحود والكبر واتباع الهوى.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤)

تأمل يا محمد: كيف كذبوا على أنفسهم في الدنيا حيث عبدوا تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولم تغن عنهم من الله شيئاً!

ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لتجردوا للحق وأخلصوا في طلب الهداية حتى يهتدوا لكنهم خدعوا أنفسهم قبل أن يخدعوا غيرهم. ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١٤) [النمل: ١٤].

صدودٌ وإعراض

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا أَبَدُوا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

(١) يراجع معالم التنزيل للبغوي ٣/١٣٥ ويراجع الدر المنثور للسيوطي ٢/٥٤٣ وزاد المسير ٣/١٦.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - حديث ١٧ - (٢٩٦٩).

وَيَتَوَنَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

موقفان للمشركين: هذا الموقف موقف في الدنيا حيث الكبر والعناد والغرور والإعراض والصد عن سبيل الله كما ورد في هاتين الآيتين، والموقف الذي أخبرت عنه الآيات السابقة واللاحقة موقف الذل والهوان والخزي والعار والحسرة والندامة والتجرد والتعري والمصارحة والإقرار.

وبيانٌ لأسباب الصدود والإعراض وموانع القبول بالحق والإذعان له: ومنها ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجبُ عن الحق، وما في آذانهم من قر يحول دون سماعه وتدبره.

وإصرارهم على الكفر وشبهات المعاندين منهم التي تنطلي على عامتهم ومن بينها قولهم ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: يأتون إليك ليسمعوا قراءتك، فلا يفتنعون بها؛ لأن الله جعل ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ والأكنة جمع كنان وهو ما يُستر به الشيء ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمما عن السماع النافع، فهم كما قال تعالى ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات: لا يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ أي يحاجونك وينظرونك في الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومقتبسٌ منهم.

نبيُّ ونأي

﴿وَهُمْ يَبْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾﴾

ينهون الناس عن الاستماع إلى الحق واتباعه، ويتأون بأنفسهم عن الاستماع إلى الحق خوف أن يتأثروا به فيقبلوا عليه، وقد غاب عنهم أن هذا الصدود والإعراض سيعجل بهلاكهم لكنهم لا يشعرون بذلك.

وقال أبو السعود رحمه الله: « **وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ** » أي لا يقتنعون بما ذكر من تكذيبه وعده من قبيل الأساطير، بل ينهون الناس عن استماعه لثلاث يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ﴿ **وَيَتَوَكَّرُ عَنْهُ** ﴾ أي يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم عنه وتأكيذاً لنهيهم عنه، فإن اجتناب الناهي عن المنهي عنه من متمات النهي، ولعل ذلك هو السر في تأخير النأي عن النهي^(١).

وقال الثعالبي: « **وَنَفْيُ الشُّعُورِ مَذْمَةٌ بِالغَةِ؛ إِذِ البِهَائِمِ تَشْعُرُ وَتَحْسُ** »^(٢).

من مشاهد القيامة.

﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾^(٣) بل بدأ لهم ما كانوا يحفون من قبل **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴿^(٤)﴾ خزي وندامة!

تحمل هذه الآيات وعيدا لأولئك المشركين المعاندين وتذكيرا لهم بموقف من مواقفهم العصبية بين يدي رب العالمين، وفي الآيات تسلية لخاتم النبيين والمرسلين: ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ** ﴾: والتعبير بالفعل المضارع ﴿ **تَرَى** ﴾: لاستحضار تلك الصورة في ذهن المخاطب، ولو شرطية وجوابها محذوف للدلالة السياق عليه، أو لتذهب النفس في تصوُّره كل مذهب، وهذا من روائع الأساليب القرآنية.

لو تراهم يا محمد وهم خاضعون خانعون خاشعون من الذل، وعلى حافة جهنم واقفون قبل أن يُقذف بهم إلى قعرها السحيق، وقد تذكروا ما كان منهم في الدنيا من كفر وعناد وصدود وإعراض فندموا أشد الندم وتمنوا العود لإصلاح ما قد فات وطبي تلك الصفحات، وأنى لهم

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢ / ٣٦٨.

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١ / ٥١٢.

ذلك؟ وقد حقَّ القولُ ووقعوا في المهالك!

ولو ردوا كما يتمنون لعادوا إلى سالفِ عهدِهِم وانتكسوا على أعقابهم وانغمسوا في شهواتهم وملذاتهم.

﴿ وَتَوَرَّتْ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَرْدٌ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

حين يرون النار رأي العين ويوقفون عليها يعلنون الندم على جرائمهم والتبرؤ من شركهم ويتمنون العودَ للعالمِ الفانية ﴿ فَعَالُوا يَلَيْسَ لَنَا نَرْدٌ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾^(١).

تجلت لهم الحقيقة التي كانوا يعرفونها، الحقيقة التي واجهوها بجحودٍ وإنكارٍ، الحقيقة التي اجتهدوا في طمسها وإخفائها، وسعى الجبارة الطغاة منهم إلى حجبتها عن العامة والمستضعفين، الحقيقة التي كانوا يهربون من مواجهتها.

لكنها الآن متألقةٌ ومشرقةٌ، الآن يرونها رأي العين شاخصةً أمامهم ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ ﴾، بدا لهم الحقُّ الذي طالما تفانوا في طمس معالمة وتشويه صورته، بدت لهم نفوسهم عاريةً بقبحها الذي كانوا يخفونه بتجميلهم وتزيينهم الأباطيل وزخرفتهم الأقاويل، بدت لهم النار رأي العين وكانوا في الدنيا ينكرونها ويُخفون أمرها ويمنعون الحديث عنها.

مع ذلك ومن العجيب من حالهم الذي يعلمه الله تعالى أنهم لو أُجيبوا إلى ما يأملون لعادوا إلى سيرتهم الأولى، فما إنكارهم وتكذيبهم إلا إتباعاً للهوى وإعراضاً عن الحق وتعالياً على أتباعه وجحوداً وإنكاراً، وأنفةً واستكباراً ﴿ وَتَوَرَّتْ لِعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ شأنهم في ذلك شأن إبليس لعنه الله: عاين من آيات الله ثم عاند.

«وحاصل هذه الأقوال: أنهم عندما يقفون على جهنم ويرونها رأي العين تنكشف لهم

(١) قراءة حفص وحمة بالنصب بـ (أن) المضمرة بعد جواب التمني ﴿ وَلَا نَكْذِبُ ﴾، ﴿ وَنَكُونُ ﴾ وقرأ ابن عامر برفع الأول ونصب الثاني والباقون برفعها. يراجع النشر في القراءات العشر ١٩٣/٢.

الحقائق وتظهر الخفايا والسرائر، ولهذا ينكشف يوم القيامة أهل الرياء والنفاق وأهل الزور والخداع، يظهرون جميعا على حقيقتهم التي كانوا يتسترون عليها في الدنيا»^(١).

النظرة القاصرة لحقيقة الدنيا.

﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

بين الله تعالى في هذه الآيات سببا من أسباب صدودهم عن الحق وهو نظرهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل، في مقابل إنكارهم للبعث وما وراءه من ثواب أو عقاب، وتحمل لهم الآيات وعيدا شديدا وتذكرهم بموقفهم بين يدي الملك الجبار، خاشعين من الذل وهو يسألهم سؤال تبكيك وتوبيخ ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ فيجيبون وأنى لهم الهرب من الجواب الذين يعرفونه منذ أن كانوا في الدنيا لكنهم امتنعوا هناك عن الإجابة حين كانت تنفعهم، لكنهم اليوم يجيبون حين لا يجدي الجواب بل يصير حجة عليهم ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾: وبعد أن شهدوا على أنفسهم وأقربوا بما كانوا يحددونه في الدنيا، فليذوقوا جزاء تكذيبهم بعد شهادتهم وإقرارهم بجريمتهم، وهنا يأتي الأمر الإلهي الذي لا رجعة فيه ولا معقب له يجيء بالحكم العادل والقضاء الحق والأمر النافذ ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

فيا حسرة عليهم من هذا الموقف العصيب، ويا هول هذا المشهد الرهيب وهم واقفون على أقدام الحسرة، يقرعون أصابع الندم ويذرفون دموع الألم حيث لا شكوى تُسمع منهم ولا رحمة تنزل عليهم.

الخسران الأعظم

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَنْحَسِرْنَا عَلَىٰ مَا قَرَّرْنَا فِيهَا ﴾

(١) بصائر الحق في سورة الأنعام تأليف الشيخ عبد الحميد طهباز ص ٣٣ بتصرف.

وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ .

خسروا كل ما ربحه المؤمنون في الدنيا من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانسراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعّة التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكربة بخسارة الأهل وفراق الأحبة.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ ﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم وخسروا دنياهم وأخراهم بسبب تكذيبهم بقاء الله، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصُرُنَا عَلَىٰ مَا فَطَرْنَا فِيهَا ﴾ أبدوا الندم عندما باغتتهم الساعة، وأعلنوا الحسرة على تفريطهم في الدنيا وهي رأس مالهم، وتفريطهم في شأن الساعة حيث لم يؤمنوا بها ولم يستعدوا لها، وهم مع اشتداد الخطوب وإحاطة الكروب مع شدة الزحام وتلاصق الأقدام: يكابدون حمل الأوزار على ظهورهم وقد أثقلت خطاهم وأنهكت قواهم وأرهقت أجسادهم فبئس الحامل والمحمول.

﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ .

حقيقة الدنيا

ثم أبطل الله تعلقهم بالدنيا فبين أن متاعها قليل وإلى الفناء تصير لا تدوم لأحد ولا يدوم لها أحد فقال سبحانه ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ . فلحظات الصفا وأوقات الهنا فيها قليلة ضئيلة سرعان ما تزول، أما الآخرة: فنعيم مقيم، ومقام كريم، وعيش رغيد، وعطاء مديد، ومملك لا يبید، في جنات الخلود.

الصلة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة الكريمة: حيث تعرض لركن أساسي من أركان العقيدة وهو الإيثار باليوم الآخر ومواقف المشركين في هذا اليوم العظيم، وإقرارهم واعتذارهم وأسفهم وحسرتهم على ما كان منهم في الدنيا من تكذيب وإعراض،

وصدودٍ واغترارٍ وتعلُّقٍ بأهداب الدنيا الفانية وحبالها البالية، وتمنيهم عند معاينة أهوال الحشر وعَرَصاتِ القيامةِ العودةِ إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم ويغيروا مسارهم ويُصَحِّحُوا عقيدَتهم ويُصلِحُوا آخرتهم، بعد أن أدركوا حقيقة الدنيا الفانية ونعيمها الماحِلِ ومتاعها الزائل .

الهدايات المستنبطة

- * مصير الظلمة المعاندين عند المواجهة الحاسمة حين يحشرهم الله جميعا حيث المذلة والهوان والحسرة والندم والتراجع عن مواقفهم التي أصروا عليها في الدنيا.
- * من أسباب صدودهم عن الحق: ما على قلوبهم من أكنةٍ تحجب عن الحق، وما في أذانهم من وقر يحول دون سماعه وتدبره، فضلا عن نظرتهم القاصرة للدنيا وغفلتهم عن حقيقتها واغترارهم بها، وفتنتهم بمتاعها القليل.
- * إن الخسارة الحقيقية، هي الخسارة التي لا تعدها خسارة، ولا يمكن جبرها أو تعويضها أو النهوض منها أو التفلت من مغبتها ونتائجها وتبعاتها، هي خسارة الكافرين لدنياهم وأخراهم؛ ففي الدنيا خسروا كل ما ربحه المؤمنون من الرضا واليقين والأنس برب العالمين، والبهجة والسرور وطمأنينة القلب وانسراح الصدور، خسروا لذة المحبة في الله ولذة البذل والعطاء ومتعة التضحية والإيثار، وفي الآخرة الحرمان من الجنان والخلود في النيران فضلا عن الكربة بخسارة الأهل والأحبة.
- * تخليهم عن ماضيهم كله وإقرارهم بربوبية الله وحده؛ وتعريمهم من الشرك الذي مارسوه في حياتهم الدنيا، ولكن بعد فوات الأوان وانطواء صحائف الأعمال واستحالة العودة إلى الدنيا.
- * « ألا فليتأمل العاقل مصير هؤلاء، وما يؤول إليه حالهم من الاضطراب والقلق وتمني الخلاص من العذاب الشديد»^(١).

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة الزحيلي ٤ / ١٨٢ .

- ٤ -

تسليية وتثبيت

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾
 ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُذُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
 وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْغِي نَفَقًا فِي
 الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 ﴿٣٥﴾

المناسبة

بعد الحديث عن أحوال المشركين في الدنيا ومواقفهم المخزية في الآخرة وإقرارهم بما كانوا يجحدونه في الدنيا وفي هذا إنذار لهم مع ما تحمله الآيات من تثبيت لِفؤادِ النبي ﷺ وتسليية له: يعودُ السياقُ إلى بيانِ جملةٍ من أسبابِ صدودِهِم وإِعراضِهِم عن الحقِّ، لإقامةِ الحجَّةِ عليهم ولتسلييةِ النبي ﷺ الذي واجه كثيرا من المحن والعقبات على طريق الدعوة، وفوجئ بما لم يكن يتوقعه من تكذيب قومه وهم الذين كانوا يصفونه بالصادق الأمين ويودعون عنده أماناتهم ثقةً به واطمئناناً له.

التفسير الإجمالي

بينت هذه الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بما يفعله أولئك المشركون، وأن علة ما هم عليه من صدود: هو ما تنطوي عليه نفوسهم من مكابرةٍ وجحود، قال تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾.

ولقد ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية عن السدي قال: التقى الأحنس بن شريق وأبو جهل بن هشام، فقال الأحنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما

يكن بعيداً عليّ، لأنّي القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي ونافذ قضائي فيهم، من قبل أن أخلقهم وأصوّر أجسامهم»^(١).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لو شاء تعالى هدايتهم هداهم، فلا تكونن بحرصك على ما لم يشأ الله لهم ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بمقام الله تعالى وسننه في خلقه؛ فلا تأسف ولا تحزن على أمر أَرَادَهُ اللهُ وأمضاه، فهو تعالى أعلم بخلقهِ.

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

كشفت لنا هذه الآيات عن جملة من أسباب إِعْرَاضِهِمْ وتعتتهم وهو ما هم عليه من مكابرةٍ وجحودٍ، ثم دعا الله نبيه ﷺ للتأسي بمن سبقه من الرسل عليهم السلام فلقد كُذِّبُوا وأوذوا فصبروا وثابروا على دعوتهم، حتى أتاهم النصر المين، وتلك سنةٌ من سننه تعالى التي لا تتحول ولا تبدل، سنةٌ إهلاكَ المَكْذِبِينَ، ونصرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

الهدايات المستنبطة

* جرت سنة الله عز وجل في الدعوات أن تواجه بالتكذيب والصدود، ويثبت الله قلوب أنبيائه وأوليائه ويلهمهم الصبر واليقين حتى ينالوا النصر والتمكين.

* الدعوة إلى التحلي بالصبر والثبات في مواجهة أعداء الدعوة، فهو السلاح المضاعف في مواجهة المكائد والتحديات.

* الدعوة إلى التأسي بالأنبياء عليهم السلام في صبرهم وثباتهم ففي ذلك ما يهون المصاب ويثبت الفؤاد ويُجِمُّ القلب ويسرِّي عن النفس، وهو سلوة الحزين، ودواء المبتلى: وقد بياها قالت الخنساء في رثاء أخيها:

يذكرني طلوعُ الشمسِ صخراً وأذكرُ عند غروبِ شمسي

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٧ / ٢١٥، ٢١٦.

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزّي النفس عنه بالتأسي
* طريق الدعوات ليس مفروشا بالورود والرياحين بل محفوف بالعقبات والأشواك
والمخاوف والمكاره، وبالصبر والثبات واليقين يتحقق النصر ويتم التمكين.
* سنن الله تعالى في هذا الكون ثابتة لا تتبدل ولا تتحول؛ فعلى الدعاة أن يتبصروا بها.

- ٥ -

لماذا الإعراض؟

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أَمُّ أُمَّتِكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلِك رَّبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُؤُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّلْهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المناسبة

ما زال الحديث موصولاً حول تسليية النبي ﷺ وتثبيت فؤاده، وإقامة الحجج على المعرضين، وبيان أسباب صدودهم عن الحق وإعراضهم عنه، وهو أنهم لا يسمعون سماعاً حرص على الهدى، وأنهم في عداد الأموات، صُمّت آذانهم وعميت بصائرهم وماتت قلوبهم فأنى لهم الاستجابة: وقد قيل:

وقد أسمعت إذ ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي
أما عن مطالبهم المتعنتة فما هي إلا مكابرة وعناد، وجهل بسنن خالق العباد، فإنهم والله ما عرفوه حق معرفته وما قدروه حق قدره، وكيف يُطالبون بآيات وقد عموا وصموا عما حولهم

من آياتٍ ماثورةٍ وأدلةٍ ملموسةٍ وشواهدٍ جليّةٍ تنطقُ بعظمةِ الخالقِ وكمالِ قدرتهِ وبالغِ حكمتهِ، وسعةِ ملكه، وعظيمِ سلطانهِ وإحاطةِ علمه!

التفسير الإجمالي

موتى القلوب!

لماذا يُعْرِضُونَ والآياتُ تتلى والحججُ تترى؟ لماذا يُعْرِضُونَ وهم يعلمون صدق النبي ﷺ فيها جاء به؟ لماذا يُعْرِضُونَ والبراهينُ تهزُّهم هزًّا؟ لماذا لا يستجيبون لصوت الحقِّ النقيِّ الشجيِّ؟

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾:

يقول تعالى لنيه ﷺ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع القلب والاستجابة، ويتلقون البراهين بالقبول، وإن من تحرص على هدايتهم واستجابتهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون، وإنما يستجيب لك من يسمع.

أما الموتى: موتى القلوب فإن موعدهم حين يبعثهم الله ثم يحاسبهم حسابا عسيرا ويعذبهم عذابا شديدا جزاء إعراضهم ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

ونظير هذا قوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١]

قال الإمام الرازي: « وأما قوله ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾: ففيه قولان: الأول: أنه مثلٌ لقدرته على إرجائهم إلى الاستجابة، والمراد: أنه تعالى هو القادر على أن يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ثم إليه يرجعون للجزاء، فكذلك هاهنا أنه تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه.

والقول الثاني: أن المعنى: وهؤلاء الموتى يعني الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، فحينئذ

يسمعون وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم»^(١).

إصرارٌ عجيبٌ ومنطقٌ غريبٌ!

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ٣٧ ﴾

إصرارٌ عجيبٌ على مطالبٍ تدلُّ على تعنتهم وعنادهم وجهلهم؟ فالآياتُ تتجلى من حولهم: آياتُ الأنفس والآفاق، وآياتُ القرآن وهو المعجزةُ الكبرى.

ومع ذلك يصرون على المزيد من الآيات! وهل قدرةُ الله تعالى تحتاج إلى إثباتٍ؟ كلا! والله، ولكنه الصدودُ والإعراضُ، ولو أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوه ما آمنوا بل تمادوا في مطالبهم التي لن تتوقف.

وفي الباب: «لما ظهرت المعجزةُ القاهرةُ، والدلالةُ الكافية لم يَبْقَ لهم عُذْرٌ ولا عِلَّةٌ، فبعد ذلك لو أجابهم الله - تعالى - إلى اقتراحهم فَلَعَلَّهُمْ يَقْتَرِحُونَ اقْتِرَاحًا ثَانِيًا وَثَالِثًا وَرَابِعًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَذَلِكَ يَفْضِي إِلَى الْأَيْسْتَقْرَرِ الدَّلِيلِ وَلَا تَتِمُّ الْحُجَّةُ، فَوَجِبَ سَدُّ هَذَا الْبَابِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَالِاكْتِفَاءُ بِمَا سَبَقَ مِنَ الْمَعْجِزَةِ الْقَاهِرَةِ»^(٢).

وإنما هذه المطالب: بسبب تعنتهم وعنادهم وغفلتهم وجهلهم بقدرة الله تعالى التي تنطق بها مخلوقاته، وتشهد له بالعظمة المتجلية في كلِّ ما أبدعه من كائنات وما بثه في هذا الكون من عوالم ومخلوقات ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ شَرٌّ لَكَ رَبِّهِمْ يُخَشَرُونَ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾: أممٌ وعوالمٌ لا يحصيها عدداً إلا خالقها وباريها.

والكتاب هنا هو اللوح المحفوظ بدليل سياق الآية الكريمة ومضمونها: ويدلُّ على ذلك ما ورد في نفس السورة: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

(١) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٥٢١.

(٢) الباب لابن عادل ٦ / ٤١٩، ويراجع: فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٣.

وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْرُسُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

وقوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (لَتَوَدََّنَّ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجُلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) ^(١).

فإذا كان الله تعالى يحشر تلك العجاء ليفصل بينها ويقتصن لمن ظلم منها، فإن حشر أولئك الذين ملئوا الدنيا ظلماً وجوراً من باب أولى؛ فالله تعالى لا يغفل عن أولئك الطغاة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

حُجَّةٌ بِالْغَةِ

من مظاهر القدرة الإلهية

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أُمَّتَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [٣٨] إن هذه العوالم التي تعيش من حولنا لتشهد بقدرة الله تعالى وبديع صنعته؛ فالله تعالى قادرٌ على أن ينزل الآيات التي طلبوها لكنهم لن ينتفعوا بها.

تُحْبَطُ فِي الظلمات

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُورًا وَيَكْفُرُوا بِالظُّلْمِ فِي الْظُّلْمِ مِنَ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلُهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

(١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم حديث ٦٠ - (٢٥٨٢) ورواه الترمذي في السنن أبواب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص - حديث ٢٥٣٥.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك المكذبين بآيات الله المعرضين عن الحجج الساطعات مثلهم في تخبطهم وضلالهم وعجزهم وضياعهم كمثل أصم أبكم لا يسمع ولا يتكلم وهو مع ذلك يتخبط في الظلمات فلا يرى بصيص نورٍ ولا يبصر طريقَ هدى.

ظلمات عديدة يتخبطون فيها: ظلمة التكذيب والإعراض، وظلمة الشرك، وظلمة الجهل، وظلمة التعصب الأعمى، والتقليد المذموم، وظلمة الشهوات والأهواء، ولو شاء الله تعالى لبصرهم وهداهم صراطه المستقيم، ولكنه تعالى عليهم بخباياهم مطلقاً على أحوالهم، ولو علم فيهم خيراً لهداهم وأسمعهم سماعاً إجابياً وقبولاً.

ضعف وافتقار!

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

وهم مع هذا العناد والإنكار والإعراض والاستكبار ضعفاء مفتقرون إلى ربهم، فإذا حل بهم بلاء أو نزلت بهم نازلة علموا أنه لا يكشفها إلا الله وحده فتوجهوا إليه مخلصين تاركين أصنامهم التي نافحوا عنها وهم يعلمون أنها لن تغني عنهم من الله شيئاً، فإذا كشف الضر عنهم عادوا إلى شركهم وإعراضهم، فهذا حالهم عند الشدة والبلاء ضعف وانكسار واستكانة وافتقار، فإذا انكشف البلاء عادوا إلى الجحود والاستكبار.

فالآية تخاطب ضمائرهم ومشاعرهم وتذكرهم بحالهم وعودتهم إلى الفطرة حيث الإخلاص والتجرد في الدعاء عند الشدائد والمحن؛ طمعا في النجاة ﴿ أَعْبَرِ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ ألستم تتوجهون إلى الله وحده في لحظة من الصدق تفرضها عليكم وطأة المحنة؟ إن كنتم صادقين مع أنفسكم؟ أليست هذه هي حالكم عند الشدائد؟ أترجعون إلى الله في حال الشدة والبلاء وتنسونه في حال اليسر والرخاء؟ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ بل تخصّصونه وحده بالدعاء وتتوجهون إليه وحده بفطر تكم وقلوبكم فيستجيب لكم ويكشف عنكم ما نزل بكم.

الصلة بين هذا المقطع ومحور السورة

تتنظّم آيات هذا المقطع مع محور السورةِ الكريمة؛ حيث تقرّرُ العقيدة الصحيحة بما تضمنته الآياتُ من بيانِ كمالِ قدرته تعالى وعظمةِ سلطانه وإحاطةِ علمه وشمولِ ملكه، وبما أبانته من أسبابِ صدودِ المشركين، مع تتابعِ الحججِ وتسلسلِ البراهين، فأنى لهم الاستجابة وهم موتى لا يسمعون؟ وكيف يطلبون المزيد من الآيات، وهم عما حولهم من آياتٍ ظاهرةٍ ودلائلٍ باهرةٍ عمّونَ غافلون؟ كما تكشفُ لنا الآياتُ عن حالهم عند الشدائدِ والمحنِ وهم ضارعون خاشعون مخلصون لله في الدعاء، فإذا انكشف البلاء ارتفعت المحنة عادوا إلى سالفِ عهدهم وارتدوا على أعقابهم!

الهدايات المستنبطة

- * إنما يستجيب لدعوتك أحياء القلوب، الذين صفت سرائرهم، وتعلقت نفوسهم بالحق، أما موتى القلوب فأنى لهم الإستجابة؟
- * الإستجابة للحق تتطلب سماع إصغاءٍ وفهمٍ وتدبُّرٍ، وحرصٍ على الانتفاع، وهذا مسلك الحريصين على الحق الناشدين له، أما المعرضون فإنهم لا يسمعون سماع تدبُّرٍ ولا ينظرون نظر إمعانٍ ورويةٍ فقد ماتت قلوبهم وصُمّت أذانهم.
- * في قوله تعالى ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾: « دليلٌ على أن الكتاب الأول، قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب: علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقته لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد»^(١).
- * الإيذان حياة القلوب ونور البصائر، وأولئك الكفرة المعاندون حرّموا أنفسهم من هذه الحياة ورضوا بالعيش في الظلمات، ورضوا بأن يحسبوا في عداد الأموات وقد قيل:
الناسُ صنفانِ موتى في حياتهمُ وآخرونَ يبطنُ الأرضِ أحياءُ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٥، ٢٥٦.

* ما زال المشركون مصرين على طلب الآيات، وقد علقوا إيمانهم بها، والله تعالى قادر على إنزال الآيات التي اقترحوها، ولو شاء لأنزلها، ولكنهم يغفلون عن سننه تعالى ولا يعرفونه سبحانه حق معرفته.

* بينَ تعالى أن في الكون آياتٍ باهرة وعوالمَ ظاهرة تشهد لله تعالى بكمال قدرته وعظيم حكمته فكيف يغفل عنها الغافلون! أم كيف يعرضُ عنها المعرضون! وهي آياتٌ محسوسةٌ وملموسةٌ، آياتٌ حسيّةٌ ماديةٌ تشهد لله تعالى بوحدانيته.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أقول: الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى وفقا لعلمه وحكمته، وهذه الآية مجملّة لها بيانٌ في آياتٍ أخرى عديدة منها قوله تعالى ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] وقوله ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ ﴾ [محمد: ١٧] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

* ما من سالكٍ طريقِ الحقِّ بصدقٍ وتجرّدٍ وعزيمةٍ واجتهادٍ إلا وُفِّقَ إليه.

* في الآيات الكريمة أدلة متنوعة وحجج ساطعة، منها أدلة العناية وأدلة الفطرة وغيرها من الأدلة التي تشهد بأن لهذا الكون إلها واحدا قادرا عليها حكيمها هو الله تعالى الذي تتجلى قدرته في كلّ ذرّةٍ من ذراتِ هذا الكون.

* يخاطب الله تعالى فطرتهم حين يصدّقُ توجّههم إلى ربهم ويخلصون له الدعاء عند الشدائد والمحن، وهذا من البراهين الدالة على أن التوحيد قضيةٌ بديهيةٌ، يسلم لها القلب إذا صفا وتجرّد، أما تلك الأصنام التي ينافحون عنها ويستبشرون بذكرها ويقدمون لها القرابين فإنها في غمرة النسيان عندما تدهم الخطوب وتنزل المحن ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ (٤١).

- ٦ -

سنن ربانية

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا
ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ
﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ
وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكَمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المناسبة

جولة أخرى مع أولئك المعرضين المعاندين، وجملة من الحجج والبراهين، وتذكير بسننه تعالى في الأولين، وبأسه الذي لا يردُّ عن القوم المجرمين، وفي ذلك أبلغ العبر وأعظم النذر لأولئك المكابرين الجاحدين، ومن بين هذه السنن التي تُذكرُ بها الآيات: سنة الابتلاء وسنة الاستدراج، كما تُذكرُ بنعمه تعالى التي إن شاء سلبها عنم لا يؤدي حقها ويرعى أمانتها.

التفسير الإجمالي

يدور الحديث في هذه الآيات عن إرسال الله تعالى إلى الأمم السابقة وابتلائهم وموقفهم من تلك الرسالات، وأسباب صدودهم وإعراضهم عن تلك الدَعَوَات، وعاقبة ذلك، وهذا من أبلغ النذر، وأعظم العبر، ولكنَّ المشركين قد صُمِّت آذانهم وعميت أبصارهم وقست قلوبهم فلا ترعوي ولا تعتبر بمصارع السابقين، وعاقبة المُكذِّبين، وهنا يلتفت الخطاب إليهم مُدَّكرًا بتلك النعم التي لم ينتفعوا بها نعمة السمع والبصر والقلب، ومُحذِّراً من سلب تلك النعم التي لم يؤدُّوا سُكْرَهَا ولم يوفِّوا بِحَقِّهَا، ثم توعدهم الله تعالى بمصير من سبقهم من المكذِّبين، وماذا يكون حالهم حين يباغتهم العذاب أو يأتيهم جهرةً قد لاحت في الأفق مقدماته وظهرت

بوادره وبدت علاماته.

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

بيان لسنة الابتلاء: حيث الابتلاء الجماعي للأمم والشعوب كالاقتداء بالحروب والمجاعات والأوبئة والأزمات؛ وذلك تمحيصاً لها وتصحيحاً لمسارها، وإصلاحاً لفسادها وإزالة لتراكمات السنين من آثار المعاصي والذنوب، وتجريداً للقلوب وترقيقاً للمشاعر وتوجيهها إلى الله تعالى، فترى الأكف ضارعة والأعين دامعة والقلوب خاشعة، لكن أهل الجحود والهوى لا تزيدهم الشدائد إلا قسوة وعناداً، وصدوداً وإعراضاً، فتصبُّ أنهار المحن في بحار الذنوب، فلا يخرجون من هذا الابتلاء إلا بالخيبة والخسران.

﴿ فَلَمَّاسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

تلك هي سنة الاستدراج: حيث يُستأنف الاختبار من جديد، لكنه هذه المرة يكون أشدَّ صعوبةً لأنه ابتلاء بالنعمة، إنها فتنة الاستدراج، وقد أقبلت الدنيا عليهم وفتحت لهم أبوابها ففرحوا بما أُوتوا فرح العُجب والاغترار والخيلاء والاستكبار، فرحوا بالنعمة وانشغلوا بها عن المنعم، أعلنوا عن فرحهم بالمعاصي والموبقات؛ تعبيراً عن الفرح بما أُوتوا من ظل زائل وعارية مستردة، حتى يبلغ بهم هذا الفرح المذموم المشؤم نهاية الطريق: طريق الهاوية ﴿ فَلَمَّاسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾: حزاني آيسون من كل خير، نادمون على كل ما وقَّع منهم ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾: قطع الله دابرهم فأهلك أولهم وآخرهم ونجَّ عباده الصالحين من شرورهم ومفاسدهم وعافاهم من ظلمهم وشؤمهم فالحمد لله على أن أراح منهم العباد والبلاد.

تعقيب

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْكَمَ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾: ما زال السياق في محاوره المشركين وقرعهم بالحجج والبراهين، وفي هذه الجولة يتوعدهم الله تعالى بسلب نعم من أجل النعم عليهم: نعمة السمع ونعمة البصر؛ ونعمة القلب، كما سلب الله تعالى نعمه عن المكذبين من الأمم الخالية، « وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا»^(١).

﴿ مَنَ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ فإذا سلبهم الله هذه النعم التي أنعم عليهم بها فمن يضمن لهم رد تلك النعم المسلوقة؟ وأين أهتهم المزعومة؟

﴿ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾: حجج باهرا وآيات بينات، متنوعة ومتابعة، تدل على قدرة الله تعالى وتفرده بالوحدانية، وهم يصدفون عنها مع وضوحها وجلالها! وأصل الصدف: الميل والإعراض^(٢).

قال أبو السعود رحمه الله: «... انظر كيف نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب، تارة بترتيب المقدمات العقلية وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾... ﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد صدوفهم أي إعراضهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديع الموجب للإقبال عليها»^(٣).

(١) لباب التأويل للخازن ٢/ ١٣٤.

(٢) يراجع المصباح المنير للفيومي ص ١٧٥ ومختار الصحاح للرازي ١٥٠ ص مادة ص د ف.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٣٨٣، ٣٨٤ باختصار.

ثم يتوعدهم جل وعلا بعذاب يأتيهم بغتة دون سابق إنذار أو جهرة قد ظهرت أماراته ولاحت في الأفق علاماته ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ « ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بريهم»^(١).

الصلة بين المقطع ومحور السورة

من أصول العقيدة الإسلامية الإيذان بالسنن الربانية الثابتة في هذا الكون والتي تدلُّ على قدرة الله تعالى وحكمته وإحاطة علمه وتمام عدله وسعة رحمته ولطفه بأوليائه، وقد تضمنت آياتُ هذا المقطع جملةً من هذه السنن الربانية مع التذكير بأعظم النعم الإلهية: نعمة السمع والبصر والفؤاد، في سياق تقرير أصول الدين وتسليية المصطفى الأمين، وإقامة الحجج على الكافرين، وتنبية الغافلين.

الهدايات المستنبطة

* من السنن الربانية الواردة في هذه الآيات: سنة الابتلاء، وسنة الاستدراج وسنة إهلاك المكذبين.

* في قوله: ﴿ فَقُطِعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ » أي على هلاكهم: « تعليم للمؤمنين كيف يمدونه سبحانه عند نزول النعم التي منها هلاك الظلمة الذين يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، اللهم أرح عبادك المؤمنين من ظلم الظالمين، واقطع دابرهم، وأبدلهم بالعدل الشامل لهم»^(٢).

* في الآيات الكريمة تهديد لهم بأن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم الهالكة أو أن يسلبهم الله تعالى تلك الحواس المعطلة: حاسة السمع والبصر، ويختم على تلك القلوب

(١) مدارك التنزيل للنسفي ١٢/٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١١٦/٢.

القاسية التي لا تعتبر بالآيات ولا تسلّم بالحجج ولا ترعوي بالندر.
* إعراض المشركين عن الآيات مع مجيئها على وجوه متعددة وبأساليب متنوعة تارة بالإجمال وتارة بالتفصيل وتارة بالعرض وتارة بالتحليل ومرة بالترغيب وأخرى بالترهيب، مع تتابع الحجج وتجلي البراهين ثم هم يميلون عن الحق مع هذا التصريف البديع.

- ٧ -

مهمة الرسل عليهم السلام

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْهُ بَدَّهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَنْبِيَاءَ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المناسبة

وجوه الارتباط بين هذه الآيات وما قبلها واضحة جليّة: منها الحديث المشترك عن

الرسول والرسالات، فأيات المقطع السابق تحدثت عن موقف أمم سابقة من دعوات المرسلين، وما ترتب على تكذيبهم وإعراضهم من ابتلاء أعقبه استدراج ثم استئصال وفي هذه الآيات حديث عن الحكمة من إرسال الرسول وتصحيح لتصورات المشركين الخاطئة حول الرسل والرسالات وبيان مهمة الرسول ﷺ والإجابة عن مقترحاتهم التي يصرون عليها.

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة: بيان لمهمة أساسية أرسل الله تعالى من أجلها رسله عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارين، والإنذار للمكذبين بالخسران المبين والعذاب المهين

وفي تلك الآيات رد على اقتراحات المشركين التي تدل على جهلهم بحقيقة الرسالة ووظيفة الرسل من ذلك قولهم أنفا كما أخبر القرآن ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾، وقولهم كما ورد في سورة الإسراء ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿١٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِمَّنْ يَخْجِلُ وَعَنْبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَ تَفْجِيرِهَا ﴿١١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ فَبَيِّنًا ﴿١٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِمَّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٤﴾﴾.

- ثم تصحح الآيات نظرة المشركين المادية، وتصورهم الخاطيء لمهمة الرسول ﷺ قال تعالى ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم يبين حدودَ مهمته التي أُرْسِلَ من أجلها: وهي إتباع الوحي ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ أي فما أنا إلا متبعٌ للوحي لا أحيِدُ عنه، ثم يوجه لهم هذا الاستفهام ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فلا يمكنُ بأي حالٍ أن يستوي الأعمى والبصير، الضال والمهتدي، من عرف طريق الحقِّ فلزمه، ومن أعرض عن الحق وتنكَّب عن الصراط! ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أفلا تتفكرون في هذه الأمور الواضحة، التي لا لبس فيها ولا غموض؟ وفي هذا تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلّت، وإنكارٌ عليهم تعطيلهم لعقولهم، كيف تغفل عن هذه الحجج الواضحة، وتتخبَّط في ظلمات الجهل ومناهات الكفر.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يُعلِّمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي، وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بها كان وما سيكون، وأنه ليس بملكٍ حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر، إنما هو نبيٌّ مرسلٌ، مُتَّبِعٌ لما يوحى إليه من ربه عز وجل، فإذا أخبر عن غيبٍ فبوحى من الله إليه.

ذلك: أن القوم كانوا يفتَرِحُونَ عليه إظهارَ معجزاتٍ قاهرة، كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] فقال تعالى في آخر الآيات: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني: أنا لا أدعي إلا الرسالة والنُّبُوَّةَ، وهذه الأمور التي طلبتموها لا يمكن تحصيلها إلاَّ بقدره الله.

منطلق حوارِي

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١)

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أنذر بهذا القرآن من ينتفع بهذا الإنذار من المؤمنين المخلصين الذين يخافون من يوم الحشر، فيعملون لهذا اللقاء الذي لا يغيب عن بالهم ولا يفارق خواطرهم، وأنذر به كل من يؤمن بهذا اليوم ويقر به من طوائف المشركين

وأهل الكتاب، وذلك بأن يكون الإيمان بيوم الحشر: قاعدةً مشتركة وركيزة ثابتة ومنطلقاً حُورياً؛ للبحث عن الزاد الحقيقي لهذا اليوم والطريق الصحيح للنجاة من أهواله وعقباته فالطريق: طريق القرآن والزاد: مخافة الرحمن.

قال الإمام الشوكاني: « وخص الذين يخافون أن يحشروا، لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له، فإنه لا يؤثر فيه ذلك»^(١).

وقال الخازن: « قال ابن عباس: يريد المؤمنين لأنهم يخافون يوم القيامة وما فيه من شدة الأهوال. وقيل: معنى يخافون يعلمون والمراد بهم كلُّ معترف بالبعث من مسلم وكتابي وإنما خصَّ الذين يخافون الحشر بالذكر دون غيرهم وإن كان إنذاره ﷺ لجميع الخلائق لأن الحجة عليهم أوكد من غيرهم لاعترافهم بصحة المعاد والحشر»^(٢).

﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِلْيٌ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه سبحانه إن أرادهم بهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم به الله يوم القيامة من عذابه.

لفتة إلى المؤمنين

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١١٩.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٢ / ١٣٥ باختصار.

الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٦﴾

في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذة الضلال ودعاة الحق ومصاييح الهدى، لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرف كلَّ جهده في محاوره خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغل عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانه وجهده إليهم فإنهم غرسٌ مشمر وثمره مباركة.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعدٍ رضي الله عنه قال في نزلت ﴿ وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ قَالَ نَزَلَتْ فِي سِتَّةٍ: أَنَا وَأَبْنُ مَسْعُودٍ مِنْهُمْ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَالُوا لَهُ تُدْنِي هُوَ لَاءِ؟ ^(١)

وفي رواية أخرى لمسلم بسنده عن سعدٍ رضي الله عنه قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ اطْرُدْ هُوَ لَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَأَبْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هَذَيْلٍ وَبِلَالٌ وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَلَا تَقْرُؤْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ^(٢)

والظاهر أنه ﷺ همَّ بأن يعقد مجالس خاصة بالأغنياء؛ إجابةً لمطلبهم، وحرصاً على هدايتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة بيانا لمنزلة أولئك المؤمنين وإن كانوا فقراء مستضعفين فإن منزلتهم عند الله عظيمة، والإسلام: منهج واضح ودين واحد، ينضوي تحت رايته جميع الناس فقيرهم وغنيهم، ضعيفهم وقويهم فكلهم في دين الله وشرعه سواء، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ﴿١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حديث ٤٥- (٢٤١٣).

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنه باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حديث ٤٦- (٢٤١٣).

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة رضي الله عنه قال حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى^(٢)).

وقد بينت الآية الكريمة حال أولئك المؤمنين ومداومتهم على الذكر والعبادة، وتعلق قلوبهم في جميع أحوالهم وسائر أوقاتهم بالله تعالى ذكرا وقرباً وتضرعاً وحباً، وسعياً إلى رضاه وابتغاء وجهه الأعلى ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَفْئِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾: فإن حسابهم على أنفسهم، وحسابك على نفسك، والغنى والفقير أمرٌ قدره الله تعالى وقسمه بين خلقه لتستقيم الحياة، والداعية لا يقبل المساومات والإغراءات على حساب دعوته فيستجيب لأهواء المشركين ويسلم لهم بما لديهم من تكبرٍ وازدراء لمن دونهم، إذ كيف يرضى بهذا الظلم البين والتعصب المقيت؟ وإنما جاء الإسلام لتحقيق العدالة والمساواة بين الناس.

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله حديث (٣٤) - (٢٥٦٤).

(٢) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة ٥ / ٤١١ وإسناده صحيح إلى أبي نضرة إلا أنه مرسل لأن أبا نضرة ليس صحابياً، ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ٣ / ٥٧٨ برقم ٥٦٢٢ - وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، ولقد ورد الحديث متصلاً عند الطبراني والبخاري حيث رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كما في كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي ٢ / ٤٣٥ حديث ٢٤٤ - ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه ٥ / ٣٧٦ حديث ٤٧٤٦ - وقال الهيثمي في المجمع: "رواه البزار في مسنده عن أبي سعيد الخدري ورجال البزار رجال الصحيح ورواه الطبراني في المعجم الأوسط عنه". مجمع الزوائد ٨ / ٨٤.

علمه تعالى بمن يستحق الهداية

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُوا لِمَنْ أَلَّيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾: ثم بين تعالى أنه جعل إيمان هؤلاء المستضعفين فتنةً لجهاذة الكفر الذين قالوا كبراً وعناداً كما أخبر القرآن الكريم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الأحقاف: ١١]، لكنه تعالى أعلم بمن يستحق الهداية، وهم لا يفهمون حقيقة هذا الدين الجديد الذي جاء بعقيدة التوحيد ومبدأ الوحدة والمساواة بين الناس فلا فرق بين عربي ولا عجمي ولا بين فقير وغني إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وسنة الله في تاريخ الدعوات الصادقة أن أغلب من يحمل لواءها ويسير في موكبها هم الفقراء والضعفاء، ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان عن أحوال النبي ﷺ ودعوته وأتباعه... قال هرقل: فأخبرني عن أتباعه منكم، من هم؟ قال أبو سفيان: قلت: الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه، فلم يتبعه منهم أحد... ثم قال هرقل لأبي سفيان:... وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء؛ وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان.^(١)

فكان المشركون يسخرون من المؤمنين ويزدرونهم، وكانوا يقولون: ﴿ أَهْتُوا لِمَنْ أَلَّيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾؟ أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ ﴾ [مريم: ٧٣].

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢ / ٢٨ والبداية والنهاية لابن كثير ذكر خروج رسل رسول الله ﷺ

قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ۖ﴾ (٧٤) [مريم: ٧٤]، وقال في جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْتُولَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا﴾: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ يعلم أقوالهم وأفعالهم وضمايرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً.

سلام عليكم

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾ (سورة الأنعام).

ثم تمضي الآيات الكريمة بهذه اللفتة الحانية إلى تلك القلوب المؤمنة، وقد أقبلت على مجلس النبي ﷺ متشوقة ومتلهفة إلى سماع الحق، وطامعة في الرحمة والمغفرة والقبول والرضوان، فلتبلغهم يا محمد سلام ربهم عليهم وشوقه للقائهم، ولتبشرهم بالرحمة التي كتبها الله على نفسه؛ تفضلاً منه وإحساناً وإكراماً لعباده المؤمنين، والمغفرة على ما سلف منهم من إساءة أو تقصير فتابوا منه وأصلحوا.

تعقيب ومفصلة

﴿وَكَذَلِكَ نَفِصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾

إشارة إلى ما ورد في هذه السورة من تفصيل وبيان وتفريق بين ظلمات الكفر ونور الإيثار وبين سبيل الحق وسبيل المجرمين، لنكون على حذر من تلك المناهج الضالة والأديان الباطلة، وننظر على بصيرة بمفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا^(١)

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالياء (وليستين) على التذكير وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث أو الخطاب، واختلفوا في (سبيل) فقرأ المدنيان بنصب اللام وقرأ الباقون بالرفع: والمعنى لتتضح سبيل المؤمنين أو لتتوضح يا محمد ويا أيها المخاطب سبيل المجرمين، فتكون منها على حذر يراجع النشر في =

منهج واضح

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيْعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾

أمره المولى جل وعلا أن يعلن براءته من الشرك وأهله، ومن كل ما يتعلق به من أهواءٍ وضلالاتٍ، ومطالبٍ متعنتة، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذب به المشركون فإن هذا لا يضره ولا يقلل من شأنه ولا ينقص من قدره، أما هم فحججهم داحضةٌ وشبهُهُمُ مُفَنِّدَةٌ ومقترحاتهم مردودةٌ.

﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء واستبعاداً، نحو قولهم كما أخبر الله عنهم: ﴿ أَوْ شَقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقولهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَآمِطْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقولهم: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سبأ: ٢٩].

﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴾: أي يقضي القضاء الحق، أو يقضُ القصص الحقَّ ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ ﴾ أي بين الحق والباطل، بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه. ^(١)

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي لو أن ما تتعجلونه: مقدوراً إليّ وفي وسعي ﴿ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي لقضى الله الأمر بيننا بأن ينزله الله سبحانه بكم بسؤالي له وطلبي ذلك، أو

= القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

(١) قرأ المديان وابن كثير وعاصم (يقض) بالصاد وقرأ الباقون (يقضي) من القضاء: يراجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ١٩٤.

المعنى: لو كان العذاب الذي تطلبونه وتستعجلون به عندي، وفي قبضتي لأنزلته بكم، وعند ذلك يقضى الأمر بيني وبينكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٨) فهو تعالى أعلم بمن يستحق العذاب وأعلم متى يُنزلُهُ بهم.

المناسبة بين المحور والمقطع

تدورُ آياتُ هذا المقطع مع المحور العام لهذه السورة الكريمة؛ حيث تقويضُ دعائم الشرك، وتفنيْدُ شبهات المشركين وأباطيلهم وردُّ مقترحاتهم ومطالبهم، وتصحيح تصوراتهم ومفاهيمهم حول الرسول والرسالة، مع تقرير العقيدة الصحيحة وبيان المنهج الحق.

الهدايات المستنبطة من الآيات

* بينت الآيات الكريمة المهمة الأساسية التي أرسل الله تعالى من أجلها رسلَهُ عليهم السلام، هذه المهمة الجليلة: هي التبشير والإنذار، البشارة لأهل الإيمان بصلاح الدارين، والإنذار للمكذبين بالخسران المين والعذاب المهين.

* وفي تلك الآيات ردُّ على اقتراحات المشركين التي تدلُّ على جهلهم بحقيقة الرسالة ووظيفة الرسل.

* وفيها تعريضٌ بعماهم عن الآيات وقد تجلّت، وإنكارٌ عليهم تعطيلهم لعقولهم، كيف تغفل عن هذه الحجج الواضحة، وتتخبط في ظلمات الجهل ومتاهات الكفر.

* الردُّ على تصورات المشركين الخاطئة حول الرسل والرسالة ببيان وظيفة الرسل عليهم السلام، وأنهم متبعون للوحي، مؤيدون من قِبَلِ الله تعالى.

* اتباع الأنبياء عليهم السلام للوحي لا ينفى عنهم رتبة الاجتهاد فيما لا نصَّ فيه، فلقد ثبت اجتهاده ﷺ في مسائل كثيرة، وكذلك اجتهاد الأنبياء من قبله - عليهم الصلاة والسلام - (١).

(١) انظر كتاب «الوسيط في تاريخ التشريع والفقهاء الإسلاميين» الباب الأول الفصل الثالث المبحث الأول

- * من أصول الحوار الارتكاز على القضايا المسلمة والمسائل المتفق عليها، وجعلها منطلقا لما بعدها، فمن طوائف المشركين فضلا عن أهل الكتاب من يؤمن بيوم الحشر ويحذر من أهواله وشدائده، فلنجعل هذه المسلّمة ركيزةً ومنطلقا للحوار معهم.
- * في خضم هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل، بين أساطين الكفر وجهابذة الضلال لا ينبغي للنبي ﷺ أن يصرفَ كلَّ جهده في محاوره خصومه ومقارعتهم بالحجج والبراهين فينشغل عن أتباعه المؤمنين، بل عليه أن يتوجه بقلبه ومشاعره ووجدانه إليهم فإنهم غرسٌ شمر وثمرٌ مباركٌ، وفي هذا درسٌ للدعاة أن لا تشغلهم هموم الدعوة في الخارج عن هموم الداخل، فترى من يهتمّ بمتابعة أحوال العالم الإسلامي عن متابعة نفسه وإصلاحها والنهوض بها، أو يغفل عن أهل بيته، أو عن محيطه الدعوي، أو يُعنى بجانب من جوانب الدعوة والإصلاح على حساب جوانب أخرى.
- * ابتلى الله تعالى المستضعفين من المؤمنين بأكابر المجرمين، فالمؤمنون المخلصون ثبتوا في هذا الابتلاء ولم يغتروا بما عليه المشركون من رَغْدٍ في العيش مع ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ أما المشركون فإنهم احتقروا المستضعفين من المؤمنين واستنكفوا من مشاركتهم في الإيمان لما يستدعيه من مؤاخاتهم ومخالطتهم التي يأنفون منها، كما غلب على ظنهم أنه لو كان في الإيمان خيرٌ لما سبق إليه أولئك الضعفاء.
- * الإسلام: منهجٌ واضح ودين واحد ينضوي تحت رايته جميعُ الناس فقيرهم وغنيهم ضعيفهم وقويهم، فكلهم في دين الله وشرعه سواء.
- * حين يبين القرآن الكريم معالم طريق المشركين وأساليبيهم وشبهاتهم وتليسيهم فإنه يجعلنا على حذر من هذه المناهج الضالة، ويضع بين أيدينا مفاتيح التعامل وأساليب التصدي لهذه الفتن والتحديات التي تواجهنا.
- * أمر الله نبيه ﷺ أن يعلن براءه من الشرك وأهله، كما أمره أن يعلن عن المنهج الحق المبين، القائم على الحجج النيرات والآيات الباهرات، وإن كذّب به المشركون فإن هذا لا يضره

ولا يقلل من شأنه ولا يَنْقُصُ من قدره، فقد سلكوا طريق الرّدى، وتعلّقوا بحججٍ داحضةٍ وشُبّه مُفَنّدة .

* عزة المؤمن بإيمانه وثقته بدينه؛ وحرصه على إعلان هويته والإعلان عن دعوته وإظهار شعائره، سيّما إذا كان في بلاد يغلب عليها الكفار، حيث أمر النبي ﷺ وهو في مكة أن يعلن براءته من الشرك وأتباعه، وولاءه للحق وأهله، ورفضه لجميع المساومات والإغراءات التي يقدمها أهل الباطل لاستقطاب أهل الحق أو لدفعهم إلى طريق المداهنة أو التنازلات التي لا نهاية لها.

- ٨ -

مفاتيح الغيب

قال تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنَ ظِلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ نَدْعُونَهُ نَضْرَعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُم مِّنَّا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُدْخِلِكُمْ بَعْضَكُم فِى بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصِرَفُ الْأَنْبِيَاءَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴿٦٧﴾

المناسبة

لما حُتِمت الآية السابقة ببيان إحاطة علمه جلّ وعلا بالظالمين، ناسب ذلك الحديث عن

شمول علمه الدقيق لعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة فقال سبحانه ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآيات.

التفسير الإجمالي

استثاره تعالى بعلم الغيب.

بعد أن حُتِمَتِ الآيات السابقة ببيان علمه تعالى بالظالمين وإحاطته بأحوالهم ومعرفة بعاقبتهم وساعة الهلاك التي ترتقبهم، والعذاب الذي يترصص بهم: بينت هذه الآيات استثاره تعالى بمعرفة مفاتيح الغيب التي لا يعلمها سواه.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: « ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أولياً، وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدعين ما ليس من شأنهم، ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم، ولقد ابتلي الإسلام وأهله بقوم سوءٍ من هذه الأجناس الضالة، والأنواع المخدولة ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خُطَّةِ السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق ﷺ « مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٌ »^(١).

ولقد جاء في سورة لقمان تفصيل لهذه الآية الكريمة قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢١) وورد في السنة النبوية تقرير ذلك: فعن سالم بن عبد الله عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (مفاتيح الغيب: خمس): ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٢، والحديث: رواه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٤٢٩ والبيهقي في السنن ٨ / ١٣٥ والحاكم في المستدرک ١ / ٨ وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. سنن أبي داود عن أبي هريرة، ورواه الترمذي في السنن عنه ونصه « مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا: فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ». سنن الترمذي - أبواب الطهارة - بَابُ مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ إِيْتَانِ الْحَائِضِ حَدِيثٌ ١٣٥.

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].^(١)

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ لما ذكر علم الغيب، أتبعه بعالم الشهادة، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصَّهها تعالى بالذكر لأنها من أعظم المخلوقات، ومستقرُّ معظم الكائنات على وجه الأرض، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾: «فإحاطة علمه تعالى لحركة الورقة الساقطة أنموذج لأحوال سائرهما؛ لأن الذي لا يغفل عن الورقة الميتة الساقطة، لا شك أن علمه محيطٌ بغيرها من الأحوال والحركات، ويمتدُّ علمه تعالى من حركة الورقة الميتة الساقطة إلى حركة البزوغ والنَّماء لكل حبة في بطن الأرض»^(٢).

﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: يعلمها سبحانه، وهي مكتوبة عنده في اللوح المحفوظ الذي سجَّل اللهُ فيه ما كان وما يكون وما سيكون.

وقال الإمام الخازن رحمه الله: «قدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة، ثم ذكر بعد ذلك مثلاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على حكمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير»^(٣).

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «هذه الآية العظيمة: من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ حديث ٤٣٥١

(٢) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طههاز ص ٦٢

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل ١٤١/٢ بتصرف

المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها»^(١).

بين الميتة الصغرى والموتة الكبرى

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات من علم الله الشامل بمفاتيح الغيب، وبما يجري في أرجاء الكون، إلى مجال من مجالات هذا العلم، في عالم البشر، وجانب من جوانب الهيمنة الإلهية، فتلقي الضوء على آية ظاهرة متكررة، آية باهرة كم يغفل الناس عن التأمل فيها والاعتبار بها! آية صغرى تبين عن آية كبرى غيبية: آية النوم: الميتة الصغرى.

والنوم لا يزال سراً عجز العلماء عن إدراك كنهه وسبر أغواره، فمع كثرة البحوث والدراسات حول ظاهرة النوم فلا يزال العلماء والباحثون يطوفون حول مظاهره ويسجلون بعض الملاحظات عن التغييرات التي تحدث أثناء النوم أو بعده، ويكشفون لنا عن عجائبه ولطائفه، أما عن سره المكنون فأنى لهم الوصول إليه، والنوم كما نعلم قرين الموت، واليقظة دليل من أدلة البعث، والرؤى والأحلام التي يراها الإنسان في المنام قطرة من بحار الغيب، ولما كان النوم أشبه بالموت جاء التعبير عنه بالوفاة: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ ولما كان النهار للحركة والسعي بين عز وجل إحاطة علمه بكل ما يحصله الإنسان في نهاره وما يكتسبه من

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٥٩ ويراجع: في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٠.

أعمال، فدلَّ هذا على أن العبد خاضعٌ لله تعالى في ليله ونهاره في نومه وصحوه.

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يوقظكم في النهار للكسب والمعاش فدلَّ على أن اليقظة آية كما أن النوم آية وكلاهما من نعم الله تعالى التي تستوجب الشكر عليها، وتذكَّر بالبعث، مصداقاً لقول نبينا ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ (بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا) وقوله عند صحوه: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ^(١)

﴿ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ ففي انقضاء الأيام استيفاءً للأجال المحددة في علم الله تعالى:

كما قيل:

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مضى نَفَسٌ منها انتقصت به جزءاً
والمرءُ يفرحُ بالأيام يقطعها وكلُّ يومٍ مضى نقصٌ من الأجلِ

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بعد انقضاء آجالكم فمرجعكم إلى ربكم للعرض والحساب وما يترتب عليه من ثوابٍ أو عقابٍ.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۗ ﴾ ^(١١) لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر هنا عن عظمة سلطانه وجبروته فالخلائق جميعاً تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أَرَادَهُ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، القهار: قهر النور بالظلمة والظلمة بالنور، والنهار بالليل والليل بالنهار وقهر البشر بالنوم الذي لا يمكن مدافعتة والتغلب عليه حين يغشى الإنسان، حتى قيل: النوم سلطان فإذا حلَّ فلا يمكن صرفه، وإذا تمتع فلا يمكن جلبه.

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ المتصرفُ في أمورهم المدبِّر لشئونهم، المهيمن عليهم، يجبرهم

(١) الحديث: رواه البخاري في صحيحه عن حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتاب الدعوات - باب ما يقول إذا نام

على مراده فلا يقع في سلطانه إلا ما أراه.

قال السعدي: « ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه»^(١).

وقال القشيري: « فوق عباده بالقهر والرفعة، وفوقهم بالقدرة على أن يُعذبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم»^(٢).

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ وذلك من جملة القهر أن يحفظ عباده بالملائكة الموكلين وهم الحفظة الذين قال الله عنهم ﴿ لَهُمْ مَعْقَبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ إذا حضرته الوفاة عند انقضاء أجله ﴿ تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا ﴾: ملك الموت وأعوانه ﴿ وَهُمْ لَا يَفْرِطُونَ ﴾ يعني: لا يؤخرون طرفة عين.
﴿ ثُمَّ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾^(٣) ثم كان مصيرهم ومرجعهم إلى ربهم، فله تعالى وحده الحكم وهو أسرع الحاسبين.

ظلمات البر والبحر

ونداء الفطرة

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٤) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ ﴿٦٤﴾

يأمر الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يخاطب المشركين هذا الخطاب الذي يلامس فطرتهم التي تتجدد لله تعالى فتناجيه وحده في ساعات المحن والشدائد التي تواجههم في ظلمات البر

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٢٥٩.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري - ٢ / ٢٤٨.

والبحر: فظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح وما قد يترتب على ذلك من الخوف الشديد، وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد.

تلك الساعات العصبية التي تردهم إلى فطرتهم فتغيب عن بالهم تلك الآلهة التي لا تضر ولا تنفع، ويعلنون العزم الأكيد على التوحيد الخالص بعد نجاتهم، لكنهم سرعان ما ينقضون عهدهم مع الله بإصرارهم على التردّي في مهاوي الشرك.

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِمَّا مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أبعد أن نجاكم تشركون به سبحانه؟ وبعد أن أحسن إليكم بتخليصكم من الشدائد: ترجعون إلى سالف عهدكم من التخبّط في ظلمات الشرك؟

وعيدٌ وتهديدٌ

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظَرْكُمْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَنْدِيتَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وكما أن نجاتكم بيد الله تعالى وحده، فهو تعالى القادر على إهلاككم بإنزال العذاب وبشتى السبل التي تتصورها عقولكم والتي لا تخطر لكم ببال، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ وتحذيرٌ وتهديدٌ لأولئك المشركين المعاندين، أن يلحق العذاب بهم من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو من بينهم، لكنهم مع كثرة هذه النذر وتكرار الوعيد وتنوع العبر والتفنن في الخطاب لا يفقهون ذلك.

قال الإمام الماوردي: « فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العذاب الذي من فوقهم الرجم، والذي من تحت أرجلهم الخسف، قاله ابن جبير، ومجاهد، وأبو مالك.

والثاني: أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد

السوء، قاله ابن عباس.

والثالث: أن الذي من فوقهم الطوفان، والذي من تحت أرجلهم الريح، حكاه علي بن

عيسى.

ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجلهم^(١).

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ قال ابن عباس: يَبْتُ فيكم الأهواء المختلفة، فتصيرون فرقاً، قال ابن قتيبة: يلبسكم: من الالتباس عليهم. والمعنى: حتى تكونوا شيعاً، أي: فرقا مختلفين. ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب. وقال الزجاج: يلبسكم، أي: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق. يقال: لَبِسْتُ عليهم الأمر، ألبسه: إذا لم أئبته. ومعنى شيعاً، أي يجعلكم فرقاً، فإذا كنتم مختلفين، قاتل بعضكم بعضاً^(٢).

وهذا الخطاب وإن كان موجهاً في الأصل إلى الكفار إلا أن هذه الفتن ينبغي الحذر منها والتعوذ بالله من شرورها كما فعل ذلك نبينا ﷺ:

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال ﷺ: «أعوذ بوجهك». ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقُ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون - أو قال: هذا أيسر»^(٣).

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسُتُ عَلَيْكُمْ بَوَكِيلٍ ﴿٦١﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفْرَضٍ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(١) النكت والعيون للهاوردي ١ / ٤١٤.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣ / ٥٩

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ حديث ٤٣٥٢، ورواه النسائي في السنن الكبرى حديث ٧٧٣١.

وكذبوا بالقرآن وبما جاء فيه من وعدٍ وعيدٍ وحكمٍ وأحكامٍ وهو الحق المبين، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾: فلا أتحملُ تَبِعَةَ تكذيبكم ولا أحاسبُ عنكم.

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٦٧): لكل نبي أي لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول لا بد منه، وسوف تعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم متى شاء الله ذلك، ومثال هذا: قوله تعالى ﴿وَلَنُعَلِّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨).

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنظم هذه الآيات الكريمة مع المحور العام لهذه السورة، وهو تقرير العقيدة، وتعميق الإيمان؛ وذلك: ببيان إحاطة علمه وكمال قدرته وقهره، وعظيم سلطانه، ونقض دعائم الشرك وتصورات الضالة حول عالم الغيب والشهادة، والاستدلال على إمكانية البعث، وإقامة الحجج وتصريف الآيات.

الهدايات المستنبطة

- * بينت هذه الآيات استثنائه تعالى بمفاتيح الغيب التي لا يعلمها سواه.
- * وفي هذه الآيات ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم، ولا يحيط به علمهم.
- * بينت الآيات الكريمة إحاطة علمه تعالى بعالم الغيب فضلا عن عالم الشهادة، فسيحان من أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا.
- * جعل الله لهذا الكون سنناً ثابتة، وأطلع الإنسان منها بقدر ما يلزم له لعامة الأرض والقيام بمهمة الاستخلاف، كما منحه الله القدرة على تسخير قوى الكون وفق هذه السنن لتعمير الأرض، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها، وفق تقدير الله تعالى وتديره.
- * في الآيات الكريمة ردٌّ على الماديين الذين ينفون كل ما وراء المادة ويقولون ب «الحتمية التاريخية» ولقد أثبتت الأيام كذب ادعائهم وبطلان مزاعمهم وانهايار بنيانهم الذي أُسس

على شفا جُرْفِ هَارٍ.

* لا يزال النوم سرّاً يعجز العلماء عن إدراك كُنْهِهِ وسبر أغواره وهو قرين الموت و دليلٌ من أدلة البعث، وما الرؤى والأحلام التي يراها الإنسان في المنام إلا قطرةٌ من بحار الغيب.

* لما بين كمال قدرته وإحاطة علمه أخبر عن عظمة سلطانه وقهره، فالخلائق جميعاً تحت قبضته، فهو القهار الذي جبر الخلق على مراده فلا يقع في ملكه إلا ما أراد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

* إقامة الحجة على المشركين بدليل الفطرة التي أودعها الله في كل إنسان؛ حيث التجرد الخالص لله وحده في ساعات المحن والشدائد التي تعتري الإنسان فيتوجه إلى الله تعالى بصدقٍ و يقين، وينسى الكافر آلهته المزعومة التي يدرك عجزها ويدعو الله تضرعاً وخُفية موقناً بالإجابة، لكنه سرعان ما ينقض عهده مع الله بإصراره على الشرك.

* « تكذيب قريش وهم قوم النبي ﷺ بدعوته يبرئ الدعوة الإسلامية عن أي شبهة يمكن أن يتعلق بها أعداء الإسلام، فقد نزه الله الدعوة الإسلامية عن العصبية القومية والعرقية فهي دعوة إنسانية شاملة في نشأتها وفي أهدافها»^(١).

* الحذر من التفرق وأسبابه المفضية إليه؛ فهو من أخطرِ عواملِ ضعف الأمة وتراجعها.

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طههاز ص ٦٨.

- ٩ -

تجنب مجالسة الخائضين وصحبتهم

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حَسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَلَكِنْ ذِكْرُنِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتَهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرْتَهُمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ۚ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّدْهُنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المناسبة

لما تكرر الأمر بإقامة الحجج وتجليه البراهين المقررة لأصول الدين وتبديد شبهات المشركين وتفنيدهم بأبطلهم، ولا يتم هذا إلا بمحاورتهم ومجالستهم أمر تعالى بالإعراض عن مجالس الحوار إذا خرجت عن هدفها وانحرفت عن مقصودها وهو تجلية الحقائق ونقض الأباطيل، ومجانبة مجالس الظالمين وتحاشي إضاعة الوقت مع العابثين الهازنين، فهؤلاء لا يعينهم الوصول إلى الحق، وإنما اتخذوا من الدين مجرد وسيلة للتلهي والتسلي؛ فلا فائدة من محاورتهم؟

التفسير الإجمالي

نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوض وتخبط وسخرية واستهزاء واستخفاف بالحق وأهله، فإذا اضطُرَّ إلى حضور هذه المجالس أو حضرها ناسياً ووقع فيها الخوض فليسارع إلى مفارقتها إن لم يستطع صرفهم عن غيهم، كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علم مع ضرورة تذكيرهم.

ونحو هذا قوله تعالى ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه.

والحوارُ إذا خرج عن الضوابط والمقاصد التي أقيم على أساسها، فينبغي أن ينصرف الداعيةُ عنه، كأن يرى من الآخرين استخفافاً أو استهانةً.

عَنْ أَبِي أَمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (أَنَا زَعِيمٌ بَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)^(١).

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرُنِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴾^(١١)

وما على المتقين إثمٌ ولا حرجٌ فيما فعله المشركون من خوضٍ في آيات الله واستهزاءٍ بدين الله، ولكن واجبهم النصح والتذكيرُ، إذا حضروا تلك المجالسَ بنية الإنكار عليهم ودعوتهم،

(١) رواه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب في حسن الخلق سنن أبي داود حديث ٤٨٠٠، ورواه الترمذي في السنن عن أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب البر والصلة باب ما جاء في المراء سنن الترمذي حديث ١٩١٦ وقال: " وَهَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ حَسَنٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ وَرْدَانَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ " ورواه النسائي في السنن عن فضالة بن عبيد كتاب الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد سنن النسائي حديث ٣١٢٤ ورواه ابن ماجه في السنن عن أنس بن مالك: افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اجتناب البدع والجدل سنن ابن ماجه ١ / ٥٨ حديث ٥١، ورواه الحاكم في المستدرک عن فضالة بن عبيد وقال « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » وأقره الذهبي المستدرک على الصحيحين للحاكم ٢ / ٦٩، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق ١ / ٤٤ حديث ٤٢، وأورده الألباني في الصحيحة ١ / ٤٩١ حديث ٢٧٣، وقال حديث حسن، قال الألباني في "السلسلة الصحيحة" ١ / ٤٩١: وقوله " في رِبْضِ الْجَنَّةِ " بفتح الباء: ما حوّلها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبيّة التي تكون حول المدن وتحت القلاع يراجع النهاية في غريب الأثر ٢ / ٤٦٠.

من هنا فلا بأس من حضور مجالسهم واجتماعاتهم بنية الإنكار عليهم وتنبية أتباعهم على ضلالتهم.

قال البيضاوي: ﴿وَلَكِنَّ ذِكْرِي﴾: « ولكن عليهم أن يذكرهم ذكري ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ويظهروا كراهتها»^(١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلمهم يجتنبون الخوض؛ رهبةً أو حياءً أو كراهةً لمساءتهم، فعلى هذا يعود الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إلى المشركين، ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون، أي يذكر ونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوا منها.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ أَلْحِيوَةُ الدُّنْيَا وَذَكَرِيهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

دعهم ودع مجالستهم ولا تعلق قلبك بهم ولا تحزن عليهم؛ فإنهم أهل باطل وتعنت، وتلاعب وهزل، واستهزاء حتى بدينهم الذي يتعصبون له فإنه عرضة لعبثهم ومثارا لاستهزائهم، فما بالك باستهزائهم بدين الحق! وقد اغتروا بما نالوه في الدنيا من حظوظ زائلة حملتهم إلى بطر الحق وغمط الناس وازدرائهم، فالوصول إلى الحق لا يعينهم.

﴿وَذَكَرِيهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ذكر بالقرآن تلك النفوس قبل أن تسلم إلى الهلاك وترهن بسوء عملها، وأصل الإبسال والبسلة: المنع، ومنه أسدٌ بأسل، لأن فريسته لا تفلت منه.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يدفع عنها العذاب ﴿وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّذُ مِنْهَا﴾ وإن تقدم أي فدية مهما كانت قيمتها فإنها لا تقبل، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي / ١ / ٤٩٧ .

مَا نُقِيلَ مِنْهُمْ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْأَلُوكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا كُفَرْتُمْ﴾ أولئك المكذبون المعاندون الخائضون في آيات الله المستهزؤون بدين الله، والتعبير بأولئك وهي إشارة للبعيد « بلام البعد» لبيان بعدهم عن الله وتوغلهم توغلا بعيدا في طريق الضلال، وبعد منزلتهم في قعر جهنم.

﴿أَسْأَلُوكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا كُفَرْتُمْ﴾ سَلَّمُوا إِلَى الْعَذَابِ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ وَعَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةَ، وأهوائهم المتبعة، وبسبب عنادهم وصدودهم وإعراضهم وخوضهم في آيات الله تشكيكاً وإيعادا عن الحق، وتزيينا وزخرفة للأباطيل.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بسبب كسبهم وكفرهم فهم بين الماء المغلي الذي يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء وبين العذاب الأليم الذي استحقوقه بإصرارهم على الكفر وبقائهم عليه.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

لما كان مدار السورة حول تقرير العقيدة بإقامة الحجج وتجليه البراهين وما يستدعيه ذلك من محاورات ومناظرات، تستلزم من الداعية أن يغشى مجالس الكفار ومتندياتهم فيحاورهم وربما أدى ذلك إلى خوض بعضهم في آيات الله: بينت هذه الآيات الكريمة منهج التعامل مع أولئك الخائضين، وهو الإعراض عنهم حتى ينصرفوا عن خوضهم ويكفوا عن تطاولهم، كما أمرت بتجنب مجالس الظلمة لأن حضورها لا يأتي بخير، وأن لا يضيع الداعية وقته وجهده مع من لا يعينهم الوصول إلى الحق.

الهدايات المستنبطة

* نهى الله عز وجل رسوله الكريم عن حضور مجالس الخائضين من أعداء الدين؛ لما يقع فيها من خوضٍ وتخبُّطٍ وسخريةٍ واستهزاءٍ واستخفافٍ بالحق وأهله.

* كما نهى القرآن الكريم عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علمٍ مع ضرورة تذكيرهم.

* قال الإمام الشوكاني: « أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك، وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسّمح بمجالسة المبتدعة، الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله، ويردّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلُّ الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسيرٌ عليه غيرٌ عسير. وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهةٌ يُشبهون بها على العامة، فيكون في حضوره مفسدةٌ زائدةٌ على مجرد سماع المنكر، وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر، وقمنا في نصره الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه، وبلغت إليه طاقتنا، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حقَّ معرفتها، علِمَ أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعافٌ أضعافٌ ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرّمات، ولا سيما لمن كان غير راسخٍ القدم في علم الكتاب والسنة، فإنه ربما ينفقُ عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقذ في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر»^(١).

وقال صاحب المنار: « وقد حذر السلف الصالح من مجالسة أهل الأهواء، أشد مما حذروا من مجالسة الكفار، إذ لا يُخشى على المؤمن من فتنة الكافر ما يُخشى عليه من فتنة المبتدع لأنه يحدّر من الأول على ضعف شبهته ما لا يحدّر من الثاني وهو يبيئه من مأمّنه، ولا يعقل أن يقعد المؤمن باختياره مع الكفار في حال استهزائهم بآيات الله وتكذيبهم بها وطعنهم فيها كما يقعد مختاراً مع المجادلين فيها المتأولين لها، وإنما يتصورُ قعودُ المؤمن مع الكافر المستهزئ في حال الإكراه وما يقرب منه، كشدة الضعف ولا سيما إذا كان في دار الحرب ولم تكن

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٤٢٩ وينفق: يلقي في نفسه قبولاً من نفقت السلعة إذا راجت.

مكة دار إسلام عند نزول هذه الآيات، ويدخلُ في أهل الأهواء المقلدون الجامدون الذين يحاولون تطبيق آيات الله وسنن رسوله على آراء مقلديهم بالتكلف، أو يردونها ويحرمون العمل بها بدعوى احتمال النسخ أو وجود معارضٍ آخر^(١).

* فعلى كلِّ مسلمٍ غيورٍ أن يُعرض عن تلك المجالس التي يُستهانُ فيها بآياتِ الله إذا لم يتسنى له صرفُهم عن خوضهم واستهزائهم.

من هنا: فإن الأصل عدم حضور مجالس الكفار مثل متدييات أو مؤتمرات الحوار التي يرددون فيها أباطيلهم ويدعون إلى ضلالتهم إلا إذا كان الحضور بنية عرض الإسلام ودحض الشبهات التي يثيرها أعداؤه والرد على أباطيلهم وضلالاتهم فلا بأس من ذلك.

* أما إن كان حضورها بنية التقريب بين الأديان والمذاهب، أو بنية الإقرار والاعتراف بهذه الأديان المحرفة والوضعية وتلك المذاهب الباطلة الهدامة، أو بنية تبادل المجاملات والابتسامات ومداهنة أعداء الله، مع ما يرتكبونه من جرائم وما يحكيونه من مكائد ومؤامرات ومن تحريض على قتل الأبرياء من إخواننا المستضعفين في كثير من بقاع الأرض التي تراقُ فيها دماؤنا وتتهدك فيها أعراض أخواتنا على أيدي اليهود والصليبيين فهذا لا يجوز شرعاً.

قال صاحب الأساس: «إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي حددها الشرع، أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدو منه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور، لأنه في ظاهره إقرارٌ للباطل، وشهادة ضد الحق، وفيه تلبيس على الناس ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة»^(٢).

* قد يطرأ النسيانُ على الأنبياء في غير ما يتعلق بأمور الوحي ومهام الرسالة كالسهو في

(١) تفسير المنار ٧/ ٥٠٦.

(٢) الأساس في التفسير ٣/ ١٦٧٥، ١٦٧٦.

الصلاة أو النسيان في الأمور الحياتية، شأنهم في ذلك شأن سائر البشر، وإن كان المتبع لمواقف النسيان في ضوء ما ورد في الكتاب والسنة يجدها نادرة.

* قوله تعالى ﴿أُبْسِلُوا يَمًا كَسِبُوا﴾: سُلِّمُوا إِلَى الْعَذَابِ بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ وَعَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَأَهْوَاتِهِمُ الْمُتَّبَعَةَ، وَبِسَبَبِ عِنَادِهِمْ وَصُدُودِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ وَخَوْضِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَشْكِيكًا وَإِبْعَادًا عَنِ الْحَقِّ، وَتَزْيِينًا وَزُخْرَفَةً لِلْأَبَاطِيلِ، وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى مَا يَقَعُ فِي كَثِيرٍ مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ سَيِّئًا فِي هَذَا الْعَصْرِ، عَصْرَ الْفَضَائِلِ وَالانْفِتَاحِ الْإِعْلَامِيِّ، حَيْثُ الْقَنَوَاتُ الَّتِي قَامَتْ عَلَى شِفَا جِرْفِ هَارٍ؛ بِغَرَضِ تَشْوِيهِ الْحَقِّ وَزُخْرَفَةِ الْأَبَاطِيلِ وَتَرْوِيحِ الشُّبُهَاتِ وَتَجْمِيلِ الْوَجْهِ الْقَبِيحِ لِلْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِأَصْبَاحِ زَائِفَةٍ وَمَسَاحِقِ بَرَّاقَةٍ وَأَقْنَعَةٍ خَدَّاعَةٍ، فَيَسْتَضْيِفُونَ فِي تِلْكَ الْقَنَوَاتِ الْهَدْمَاءَ أَصْحَابَ الْأَقْلَامِ الْمَاجُورَةِ وَالْأَلْسِنَةَ الْحَدَادِ الَّتِي تَتَقَنَّ الصَّرَاحَ وَالْعَوِيلَ وَزُخْرَفَةَ الْأَبَاطِيلِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى التَّمثِيلِ لِإِقْنَاعِ الْعَوَامِّ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ كَذِبٍ وَتَضْلِيلٍ.

* وقد صار ذلك التمويه والتضليل مهنة يتكسبون منها، فهم عملاء ماجورون للباطل وأهله.

* قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: بسبب كسبهم وكفرهم نالوا هذا الشراب الذي يستقبلهم، ألم يكونوا يجتمعون في مجالس الكفار الوثيرة؟ ألم يكن ما لذ وطاب من الطعام والشراب يقدم لهم في متدياتهم التي كانوا يسارعون إليها ويتنافسون على حضورها؟ ويلهثون وراءها؟

* إمهاله تعالى الكفار والعاصين لحكم بالغة، فإنه تعالى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا، وإنما يؤخرهم لأجل محدود ويوم موعود.

* تحدثت السورة الكريمة حديثا مستفيضا عن وظائف الملائكة عليهم السلام فمنهم الحفظة ومنهم الموكلون بقبض الأرواح ومنهم الموكلون بإنزال العذاب وإلحاقه بمن حَقَّ عليهم القول وغير ذلك.

- ١٠ -

معالم على طريق الهدى

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي
 اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُنْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ
 الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ
 ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ
 الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

المناسبة

كيف يدعو المشركون لما هم عليه من ضلال، بعد لوامع الحجج وبقوارق الأدلة وتدقيق
 البراهين وتحليل الآيات التي تنطق وتشهد وتقرر تفرده تعالى بالوحدانية؟ وأن منهجه الذي بيّنه
 لعباده هو منهج الهداية ومسلك النجاة.

التفسير الإجمالي

أبعد هذه الحجج النيرات والآيات المتتابعات: نترك هذا الطريق الواضح الأبلج ونسلك
 طرق الغواية والضلالة مع غموض معالمها، والتواء مسالكها! أبعد أن من الله علينا بنعمة
 الهداية والرشاد نرتد على أعقابنا ونهوى طريق أهل الشرك والزيف! أبعد أن تذوقنا حلاوة
 الإيمان وتسمنا عبيره الفواح، نحيد عن هذا الطريق الوضّاح!

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ ﴾

تلك الأصنام التي تواترت الحجج؛ وانطلقت البراهين تدحض عبادتها وتبدد أوهامها
 أتدعى بعد ذلك من دون الله، وقد تبين لكل ذي عقل أنها لا تضر ولا تنفع!
 فيكون حال من انتكس وارتد على عقبه كحال من استهوته شياطين الإنس والجن،
 استحوذت عليه، سلبت عقله، استعارت نور بصره، استولت على مسامعهِ فلا يرى ولا يسمع،

ولا يعقلُ إلا ما تُمليه عليه! وقد هيمنتُ على كل أحاسيسِهِ ومشاعِرِهِ وتسللتُ إلى قلبِهِ وتمكنتُ من عقلِهِ ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ فصار في حيرةٍ من أمرِهِ، يتخبطُ في ظلمات التيه وفي خضم الفتن، ويأتيه نورُ الحقِّ من بعيدٍ وينادي عليه أصحابُ له يدعونه إلى طريق الهداية ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْتِنَا﴾ أَفَدِمَ وَهَلَمَّ إِلَيْنَا: تجد الهدى والنور! أقبل علينا واجعل الباطل من وراء ظهرِكَ تنجُ وتسلم من شياطين الإنس والجن.

قال الإمام الطبري: «قل يا محمد، هؤلاء العادلين برهم الأوثان والأنداد، والأميرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت...»^(١).

﴿قُلْ إِيَّاكَ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّلسَّلَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ذكّرهم وكرّر على مسامعِهِم أن طريق الهدى طريقٌ واحد هو الذي حدّده ربُّنا ويبيّنه لنا، وأمرنا أن نسلم له تعالى بقلوبنا وأرواحنا وجوارحنا، أن نسلم له ظاهراً وباطناً وهو طريق النور والاستقامة وطريق العزة والكرامة، ذلك هو طريق النجاة لمن سلكه

﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٧٢) وأمرنا ربُّنا بإقامة

الصلاة فهي الصلة بين العبد وربّه، كما أمرنا أن نشب على طريق التقوى وننزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادنا، وأن نتمثّل دائماً يوم حشرنا وموقفنا بين يدي ربُّنا، فتأهب دائماً لهذا اللقاء الموعود.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ أمرنا

لنسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة بقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، قال تعالى في سورة إبراهيم ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ بِرَبْرُؤِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤٨) [إبراهيم: ٤٨]، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ

(١) جامع البيان للإمام الطبري ٧/ ٢٧٣.

عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ [يس: ٨١].

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمَلَكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْكُمْ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ﴾: قوله الحق وله الملك؛ فلا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا ملك في هذا اليوم لأحد سواه، كما قال سبحانه ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الأولى والنفخة الثانية ﴿عَلَيْكُمْ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ﴾ عالم الغيب والشهادة فلا تحفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيء، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتدبيره، الخبير في ملكه وتصريفه يعلم بواطن الأمور فضلا عن ظاهرها.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنظم آيات هذا المقطع مع السياق العام للسورة، حيث أنكرت على المشركين ما هم عليه من زيغ وضلال مع ظهور الحجج وتجلي البراهين، ثم تنتقل إلى بيان المنهج الحق والطريق السوي طريق الهداية والنجاة، وهو الإسلام التام لله تعالى ظاهرا وباطنا، كما تضيء الآيات المزيد حول التعريف بأسماء الله تعالى وصفاته بما ينتظم مع الهدف العام للسورة وهو تقرير العقيدة.

الهدايات المستنبطة

- * طريق الهدى طريق واحد هو الذي حدده ربنا وبيئه لنا، وأمرنا أن نسلم له تعالى بقلوبنا وأرواحنا وجوارحنا ظاهرا وباطنا.
- * الصحبة الصالحة مسلك من مسالك النجاة، وعصمة من مكائد الشيطان.
- * على من يسعى للوصول إلى الحق أن يُحرر نفسه من أسر شياطين الإنس والجن، ويستعبد

بالله تعالى من شرورهم ووساوسهم، ويعتصم بالله تعالى ويتوجه إليه متضرعا خاشعا؛ فالهداية منه تعالى وهو سبحانه المعين عليها والموفق إليها، فمن طلبها بصدق وإخلاص وتجرد وعزيمة نالها.

* على من أراد النجاة في دنياه وأخراه أن يسلك طريقها ويقتفي أثر من سبق إليها، أما أن يرتجى من لا يسلكها ويتوقعها من انحراف عنها فهذا من الغفلة والعجز، وقد قال أبو العتاهية: تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ

* أمرنا ربنا بإقامة الصلاة فهي الصلة بين العبد وربّه، وهي عماد الدين وركنه الحصين، كما أمرنا أن نثبت على طريق التقوى ونتزود منها فهي زادنا في معاشنا ومعادنا، وأن نتمثل دائما يوم حشرنا بين يدي ربنا فتأهب دائما لهذا اللقاء الموعود بالإيمان الراسخ والعمل الصالح. وبهذا المنهج يُحصن المسلم نفسه من كل ضلالٍ وحيرةٍ، ويسلم من وساوس الشياطين.

* وأمرنا أن نسلم له تعالى فهو الذي خلق هذا الكون وأبدعه، وهو قادرٌ على إعادة الخلق يوم القيامة.

* الإيمان بالصور، فقد ورد الحديث عنه في الكتاب والسنة فهو من المعلوم من الدين بالضرورة.

* هو تعالى: عالم الغيب والشهادة فلا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة ولا يعزب عن علمه شيءٌ، يعلم ما حضر وما غاب وما خفي وما ظهر وما جلّ وما لطف وما كان وما يكون وما سيكون، وهو الحكيم في أفعاله وأقواله وتقديره وتديره، الخبير في ملكه وتصريفه.

- ١١ -

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا أَزَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَمًا كَوَّكِبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَجِبُ آلَ فُلَيْكٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ؕ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنَابَتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ ؕ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٌ فَفَدَّا وَكُنَّا بِهَا قَوْمًا نَّيِّبًا يَكْفُرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ؕ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرِي لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

المناسبة

وتتجلى من وجوهٍ عديدةٍ منها:

* لما بينت الآيات السابقة طريق الهدى والنجاة: وهو الإسلام لله ظاهراً وباطناً: ناسب ذلك بيان أن هذا الطريق هو طريق جميع الأنبياء عليهم السلام، وذكرت قصة إبراهيم عليه السلام ومنهجه في الحوار، وثمره دعوته وعاقبة صبره وثباته.

* لما ورد في الآيات السابقة أن السموات والأرض مخلوقة مملوكة لله تعالى ومسخرة بأمره، وفي هذا برهان قاطع على بطلان عبادة الأفلاك والأجرام الساوية: ناسب ذلك الاستطراد إلى الحديث عن إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة على بطلان عبادة تلك الأجرام.

* المتأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرة متنوعة؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقرير، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، وتتنظم هذه القصة مع غيرها من أساليب الإقناع وألوان الحجج التي اشتملت عليها السورة الكريمة؛ لتقرير دعائم هذا الدين، وتقويض أدران الشرك ومظاهره.

* ولما كان لإبراهيم عليه السلام مكانة عند مشركي العرب، سقت قصته للاحتجاج به، عليهم وليبان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدعون متابعتة وهم بعيدون عن هديه، راغبون عن ملته.

* وفي سردها في هذا السياق تسليةً وتسريةً للنبي ﷺ، ودعوةً للتأسي بأبي الأنبياء عليه السلام في صبره وثباته، وسعة صدره وصفاء سريرته وحلمه وأناته.

التفسير الإجمالي

إنكارٌ وتقرير

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءُ مَا أَتَجِدُ أَعْصَانًا مِثْلَ إِلَهِكَ وَالَّذِينَ عَدِيتُ لَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِين ﴿٧٤﴾

تبدأ القصةُ الكريمةُ بهذا المطلع الذي يلفتُ الأنظار ويسترعي الأسماعَ، داعياً إلى معايشة هذه القصةِ واستنشاقِ عقبِ الماضي لتتسّم عبرِ العبرِ واستحضار تلك المشاهد والصور والتدبر في تلك الحوارات والأحداث التي انطوت عليها القصة.

وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي اذكر ذلك الوقت واستحضر هذا المشهد حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه ناصحاً له ومُنكراً عليه عبادة الأصنام من دون الله.

وظاهر النصِّ الكريم أن اسم أبيه ﴿ءَاذَرَ﴾ والذي نصّت عليه السنة النبوية أن اسمه أزر، وكونه في التوراة (تارح) لا يعدُّ دليلاً على ذلك فكم في التوراة من تحريف وتبديل وافتراء! أو ربما كان (تارح): لقباً له.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ أَزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ أَزَرَ قَتْرَةٌ وَغَبْرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَغْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدُ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتِ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِحٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ^(١).

وفي الآية الكريمة إنكارٌ وتقريرٌ، أنكرَ عليه ما هو عليه من اتخاذ الأصنام آلهة، وتقريرٌ لما عليه أبوه وقومُه من ضلالٍ بين.

ومن الواضح أن إبراهيم عليه السلام قد بذل جهداً مضنياً في محاجة أبيه، ولقد سجّل القرآن الكريم صورةً من صور الحوار الذي كان يدور بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه من ذلك ما جاء

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ حَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] حديث ٣٣٥٠، والذي يخبرنا بالذال المعجزة بعدها تخاتية ساكنة ثم حاء معجزة ذكر الضباع، وقيل لا يُقال له ذبيح إلا إذا كان كثير الشعر. يراجع النهاية في غريب الحديث ٢/٤٣٥.

في سورة مريم ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِلْأَرْحَامِ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعَزَّلْنَاهُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا آعَزَّوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: ٤١ - ٥٠].

في ملكوت السموات والأرض

يقول الحق جلّ وعلا ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي وكما هديناه إلى الحقّ وبصّرناه بطريقنا: ثبتناه على هذا الطريق وزدناه يقينا، وأطلعناه على ملكوت السموات والأرض ليتمعن ويتدبر ويستنبط العبر ويستخلص الفوائد ليزداد يقينا وإيمانا .

قال النسفي: «أي نُرِي بصيرته لطائف خلق السموات والأرض»^(١).

وقال القاسمي: «أي نطلع على حقائقها، ونبصره في دلالتها على شئونه عز وجل، من حيث إنها بما فيها مملوكان له تعالى، والملكوت مصدر على زنة المبالغة كالجبروت، ومعناه الملك العظيم والسلطان القاهر، وقيل ملكوتها عجائبها وبدائعها»^(٢).

ويقول صاحب الظلال: «بمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة.. نُرِي إبراهيم حقيقة هذا الملك.. ملك

(١) مدارك التنزيل النسفي ٢ / ٦٩.

(٢) محاسن التأويل للإمام القاسمي ٦ / ٥٨٧.

السموات والأرض.. ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات الماثورة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيوان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب»^(١).

محاورة لطيفة

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُنْقِمُونَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

أراد عليه السلام أن يقيم الحجة على قومه وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلة إلى مرحلة ومن حجة إلى حجة حتى يأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى.

إنها محاورة عملية ومناظرة واقعية ومساجلة ميدانية لتكون أدعى إلى القبول وأبلغ في الاحتجاج.

قال الخازن رحمه الله: « الذي عليه جمهور المحققين: أن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة... أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها، فأراهم إبراهيم أنه معظّم ما عظموه، فلما أفَلَ الكوكبُ والقمرُ والشمسُ أراهم النقصَ الداخِل على النجوم بسبب الغيوبة والأفول ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية... قال إبراهيم عليه السلام ذلك على وجه الاحتجاج على قومه، يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب»^(٢).

(١) في ظلال القرآن ٢ / ١١٣٩

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٥٢ بتصرف، ويراجع تفسير القرآن العظيم لابن =

و قال الزمخشري: «... وكان أبوه [آزر] وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبهم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيئاً منها لا يصحُّ أن يكون إلهاً، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها»^(١).

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ أَيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

لما أقبل الليل وخيم الظلام وأزهر هذا الكوكب في السماء، قال إبراهيم على سبيل مجازة قومه واستدراجهم ﴿ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ غاب ﴿ أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ذلك أن الأفول والانتقال من حال إلى حال لا يمكن أن يكون من صفات الإله الحق، والنفس بفطرتها لا تركز إلى من يعتره النقص والتغير.

قال الزمخشري: قوله ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأن ذلك ادعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيطلبه بالحجة ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ لا أحبُّ عبادة الأرباب المتغيرين من حال إلى حال، المتقلين من مكان إلى آخر، المحتجبين بستر، فإن ذلك من صفات الأجرام^(٢).

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ تدرج بهم في مصاعد النظر ومراقي الوصول إلى العقيدة الصحيحة، حيث وجّه أنظارهم إلى القمر حين رآه بازعاً في أفق السماء فقال على سبيل المجازة ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ أي غاب واستتر ﴿ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾: فوجّه أنظارهم إلى حاجة الإنسان إلى الهداية الربانية، حتى ينجو من طريق الضلال، وأن الهداية لا تكون إلا من الله تعالى.

= كثير ٢/٢٧٦.

(١) الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٠ باختصار.

(٢) نفس المرجع ٢ / ٣١ بتصرف.

﴿ فَلَمَّا رَأَى السَّمْسَ بَارِزَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بِرَبِّي
مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

انتقل بهم إلى المرحلة الأخيرة في رحلة البحث عن الحقيقة، وقد كان من بينهم من يُعظّم الشمس ويعبدها من دون الله مع أنها كغيرها من النجوم يعترها التغيير وتدور في هذا الفلك العظيم، وتغرب هنا لتشرق هناك فلا يدوم لها حال.

وليس بعد هذه الحجج الساطعة إلا إعلان البراءة من الشرك وأهله ﴿ فَلَمَّا أَفَلَّتْ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي بِرَبِّي مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في النفوس ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾.

جعلتُ الله تعالى هو قصدي ووجهتي، وتوجهتُ إليه تعالى بالعبودية فهو تعالى الذي فطر السموات والأرض: أبدعها وأنشأها، وقد دلّ تعالى على نفسه بما أودعه في النفس الإنسانية من فطرة نقية تشهد له بالوحدانية، وبما بثّه في هذا الكون من دلائل نيرة وحجج ظاهرة. قال ابن كثير رحمه الله: «أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه»^(١).

مُحَاجَّةُ الْمُشْرِكِينَ

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجِّجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٢٧٦

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾: وحاجه قومه طمعا في صرفه عن الحق وأني لهم ذلك! وقد فندت شبهاتهم وبتدت أوهامهم! وأقيمت عليهم الحجج الباهرة والأدلة الظاهرة! وهم رغم ذلك يصرّون على الكفر ويتعادون في الضلال!

﴿ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي ﴾ أتجادلونني في الله وقد أخذ بيدي إلى الحق وأنفذ بصري ونور بصيرتي وشرح صدري وأنس وحشتي وأضاء دربي وفطرني على الإيمان! فأني حجة تُعويني عن طريق الرشاد وقد سلكته؟ وأي قوة تُثنييني عن الحق وقد أنسته، وأي ظلامٍ يججب عني النور وقد أبصرته؟

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ هددوه ^{الظلال} وتعدوه أن يبطشوا به ويفتكوا بعد أن أعيتهم الحجج، فبين لهم ثباته على الحق، وصموده أمام وعيدهم وبقينه بقدر الله تعالى، ومعرفته بحكمته سبحانه في ابتلاء أنبيائه وأصفيائه لحكم بالغة، ثم حثهم على التذكّر والتفكر فقال لهم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وكيف يخاف منهم أو يخشى آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع؟ وهم مع ذلك لا يخافون من الإله الحق وقد أشركوا به آلهة ما أنزل الله بها من سلطان فلا إله غيره تعالى ولا معبود سواه! فمن أجدر بالخوف ومن أحق بالأمن!

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨١)

« وأي خوف يقع على قلبي ظله ولم ألم بشرك ولم أجنح قط إلى جحد؟ وأنتم ما شتمتم رائحة التوحيد في طول عمركم، ولا ذقتم طعم الإيمان في سالف دهركم! ثم بسوء ظنكم تجاسرتم وما ارعويتم، وخسرتم وما باليتم، فأينا أولى أن يُعلن بسرّه ما هو بصدده من سوء مكره وعاقبة أمره؟»^(١)

(١) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٢٦٥.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ (٨٢) : إن الحياة الآمنة المطمئنة الطيبة الكريمة الراضية المرضية لا ينعمُ بها إلا المؤمنون المهتدون، الذين آمنوا إيماناً خالصاً من شوائب الشرك، فهم الأحق بالأمن في الدنيا والآخرة.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾، شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَآيَاتِنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشَّرْكَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿ يَبْنَئُ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣])^(١).

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٢) إشارة إلى ما سبق من أدلة باهرة وحجج ظاهرة أيد الله تعالى بها نبيه إبراهيم ﷺ ليُفحَمَ بها المشركين من قومه فتلك الحجج إنما كانت بتوفيق الله تعالى ومعاونته وتأييده سبحانه، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ ﴾ بالعلم والفهم والحكمة والحجة والفضيلة والنبوة التي يختصُّ الله بها من يشاء من عباده، كما رفعنا إبراهيم ﷺ على أهل عصره، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ التفات إلى الحبيب المصطفى ﷺ تسلياً له وتشبيهاً وإظهاراً لمزيد لطفٍ وعنايةٍ به ﷺ، ببيان أنه تعالى مطلعٌ عليه لا يخفى عليه حاله مع قومه.

قال ابن عاشور: « وَقَدَّمَ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ عَلَىٰ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لِأَنَّ هَذَا التَّمْضِيلَ مَظْهَرٌ لِلْحِكْمَةِ ثُمَّ عَقَّبَ بِـ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ لِشِيرَإِ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ الإِحْكَامَ جَارٍ عَلَىٰ وَفْقِ الْعِلْمِ »^(٢).

(١) صحيح البخاري كالتفسير - باب: ﴿ يَبْنَئُ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] - حديث ٤٧٧٦، وكتاب الأنبياء باب - باب قول الله تعالى ﴿ وَأَتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] حديث ٣١٨١، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه صحيح مسلم حديث ١٧٨ - (١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٧ / ٣٣٦.

مواهب ربانية

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْنَبَاتِهِمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾

بعد هذا الاصفاء لنبي الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم، فقد من الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعبت من تلك الشجرة المباركة: شجرة الأنبياء من بعده عليه السلام.

قال تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ قال الرازي: « وأما قوله: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ فالمراد أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب، وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحاق، ويعقوب، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلها، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح. وإدريس. فالقصد بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء»^(١).

وبيان سيره عليه السلام على نهج من سبقه من المرسلين، وإنما خصّ نوحاً عليه السلام لأنه أول المرسلين، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لإبراهيم، « لأن مساق النظم الكريم لبيان شؤونه العظيمة من إيتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، كل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته عليه السلام من المشركين واليهود، وقيل: لنوح، لأنه أقرب، ولأن يونس ولو طأ ليسا من ذرية إبراهيم، فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها، وأما المذكورون في الآية الثالثة فعطف على (نوحاً)، وروي عن ابن عباس أن هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم يلحقه بولادة من قبل أم ولا

(١) التفسير الكبير الرازي ٥/ ٥١، ٥٢.

أب، لأن لوطاً ابنُ أخي إبراهيم، والعربُ تجعل العمَّ أباً، كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] مع أن إسماعيلَ عمُّ يعقوب عليهم السلام^(١).

والذي يرجحه السياق أن الضمير في ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ لإبراهيم عليه السلام.

وسرُّ تقديم إسحاق أن إبراهيم عليه السلام رزق به وهو في شيخوخته وكانت امرأته عاقراً فكان معجزةً لإبراهيم وتكريماً له ولزوجه وقرَّان ذكره بذكر يعقوب لأنه ولده ولأن الملائكة بشرت بهما قال تعالى ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

« وإنما عدَّ الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدَّها على إبراهيم، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء »^(٢).

وإنما قدَّم داود وسليمان على أيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام لأن الله تعالى جمع لهما بين النبوة والملك وفي ذلك شرف لهما ولإبراهيم عليه السلام، والمقام مقام تشريفٍ وامتنان.

وفي اقتران أيوب بيوسف عليهما السلام لقربهما في الزمان ولتشابه حالهما حيث ثباتهما وصبرهما الجميل وصمودهما أمام أمواج الابتلاء وأعاصير المحن ورياح الفتن، وعاقبة صبرهما وتقواهما.

﴿ وَذَكَرْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِيَّاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَأَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

« وآخر ذكر إسماعيل عليه السلام لأنه ذكر إسحاق عليه السلام وذكر أولاده من بعده على نسق واحد »^(٣).

﴿ وَكَأَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ فضلهم الله بالنبوة والعلم والحكمة.

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤١٠.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٣٦.

(٣) فتح البيان لصديق حسن خان ٣ / ١٩٥.

﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْبَابُهُمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨٧)

﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أي: وهدينا من آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات، ف «مِنْ» للتبعض، والمراد: مَنْ آمَنَ منهم، نبياً كان أو غير نبى، ﴿ وَأَجْبَابُهُمْ ﴾، أي: تخيرناهم، والاجتباء: الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته، فالاجتباء: ضمُّ الذي تجتبيه إلى خاصتك، ﴿ وَهَدَيْتَهُمْ ﴾ أي: أرشدناهم إلى الإيمان، والفوز برضا الله عزَّ وجلَّ.

تعقيب على القصة

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٨٨)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٠)

ذلك المشار إليه من تلك الهدايا الربانية وأنوار النبوة: ﴿ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فالهداية دلالة وبيان، وتوفيقٌ ومعوثةٌ من الله تعالى، يختصُّ تعالى بها من يشاء من عباده، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي على فرض وقوعهم في الشرك وهذا مستبعدٌ لحبط عملهم، لكن الله تعالى عصم أنبياءه من الشرك.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ (٨٩) أولئك: إشارة إلى الأنبياء المذكورين وعددهم ثمانية عشر نبياً، ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الذين منَّ الله عز وجل عليهم بالهداية وأنعم عليهم بالكتب المنزلة، ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ وهو الحكمة والفهم، ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾: وهي من أجلِّ المواهب الربانية يختصُّ الله بها من يشاء من عباده.

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

الضمير في بها للحكم والنبوة والكتاب، أو للنبوة فقط، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ (إن شرطية والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول الله ﷺ وجواب الشرط ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُؤُنَّ بِهَا بِكْفِيرِينَ﴾ أي وفقنا إلى الإيذان بها قوماً، وهم الصحابة وهو الأظهر لمقابلة إيمانهم بكفار قريش الذين أصروا على كفرهم وإعراضهم، أو الأنبياء المذكورون سابقاً وأتباعهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠) أولئك: إشارة إلى الأنبياء عليهم السلام، فهم نجوم الهدى وأعلام الرشاد ومنارات الحق، وهم الذين أمر نبينا ﷺ أن يقتدي بهم ويسير على نهجهم، وقد عرفه الله تعالى بهم وحدثه عن إيمانهم وإخلاصهم، وهداهم وتقواهم وصبرهم وثباتهم وتحليلهم بمكارم الأخلاق.

قال الإمام البيضاوي: « والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل، ولا يمكن التأسي بهم جميعاً. فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله»^(١)

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١٠) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُنَّ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: في مقابل دعوتي لكم وإبلاغي إياكم، وفي هذا دفع لما قد يتوهمونه من أنه جاء لطلب دنيا أو تحصيل مال فيكون من أسباب امتناعهم.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٥٠٣.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما يصلح دينهم وديناهم، من عقيدة صحيحة وشريعة سمحة وأخلاق كريمة ومواعظ رقيقة وقصص هادفة وأمثال نافعة وحكم جامعة.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

الم تأمل في هذه السورة الكريمة يجدها قد اشتملت على أساليب كثيرة متنوعة؛ لإقامة الحجج على المشركين فتجد فيها البيان والتقرير والاستفهام الإنكاري والتقرير، والوعد والوعيد والقصص والأمثال والوصايا والأحكام، التي سيقت لإقامة الحجة وإبراز المحجة وتقرير أركان هذا الدين وتقويض دعائم الشرك.

ولما كان لإبراهيم عليه السلام مكانة عند مشركي العرب، سيقت قصته للاحتجاج به، عليهم وليبان توحيده في مقابل شركهم، فكيف يعظمونه وهم مخالفون له في الاعتقاد! وكيف يدعون متابعتة وهم يعيدون عن هديه، راغبون عن ملته.

كذلك سيقت القصة احتجاجا على أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أبعدهم عن هديه وملته.

فكانت قصة إبراهيم نموذجاً للقصة كأسلوب من أساليب الإقناع والاستدلال، فضلاً عما انطوت عليه من دروس وعبر وفوائد وأحكام.

وفي سردها في هذا المقام تسليية وتسرية للنبي ﷺ، ودعوة للتأسي بأبي الأنبياء عليه السلام في صبره ويقينه، ومنهجه في دعوة قومه.

وقد وردت قصة إبراهيم عليه السلام في سور عديدة وفي سياقات متعددة وفي كل مرة يكشف عن جانب من جوانب هذه القصة؛ بقدر ما يتوافق مع السياق الذي وردت فيه، أما الآيات الواردة هنا في شأن إبراهيم عليه السلام فإنها تركز على دعوته ومحاورته لقومه وأسلوبه البديع ومنطقه العذب وطريقته السهلة الواضحة في إقامة الحجة على قومه وإقناعهم.

ذلك أن مدار السورة الكريمة هو إقامة الحجج على الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتفنيدهم ما هم عليه جميعاً من أباطيل وأوهام، وتفنيدهم شبهاتهم وافتراءاتهم، وإزالة شكوكهم ومواجهة صدودهم وإعراضهم.

الهدايات المستنبطة

- * أهمية الحوار في إقامة الحجج والإقناع مع جواز مجازاة الخصم للوصول إلى الحقيقة.
- * حرص إبراهيم عليه السلام على دعوة أبيه، يرشدنا إلى دور الداعية مع أهله وعشيرته، وتدرجه في الدعوة.
- * أراد الله أن يقيم الحجج على قومه، وذلك بمجاراتهم والتدرج بهم من مرحلة إلى مرحلة ومن حجة إلى حجة حتى يأخذ بأيديهم إلى طريق الهدى، إنها محاوره عملية ومناظرة واقعية ومساجلة ميدانية لتكون أدعى إلى القبول وأبلغ في الاحتجاج.
- * على المؤمن أن يستحضر دائماً نعمة الله عليه بالهداية، ويؤدي حقها بدعوة من حُرِّموا منها.
- * على المحاور أن يخاطب عقل من يحاوره كما يخاطب مشاعره ووجدانه، فيجمع بين الحكمة وهي خطاب العقل، والموعظة الحسنة وهي أقرب وسيلة للروح والوجدان، كما فعل إبراهيم عليه السلام.
- * كما اصطفى الله إبراهيم عليه السلام بالنبوة والعلم والحكمة والفهم فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعبت من بعده تلك الشجرة المباركة شجرة الأنبياء عليهم السلام.

* من كمال نبوته ﷺ وتمام دعوته: اقتداؤه وتأسيه بجميع الأنبياء فلم يجتمع ذلك لغيره من الأنبياء كما في الحديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا

وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبَنَةِ (١) وصدق الله تعالى ﴿أَلَيْسَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة ٣].

* على المحاور أن يستعين بالله تعالى فالتوفيق والسداد منه تعالى، والتأييد بالحجج والبراهين فضلٌ منه سبحانه قال تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣).

* التحذير من الشرك، وبيان أنه من محبطات الأعمال.

* قوله تعالى ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِأَنَّهَا فَكَّرْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ قال الرازي رحمه الله: «دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ويُقَوِّي دينه، ويجعله مستعلياً على كل من عاداه، قاهراً لكل من نازعه، وقد وقع هذا الذي أخبر الله تعالى عنه في هذا الموضع، فكان هذا جارياً مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزاً. والله أعلم» (٢).

* أقول: ووعد الله تعالى بنصر دينه والتمكين لأوليائه وانتشار دعوة الإسلام بين سائر الأمم والشعوب وعدُّ قائم، وها نحن نرى كل يوم مدى إقبال غير المسلمين على هذا الدين وتمسكهم به وسعادتهم بدخوله وحلهم لواء الدعوة وهمومها، في الوقت الذي تزداد فيه الحملات ضد الإسلام وتضطرم نيران الشبهات والافتراءات من قبل الأعداء والأدعياء، وتنفق المليارات على الحملات التنصيرية بهدف صدِّ الناس عن الحق: نجد شموعا مضيئة في خضم هذه الفتن تتمثل في أولئك الذين شرح الله صدورهم لقبول دينه، ليقدّموا برهانا ساطعا وشهادة صادقة على عظمة هذا الدين، كما يكشف هذا الإقبال الكثيف عن زيف الحضارة الغربية وإفلاسها، وأن الأديان المحرفة لا يمكن أن تنهض بالإنسان أو تحقق له النجاة، وأن الإسلام قدم منها عمليا واقعيا لصلاح البشرية وسعادتها.

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب المناقب - باب: خاتم النبيين ﷺ صحيح البخاري حديث ٣٣٤١ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين صحيح مسلم حديث ٤٢٣٧.

(٢) التفسير الكبير الرازي ٥ / ٥٥.

وكأنى بهذه الآية الكريمة وهي تشير إلى سنة التغيير والاستبدال، لتتظم مع غيرها من السنة التي تضمنتها السورة الكريمة.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْتَدَةَ ﴾ أقول: أمر الله نبيه ﷺ وكافة المؤمنين به أن يقتدوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فهم نجوم الهدى ومصايح الدجى وجوامع العلوم والحكم وينابيع الفضائل، ومعادن الخيرات وشآبيب الرحمات، فعلى كل مسلم أن يُعنى بدراسة سيرتهم العطرة في ضوء الكتاب والسنة ويقطف منها العبر ويلتمس الفوائد، ويستنبط الدروس والحكم سبباً في هذا العصر، وما يشهده من غربة في أحوال المسلمين، وفرقة بين دعاة الحق، مع تسلط الأعداء وكيد الأعداء، واختلاط المفاهيم، وتخبُّط في بعض المناهج ما بين يائس ومداهن ومتعجِّل ومتعصَّب، من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعاً، فالدراسة المتجردة الواعية لهذه الحياة الحافلة المباركة: حصنٌ مكينٌ، ومنازٌ للسالكين، ومبعثٌ إلى الوحدة والاعتصام بحبل الله المتين، واتباع صراطه المستقيم، ومنطلقٌ إلى النصر والتمكين».

- ١٢ -

الاحتجاج على منكري الوحي

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِسَ يُتَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ أَيُّومَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

المناسبة

أبعد الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام وقد تواترت بها الأنباء وسارت بذكرها الركبان، ثم الحديث عن جملة من الأنبياء من ذريته عليهم السلام قد بلغت سيرتهم أطباق الأرض وأركانها يوجد من بين العقلاء من ينكر الوحي؟ فهل ينكره إلا مكابرٌ جاحدٌ، أو جاهلٌ معاندٌ، لم يقدر الله حقَّ قدره ولم يعرفه حقَّ معرفته؟

التفسير الإجمالي

أبعد الحديث عن الأنبياء عليهم السلام تلك النجوم الزاهرة والبدور النيرة ينكر الجاحدون تلك الأضواء الباهرة؟ إنه الجحود والإنكار، والصدود والاستكبار، الذي يُعمي القلوب والأبصار.

إنه الجهل المطبق بالحق والضلال الممين الذي يحملهم على إنكار الرسل والرسالات وقد

تعطرت الدنيا^(١) بسيرتهم، وأضاءت صفحات التاريخ بمآثرهم ومناقبهم، فتواتر ذكرهم على مر العصور والأجيال حتى أصبح من الحقائق المسلمة التي يُسَلَّم بها كلُّ منصفٍ.

أما أولئك الجاحدون فإنهم ما قدروه حقَّ قدره، وما عرفوه حقَّ المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ حين نطقوا بكلمة الكفر والإلحاد، حين قالوا مقولتهم الظالمة التي تعبر عن تصوراتهم المظلمة.

ما عظموا ربهم حقَّ التعظيم ولا عرفوه حقَّ معرفته حين أنكروا ما تواترت به الأخبار وما جاء به الوحي فقالوا مكابرين مقولة الجاحدين ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا قدح في حكمته تعالى وعده، وزعم أنه ترك عباده هملاً بلا شرعةٍ ومنهاجٍ، ونفي لأجل النعم التي أنعم الله بها على عباده وهي إرسال الرسل.

وهنا يتبادر هذا التساؤل: من القائل؟ أهم كفار قريش؛ حيث نزلت السورة في محاجتهم؟ فكيف احتج عليهم بنبو موسى وإنزال التوراة عليه؟ أم أصحاب هذه المقولة الظالمة هم أهل الكتاب؟

ذهب ابن جرير الطبري إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش واستدلَّ على ذلك بأن سياق الآيات إنما نزلت فيهم، ورد رأي من زعم أن الآية نزلت في يهود، فبين أن اليهود لم يجز لهم ذكر متصل بهذه الآيات ولم يُعرَف عنهم إنكارٌ للرسول والرسالات، كما لم يرد ما يدل على أن الآية نزلت في يهود^(٢).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله، قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فنحاص رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف.

(١) الدنيا: جمع الدنيا، نحو الكبرى والكبر، والصغرى والصغر.

(٢) يراجع جامع البيان للطبري ٧ / ٣٠٩

﴿ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ والأول هو الأظهر؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب كانوا ينكرون إرسال رسول من البشر، كما قال تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال هاهنا: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾ يعني: التوراة التي قد علمتم أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات»^(١).

وقوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أي: يجعلها حملتها قراطيس أي: أجزاء من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون ويبدلون ويتأولون ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٩]، أي: في كتابه المنزل، وما هو من عند الله؛ ولهذا قال ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

أقول: الآية في أولها حديث عن المشركين ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ ثم جاء الالتفات إلى اليهود في قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حيث كان اليهود على علم ببعثة النبي ﷺ وكانوا على اتصال بالمشركين يُمدُّونهم بالأسئلة والشبه، أو أن قوله تعالى ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

(١) يراجع تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٠.

وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعَلَّمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ كان في بعض مشركي مكة الذين كانوا على علم بالتوراة وما فيها من بشاراتٍ بالنبي الخاتم ومع ذلك لم يؤمنوا.

وقال أبو حيان: « إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى وإن كانوا العرب فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول»^(١).

حتى صار من المتعارف عليه عند العرب قبل ظهور الإسلام إقرارهم بنزول الكتاب على موسى ﷺ.

ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾، ومن ذلك رجوعهم إلى أهل الكتاب في مسائل عديدة ففي رجوعهم ما يفيد تصديقهم بما عندهم.

وقوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾: أي: قل: الله أنزله، ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾: أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون، فقد خلطوا بين الجدِّ والهزلِ فصاروا لا يميزون بينهما، فدعهم: حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون من تكون له العاقبة؟

التفاتٌ إلى مقاصد القرآن

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

بعد بيان وتقرير إنزال التوراة على موسى ﷺ نورا وهدايةً للناس، جاء الحديث عن المعجزة الكبرى والرسالة الخاتمة المتممة القرآن الكريم الذي جاء مهيمنا على ما سبقه من كتب،

(١) البحر المحيط ٥ / ٢٠٢.

والإشارة إليه بالقرب: لقربه منهم وقربه إلى أفهامهم وعقولهم وملاسته لواقعهم وأحوالهم ومواكبته لكل العصور، أنزله الله مباركا لمن تلاه حق تلاوته وعَمِلَ به ودعا إِلَيْهِ، مباركا بما حوى من منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين وفوائد لا نهاية لها، وجاء مصدقا لما بين يديه: أي للكتب السابقة مصدقا بنزولها على الأنبياء عليهم السلام ومصدقا بمقاصده وما تضمنته من أحكام وأخبار، قبل أن تحرّف وتبدّل، أو مصدق بما بين يديه من أحداث الحاضر وأمور المستقبل، ومن أهمها ما يتعلق بالساعة من مقدمات وعلامات وما يقع فيها من أهوال عظام وأحداث جسام.

﴿وَلْيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومنذراً لأهل مكة ولمن حولها، وفي هذا إشارة إلى ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن مكة مركز العالم حيث تتوسط الكرة الأرضية، فكأن البلاد من حولها أبناء قد تحلقوا حول أمهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ فمن كان مؤمنا باليوم الآخر فحريّ به أن يؤمن بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ، وحريّ به أيضا أن يحافظ على الصلوات فهي طريق الفلاح في الدارين ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾

مصير أهل الكذب والافتراء

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾﴾

إذا كان من يكذب بآيات الله تعالى وينكر الوحي لم يقدر الله حق قدره إذا كان هذا حال المكذبين بالله: فهل هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوة وتظاهر بأنه يوحى

إليه ولم يوح إليه بشيء، شأن مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهية أو شيئا من خصائصها، كالذين يُجِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن.

ونظير ذلك قوله تعالى ﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ ولو ترى يا محمد أولئك الطغاة في ساعة الاحتضار وهم في خضم الشدائد وغمرة السكرات، وحوهم الملائكة الذين كانوا يتعجلون نزولهم، فهاهم قد حلَّ الموت بهم وجاءهم العذاب الذي لا رجعة فيه ولا مفرَّ منه، وغشيتهم سكرات الموت، وحضرتهم ملائكة العذاب، يستعجلون خروج أرواحهم الخبيثة، لو تراهم وهم على هذه الحال: لرأيت أهوالا عظاما وأمورا جساما!

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ يسطونها بالضرب المؤلم والعذاب المهين فيضربون وجوههم وأدبارهم، فبئس التوديع للدنيا! وبئس الخروج منها خزايا محرومين! ولبئس استقبال الآخرة، ودخولها بذنوب تقصم الظهر، وحسرات تُقطع الأكباد! ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ حيث كان ضرب الأدبار وما فيه من مهانة بمثابة توديعهم للدنيا، وضرب الوجوه وما فيه من تحقير لهم بمثابة استقبالهم في الدار الآخرة، ويسطونها لقبض الأرواح قائلين لهم على سبيل التعجيز والاستهانة ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُم ﴾: من هذه الغمرات التي وقعت فيها، أو أخرجوا أنفسكم من أجسادكم إن استطعتم؛ تبيكت لهم وتعجيز، وسخرية واستهزاء، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب، يا من افترت على الله الكذب وكذبتم بآياته واستهتتم بها: « هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح والتشديد في الإزهاق، من غير تنفيس وإمهال وأنهم يفعلون بهم

فعل الغريم المسلط ييسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهلها ويقول له أخرج إلي ما لي عليك الساعة ولا أبرح مكاني حتى أنزعه من أحداقك! (١).

﴿الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يوبخونهم ويقرعون مسامعهم بتلك الجرائم التي استحقوا بها هذا العذاب المهين، كما تئلى على الجاني صحيفة جنائته عند القصاص منه، فهذا العذاب إنما كان بافترائهم وتكذيبهم ومكابرتهم وعنادهم.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩١﴾﴾

جردوا من كل شيء، فخرجوا من الدنيا كما دخلوها، وجاءوا حفاة عراة غزلا كما ولدتهم أمهاتهم، ﴿وَتَرْكُنتُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تركوا الأهل والخلان والأموال والسلطان وراء ظهورهم، ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لم تنفعهم أهتهم التي عبدوها زاعمين أنها تقربهم إلى الله زلفى، ولم تدفع عنهم بل كانت وبالا عليهم، ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقطع ما بينكم من صلوات وروابط، وتقطع بينكم: تبدد شملكم وتفرق جمعكم، وتشتت أمركم، وخاب سعيكم، وانقطع رجاؤكم.

﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي ذهب وبطل وغاب ﴿مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي من تلك الضلالات والأباطيل كلها.

ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢]، وقوله ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٦ بتصرف.

دُونَ اللَّهِ أَوْ تَنَا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَنُكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥].

المناسبة بين هذا المقطع ومحور السورة

المناسبة بين آيات هذا المقطع وبين المحور العام للسورة واضحة جلية فلقد ردت على منكري الوحي من أهل الكفر والإلحاد والجحود والعناد، فمن ينكر الوحي الإلهي كمن ينكر الشمس وهي ساطعة في كبد السماء، ولكن كما قال البوصيري: قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ ويُنكر الفم طعم الماء من سقمٍ كذلك بينت الآيات أن من أشنع ألوان الظلم: الافتراء على الله ثم ذكرت صوراً منه وأعقبته ببيان عاقبته في الدنيا من سوء الخاتمة، وفي الآخرة من الخزي والهوان والعذاب الشديد.

الهدايات المستنبطة

* من جحد رسالة رسله تعالى فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق تعظيمه ولا نزهه حق تنزيهه، لكنه الهوى المتبع والتقليد الأعمى والجهل المطبق الذي يحمل صاحبه على إنكار الرسل والرسالات، كيف وقد تواتر ذكرهم على مر القرون والأجيال، وأضاءت أنوارهم أرجاء الكون، حتى أصبح من الحقائق المسلمات ومن كبرى اليقينيات.

* وحول قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ يقول القرطبي رحمه الله: « قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف يقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفاتها من الأكدار وخلوها من الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكليات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات،

ويقولون: هذه الأحكام الشرعية العامة، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص! وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون؛ ويستدلون على هذا بالخضر؛ وأنه استغنى بما تحلى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم! وهذا القول زندقة وكفر، يُقتلُ قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب؛ فإنه يلزم منه هُذُ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام^(١).

* تعقيبٌ لسيد قطب: « وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم، يقوله أمثالهم في كل زمان؛ ومنهم الذين يقولونه الآن؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم، لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم، ولكنها تظل خارج دين الله كله. وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله، وهي ثابتة على أصولها الأولى؛ جاء بها كل رسول؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد، بذات الدين الواحد الموصول...»^(٢).

* حرِّيُّ بأهل الكتاب أن يؤمنوا بآخر الكتب الذي نزل على خاتم الرسل ﷺ، وفصل في أمور الآخرة أدق تفصيل وأصدق بيان، وحرِّيُّ بمن آمن باليوم الآخر أن يؤمن بآخر النبيين مبعثاً نبينا محمد ﷺ قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وحرِّيُّ به أيضاً أن يحافظ على الصلوات، فهي طريق الفلاح في الدارين وهي عماد الدين وأفضل القربات وأجل الطاعات، ومحور العبادات.

* ليس هناك أظلم ممن افترى على الله الكذب؛ أو ادعى النبوة وتظاهر بأنه يوحى إليه ولم يوح

(١) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ٢٧/٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٢ / ١١٤٦ .

إليه بشيء شأن مدعي النبوة على مر التاريخ، أو من ادعى الألوهية أو شيئا من خصائصها كالذين يُجِلُّون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، أو من يزعم قدرته على الإتيان بمثل القرآن فهذا من أشنع ألوان الظلم.

* شدة سكرات الموت على الطغاة المستكبرين وما يلاقونه من أهوال عظام وتوبيخ وإيلام حين يودَّعون دنياهم ويستقبلون أخراهم، وقد انقطعت الصلات وتكشفت الغيبات.

- ١٣ -

من دلائل القدرة

قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُنْزِعُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ تُوْقُكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَابًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

المناسبة

هذه جولة أخرى من جولات هذه السورة سبقت لبيان دلائل قدرته وآيات عظمته وبدائع صنعه وعجائب خلقه سبحانه، وتقرير وحدانيته فهو الخالق المدبر لهذا الكون، وما يعبدونه من آلهة مزعومة من شجر أو حجر أو بشر أو شمس أو قمر أو حيوان أو طير فإنما هي مخلوقة وخاضعة لله تعالى.

التفسير الإجمالي

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ والفلق هو الشق والحب: مثل حبة الخنطة والشعير

وسائر الأنواع، والنوى هو ما يكون في داخل الثمرة، مثل نوى التمر وغيره.

قال الإمام الرازي: « واعلم أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قَدْرٌ من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً، أما من أعلاها فتخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، وأما من أسفلها: فتخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة، وهانئا عجائب... منها: أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسئلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة: لصارت كالماء، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز العليم...»^(١).

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ فكما أن شق الحب والنوى آيةٌ عجيبةٌ وحجةٌ باهرة، وخروج النبات الغض الطري الأخضر من الحب اليابس واليابس من النبات الحي النامي، فكذلك إخراجُ الحَيِّ من الميت، والميت من الحي، والأمثلة على ذلك في هذا الكونِ الرحيب لا تحصى ولا تُعدُّ.

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ذلكم الخالق الرازق المدبّر المحي المميّت هو الله، فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره! كيف تنصرفون عنه سبحانه وتعرضون عن هداه، مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته وعجائب مخلوقاته؟

لطيفة: قال ابن عاشور: « وقد جيء بجملة: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ فعليةٌ للدلالة على أن هذا الفعل يتجدد ويتكرّر في كلّ آن، فهو مرادٌ معلومٌ وليس على سبيل المصادفة والاتفاق، وجيء في قوله: ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ اسماً للدلالة على الدوام والثبات، فحصل بمجموع

(١) التفسير الكبير للرازي ٥ / ٧٢ بتصرف.

ذلك أن كلا الفعلين متجدد وثابت»^(١).

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ كما أنه فالق الحب والنوى فهو تعالى فالق الإصباح شقَّ بالنور ستائر الظلام قال أبو السعود: «فالق عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره، أو فالق ظلمة الإصباح وهي العَبَسُ الذي يلي الصبح»^(٢).

﴿وَجَعَلَ آيَاتَ سَكَنًا﴾ للسكون والراحة والنوم ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي سيران بحساب دقيق يعرف به عدد السنين ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ كل ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، فهو تعالى العزيز لا يمتنع عليه شيء، وبعزته انقادت له هذه الأجرام، تسير بأمره وتخضع لعظمته، العليم فلا تغيب عنه غائبة ولا يخفى عليه شيء.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ أي: خلقها للاهتداء بها ﴿فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ التي بينها بياناً مفصلاً لتكون أبلغ في الاعتبار ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بها في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته.

قال الشيخ السعدي: «جعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم، منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ تذكيرٌ بنعمة أخرى من نعمته تعالى دالة على عظيم قدرته ولطيف صنعه، هذه النفس هي نفسُ آدَمَ ﷺ كما قال تعالى في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) التحرير والتنوير / ٧ / ٣٨٩.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود / ٢ / ٤١٨.

عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴿١﴾.

﴿ فَسَتَقَرُّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾: مستقرٌّ على ظاهر الأرض كما قال تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ﴿٥٥﴾ ومستودعٌ في بطنها كما قال سبحانه ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ﴿٥٥﴾ أو مستقرٌّ في بطون الأمهات ومستودعٌ في بطون الأرض.

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قد بينا دلائل التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ يعني لقوم يفهمون عن الله آياته الدالة على توحيده.

وقال هنا « يفقهون » لأن إنشاءهم من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وألستهم ومشاربهم أمرٌ يحتاج إلى إعمال عقلٍ وتدقيق نظرٍ^(١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من: الأنعام والبهائم والطيور والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ يخرج من ذلك الخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل: سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخيل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف.

وفي هذه العبارة القرآنية إشارة علمية إلى ذلك المصنع الرباني لاستخراج وتراكيب واستخلاص وإنتاج النبات من ذلك الخضر «مادة اليخضور» وهو ما دلَّت عليه الأبحاث والدراسات التي امتدت لقرون عديدة لتصل في النهاية إلى هذه الحقيقة القرآنية^(٢)

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل لليضاوي ١ / ٥٠٨.

(٢) قدر الله سبحانه وتعالى أن تعتمد النباتات وكذا الإنسان والحيوانات في غذائها على ما ينتجه النبات =

قال السعدي: « وفي وصفه بأنه مترابك، إشارة إلى أن حبوه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضا إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار»^(١).

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ يعني من ثمرها، يقال: أطلعت النخلة إذا أخرجت طلوعها، قنوان: جمع قنو مثل: صنوان وصنو، ودانية أي قريبة التناول ينالها القائم والقاعد.

قال الخازن: « وفيه اختصارٌ وحذفٌ: تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبةٌ ومنها ما هي بعيدةٌ عاليةٌ فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولا من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة»^(٢).

﴿ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ وأخرجنا جنات من أعناب وأشجار الزيتون والرمان.

﴿ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ﴾ قال السعدي: يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهها في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك، إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضا، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، وكل ذلك التنوع لينتفع به العباد، ويتفكّهون، ويقتاتون، ويتاجرون، ويعتبرون.

= في مصانعه الخضراء، وهذه المصانع الخضراء يخرجها النبات بأمر ربه عند بداية نموه وتسمى في كتب العلوم النباتية «البلاستيدات الخضراء» والتي تحتوي على الكلوروفيل الذي عبّر عنه القرآن بالخضر حيث يقوم بالاستفادة من الطاقة الضوئية ويحولها إلى طاقة كيميائية ينتج عنها تكوين الحبوب والثمار المختلفة وسائر أجزاء النبات التي نراها في الحدائق والبساتين. لمزيد بيان يمكن الرجوع إلى موقع جامعة الإيمان - البيئة العلمية في القرآن الكريم، وموقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٧

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢ / ١٦٥

وقال ابن عاشور: « والتشابه: التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال، أي بعض شجره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، أو بعض ثمره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً، فالتشابه مما تقارب لونه أو طعمه أو شكله مما يتطلبه الناس من أحواله على اختلاف أمياله، وعدم التشابه ما اختلف بعضه عن البعض الآخر فيما يتطلبه الناس من الصفات على اختلاف شهواتهم، فمن أعواد الشجر غليظ ودقيق، ومن ألوان ورقه قاتم وداكن، ومن ألوان ثمره مختلف ومن طعمه كذلك... والمقصود من التقييد بهذه الحال التنبية على أنها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ يعني: فضحه وإدراكه.

والمعنى: انظروا نظر استدلال واعتبار: كيف أخرج الله تعالى هذه التمرة الرطبة اللطيفة اللينة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يعتبر بهذه الآيات ولا ينتفع بها إلا المؤمنون، وهذه دعوة للنظر والتأمل في روائع المخلوقات.

المناسبة بين آيات المقطع وبين محور السورة

وهي واضحة جلية؛ إذ تدور الآيات حول دلائل القدرة الإلهية وبدائع الصنائع الربانية التي تتجلى في عجائب مخلوقاته، ولطائف ما أودع في هذا الكون من حكم باهرة، في تدبرها ما يعمق الإيمان ويزيده، وهي تقرير لأصول الدين وإجابة مسكته لشبه الجاحدين والمشككين.

الهدايات المستنبطة

* احتج الله عليهم بتلك الشواهد المحسوسة؛ لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه قادر على بعثهم.

* من الأدلة العقلية على إحاطة علمه: تسخير هذه المخلوقات العظيمة على تقدير دقيق ونظام بديع، تحار العقول في حسنه وكماله ودقته وإبداعه، وموافقته للمصالح والحكم.

(١) التحرير والتنوير ٧ / ٤٠٢ بتصرف.

* جعل الله النجوم هدايةً للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

* مشروعية تعلم علم الفلك ومعرفة سير النجوم والكواكب وكل ما يتعلق بهذا الفضاء الرحيب لما في ذلك من فوائد وعبر، وللاهداء بها في ظلمات البر والبحر، من ذلك ما ثبت بالملاحظة العلمية الدقيقة وبالمناظير المقربة أن النجم القطبي هو أحد نجوم السماء التي تبعد عنا آلاف الملايين من الأميال، وأنه يبعد عن الكرة الأرضية بنحو ٣٠٠ سنة ضوئية لوحظ أن هذا النجم يقع جهة الشمال دائما بالنسبة لسكان نصف الكرة الشمالي، وبواسطة هذا النجم يمكننا أن نعرف الاتجاهات، وقد استطاع الفلكيون بوسائلهم وأجهزتهم العلمية وحساباتهم أن يرصدوا كثيرا النجوم ويحددوا مواقعها بالنسبة للأرض، لتكون مرشدا للمسافرين في البر والبحر وفي رحلات الفضاء إلى الكواكب.

* لكن تعلمها على مذهب الكهان والمنجمين حرام شرعا، ففي الإبانة لابن بطة: « وأمر النجوم على وجهين: أحدهما واجب علمه والعمل به، فأما ما يجب علمه والعمل به: فهو أن يتعلم من النجوم ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر ويعرف به القبلة والصلاة والطرق فبهذا العلم من النجوم نطق الكتاب ومضت السنة، وأما ما لا يجوز النظر فيه والتصديق به ويجب علينا الإمساك عنه من علم النجوم: فهو أن لا يحكم للنجوم بفعل ولا يقضي لها بحدوث أمر كما يدعي الجاهلون من علم الغيوب بعلم النجوم ولا قوة إلا بالله»^(١).

* وفي التونية للقحطاني:

لا تتبّع علم النجوم فإنه متعلق بزخارف الكهان

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي ٢٤٤/١، ويراجع: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ بن أحمد حكيمي رحمه الله ٢ / ٥٦٠.

علمُ النجومِ وعلمُ شرعِ محمدٍ في قلبِ عبدٍ ليس يجتمعان^(١)
 * في هذا التنوع العجيب والنظام الدقيق ما يدل على قدرة الله تعالى وتقديره، وفيه ردٌّ على
 الملاحدة الذين قالوا إن الكون خلق صدفة فهل يُعقلُ أن توجد الصدفة مثل هذا النظام
 العجيب وهذا النسق المحكم!

* استحباب النظر في آيات الله تعالى الكونية، والتأمل في بديع صنعه، والتفكر في عجائب
 المخلوقات، والاستمتاع بجمال الكون وروعته، ليستشعر المؤمن عظمة الخالق جلَّ وعلا
 وقد قيل:

تأمل سُطُورَ الكائناتِ فإنها من الملائعِ الأعلى إليك رسائلُ
 وقد خطَّ فيها لو تأملتَ خطَّها ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ
 * وقد رأينا في هذه السورة وهي تقيم الحجج وتعرضُ الألة كيف تدعو مرارا إلى النظر
 والتبصُّر والتفكر والاعتبار والتعقُّل والتبين والتذكر حتى صارت هذه الدعوات سمةً
 غالبيةً ومعلماً مُميِّزا لهذه السورة الكريمة.

(١) نونية القحطاني - لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي.

- ١٤ -

رد على مزاعم المشركين

وتقرير للعقيدة الصحيحة

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠١﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٥﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

المناسبة

بعد هذه الآيات البيّنات والحجج النيرات التي تشهد للحقّ بكمال قدرته، وتقرّر تفرده تعالى بالوحدانية فلا رب غيره ولا معبود سواه، عاد السياق إلى تفنيد شبه المشركين وبيان بطلان ما هم عليه من معتقدات فاسدة وتصورات خاطئة.

من ذلك أنهم جعلوا من الجنّ شركاء الله يدعونهم ويعوذون بهم، فضلا عن إطاعتهم لشياطين الجن، واستجابتهم لوساوسهم، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يعنى القرآن الكريم ما عليه طوائف من المشركين من تعظيم الجنّ والخنوع لهم، أو عبادتهم من دون الله.

ولقد حذر الله تعالى من إطاعتهم وموالاتهم وعبادتهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ

مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَتَابِتْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آخَذُوا عَهْدَ إِلَيْكُمْ بِنَبِيِّ أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ومن طوائف الكفرة عبدة الشياطين الذين يتقربون إليهم بالنجاسات ويتوددون لهم بالموبقات، فجعلوا الشياطين شركاء لله في تدبير الكون، وتجاهلوا كون الشياطين مخلوقة من جملة المخلوقات.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

جاء في اللسان: «خَرَقَ الكَذِبَ وَخَرَّقَهُ وَخَرَّقَهُ كُلَّهُ اختلقه قال الله عز وجل ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ افْتَعَلُوا ذلك كذباً وكُفْرًا، وخرقوا واخترقوا وخلقوا واختلقوا واحداً»^(١).

والمعنى: ادَّعُوا واختلقوا لله سبحانه الولد، فقالت اليهود عزيزاً ابن الله، وقالت النصراني المسيح ابن الله، وقال بعض مشركي العرب الملائكة بنات الله، ادعوا ذلك بلا علم ولا دليل وإنما هو محض افتراء على الله ﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَصِفُوْنَ﴾ فهو تعالى منزّهٌ مُّقَدَّسٌ عن كل ما لا يليق به، متعالٍ على تلك الافتراءات والمعتقدات الباطلة.

ومن ذلك أنهم كانوا يتعوذون بهم في أسفارهم إذا نزلوا واديا، والتعوذ لا يكون إلا بالله تعالى، قال تعالى في سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِن الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن ٦].

كما اختلقوا من تلقاء أنفسهم، بنين وبنات لله بغير علم منهم، سبحانه وتعالى عما يصفون.

(١) لسان العرب ١٠ / ٧٣ بتصرف.

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١١﴾ ﴾ مبدعها فلا شيء قبله، وكل شيء في هذا الكون فإن الله مبدعه ومن كان كذلك فأنى يكون له ولد؟ وكيف يتأتى الولد بلا صاحبة؟ وكيف الولد والصاحبة وهو تعالى خالق كل شيء؟

﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١١٢﴾ ﴾

بعد نقض عقائد الشرك، وبيان زيفها ويطلائها، قرر سبحانه العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، فهو تعالى الواحد لا رب غيره ولا معبود سواه.

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ « متولي أمور جميع مخلوقاته التي أنتم من جملتها، فكلوا أموركم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح ما ربكم الدنيوية والأخروية»^(١).

﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١٣﴾ ﴾

لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة؛ لأنه تعالى لا تحيط به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة، وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى بل تنفي إدراك الأبصار أي إحاطتها به تعالى وقد ورد ما يفيد صراحة رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة: من ذلك قوله جلّ وعلا ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقوله سبحانه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين: ١٥] فإذا كان الكفار محجوبين عن ربهم؛ فإن المؤمنين ليسوا محجوبين عنه سبحانه.

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، فعلمه تعالى يشمل كل ما لطف ودق

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٤٢٤.

فضلا عما جلَّ وعظُم، اللطيف بعباده في كل شئونهم وجميع أحوالهم ﴿الْحَيِّرُ﴾ الذي أحاط علمه بكل شيء.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ (١٠٤) والبصائر: هي الآياتُ البيناتُ والحججُ الساطعات التي اشتمل القرآن عليها، وجاء بها الرسول ﷺ فمن أبصرها وانتفع بها واستضاء بنورها فلنفسه ومن عمي عنها وأعرض عن هديها فقد حرمَ نفسه الخيرَ وساقها إلى الهلاك.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي لست عليكم بحافظٍ ولا رقيبٍ فمهمة الرسول ﷺ هي الدعوة والإرشاد، وكلُّ إنسانٍ موكلٌ بنفسه.

﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (١٠٥)

وكذلك نصرَفُ الآيات بما فيها من تنوع في العرضِ والأسلوبِ وتفنن في الخطابِ وتقرير للمعاني وترسيخ لها في النفوس وما يتطلَّب ذلك من وعدٍ ووعدٍ وقصصٍ وأمثالٍ، وتقريرٍ وتلقينٍ، ومحاجةٍ وحوارٍ، ودعوة إلى النظرِ والاعتبار، وليقولوا ما يقولون فإن قولهم لن يضيرك ولن يقدح فيما جئت به.

﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ هذا قول المكابرين المعاندين ممن أدرك بلاغة هذه الآيات ووجد نفسه عاجزا عن معارضتها! (١)

أي: فصلناه بهذا النظم البديع والأسلوب المحكم لتقول طائفة إنما تعلمه من آخرين وتدارسه معهم، ولتؤمن به طائفة أخرى حين تدرك بعلمها وفهمها أنه من عند الله، فله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء.

ونظير هذا قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو { دارست } أي تدارسته مع غيرك أي تعلمته من البشر أهل الكتاب أو غيرهم وقرأ ابن عامر ويعقوب { درست } أي بليت وقرأ الباقون { درست } { النشر ٢ / ١٩٧ } .

كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]

فتصريف هذه الآيات على هذا النحو العجيب لا يدعُ للمكابرين المعاندين حجةً يتعللون بها إلا ما تردده أفواههم من مقولة خاطئة كاذبة: هي أن القرآن مقتبسٌ من العهد القديم والجديد تعلمه محمد وتدارسه على أيدي الأبحار والرهبان! مع أنه النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعرف في سيرته العطرة وحياته المباركة التي سجلها التاريخ لحظةً بلحظةً، أنه جالس اليهود والنصارى واختلف إليهم وأخذ عنهم، كما أن الناظر في القرآن الكريم مقارنةً بالعهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل بعد تحريفهما يدرك من أول وهلة ما بينهما من اختلافٍ وتباعدٍ بعدَ المشرقين.^(١)

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

ما زال السياق في تقويض دعائم الشرك ونقض مظاهره وكشفِ صورته المتباينة والتي من بينها تعظيم الجن والاستعانة بهم وعبادتهم من دون الله كما وقع من بعض طوائف الكفر علماً بأن الجنَّ خلق من خلق الله تعالى خاضعين له تعالى، وادعاء بعض طوائف المشركين نسبةً بناتٍ وبنينَ لرب العالمين تعالى الله عما يقولون، ثم بين الله تعالى كذب هذه الدعوى وزيفها وتنزهه سبحانه عن الولد والصاحبة فهو خالق كل شيء ومبدعه لا شبيه له ولا مثل ولا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول ولا تحفى عليه خافيةٌ مهما لطفت ولا تغيب عن علمه غائبةٌ ولو كانت تحت أطباق الثرى فهو اللطيف الخبير.

(١) يراجع كتاب المرأة في القصص القرآني ففيه عقد المؤلف في نهاية كل فصل مقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم من حقائقٍ ناصعةٍ، وما ورد في التوراة والإنجيل من تحريف وتبديل وضلال وأباطيل.

الهدايات المستنبطة

- * تضمنت الآيات الكريمة رداً على عبدة الشياطين والذين يخلقون الكذب على الله بادعاء البنين والبنات له سبحانه وتعالى عما يشركون، والذين يعظمون الجن ويتعوذون بهم.
- * هو تعالى مبدع هذا الكون فلا شيء قبله، وكلُّ شيء في هذا الكون فإن الله مبدعه ومن كان كذلك فأنى يكون له ولد؟ وكيف يتأتى الولد بلا صاحبة؟ وكيف الولد والصاحبة وهو تعالى خالق كلِّ شيء؟ ولا شبيه له ولا مثيل له ولا ندَّ له فأنى له الشريك!
- * بعد نقض عقائد الشرك، وبيان زيفها وبطلانها، قرر سبحانه العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد فهو تعالى الواحد لا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فهو المستحقُّ للعبادة الخالصة، وهو تعالى المتوليُّ لأمر جميع مخلوقاته.
- * لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة؛ لأنه تعالى لا تحيط به العقول ولا البصائر، فلا يفهم من هذه الآية أن رؤية الله تعالى مستحيلة كما زعم المعتزلة وقد استشهدوا بهذه الآية الكريمة مع أنها لا تنفي رؤية الله تعالى، بل تنفي إدراك الأبصار، أي إحاطتها به تعالى، وقد ورد ما يفيد صراحةً لرؤية المؤمنين لربهم في الآخرة.
- * قال ابن كثير: « وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخصُّ من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى، وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة: قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: (لَا أُحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا

أَثْبِتَ عَلَى نَفْسِكَ) ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا»^(١) .

وفي السنة النبوية أحاديث صحيحة صريحة في هذا الباب منها:

* ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ...»^(٢)

* وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ أَنَسًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «نَعَمْ هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهْرِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا قَالَ: «وَهَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ضَوْءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ» قَالُوا: لَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «مَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا...»^(٣) .

* في تعريف الآيات على هذا النحو العجيب قطع الطريق أمام المكابرين المعاندين، فلا تقوم لهم حجة أمام هذه الحجج القرآنية المتتابعة المتنوعة.

* قراءة ابن عامر ويعقوب { دَرَسَتْ } بمعنى بَلَيْتَ: فيفهم منها اتهامهم للقرآن الكريم بأنه لا يناسب عصرهم ولا يواكب مجتمعاتهم، وهذه تهمة قديمة حديثة، قالها المشركون من قبل واليوم يقولها أعداء الدين من المنصرين والمتعصبين من المستشرقين والعلمانيين والحدائين

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣ / ٣١٠ الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود حديث ٢٢٢ - (٤٨٦) ورواه الإمام مالك في الموطأ ٢ / ١٤٩ حديث ٤٤٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب مواقيت الصلاة - باب: فضل صلاة العصر - حديث ٥٢٩، ورواه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليها، حديث ٢١١ - (٦٣٣).

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير باب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] حديث ٤٣٠٥ وصحيح مسلم كتاب الإيمان - باب معرفة طريق الرؤية حديث ٢٩٩ - (١٨٢).

الذين يهتمون القرآن الكريم بالرجعية والجمود مع كونه هو الرسالة المتجددة والمعجزة الخالدة والمعين الذي لا ينضب والفيض الذي لا ينقطع والخطاب الذي يواكب جميع العصور والبيئات، ولا تنتهي عجائبه ولا يشبع منه العلماء ولا يملئه البلغاء.

* وأما الباحثون عن الحقيقة المتجردون لها المشمرون عن ساعد الجدِّ أملا في الوصول إليها فإنهم يفرحون بما أنزل الله ويتنفعون بهذا المنهج القرآني القويم وذلك المسلك البلاغي الحكيم وذلك البيان الواضح، والتصريف البديع.

- ١٥ -

منهج التعامل مع المشركين

قال تعالى ﴿ أَتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ۗ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المناسبة

بعد مناقشة شبهات المبطلين وحجج المنكرين وإبطاها: وجَّه الله تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يسير على منهج الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانته على المضي فيه؛ ويمضي في طريق الحق ولا يلتفت إلى أولئك الضالين، ولا يعبا بهم، بل يُعرض عنهم، فإن الله تعالى لو علم فيهم خيرا لهداهم ونجاهم من طريق الشرك، وإنه ﷺ ليس برفيق لهم ولا مسيطراً عليهم ولا مُتولياً لأموالهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ أَتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أمر الله تعالى نبيه بعد أن بين له طريق الحق وأقام الحجج والبراهين الدالة عليه المقررة له: أمره تعالى باتباع الوحي الرباني فهو مصدر العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد الخالص كما أمره

تعالى أن يعرض عن المشركين ولا يلقي لهم بالا.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ أي ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر المؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق، ومضت سنته بان يكونوا مختارين في أعمالهم^(١).

﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وما جعلناك عليهم حفيظًا تحفظ عليهم أعمالهم وما كنت متوليا لأموارهم متصرفا في شئونهم، ولن تُحاسب عنهم، ونظير ذلك قوله تعالى في نهاية سورة الغاشية بعد أن أقام الحجة على الكافرين ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ولما كان عرضُ شبهات المشركين وأباطيلهم والحديث عن جهلهم وإعراضهم وتعتهم قد يُثير بعضَ النفوس المؤمنة فتصلُ بها الغيرةُ إلى سبِّ آلهة المشركين حذر الله تعالى من ذلك لما يترتب عليه من ردة فعل سيئة.

فقال تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فلا يجوز سبُّ آلهة المشركين لما يُفضي إليه من سبِّ لرب العزة جل وعلا، وذلك من قبل المتعصبين لما هم عليه من أهواءٍ وضلالاتٍ، حتى يُجئِلُ إليهم أنهم على الحق ﴿ كَذَلِكَ زِينًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾: قال ابن كثير رحمه الله: « وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زِينًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حبَّ أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الحالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره^(٢).

(١) تفسير المراغي ٧/ ٢١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٢٨٧.

قال ابن عطية: « وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء المشركين من التمسك بأصنامهم والذب عنها وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير والشر والاتباع لطرقة، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء»^(١).

وقال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ أي: كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام، وطاعة الشيطان، كذلك زينا لكل جماعة اجتمعت على حق أو باطل عملهم من خير أو شر»^(٢).

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يفصلُ اللهُ تعالى بين جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

وجه الترابط بين هذا المقطع ومحور السورة الكريمة واضحٌ بينٌ: فبعد دحض شبهات المبطلين وإزهاق حجج المنكرين: وجَّه اللهُ تعالى رسوله الكريم ﷺ أن يسير على منهج الله تعالى الذي هداه وبينه له وأعانه على المُضِيِّ فيه؛ ويمضي في طريق الحقِّ ولا يلتفت إلى أولئك الضالين، بل يُعرضُ عنهم ويمحاذر من سفههم وجهالتهم وتعصُّبهم الأعمى لما عليه من ضلالٍ فإن مرجعهم ومردُّهم إلى الله تعالى.

الهدايات المستنبطة

* تقرر الآيات الكريمة أصلاً من أصول هذا الدين وهو حرية الاختيار فلا إكراه في الدين، فالإسلام يُعرضُ ولا يُفرضُ، ولم يثبت على مرِّ تاريخ الدعوة أن أكره أحدٌ على الدخولِ فيه، كما وجدنا في تاريخ الأديان المحرفة والوضعية كيف فرضت، ولا تزال تُفرضُ بالإكراهِ

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٣١٣.

(٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣ / ١٠٣.

أو بالإغراءات المادية، أما ديننا الحنيف فإنه يُعلن عن نفسه بما تضمنه من عقيدة صحيحة وشرعية سمحة وأخلاق كريمة.

* لا يعني الإعراض عن المشركين التخلي عن واجب الدعوة، فالدعوة فريضة شرعية، ومن حق غير المسلمين علينا أن نبليغهم هذه الدعوة بلغتهم، فالدعوة مسئولية وتكليف فضلاً عن كونها رفعة وتشريفاً.

* مهمة الداعية أن يبلغ دعوة ربه دون النظر إلى النتائج، ولا يتعجل الثمرة بل يتحلى بالصبر والمثابرة.

* توجيه وتحذير من سب آلهة المشركين فإنه ذريعة إلى سبهم الله تعالى بجهلهم وحقنهم.

قال الإمام الشوكاني: « وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق، والناهي عن الباطل إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله، المتصددين لبيانها للناس، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه، وتركوا غيره من المعروف، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين، وجراءة على الله سبحانه، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراً، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل، وإذا أُرشدوا إلى السنة، قابلوها بما لديهم من البدعة، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع، وهم شر من الزنادقة، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا وجلين، والزنادقة قد أجمتهم سيوف الإسلام، وتحاماهم أهلها، وقد يتفق كيدهم، ويتم باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة، وهي أصل أصيل في سد الذرائع،

وقطع التطرق إلى الشبه»^(١).

وقال الشيخ السعدي: « وفي هذه الآية الكريمة، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر»^(٢).

-١٦-

تعنت واصرار

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلِبُ أَقْبَادِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْقِنَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المناسبة

هذه جولة أخرى مع أولئك المشركين المعاندين، فيها بيان أسباب صدودهم وإعراضهم والإجابة عن مطالبهم المعتتة واقتراحاتهم التي يُعلقون إيمانهم بنزولها، وقد أقسموا بالله تعالى على ذلك متناسين ما حولهم من آيات بينات وبراهين ساطعات هم عنها معرضون.

التفسير الإجمالي

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي غاية أيمانهم التي بلغها علمهم، وانتهت إليها قدرتهم، فإنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق، وأن تلك الآلهة وسيلة تقربهم إلى الله زلفى، وفي هذا ما يدل على تناقض معتقداتهم واضطراب أفكارهم فكيف يُعظمون الله تعالى وهم به مشركون وعن آياته معرضون، كيف يُقسمون به وقد كذبوا

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/ ١٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٦٨.

به وافتروا عليه؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فالآياتُ عند من بيده خزائن السموات والأرض وعنده مفاتيح الغيب، ولكن هل يؤمنون بها إذا نزلت أم تنزلُ بهلاكهم؟ وإذا كانت الآياتُ التي طلبوها هي أمورٌ خارقةٌ لنواميس الكون ونظامه فهل أمعنوا النظر في تلك النواميس، وهل تفكروا في هذا النظام العجيب الذي يدل على عظمته تعالى وكمال قدرته!

بيد أن سلوكهم لطريق الضلال وإصرارهم عليه لن يزيدهم إلا ضلالا وبعدا عن الله تعالى وتوغلا في هذا الطريق الذي سلكوه.

﴿ وَنَقَلِبُ أَفْئِدِهِمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾



ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، فنحول بينها وبين الانتفاع بآيات الله، فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بآيات القرآن عند نزولها أول مرة، ونتركهم في تمردهم على الحق وإعراضهم عنه حيارى تائهين، لا يبتدون سبيلا.

قال الشوكاني رحمه الله: «... ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الدنيا، أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية، كما حلنا بينهم وبين ما دعوتهم إليه أول مرة عند ظهور المعجزة...»^(١).

وقال الماوردي: « وهذا من الله عقوبةٌ لهم، وفيها ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنها عقوبة من الله في الآخرة يقلبها في النار.

والثاني: في الدنيا بالحيرة حتى يزعج النفس ويغمها.

والثالث: معناه أننا نحيط بذات الصدور وخائنة الأعين منهم.

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٥٢.

وفي قوله: { أَوَّلَ مَرَّةٍ } تأويلان:

أحدهما: أول مرة جاءتهم الآيات.

والثاني: أن الأول أحوالهم في الدنيا كلها، ثم أكد الله تعالى حال عنتهم^(١).

وقال صاحب التحرير والتنوير: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ أي بأن نعطل أبصارهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصرون ما تحتوي عليه الآية من الدلائل ولا تفقه قلوبهم وجه الدلالة فيتعطل تصديقهم بها، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم^(٢).

﴿ وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَكِّيبَ كَذَّوْلًا لَآتَيْنَاهُمُ الْكِلَابَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَمَا نَبَأَ الْأُنثَىٰ بِوَعْدِ رَبِّهَا وَكَانُوا شَاكِرِينَ ﴾^(٣)

بين الله تعالى أن نزول الآيات التي اقترحوها لن تجدي معهم ولن تنفعهم بسبب ما هم عليه من عتو وإعراض، ومكابرة وعناد، حتى لو نزل الله عليهم الملائكة كما طلبوا وأحياهم الأموات وكلموهم، ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ « ويُقرأ قُبُلًا قُبُلًا عِيَانًا وَقُبُلًا قُبُلًا قُبُلًا وقيل: قُبُلًا مُسْتَقْبَلًا وقرئ أيضاً: ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ فهذا يقوي قراءة من قرأ قُبُلًا، ويجوز أن يكون قُبُل جمع قَبِيل ومعناه الكَفِيل ويكون المعنى: لو حشر عليهم كل شيء فكفّل لهم بصحة ما يقول ما كانوا ليؤمنوا، ويجوز أن يكون قُبُلًا في معنى ما يُقَابَلُهُمْ أي لو حشرنا عليهم كل شيء فقابَلَهُمْ ويجوز قُبُلًا على تخفيف قُبُلًا^(٣).

والمعنى: لو جمع الله لهم جميع المخلوقات عيانا بيانا لتواجههم وتكلمهم وتشهد أمامهم بنبوتك وتقرّب بذلك وتضمن لهم صحة ما جئت به: ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله إيمانهم، ﴿ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ لا يدركون سنن الله في هذا الكون، ولا يستشعرون عاقبة كفرهم وإعراضهم.

(١) النكت والعيون ١ / ٤٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ٤٤١.

(٣) لسان العرب ١١ / ٥٣٤ والنشر في القراءات العشر ٢ / ١٩٨.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تنظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة، وهو الكشف عن أسباب صدودهم وإعراضهم وبيان تعنتهم وإصرارهم، وأنه تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم، ولكن سبق في علمه تعالى اختيارهم ورضاهم بما هم عليه من كفرٍ وضلال.

الهدايات المستنبطة

- * إصرارُ المشركين على ما هم عليه من كفرٍ وضلالٍ مهما عاينوا من آيات.
- * قدرة الله تعالى على إنزال الآيات التي اقترحوها ولكنه تعالى سبق في علمه أنهم لا يؤمنون.
- * إثبات القدر: فكل ما في الكون من إيمان وكفر من هدى وضلال بتقدير الله عز وجل وتدبيره وبناء على علمه تعالى وحكمته.
- * إثبات ما عليه المشركون من تناقض واختلاف من ذلك أنهم يُقسمون بالله تعالى والقسم يفيد التعظيم فكيف لا يستجيبون للحق ويدعون به، وإثبات ما ألفوه من الكذب والحنث في اليمين ونقض العهود وما انطوت عليه نفوسهم من خبيث.
- * كان ختامُ هذا المقطع بقوله تعالى ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ والجهل داءٌ عُضالٌ لا دواء له إلا بقبول العلم النافع فهو الدواء الناجع، لكن المشركين لا يُقرون بما هم عليه من جهل حتى يتقبلون دواءه، وتلك آفةٌ أخرى تزيدهم علّةً على علّة.

* وقد قيل:

يسائلُ من يدري فكيف إذن تُدري	إذا كنتَ لا تدري ولم تكُ بالذي
فمن لي بأن تدري بأنك لا تدري	جَهَلتَ ولم تعلمُ بأنك جاهلٌ
فكنُ هكذا أرضاً يطاقُ الذي يدري	إذا كنتَ من كُلِّ الأمورِ على عَمَى
وأنتَ لا تدري بأنك لا تدري ^(١)	ومن أعجب الأشياءِ أنك لا تدري

(١) الأبياتُ لأبي القاسم الأمدى.

- ١٧ -

اضلالٌ وغوايةٌ

الإعلامُ المضللُ وموقف الإسلام منه

قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِنَصِّحِي إِلَيْهِ أَفَعَدَّةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِيَرْضَوْهُ وَلِيَفْتَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

المناسبة

كما اقتضت سنته تعالى أن لا يؤمن المشركون إلا بمشيئته تعالى، وأن إعراضهم لحكمة يعلمها: فكذلك ابتلى الله نبيه ﷺ بكيد الأعداء وصددهم عن سبيل الله، كما ابتلى الأنبياء من قبله بذلك؛ فالابتلاء سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه، وهذه الآيات فيها تسليّة وتثبيت لرسول الله ﷺ، وتحذير من مكائد الأعداء وأساليبهم الماكرة في محاربة هذا الدين، فكما ناصب المشركون هذه الدعوة العداوة وحاربوها وصدّوا الناس عنها واضطهدوا المؤمنين بها فكذلك فعل أعداء الأنبياء من قبلهم، إنها سنة الصراع بين الحق والباطل، وتلك هي سنة الله في الدعوات.

التفسير الإجمالي

في الآيات الكريمة بيان لسنة من السنن الربانية، سنة ماضية وجارية وباقية، سنة الصراع بين الحق والباطل، هذا الصراع الذي يضربُ بجذوره في أعماق التاريخ، ويمتدُّ إلى أن يرث الله الأرضَ ومنَ عليها.

ولقد بلغ هذا الصراع ذروته في عصرنا هذا في ظلّ الأساليب والوسائل التي استغلّها أعداء الإسلام في محاربة الحقّ وصدّ الناس عنه والتغلغل في المجتمعات الإسلامية، سيّما عن

طريق الإعلام المضلل؛ حيث جعل شياطين الإنس والجن من ذلك الرّخم^(١) الإعلامي: سبيل غواية وإغفال، ووسيلة إضلال وانحلال، ومغولاً من معاول الهدم، وعاملاً من عوامل التخلف والرجعية، وملهأة للشعوب وتخديراً لها، حتى تظل دائماً غائبة عن وعيها، معيّبة عن واقعها، منعزلة عن ماضيها، ذاهلة عن مستقبلها.

وكما استطاع إبليس اللعين بأساليبه الدعائية الملتوية، ووسائله ووساوسه الإعلامية المضللة، ووسائله الإعلانية الخداعة، دفع أبويناً إلى الأكل من الشجرة^(٢)، فلقد نجح خلفاؤه وجنوده من اليهود وغيرهم في استغلال أبواب الإعلام وأبوابه، وفتح نوافذه، وامتطاء وسائله، وركوب متنه؛ لتحقيق مآربهم وإحكام سيطرتهم بأساليب فائقة، بلغت في تمويه الأضاليل الغاية، وفي تشويه الحقائق، وزخرفة الأباطيل النهاية.

ولسان حالهم يعبر عن فخرهم بهذا المسلك الوعر الذي انحدروا إليه، وتلك الهوة السحيقة التي انحطوا إليها: حتى يقول قائلهم:

وكنْتُ امرأً من جنِّ إبليسَ حتى ارتقى بي الحالُ فصار إبليسُ من جندي

ولعل هذا هو سرُّ التعبير بشياطين الإنس وتقديمهم على شياطين الجنِّ في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ إنه التآمر بين الفريقين والتواطؤ بينهما حيث تفاقمت أخطارهم لا سيما في هذا العصر، حيث يبدو ذلك واضحاً في ظل هذا الظهور الإعلامي الفجّ لشياطين الإنس ومن وراء [الكوايس]: إخوانهم من شياطين الإنس والجن؛ بوساوسهم وتزيينهم وإلهاماتهم وإجاءاتهم وإمدادهم لتلك الحشود، من الكتّاب والمخرجين

(١) الرّخم: « لحم زخم: دسم حبيث الرائحة. وخصّ بعضهم به لحوم السباع، وقد زخم زحماً، وفيه زحمة، وزخمه يزخمه زحماً: دفعه دفعاً شديداً. لسان العرب لابن منظور ١٢ / ٢٦٢ وتهذيب اللغة للأزهري ٤٥٤ / ٢.

(٢) انظر كتاب « المرأة في القصص القرآني ». عن وسوسة الشيطان لها، يراجع الفصل الأول من هذا الكتاب ١٣٥ : ٤٣ / ١.

ومهندسي الإضاءة والزينات [الديكور]، والمنتجين والممثلين والنقاد والمحكمين والمذيعين الذين يلبسون الحقَّ بالباطل ويكتُمون الحق وهم يعلمون، ويجرُّون الناس إلى المعاصي جهاراً نهاراً.

كما ورد عن مالك بن دينار رحمه الله أنه قال: « شياطينُ الإنسِ أشدُّ عليَّ من شياطينِ الجنِّ؛ وذلك أني إن تعوذتُ بالله من شياطينِ الجنِّ ذهبَتْ عني، وشياطينِ الإنسِ تحيِّثني فتَجْرئني إلى المعاصي عياناً»^(١).

﴿ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

والوحيُّ هو مطلقُ الإعلام، سواء كان في العلنِ أم في خفية، بقول أم بإشارة أو إيحاءٍ عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: « إِنَّ لِلْجِنَّ شَيَاطِينَ يُضَلُّونَهُمْ مِثْلَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ يُضَلُّونَهُمْ، قَالَ: فَيَلْقَى شَيْطَانُ الْإِنْسِ شَيْطَانَ الْجِنِّ، فَيَقُولُ هَذَا لِهَذَا: أَضَلُّهُ بِكَذَا، وَأَضَلُّهُ بِكَذَا، قَالَ: فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾»^(٢).

فتأمل! كيف يقومُ إعلامُ أعداءِ الإسلامِ وأذنانِهم من الأذعياء على البريق الخادع، مع زخرفة الأباطيل، والسعي إلى طمس الحقائق، وإنفاق الأموال الطائلة على ذلك الطلاء الزائف والبريق الخاطف لأهل الباطل ودعم دعواتهم الهدامة التي تنطلي على أصحاب العقول القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضة.

وكم من كلام لا يوافق حكمةً لقي الرواج بسوقٍ من لا يعلم!

قال ابن الجوزي « وأما ﴿ زُخْرَفَ الْقَوْلِ ﴾، فهو ما زُينَ منه، وحُسن، وموه»^(٣).

﴿ غُرُورًا ﴾ « أي لأجل أن يُغروهم بذلك، أي يخدعهم، فيصيروا لقبولهم كلامهم

(١) معالم التنزيل للإمام البغوي ٣ / ١٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٢٧.

(٣) زاد المسير لابن الجوزي في علم التفسير ٢ / ٣٩٦.

كالغافلين الذين شأتهم عدم التحفظ، والغرور هو الذي يُعتقد فيه النفع وليس بنافع^(١).
 « يزين بعضهم لبعض ما يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغترَّ به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموَّهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً^(٢). »

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ فلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ في الكون إرادة نافذة غير إرادة الله، وليعلم أن هذه السنن الإلهية: تتمخض عن حكم وغايات، فلا يقع في ملك الله إلا ما أَراده وقَدَّره.

« ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصلَ عباده الابتلاء والامتحان، ليطهر الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى، ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه - حينئذٍ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون^(٣). »

وحول هذا المعنى يقول أبو تمام:

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ طويت: أتاح لها لسانَ حَسُودٍ
 لولا اشتعال النار فيها جاورت ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العُودِ

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ وفي هذا تهوينٌ وتحقيرٌ من شأن أولئك الشياطين الذين هيمنوا على وسائل الإعلام، وردُّ على من يُهَوِّلُ من شأنهم وَيَنَاسُ من مواجهتهم ويخشى من التصدي لهم، بل وربُّها ينجرُّ في تيارهم؛ رغبة ورهبةً وخوفاً وطمعاً، فيصير أداةً طيعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيق مآربهم.

- (١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٣ / ١١٣ .
 (٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٢٦٩ .
 (٣) نفس المرجع.

﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ ﴾ : فَدَعَهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَكَاذِبِهِمْ وَافْتِرَاءَاتِهِمْ.

وتنطوي هذه العبارة القرآنية ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ ﴾ على تهديد لهم ووعيد.

وفي هذا دعوة إلى مقاطعة كل ما يُصوغونه ويحكيونه من ضلالات وافتراءات، ومن ذلك وسائل إعلامهم المزللة، فينبغي الدعوة إلى هجرها بل والتصدي لها؛ حتى لا تقوم لها قائمة ولا تُروَّج لها بضاعة.

﴿ وَلِصَّحَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

الإصغاء: استماع مع ميل، قال الإمام الراغب: « وأصغيت إلى فلان ملت بسمعي نحوه»^(١) وهذا ينطبق على هذا الإعلام الفاسد الذي يجذب الانتباه ويخلب الأنظار ويسلب المشاعر ويأخذ بالعقول ويستحوذ على النفوس.

ولك أن تتخيل هيئة ذلك الجالس أمام الرائي [التليفاز] وقد مال إليه بقلبه وحسه وأقبل عليه بسمعه وبصره شأن العاشق الولهان، ولسان حاله يقول:

وفي حُبِّهَا بَعْتُ السَّعَادَةَ بِالشَّقَا ضَلَالًا وَعَقْلِي عَن هُدَايَ لَهُ عَقْلُ
وَفَرَعْتُ قَلْبِي مِنْ وَجُودِي مُخْلِصًا لِعَلِّي فِي شُغْلِي إِلَيْهَا بِهَا أَخْلُو
وَأَصْبُو إِلَى الْعُدَالِ حُبًّا لِذِكْرِهَا كَأَنَّهُمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْهَوَى رُسُلُ
فَإِنْ حَدَّثُوا عَنْهَا فَكُلِّي مَسَامِعُ وَكُلِّي إِنْ حَدَّثْتَهُمْ أَلْسُنُ تَتْلُو.

أليس: أولئك الرابضون كل يوم بالساعات الطوال أمام هذا الفسوق والضلال هم من المغترين بالدنيا المتعلقين بأهدابها الواهية وحبالها البالية، حين خلت قلوبهم من الإيمان باليوم الآخر؟ أليس ذلك شأن من أصبح وأمسى في غفلة عن هذا اليوم فانشغل بدياه الباطلة فلم يبال بإضاعة الأوقات، وتعطيل الساعات، وإهدار الأعمار، وقضاء السهرات: أمام الأفلام والمسلسلات؟

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ت ٥٠٢ هـ / ٢٨٣.

قال الشيخ السعدي: ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستحيين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التمويهات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقا قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظا غير وافية، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها، كائنا من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير^(١).

﴿وَلْيَرْضَوْهُ وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ألا ينطبق هذا على الإعجاب الزائف بتلك النجوم الخالكة، نجوم العفن الفني ومن وراءهم من حشود وجنود، لنيل إعجاب الجماهير الغافلة، بأعمالهم المبطلّة، والانبهار بما يقدمونه من مسلسلات هابطة وأفلام ساقطة ومسرحيات هزلية وبرامج عبثية، تخطف الأبصار، وتؤجج المشاعر، وتثير الغرائز، وتهيج الشهوات، فيتحوّل هذا الإعجاب والرضا إلى تبعيّة وضلال وفساد وانحلال، وسير على نهج تلك الشياطين واتباع لسننهم ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ فقد سلكوا طريقهم واقتفوا آثارهم مقلدين لهم حتى في مشيتهم وملابسهم ومجالسهم وأحاديثهم، مشاركين لهم حتى في أمانيتهم وطموحاتهم، ورؤاهم وأحلامهم، وأفراحهم وأتراحهم.

قال صاحب روح البيان: ﴿وَلْيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم بعدما مالت إليه أفئدتهم، ﴿وَلْيَقْتَرِفُوا﴾ أي يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرها وهي ما قضى عليهم في اللوح المحفوظ^(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ١ / ٢٦٩.

(٢) روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ٤ / ٢١.

وقال صاحب اللطائف: « وَكَلَّتْ أَسْمَاعُ الْكُفَّارِ بِاللَّغْوِ وَقَلُوبُهُمْ بِالسُّوءِ، فَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَحْسَنَ الْأَنْصِبَاءِ »^(١).

ويقول الشيخ عبد الحميد طههاز: « ولا يخفى ما في الآية من تحذير للمؤمنين من الوقوع في شرك الضالين المضلين، فعليهم أن يتجنبوا استماع كلامهم المزوق المزخرف الذي يخفون في طياته السم النافع، فما أكثر ما يخلطون السم بالدسم، فلا استماع إلى أقوالهم قد يؤدي إلى الرضا بها، ثم الاستجابة الفعلية لما فيها من إثم وفجور.

وكأن بالآية الكريمة قد نزلت لهذا العصر الذي أصبح فيه لوسائل الإعلام سلطان كبير، وتأثير شديد على الناس، لقد وجه شياطين الإنس من أعداء الإنسانية بوحى من شياطين الجن كثيرا من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة إلى الشعوب الإسلامية، ليفتنوا المسلمين عن دينهم وأخلاقهم، وقد ملئوها بالبرامج المزخرفة الموهبة التي تستهدف في حقيقتها تشكيك المسلمين بدينهم، وإشاعة الفواحش والفجور في مجتمعاتهم»^(٢).

المنهج الصحيح والميزان القويم

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ اتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

بعد بيان ما عليه أهل الضلال من زخرفة للأباطيل وقلب للموازن وصد عن سواء السبيل، جاءت هذه الآية بالمنهج القويم والصرط المستقيم والميزان الدقيق في التلقي والقبول وهو تحكيم شرع الله عز وجل في كل أمر من الأمور، ومن ذلك في كل ما يرد إلينا من رؤى وأفكار ومقالات وتحليلات وسائر ما تبثه وسائل الإعلام، نحتكم فيها إلى شرع الله فهو الحكم والميزان وهو الفرقان والبيان الذي يرشدنا إلى الحق، لا أن نحتكم إلى أعدائنا ونركن إليهم

(١) لطائف الإشارات للقسري ٢ / ٢٩٢.

(٢) بصائر الحق في سورة الأنعام، للشيخ عبد الحميد محمود طههاز ص ١٠٦، ١٠٧.

ونلتمس الهدى منهم، كما هو واقع الآن من احتكام إلى بلاد الغرب وتبعية لها واتباع لسنن من قبلنا من اليهود والنصارى مع ما هم عليه من ضلال، ومع أنهم يعلمون أننا على الحق المبين، فهل نسير في ركاب أولئك الجاحدين المكابرين؟ ونؤثر الظن والتخمين، ونترك الحق اليقين: كتاب الله وسنة خير المرسلين؟.

﴿ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ أَلْبَتَغَىٰ حَكْمًا ﴾ أميل إلى زخارف الشياطين وأخدع بالبريق الزائف فأبتغي حكماً غير الله يحكم بيننا ويفصل المحق منا من المبطل؟

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ أنزل الكتاب إليكم لهدايتكم ﴿مُفَصَّلًا﴾ فيه تفصيل وبيان لكل ما يحتاجه الإنسان، فكيف تحتكمون إلى غيره؟

﴿ وَالَّذِينَ آمَنَّا بِهِمْ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ فاليهود والنصارى يعلمون أنه الحق لكنهم يعدلون عنه؛ جحوداً وعناداً، ومع ذلك يُحتكم إليهم ويُقتفى أثرهم مع ما هم عليه من كفر بواح وكذب صراح!

﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴾ والامتراء لم يقع منه ﷺ ولكنه خطاب يُراد به غيره: فلا تكونن أيها المستمع لهذا القرآن في شك أنه منزل من عند الله، كيف وهو المعجزة الخالدة، والحجة المتجددة.

« فعلى المسلمين لحماية أنفسهم وأبنائهم من تأثير وسائل الإعلام الموجهة إليهم أن يُحْكَمُوا كتاب الله تعالى، الذي فصل الله فيه كل ما يحتاجه الإنسان»^(١).

وفي الآية ردُّ على من ينكر وجود التصادم والصراع الحضاري بين الإسلام والغرب فالصراع بين أهل الباطل والطغيان وأهل الحق سنة من سنن هذا الكون. قال تعالى ﴿ وَكَانَ تَرْصُنَا عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٠﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال جلَّ وعلا ﴿ وَلَا يَزَالُونَ

(١) بصائر الحق للشيخ عبد الحميد طههاز ص ١٠٨.

يُقَلِّبُوكُمْ حَتَّىٰ يَرْضَوْكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ﴿ [البقرة: ٢١٧].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

لا يزال حديث السورة موصولاً حول أسباب الصدود والإعراض مع تجلي الآيات وتدقق الحجج وتمهات الشبه وسقوط الأباطيل؛ لكنه الصدود والإعراض والتمويه وقلب الحقائق وزخرفة الأباطيل وتلبيس الشياطين، وأساليب الخداع والتغريب والافتراء والتضليل وحجب الحقائق وإشاعة الضلال، التي يمارسها شياطين الإنس بالتواطؤ مع شياطين الجن لصرف الناس عن الحق وتغييب عقولهم، وغير ذلك من الوسائل والأساليب التي تصد الناس عن سبيل الله.

الهدايات المستنبطة

* كما ابتلى الله نبيه ﷺ بكيد الأعداء وصددهم عن سبيل الله فقد ابتلي الأنبياء من قبله بذلك فالابتلاء سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه.

* وفي الآيات الكريمة بيان لأسباب الصدود عن الحق والإعراض عنه.

* وفيها بيان لسنة من السنن الربانية، هي سنة ماضية جارية وباقية، سنة الصراع بين الحق والباطل، هذا الصراع الذي يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

* وجدنا: كيف يقوم إعلام أعداء الإسلام وأذنابهم من الأعداء على البريق الخداع، مع زخرفة الأباطيل، والسعي إلى طمس الحقائق، وإنفاق الأموال الطائلة على ذلك الطلاء الزائف والبريق الخاطف لأهل الباطل، ودعم دعواتهم الهدامة التي تنطلي على أصحاب العقول القاصرة والنفوس الضعيفة والقلوب المريضة.

* ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه: أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل

والبصيرِ مِنَ الْأَعْمَى.

* الرُّدُّ على من يهْوُلُ من شأنِ شياطينِ الإعلامِ وَيَبْتَاسُ من مواجهتهمِ ويخشى من التصدِّي لهم، بل وربُّها ينجرُّ في تيارهم؛ رغبةً ورهبةً، وخوفاً وطمعاً، فيصير أداةً طيعةً ووسيلةً سهلةً لتحقيقِ مآربهم.

* الرُّدُّ على من ينكُرُ وجودَ التصادُمِ والصراعِ الحضاري بين الإسلام والغرب.

* بيانُ المنهجِ الصحيحِ في التلقي والقبول وهو تحكيمِ شرعِ الله عز وجل في كلِّ أمرٍ من الأمور، ومن ذلك في كلِّ ما يرُدُّ إلينا من رؤى وأفكارٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ وسائرٍ ما تبثُّه وسائلُ الإعلامِ، نحتكمُ فيها إلى شرعِ الله فهو الحَكَمُ والميزانُ وهو الفرقانُ والتبيانُ الذي يرشدنا إلى الحقِّ.

* وفي هذه الآياتِ الكريمة رُدُّ على من ينكرون وجودَ الغزو الفكري على العالم الإسلامي من قبل الغربيين، حتى وصف أحدَ الانهزاميين من أدعياءِ العقلانية والحدائثة هذا الغزو بأنه غذاءٌ فكري، ولا يخفى ما لهذا الغزو من مخاطر على المسلمين، سيِّئاً في عصرِ الفضائيات والانترنت والتبعية والانهزامية للغرب باسمِ الحدائثة والعلمانية والتحرر والنهوض والتغريب.

* الإيِّانُ بأركانِهِ وشعبِهِ: حصنٌ متينٌ من الفتنِ المتتابعةِ والمكائدِ المستمرةِ والخطوبِ المدهمةِ، والمحرومون من نعمةِ الإيِّانِ كشموعٍ في مهبِّ الريحِ أو أشجارِ أرزٍ جاءتها ريحٌ عاصفٍ. عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الزَّرْعِ لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُفَيِّئُهُ وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ بَلَاءٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزِ لَا تَهْتَرُ حَتَّى تُسْتَحْصَدَ»^(١).

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب مثل المؤمن كالزرع، ومثل الكافر كشجر الأرز حديث ٥٨- (٢٨٠٩)، ورواه الترمذي في السنن كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل المؤمن القاريء للقرآن وغير القاريء حديث ٣٠٢٦، وقوله: (تُسْتَحْصَدُ) أي لا تلبث حتى تنقلع مرة واحدة كالزرع الذي انتهى يبسه، فليس من طبيعتها الصمود أمام الريح.

- ١٨ -

قواعدُ وأصولُ

في العقيدة والدعوة والسلوك

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطَعِ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

المناسبة

بهذه الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا المنهج الرباني، وقد اكتملت معاملة وتجلت مقاصده، وسلم كل ذي إنصاف أنه منهج الحق وميزان العدل.

التفسير الإجمالي

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۗ ﴾: فالمنهج القرآني منهج تام: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، وسنن الله تعالى وأحكامه لا تتبدل ولا تتغير. ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وعد ووعيد: وعد للمؤمنين الصادقين المتبعين لمنهج الله المصدقين بكلماته، ووعيد للكفرة المبطلين المعطلين لشريعة الله المكذبين بآياته المستخفين بكلماته، المعرضين عن حججه ودعواته.

﴿ وَإِنْ تُطَعِ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۗ ﴾ كيف وبين أيدينا هذا النهج القويم والتشريع الحكيم والذكر الحكيم والصرط المستقيم؟

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فكيف نتبع من يسير وراء الظنون والأوهام، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ والحرص: تقديرهم أنفسهم على الحق، دون دليل أو برهان، وإنما مجرد الظن والوهم والتخمين.

وإذا كان الأمر كذلك: فامضِ على طريقِ الحقِّ ولا تلتفتْ إلى أولئك المضلينَ ولا تعبأ

٣٣٦

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١١٧)

والله تعالى حينما يجذرك من اتباع أهل الضلال، فهو تعالى أعلم بهم يعلم من يضلُّ عن سبيله فيحذرك من مسلكهم ويكشف عن سوء نيتهم وخبث طويبتهم، ويفضح تعالى مخططاتهم وأساليبهم في الصد عن سبيل الهدى، وهو تعالى أعلم بالمهتدين فيبصر بطريقهم.

وهو تعالى أعلم بمن رضي بطريق الضلال وعمى وصم عن الحق، وهو سبحانه أعلم بالمهتدين الذين أخلصوا للحق وأبصروا نوره ولبوا نداءه.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بما تقدم من الحجج المتتابعة والدلائل الساطعة التي أقامتها آيات هذه السورة: يتبين لنا معالم المنهج الرباني، وقد اكتملت أصوله، وتجلت مقاصده، وسلّم كل ذي لب وبصيرة بأنه منهج الحق وميزان العدل الذي يجب اتباعه والإعراض عما سواه من مناهج ضالة حائرة، قاصرة جائرة، مهما كثر أتباعها وارتفعت آياتها.

الهدايات المستنبطة

- * المنهج القرآني منهج تام، وسنن الله تعالى وأحكامه لا تتبدل ولا تتغير.
- * القرآن الكريم كتاب محفوظ من التغيير والتبديل لأن الله تعالى تعهد بحفظه، ولأنه الخطاب الإلهي المتجدد والدستور الرباني الخالد، فلا يُقدّم عليه منهج؛ فهو المنهج القويم في كل شؤون الدنيا والدين، ولا سبيل لعزنا إلا به، ولن تجتمع لنا كلمة ولن تتوحد لنا راية، ولن تقوم لنا نهضة إلا بتقديمه وتحكيمه والاستضاءة بنوره والانضواء تحت لوائه والعيش في رحابه والحياة في ظلاله، فهو زادنا ونورنا وهو حياتنا وروحنا وهو مجدنا وأملنا.
- * أقامت السورة الكريمة الحجج الساطعة والشهادة الكبرى على صدق الرسول والرسالة،

وأى شهادة أكبر من شهادة الحقّ جلّ وعلا والتي تجلت لنا في رحاب آيات هذه السورة الكريمة، وفي هذا ردّ مفصّل على المشركين الذين طلبوا من يشهد بصحة نبوته ﷺ واقترحوا حكماً بينه وبينهم.

* تجنب الاغترار بما عليه أهل الكفر والضلال والبدع والأهواء مهما كثر عددهم وشاع ضلالهم، وقويت شوكتهم؛ فإن مصيرهم إلى الزوال.

* عقد ابن مفلح رحمه الله في كتابه الآداب الشرعية فصلاً بعنوان: فَضْلُ (يُنْبِغِي الْإِنْكَارَ عَلَى الْفِعْلِ غَيْرَ الْمَشْرُوعِ وَإِنْ كَثُرَ فَاعِلُوهُ). قال فيه رحمه الله: « وَيُنْبِغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ يَفْعَلُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ خِلَافَ الْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَيَشْتَهَرُ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ، وَيَقْتَدِي كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِهِمْ فِي فِعْلِهِمْ، وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ عَلَى الْعَارِفِ مُخَالَفَتُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَلَا يُبْطِئُ عَنْ ذَلِكَ وَحَدِيثُهُ وَقَلَّةُ الرَّفِيقِ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ النَّوَوِيُّ: وَلَا يَغْتَرُّ الْإِنْسَانُ بِكَثْرَةِ الْفَاعِلِينَ لِهَذَا الَّذِي نَهَيْتَنَا عَنْهُ مِمَّنْ لَا يُرَاعِي هَذِهِ الْأَدَابَ، وَأَمْتَثِلُ مَا قَالَهُ السَّيِّدُ الْجَلِيلُ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: لَا تَسْتَوْحِشْ طُرُقَ الْهُدَى لِقَلَّةِ أَهْلِهَا، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ، وَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي الْفُنُونِ: مَنْ صَدَرَ اعْتِقَادُهُ عَنْ بُرْهَانٍ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ تَلَوُّنٌ يُرَاعِي بِهِ أَحْوَالَ الرَّجَالِ....»^(١).

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلي / ١، ٢٨٠، ٢٨١

- ١٩ -

قواعد وأصول

في التحليل والتحريم

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْهُ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩) وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْرَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنُ إِلَىٰ آوِيَاتِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

المناسبة

الصلة بين هذه الآيات وما قبلها واضحة، فما سبقها تمهيد لها وهي تقرير لما سبقها، فبعد ترسيخ العقيدة في القلوب وتثبيتها في النفوس، بعد جلاء أركانها وبيان أصولها، يكتمل هذا البناء بتقرير أصول الشريعة وآدابها، وبعد التحذير من مكائد وشبهات أهل الباطل والنهي عن اتباعهم والانخداع بغنائهم يستطرد السياق إلى ذكر مثال لضلالهم وإغوائهم وتشكيكهم.

التفسير الإجمالي

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أمرهم الله تعالى أن يأكلوا مما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ أي عند ذبحه، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْهُ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بآياته فسوف تمتثلون لما أمركم به، وهذا الأمر مرتب على ما سبقه من ترسيخ الإيمان والتحذير من اتباع أهل الكفر والعصيان.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَّرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (١١٩) وأي شيء يمنعكم أن تأكلوا مما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وقد بين سبحانه لكم جميع ما حَرَّمَ عليكم؟ لكن ما دعت إليه الضرورة بسبب المجاعة، مما هو محرّم عليكم كالميتة، فإنه مباح لكم، وإن كثيراً من الضالين

ليضلون عن سبيل الله أشياعهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال بأهوائهم؛ جهلا منهم، واعتداءً على حدود الله، والله تعالى أعلم بهم وبما يُضمر ونه.

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ^٤ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ^٤ ﴾ أي دعوا علانيته وسره، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ ﴾

أي يكتسبونه في الدنيا من آثام، ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ سينالون جزاء ما اقترفوا

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ

لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

تقريرٌ وتأكيُدٌ للنهي عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه وإن فعله عامة المشركين فإن فعلهم لا اعتبار له، والأكل من الميتة ومما ذُبِحَ لغيرِ الله تعالى فسقٌ: أي خروجٌ عن طاعةِ الله ومجاهرةٌ بالعصيان.

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ شياطين

الإنس والجن بالسواوس يوحون، وبالشبه والأباطيل يوحون، وعلى الكيد والتآمر يجتمعون، ويتواصون لجدالكم جدالاً يُثنيكم عن الحق بما يُثيرونه من حجج واهيةٍ وعللٍ مترددة.

من ذلك قولهم على سبيل التلبيس والتشكيك كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال: «يُوحِي الشَّيَاطِينُ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِيُجَادِلُوكُمْ، أَنْ يَقُولُوا: تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلْتُمْ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلْتُمْ يُذَكَّرُ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الَّذِي مَاتَ لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»^(١).

(١) رواه أبو داود في السنن كتاب الذبائح - باب في أكل ذبائح أهل الكتاب. حديث ٢٨١٩، ورواه الطبري في تفسيره بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس جامع البيان للإمام الطبري - ١٢ / ٨٠ ورواه ابن حاتم عنه وإسناده صحيح تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٧٩ برقم ٧٨٤٣ وراه الحاكم في المستدرک ٤ / ١١٣، ٢٣١ وقال في كلا الموضعين صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ فيما يأمر ونكم به وينهونكم عنه ﴿ إِنَّكُمْ لَشُرُكُونَ ﴾ مثلهم، إذ أحللتهم ما حرم الله، وحرمتهم ما أحل الله، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

بعد تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخ أركانها ينتقل السياق إلى تقرير أحكام لها صلتها بالتطبيق العملي لقواعد التوحيد، من ذلك الأكل مما ذكر اسم الله تعالى عليه فإنه من مقتضيات الإيثار وتفصيلات شرائعه، واجتناب الإثم ما ظهر منه وما بطن وتجنب ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح، فامتثال أوامر الله واجتناب ما نهى عنه جزء من التوحيد العملي الذي دعت إليه السورة الكريمة.

الهدايات المستنبطة

* أفاد قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [١١٨] أن العمل بالأحكام الشرعية من مقتضيات الإيثار، أي إن كنتم مؤمنين فسوف تمثلون لأوامر الله وتجتنبون ما نهى الله عنه.

* التمسك بشرع الله تعالى عصمة ونجاة من الفتن ومزالق الضلال.

* جاءت الشريعة الإسلامية وافية مستوفية لمطالب الحياة وملبية لكل حاجيات الإنسان مع مراعاتها لحالات الضرورة.

* من يرغب في محبة الله تعالى ويسعى إلى رضاه فإنه يجتنب ما نهى الله عنه، وكيف يدعي محبته أو يطمع في حبه وهو بعيد عن منهجه! مقيم على معصيته! متبع لغير هديه! ناكب عن طريقه!

وفي هذا المعنى قال الشافعي رحمه الله :

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمَحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ يُطِيعُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ يَبْتَدِيكَ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ وَأَنْتَ لِشُكْرِ ذَاكَ مُضِيعُ

* حذر الله تعالى من الشبهات الداحضة التي يثيرها أعداء الإسلام ويردها أذعياؤه المغرضون من شياطين الإنس والجن ويتلفنها بعضهم من بعض ليقدحوا في الشريعة الغراء.

- ٢٠ -

من مظاهر الصدود وأسبابه

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرِيحَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا أَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَ نَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

المناسبة

لا يزال السياق يعرض لشيء المشركين، ويكشف المزيد من أسباب صدودهم عن الحق ومطالبتهم المتعنتة التي علقوا إيمانهم بها، ويفضح جهلهم بحقيقة النبوة ومقام الرسالة، ويكرر الوعيد لهم بما ينتظرهم، ويقرر أن الهداية لا تتحقق إلا بمشيئة الله تعالى وما سبق في علمه تعالى من استعداد العبد لها وحرصه عليها.

التفسير الإجمالي

الإيمان حياة القلوب ونور البصائر وضيء الدروب وصحوه الضمائر، أما الكفر فإنه ظلمات مُتراكمة في قلب ميت، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبط في ظلمات الكفر ويتردى في دركاته فلا يسعى إلى الخروج منها، بل استسلم لهذه المعيشة الضنك؟ لكنه دور شياطين الإنس والجن في تزيين الكفر وزخرفة الضلال.

فهل يستوي من أحيا الله قلبه بالعلم والإيمان بمن مات قلبه بقاء الجهل وآفة الكفر وظلمة العصيان!

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فاجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت فليس له حتى النشور نشور!

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمَّا كُرُوا فِيهَا ﴾ وكما وقع لأولئك

الذين ينحدرون إلى الهاوية ويتخبطون في ظلمات التيه ودروب الحيرة من تزيين وزخرفة وأضواء براقه مبهرة تذهب بالأبصار وتسلب الأفكار وتغشى القلوب: فمن أسباب الصدود ودواعي الإعراض ذلك الدور المؤثر الذي يؤديه أكابر المجرمين من مكر وخديعة وصد عن سبيل الرشاد وطغيان واستبداد، ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣].

أو كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا، وتلك هي سنة الصراع بين الحق والباطل، وسنة الاستدراج.

ومن أسباب صدود أولئك المجرمين ما في صدورهم من كبر وحسد وعجرفة وجهالة، وما تحمله نفوسهم من مطامح مادية ومفاهيم ينبغي أن تُصحح ﴿ وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ فهل فهموا حقيقة النبوة وأساس الاضطفاء؟ فالنبوة منحة إلهية ورحمة ربانية يختص الله بها من يشاء من عباده ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فالرسل هم أصفى

الناس معدناً، وأحسنهم خلقاً، وأخلصهم وأتقاهم وأزكاهم وأتقاهم، قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

أما أولئك الكفرة المعاندين من أكابر المجرمين ومن وراءهم، فأنى لهم حمل تلك الأمانة العظيمة! وقد بانت لهم الحجج وزالت الشبهة وانكشف سوء أدبهم مع الله تعالى مع جهلهم وجودهم، ولجاجهم وعنادهم.

ثم توعدهم الله تعالى بما سيصيبهم من جنس عملهم فقال سبحانه ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ فهذا هو جزاؤهم الذي يستحقونه ومصيرهم الذي ينتظرونه الصغار والهوان والعذاب الشديد؛ عقاباً لما دأبوا عليه من المكر والإجرام.

وفي معاني القرآن للفراء « لما اختاروا الكفر تعززا وأنفة من اتباع محمد ﷺ فجعل الله ذلك صغارا عنده»^(١).

بعد ذلك بين سبحانه أن من شاء هدايته للإسلام شرح صدره إليه وأعانه عليه، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً لا يتسع لقبول الحقّ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾، ثم ضرب له مثلاً بالذي يصعد في السماء فيضيق صدره كلما ارتفع في طبقات الجوِّ فقال سبحانه ﴿ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ « أي كذلك الفعل في الهداية والإضلال يجعل الله الرجس أي يلقي بكل ما لا خير فيه على قلوبهم من الكبر والحسد والشرك والكفر والشيطان لقبول المحل لكل ذلك نتيجة خلوه من الإيثار بالله ولقائه»^(٢).

وبهذا البيان الوافي والجواب الشافي تنتهي هذه الجولة بتقرير المنهج الرباني والدعوة إلى الصراط السوي الذي لا خلل فيه ولا اعوجاج ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٣٥٣.

(٢) أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ٢ / ١١٦.

لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ ﴿١٢٦﴾ فلقد جاءت هذه الآيات على هذا الوجه العجيب وبهذا التفصيل البديع لينتفع بها المؤمنون الذاكرون، وفي هذا تعريضٌ بأولئك المعرضين عن هذه الآيات المحرومين من الانتفاع بها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

ترتبط آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة من وجوهٍ عديدة: منها اتساقها مع المحور العام في تقرير العقيدة، وبيان الأسباب المُفضية إلى الهداية، في مقابل أسباب الصدود والإعراض، والتي من بينها تزيين الشياطين ومكرُ المجرمين، ومنها بيان حالة المهتدي من انشراح الصدر وضياء القلب، وحالة الكافر من الحيرة والشقاء والسامة وضيق الصدر ومنها الدعوة إلى الصراط المستقيم بعد أن تجلت معالمه ومناراته.

الهدايات المستنبطة

- * الإيمان حياة القلوب ونور البصائر وضياء الدروب وصحوة الضائير، أما الكفر فإنه ظلمات مُتراكمة في قلب ميت، وهل يستوي من عاش بنور الإيمان مع من يتخبط في ظلمات الكفر، ويتردى في دركاته، فلا يسعى إلى الخروج منها؟
- * من أسباب الصدود ودواعي الإعراض ذلك الدورُ المؤثر الذي يؤديه أكابرُ المجرمين من مكرٍ وخديعةٍ وصدٍ عن سبيل الرشادِ وطغيانٍ واستبداد.
- * ومن أسبابِ صدود أولئك المجرمين ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالةٍ، وما تحمله نفوسهم من مطامحٍ ماديةٍ ومفاهيمٍ ينبغي أن تُصحح.
- * النبوة منحةٌ إلهيةٌ ورحمةٌ ربانيةٌ يختصُّ الله بها من يشاء من عباده، فالرسلُ هم أصفى الناس معدناً، وأحسنهم خلقاً، وأخلصهم وأتقاهم وأزكاهم وأنقاهم.
- * من شاء الله هدايته للإسلام شرح صدره إليه وأعان عليه ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً لا يتسع لقبول الحقِّ.

* لكل من الهداية والإضلال سننٌ تتبع في ذلك، فمن طلب الهداية ورجب فيها صادقاً علم الله ذلك منه فسَهَّلَ له طُرُقَهَا وهياً له أسبابها، ومن طلب الغواية وأخلد إليها تهيأت له أسبابها وفتّحت عليه أبوابها، فضايق صدره عن قبول الإيمان واستقبال أنواره، حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر، وفي هذه الآية معجزة من أبلغ المعجزات القرآنية، وذلك أن الضغط الجوي يخف كلما ارتفع الإنسان في الجو حتى يتلاشى، وأن الإنسان كلما صعد إلى السماء ضاق صدره حتى يصل لدرجة الاختناق، فتشبيه الحالة المعنوية بهذه الحالة الحسية التي لم تكن معروفة يوم نزول القرآن، ولم تعرف إلا بعد ما يزيد عن ثلاثة عشر قرناً، معجزة عظيمة تشهد أن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض.

- ٢١ -

وَعْدُ وَعَيْدٌ

قال تعالى ﴿ هَلْ دَارُ السَّالِكِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيْلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّتِي بَاتَكُمْ رَسُولٌ مِّنكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُزِدُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَجَى يَظْلِمِ وَأَهْلَهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَأْ كَمَا أَنشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لَأَتِيَنَّ وَمَا أَنشَأَ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

المناسبة

بعد أن فصلت الآيات السابقة طريق الهداية وأقامت الحجج عليه وكشفت طريق الضلال والأسباب المفضية إليه، بينت عاقبة كل من الطريقتين، فاشتملت على وعد ووعد: وعد للمؤمنين الصادقين الذاكرين الذين سلكوا طريق الهدى وثبتوا عليه، ووعد للكفرة المجرمين الذين اختاروا طريق الضلال وتوغلوا فيه.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ هَلْ دَارُ السَّالِكِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ أي لأولئك المؤمنين دار السلام: دار الأمن والأمان، والسلامة من كل مكروه وسوء والعافية من جميع الآفات والبلايا والهموم والرزايا، وعد من الله لهم والله تعالى لا يخلف وعده، وعد بالقرب من رحابه، ومرافقة أنبيائه وأوليائه في دار الكرامة والسلامة، والله تعالى وليهم يتولاهم في الآخرة كما تولاهم في الدنيا بحفظه ولطفه، وتأيدته وعطائه، وكرمه وإحسانه ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالهم الصالحة التي كانت مطيبتهم إلى الجنان، ووسيلتهم إلى ولاية الرحمن.

من مواقف الحشر وشدائده

اعترافات متأخرة!

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾ ﴾ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ﴿١٣٩﴾ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّهْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

واذكر واستحضر هذا اليوم يوم يحشر الله تعالى أولئك المكذبين المعرضين من الجن والإنس، ثم ينادي في هذا الموقف العصيب على الجن: ﴿ يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ

الْإِنْسِ ۗ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴿ ينادي على ذلك تحالف الشيطان الذي يضمُّ شياطينَ الجنِّ فيخاطبون خطاب الزجر والتوبيخ: ﴿ يَمَعَشَرُ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْرَهْتُمْ مِنْ الْإِنْسِ ۗ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي: من إضلالهم وإغوائهم فأضللتهم منهم كثيرا، أو استكثرتهم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم، كما يقال: استكثر الأمير من الجنود، وهذا بطريق الإنكار والتفريع.

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾: أي تبادلوا المنافع والمصالح: «أي انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها، واستمتع الجن بالإنس حيث عظموهم وبالغوا في أمرهم واتبعوا أوامرهم، واستعانوا بهم.

قال الإمام الشوكاني: «أما استمتاع الجن بالإنس: فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي، فوقعوا فيها وتلذذوا بها، فذلك هو استمتاعهم بالجن؛ وقيل: استمتاع الإنس بالجن: أنه كان إذا مرَّ الرجلُ بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال: أعوذُ بربِّ هذا الوادي من جميع ما أحذر، يعني ربَّه من الجن، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنْتَ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۗ ﴾ [الجن: ٦] وقيل: استمتاع الجن بالإنس: أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة، واستمتع الإنس بالجن: أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب، وينالون بذلك شيئا من حظوظ الدنيا كالكهان»^(١).

﴿ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾: امتدَّ هذا الاستمتاع واستمر هذا التواطؤ حتى بلغنا أجلنا بالموت، وبه انقضاء الأعمال أو بيوم القيامة يوم العرض والحساب والجزاء.

يعتذرون حين لا ينفع العذر ويعترفون حيث لا يجدي الاعتراف! «يعتذرون فلا يُسْمَعُ، ويحتجون بما لا ينفع، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلِّ منه قُبِلَ منهم، لكن سبقت القسمة، فحققت لهم الشقوة»^(٢).

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦١.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٣٠٧.

﴿ قَالَ أَلْتَارُ مَتُونَكُمْ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ خطابٌ للفريقين وبيانٌ لمصيرهم الذي ينتظرهم ومثواهم الذي يستحقونه وهو النار يخلدون فيها.

والمثوى: اسم مكان من ثوى بالمكان إذا أقام به إقامة سكنى أو إطالة مكث، والمراد به هنا: الخلود لقوله تعالى ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾: قال الإمام الطبري: « يعني إلا ما شاء الله من قدر مدة ما بين مبعثهم من قبورهم إلى مصيرهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناهما الله من خلودهم في النار»^(١).

أو إلا ما شاء الله لهم الخروج، والله تعالى لم يشأ خروجهم من النار لأنه حكم على الكافر بالخلود فيها.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ حكيم في تصريفه وتديبره وفي إمهاله و حُكْمِهِ، وفي ثوابه وعقابه، عليمٌ فلا يخفى عليه دقائق أمورهم فضلا عن جليلها.
سننٌ ربانية:

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ هذا التحالف الشيطاني والتواطؤ بين أهل الكفر هو سنةٌ من سنن الله في هذا الكون أن يتآمر الكفرة ويتعاون الظلمة لتحقيق مآربهم والوصول إلى مطامعهم، وهذا من باب الاستدراج لهم.
كما يفهم من هذه الآية الكريمة معنى آخر ترمي إليه وسنةٌ أخرى تُشير إليها وهي سنةُ التعاقب: حيث يتعاقب الظلمة فيلي بعضهم بعضا دون اعتبار بمن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلة عن سنن الله! كذلك يتعاقبون في دخول النار، يلي بعضهم بعضا في دخولها.

أو «سنة التداول»: تداول الأمم والشعوب، تداول القوى والسلطان، فيتناوب الظلمة الهيمنة على المستضعفين، كما سمعنا ورأينا من أقول شمس ممالك وبزوغ فجر ممالك أخرى،

(١) جامع البيان للطبري ٤٣ / ٨.

وقد قيل^(١):

لكل شيء إذا ما تم نقصانٌ فلا يغرُّ بطيب العيش إنسانٌ
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سره زمنٌ ساءته أزمانٌ
وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شأنٌ
وثمة سنةٍ أخرى تستفاد من هذه الآية وهي سنةُ التسلط: تسلط الظلمة بعضهم على بعض، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمة بالظلمة، سنة التدافع، قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: وكما ولينا الجنَّ المردة وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزُّه إلى الشر ويحثُّه عليه، ويزهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيعة أثرها، البالغ خطرهما... ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولَّى عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير ماجورين فيه ولا محتسبين، كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاتهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاية ظلم واعتساف^(٢).

وقال صاحبُ أضواء البيان: « قال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجنُّ نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في

(١) الأبيات لأبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى في رثاء الأندلس أعاد الله أمجادها يراجع نفع

الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن المقرئ التلمساني ٤/ ٤٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٣ باختصار.

قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]؟ وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس: لأنه لا رسل من الجن، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعبه، كقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بيته بقوله: ﴿فَادَّأَوْ صَاحِبِهِمْ فَطَعَا نِيعَةَ غَنَقٍ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: ٢٩] ^(١).

توبيخ وإقرار

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

ثم يأتيهم النداء من قبل الحقِّ جلَّ وعلا نداء التوبيخ والتقريع ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُذَرُّونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ ألم يأتكم رسلٌ من بينكم بالآيات والنذر! فيجيبون إجابة لا مفرَّ منها، إجابة الحسرة والمهانة، ويشهدون على أنفسهم ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾

فانصرفوا عن الحقِّ واستحبوا الكفر ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أقرُّوا بجرمهم واعترفوا بذنبهم كما في قوله تعالى ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٨: ١١].

قال الإمام القاسمي رحمه الله: «إن قيل: ما السبب في أنهم أقرُّوا في هذه الآية بالكفر

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٢ / ٢١٠.

وجحدوه في قولهم ﴿ وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ٢٣]؟ قلنا: يوم القيامة يومٌ طويلٌ، والأحوال فيه مختلفةٌ، فتارةً يَقْرُونَ وأخرى يجحدون، وذلك يدلُّ على شدةِ خوفِهم واضطرابِ أحوالهم فإن من عظمَ خوفه كثر الاضطرابُ في كلامه»^(١).

وقال الإمام الخازن: « فإن قلت لم كرر شهادتهم على أنفسهم، قلت: شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ ذمُّ لهم وتخطئةٌ لرأيهم، ووصفٌ لقللة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها، فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر»^(٢).

عدله سبحانه.

﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

أنه تعالى لا يهلك القرى بظلمهم، إلا بعد أن يرفع الغفلة عنهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج عليهم، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أي لكل من الجن والإنس على وجه العموم: درجاتٌ متفاوتةٌ مما عملوا، فيجازون بأعمالهم، كما في قوله تعالى ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٩]، وفيه دليلٌ على أن المطيع من الجن في الجنة، والعاصي في النار، وأن للظلمة من الجن والإنس درجاتٍ متفاوتةً بقدر ظلمهم وحسبِ جرمهم ﴿ وَمَا رُبُّكَ يَغْفِلُ عَمَّا يُعْمَلُونَ ﴾ من أعمال الخير والشر.

غناه تعالى عن خلقه ورحمته بهم

﴿ وَرُبُّكَ الْعَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٧٢٥.

(٢) لباب التأويل للخازن ٢/ ٤٦٠.

﴿ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ هو تعالى الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغني عن عباده، والكل مفتقر إليه، قال تعالى في سورة فاطر ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنَّ يَسْأَلُ يَدَّيْهِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال جلّ وعلا في سورة محمد ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُم ﴾ وهو سبحانه الغني: فلا ينفعه إيمان المؤمنين ولا طاعة الطائعين كما لا يضره كفر الكافرين أو معصية العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضلٌ عليهم برحمته وحلمه فلو شاء لعجل لهم العقاب وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلك أسلافهم الذين خرجوا من أصلاهم، وهذه إشارة إلى سنة الاستبدال والتغيير لكنه تعالى يمهّلهم لعلهم يرجعون ويؤخّروهم فعساهم يتوبون.

﴿ إِنَّكَ مَا توعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

أي من البعث والحساب والجزاء، فهو وعدٌ حقٌ وميعادٌ صدقٍ ولقاءٌ لا سبيل إلى التفلّت منه.

﴿ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عِقَابُهُ

الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك المصّرّين على الإعراض والجحود فليبقوا على حالهم وليتمادوا في طغيانهم، ولتبق أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقه فلكل عاقبته، والظالم لن يجني من جزاء ظلمه إلا الخسران والبوار.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة

تتسق آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث تقرير العقيدة من خلال الحديث عن اليوم الآخر، حيث تضيفي لنا الآيات المزيد من أنباء هذا اليوم، ثم تزيدنا معرفةً بأسماء الله وصفاته العلى، وسننه العادلة في هذه الحياة وأقداره النافذة وإعذاره وإنذاره لعباده.

الهدايات المستنبطة

* بَشَّرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِدَارِ السَّلَامِ: دَارِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَسُوءٍ وَالْعَافِيَةَ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ وَالْبَلَايَا وَالْمُحْصِنِينَ وَالرَّزَايَا.

* فِي يَوْمِ الْحِشْرِ يَعْتَرِفُ الْمَجْرُمُ بِجَرِيمَتِهِ وَيَقْرَأُ الْعَاصِي بِمَعْصِيَتِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ تِلْكَ الْإِعْرَافَاتِ الْمَتَأَخَّرَةُ بِالِاسْتِمْتَاعِ وَالْمَصَالِحِ الْمَتَبَادَلَةِ بَيْنَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، انْتَفَعِ الْإِنْسُ بِالْجِنِّ حَيْثُ دَلَّوْهُمَ عَلَى الشَّهْوَاتِ وَمَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَيْهَا وَاسْتَمْتَعَ الْجِنُّ بِالْإِنْسِ حَيْثُ عَظَّمُوهُمْ وَبِالْغَوَا فِي أَمْرِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَوْامِرَهُمْ، وَاسْتَعَانُوا بِهِمْ.

* وَلِغَةِ تَبَادُلِ الْمَصَالِحِ: لُغَةٌ شَائِعَةٌ وَعَرَفَ سَائِدٌ بَيْنَ طَوَائِفِ الْمَجْرِمِينَ فِي كُلِّ الْعُصُورِ عَلَى اخْتِلَافِ سَطْوَتِهِمْ وَنَفُوذِهِمْ، حَيْثُ يَتَحَالَفُونَ عَلَى الشَّرِّ وَيَتَسْتَرُونَ عَلَى الْجَرَائِمِ فِي مَقَابِلِ مَصَالِحِ وَمَنَافِعِ مَتَبَادَلَةٍ، وَهَذَا نَحْنُ نَرَى فِي وَاقِعِنَا الْمَعَاوِرِ كَيْفَ اسْتَمْتَعَتِ الدُّوَلُ الْكَافِرَةُ الظَّالِمَةُ بِعَمَلَاتِهَا مِنَ الْحُكَّامِ الْمَاجُورِينَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الشُّعُوبِ الْمَقْهُورَةِ وَتَسْتَرَتْ عَلَى جَرَائِمِهِمْ حَتَّى إِذَا قَضَتْ نَهْمَتَهَا وَحَقَّقَتْ مِنْهُمْ مَآرِبَهَا وَأَشْبَعَتْ أَطْمَاعَهَا، وَوَصَلَتْ عَلَى أَكْتَانِهِمْ إِلَى أَهْدَافِهَا الْبَعِيدَةِ وَأَطْمَاعِهَا الْكَبِيرِ، تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ، وَطَوَتْ صَحَائِفَهُمْ وَرَبَّمَا نَشَرَتْ بَعْضَ سَجَلَاتِهِمْ أَمَامَ مَحَاكِمِ صُورِيَّةٍ مُوَالِيَةٍ لَهَا، لِتَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ بِاسْمِ مَا يَزْعَمُونَهُ مِنَ «دِيمُوقْرَاطِيَّةٍ» مَزِيْفَةٍ، هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ صُورَةٌ مُقَنَّعَةٌ مِنْ صُورِ ظَلْمِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَتَبَادُلِ الْأَدْوَارِ بَيْنِ الظُّلْمَةِ وَتَدَاوُلِ شَكْلِيٍّ لِلسُّلْطَةِ بَيْنَ الْمُحْتَكِرِينَ لَهَا بِاسْمِ صِنَادِيقِ الْإِنْتِخَابَاتِ الَّتِي يَسَاوِمُ عَلَيْهَا الشُّوَاذُ وَالْجَمَاعَاتُ الْعَنْصَرِيَّةُ، فَضِلَّا عَنِ بَنِي صَهْيُونَ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ...

* فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿١٢٨﴾ إشارَةً إِلَى جُمْلَةٍ مِنَ السَّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْهَا:

سنةُ الولاء: حيثُ يتآمر الكفرة ويتعاون الظلمة لتحقيق مآربهم والوصول إلى مطامعهم،

وهذا من باب الاستدراج لهم.

سنةُ التعاقب والتداول: حيث يتعاقب الظلمة، يلي بعضهم بعضاً دون اعتبارٍ ممن سبقهم، فلو دام الملك لمن سبقهم لما وصل إليهم، ولكنها الغفلةُ عن سنن الله. كذلك يتعاقبون في دخول النار، يلي بعضهم بعضاً في دخولها.

* سنةُ التسلط: تسلطُ الظلمةِ بعضهم على بعض، وهلاك الظالمين بالظالمين، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده المستضعفين، أن يدفع الظلمة بالظلمة.

* سنة الاستبدال: وهي المشار إليها في قوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾

* وعيدٌ وتهديدٌ لأولئك الكفرةِ المصرِّين على الإعراض والجحود فليبقوا على حالهم وليتأدوا في طغيانهم، ولتبق أنت يا محمد على الحق وتثبت على طريقه، فكل عاقبته، والظالم لن يجني من جرأ ظلمه إلا الخسران والبوار.

* في قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ (١٣١) دليلٌ على ما ذهب إليه جمهور أهل العلم من العذر بالجهل وذلك من رحمة الله وعدله.

* ردٌّ على إنكارهم واستبعادهم الذي يصلُّ بهم إلى حد استعجال هذا الموعد فيبين تعالى أنه آتٍ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ.

* الله تعالى هو الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه، الغني عن عباده، والكلُّ مفتقرٌ إليه، وهو سبحانه الغني: فلا ينفعه إيأان المؤمنين أو طاعةُ الطائعين كما لا يضرُّه كفرُ الكافرين أو معصيةُ العاصين، وهو تعالى مع غناه عنهم متفضِّلٌ عليهم برحمته وحلمه فلو شاء لعجل لهم العقابَ وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم.

-٢٢-

من جهالات المشركين

قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَقْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرْمَتٌ طُهُورُهَا وَأَنْعَمَ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الْأُنثَى وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿

المناسبة

بعد الحديث عن فساد معتقدات المشركين وإقامة الحجج على بطلانها: تمضي بنا الآيات في جولةٍ أخرى لتكشف المزيد من جهالات أولئك المشركين الذين حرموا ما أحلَّ الله لهم واستحلوا ما حرم عليهم، من ذلك: أنهم جعلوا من الزروع والأنعام التي خلقها الله سبحانه نصيباً له تعالى يعطونه للفقراء والمساكين ويطعمون به الضيفان وغيرهم، وجعلوا لأصنامهم نصيباً آخر يقدمونه للسدنة والكهنة.

التفسير الإجمالي

لا تزال آيات هذه السورة الكريمة تكشف لنا المزيد عن تقاليد المشركين البالية التي اقتفوا بها سنن آبائهم وأجدادهم، ومنها تلك القسمة الباطلة الجائرة التي تتحدث عنها الآيات

الكريمة، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ ﴾ أي: بتقوهم ووضعهم الذي لا علم لهم به ولا هدى مع علمهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، ﴿ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ يُصْرَفُ لِلْكَهَنَةِ وَالسُّدَنَةِ، ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾

فما كان لشركائهم فإنه يصل إليها بتامه دون انتقاص منه فيذهب إلى القرابين لتلك الأصنام ويتتفع به سدنتها وكهنتها، وما كان لله بزعمهم فإن النصيب الأكبر والحظ الأوفر ينصرف إلى الأصنام وكهنتها وسدنتها لا إلى الفقراء والمساكين.

قال الشوكاني رحمه الله: « هذا بيان نوع آخر من أنواع كفرهم وجهلهم وإيثارهم لأهنتهم على الله سبحانه، أي جعلوا لله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيباً، ولأهنتهم نصيباً من ذلك، يصر فونه في سدنتها والقائمين بخدمتها، فإذا ذهب ما لأهنتهم بإنفاقه في ذلك عوّضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك، وقيل معنى الآية: أنهم كانوا إذا ذبحوا ما جعلوه لله ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى الوصول إلى الله، والوصول إلى شركائهم»^(١).

وكانوا يجعلون لله من حرثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه، وقالوا: إن الله غني عن هذا وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان.

﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيما فعلوا من إيثار أهنتهم على الله تعالى وعملهم بما لم يُشرع لهم مما يدل على جهلهم وحقهم وكذبهم واقترائهم.

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ ﴾

(١) فتح القدير للشوكاني ١٦٥/٢ بتصرف.

لِيُرَدُّوهُمْ وَلِيَلْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

كذلك من جهالاتهم وحقاقتهم وجرائمهم ومن تزوين الشيطان لهم: أن زينوا لهم قتل أولادهم سفها بغير علم وذلك بوأدهم للبنات بحجج ساقطة وعلل مُتَهافتة، وكان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم.

قال ابن العربي: « وَحَقِيقَةُ التَّزْوِينِ إِظْهَارُ الْجَمِيلِ، وَإِخْفَاءُ الْقَبِيحِ، وَقَدْ يَتَغَلَّبُ بِخُذْلَانِ اللَّهِ لِلْعَبْدِ، كَمَا يَتَحَقَّقُ بِنُؤْفِيقِهِ لَهُ، وَمِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ بِتَزْوِينِ الشَّيْطَانِ تَصْوِيرُهُ عِنْدَهُمْ جَوَازَ أَكْلِ الذُّكُورِ مِنَ الْقَرَابِينِ، وَمَنْعُ الْإِنَاثِ مِنْ أَكْلِهَا، كَالْأَوْلَادِ وَالْأَلْبَانِ، وَكَانَ تَفْضِيلُهُمْ لِلذُّكُورِ لِأَحَدِ وَجْهَيْنِ، أَوْ بِمَجْمُوعِهَا: إِمَّا لِفَضْلِ الذَّكَرِ فِي نَفْسِهِ عَلَى الْأُنْثَى، وَإِمَّا لِأَنَّ الذُّكُورَ كَانُوا سَدَنَةَ بِيُوتِ الْأَصْنَامِ؛ فَكَانُوا يَأْكُلُونَ مِمَّا جُعِلَ لَهُمْ مِنْهَا؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ تَعَدُّ فِي الْأَفْعَالِ، وَابْتِدَاءٌ فِي الْأَقْوَالِ، وَعَمَلٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ مِنَ الشَّرْعِ »^(١).

﴿لِيُرَدُّوهُمْ﴾ أي: ليهلكوهم. ﴿وَلِيَلْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: ليخلطوا. قال ابن عباس: « لِيُدْخِلُوا عَلَيْهِمُ الشُّكَّ فِي دِينِهِمْ؛ وَكَانُوا عَلَى دِينِ إِسْمَاعِيلَ، فَرَجَعُوا عَنْهُ بِتَزْوِينِ الشَّيْطَانِ »^(٢)، الذين أمرهم أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر، أو قربانا أو وفاء لنذر وسميت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم فيما أمرهم به من معصية الله وقتل الأولاد فأشركوهم مع الله في وجوب طاعته، فهم شركاء في هذه الجرائم النكراء، وأضيف الشركاء إلى المشركين لأنهم أطاعوهم واتخذوهم أرباباً، وقال الكلبي: شركاؤهم سدنة آلهتهم يعني خدامها وهم الذين كانوا يزينون ويمسنون للكفار قتل الأولاد وكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله فعلى هذا القول، الشركاء هم السدنة وخدام الأصنام سموا شركاء لأنهم أشركوهم في الطاعة^(٣).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٧٨.

(٢) زاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١٣١ ومعالم التنزيل للبغوي ٣/ ١٩٣.

(٣) لباب التأويل للخازن ٢/ ١٨٨.

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي أطرح عنك هذا الوثن، وسمعتُه يقرأ في سورة براءة: (اتخذوا أخابرهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» ^(١).

« فدينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق. وقيل: دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه، وقيل: وليوقعوهم في دين ملتبس» ^(٢).

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ « ولو شاء الله أن يمنعهم ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم ما فعلوه، ولكن اقتضت حكمته التخلية بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، ولهذا قال: ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً» ^(٣).

ثم ذكر تعالى ضرباً آخر من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافتراءهم:

قال تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسَدَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١٧٨)

حيث حرموا ما أحل الله واستحلوا ما حرم الله فجعلوا من الأنعام والزرع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة،

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن وقال: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب. وعطيف بن عيينة ليس بمعروف في الحديث ». سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب ومن سورة التوبة حديث ٥٠٩٣ والطبراني في المعجم الكبير ١٢ / ٧ حديث ١٣٦٧٣ ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤ / ١٣٩٠ حديث ١٠٢٩١.

(٢) الكشف للزمخشري ٢ / ٥٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٧٥.

﴿ وَأَنْعَمُ حَرَمْتَ ظُهُورَهَا ﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح بل كانوا يذكرون عليها أسماء أصنامهم، « وقيل معناه لا يُحْجُونَ عليها ولا يركبونها لفعل الخير؛ لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذمَّ هؤلاء على ترك فعل الخير»^(١).

وَعَنِ السُّدِّيِّ: قَالَ: «كَانُوا لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِذَا وَلَدَوْهَا، وَلَا إِذَا نَحَرُوهَا»^(٢).

﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم على افتراءهم على الله

الكذب.

ومن جملة ظلمهم وسفهم وجورهم وهضمهم لحقوق الإناث ما أخبر الله عنه في قوله

تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّزْوَاجِنَا ﴾

فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ يَعْنِي: اللَّبَنَ، كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ عَلَى إِنَائِهِمْ وَيُشَرِّبُونَهُ ذُكْرَانِهِمْ، كَانَتْ الشَّاةُ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا ذَبْحُوهُ، فَكَانَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أَنْثَى تَرِكَتْ فَلَمْ تُذْبَحْ»^(٣).

﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ أي وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء،

الذكور والإناث ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ « وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ:

مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ يَعْنِي بِهَا الْأَجِنَّةَ وَقَالَ غَيْرُهُمْ: أَرَادَ بِهَا الْأَبْنَاءَ وَالْأَجِنَّةَ جَمِيعًا، وَالْخَالِصُ هُوَ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنْ غَيْرِهِ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَمِنْهُ إِخْلَاصُ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّا أَنْتَ خَالِصَةٌ عَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الصِّفَةِ، كَالْعَلَامَةِ وَالرَّأْوِيَةِ، وَقِيلَ: عَلَى تَأْنِيثِ الْمُضَدَّرِ، نَحْوُ الْعَاقِبَةِ وَالْعَاقِيَةِ، وَمِنْهُ: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْتَهُمْ

(١) لباب التأويل للخازن ٢ / ١٨٩ ويراجع تفسير ابن أبي حاتم ٤ / ١٣٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٤ / ١٣٩١.

(٣) نفس المرجع ٥ / ٤٠٠.

بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿١٦١﴾ [ص: ٤٦]، وَقِيلَ: لِتَأْنِيثِ مَا فِي بَطُونِهَا مِنَ الْأَنْعَامِ.

وقوله تعالى ﴿وَأَنْتَاهُمْ فِيهَا فَأَكَلُوهَا جَمِيعًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦١).^(١)

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَى لَا جُرْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ وَأَنْتُمْ مُقْرَطُونَ﴾ (١٦٢) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفَرِّتُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ (١٦٣)

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل للوعيد بالجزاء، فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة.^(٢)

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦١)

قتلوا رباحين الفؤاد وقلذات الأكياد سفها فكان أحدهم يقتل ابنه تقربا للأحجار، ويقتل ابنته مخافة الفاقة والعار، وحرّموا من الأنعام وفق أهوائهم وما تمليه عليهم شياطين الإنس من الكهنة؛ افتراءً على الله، فأى خسارة أعظم من ذلك!

(١) أحكام القرآن للجصاص ١١/٣ بتصرف، وأثر ابن عباس سبق تخريجه ويراجع تفسير القرآن العظيم

لابن أبي حاتم ٥/٣١٩٥.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢/٤٣٩.

الصلة بين المحور وآيات المقطع

لا تزال آيات هذه السورة الكريمة تكشف لنا المزيد من المشاهد والمواقف الدالة على ما كان عليه المشركون من سَفَهٍ وجهل وظلم وظلام، واتباع للأهواء، وتقليد أعمى، وحمية غاشمة، وجرائم نكراء، وكذب واقتراء، في ظل تلك الجاهلية الجاهلاء.

الهدايات المستنبطة

* تمضي بنا الآيات في جولة أخرى لتكشف لنا المزيد من ظلم وجهالات أولئك المشركين الذين حرّموا ما أحلّ الله لهم واستحلّوا ما حرم عليهم.

* من كفرهم وجهلهم وإيثارهم لأنفسهم على الله سبحانه، أن جعلوا الله سبحانه مما خلق من حرثهم ونتاج دوابهم نصيباً، ولأنفسهم نصيباً من ذلك، يصرّفونه في سدنتها والقائمين بخدمتها فإذا ذهب ما لأنفسهم يأنفقه في ذلك عوضوا عنه ما جعلوه لله، وقالوا: الله غني عن ذلك.

* كذا من جهالاتهم وحماتهم وجرائمهم ومن تزوين الشيطان لهم: أن زينوا لهم قتل أولادهم سفهاً بغير علم، وذلك بوأدهم للبنات بحجج ساقطة وعلل مُتهافتة، وكان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ قال سيد قطب رحمه الله: «ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضاً لا يقفون منه على تصور واضح.. فأما الهلاك فيتمثل ابتداءً في قتلهم لأولادهم؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها، وضرورة الناس ماشية ضالةً يوجهها رعاتها المفسدون حينما شاءوا، وفق أهوائهم ومصالحهم! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفراً من الخضوع؛ لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها، وتنشئ ثقلاً ساحقاً لا تقف له جماهير الناس، ما لم تعتصم منه بدين واضح؛ وما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت، وهذه

التصورات المبهمة الغامضة؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق، لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة.. هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا.. هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضاً، وتكلفهم أحياناً ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزياء الصباح، وأزياء بعد الظهر، وأزياء المساء.. الأزياء القصيرة، والأزياء الضيقة، والأزياء المضحكة! وأزياء التنكر وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف... إلى آخر هذا الاسترقاق المذل.. من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه؟ تقف وراء بيوت الأزياء. وتقف وراء شركات الإنتاج! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراء اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها! (١).

* من ضروب جهالتهم وسفاهتهم وحمقهم وافترائهم: أنهم حرموا ما أحلَّ الله واستحلوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزرورع ما لا يطعمها إلا من يشاءون من الكهنة والذكور حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة.

* « وصف الله المشركين بأوصافٍ سبعة: هي: الخسران والسفاهة، وعدم العلم، وتحريم ما رزقهم الله، والافتراء على الله، والضلال وعدم الاهتداء، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم» (٢).

* وضع المرأة المزري وحقوقها الضائعة، في تلك الجاهلية الجهلاء والتقاليد البالية التي لم تسلم المرأة من عنتها، فعانت من ظلم أقرب الناس إليها وعاشت مهیضةً الجناح كسيرة الفؤاد حتى أشرق شمس الإسلام.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٩ بتصرف.

(٢) يراجع: التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦١.

- ٢٣ -

حجج باهرة، ونعم ظاهرة

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ، وَلَا يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِنْهَا رِزْقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الصَّانِئَاتِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْأَمْعَزِ اثْنَتَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُونِي بِعَلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَتَيْنِ قُلْ ءَالَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاطِلِينَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفِئْرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكُمْ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَأَبُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

المناسبة :

تتظم هذه الآيات الكريمة مع سابقتها في تقرير أصول العقيدة والأحكام الشرعية

وتفنيد مزاعم المشركين والردّ على جهالاتهم، والتي من بينها تحريمهم ما أحل الله وتحليلهم ما حرم الله حسب أهوائهم، وكما تكشف لنا هذه الآيات عن ضلالات وجهالات للمشركين فإنها تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتنانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.

قال الإمام القرطبي: « ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا: دلّم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقاً لهم^(١) .

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات الكريمة بيانٌ لجملةٍ من نعمه تعالى على عباده، وواجبنا نحو هذه النعم، و موقف المشركين من هذه النعم، هذا الموقف العجيب الذي يكشف عن جهلهم وضلالهم.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ وَعَصَبٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ غير مرفوعات عليها، وقيل: المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ، وغير المعروشات: ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل المعروشات: ما استتبهت الناس وعرّشوه، وغير المعروشات: ما نبت في البراري والجبال^(٢).

﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ في طعمه وجودته وفوائده.

﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَاتُ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ ﴾ وهذا التنوع: في اللون والطعم

والشكل، من تمام نعم الله وبديع صنعه.

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْمُسْرِفِينَ ﴾

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧ / ٦٥.

(٢) فتح القدير للشوكاني ٢ / ١٦٨ بتصرف.

حملتهم على تحريم ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجة إلا أسقطتها.

والمعنى: قل لهم يا محمد على سبيل توبيخهم وإلزامهم الحجة: أحرم الله الذكَّرينِ وحدَّهما من الضأن والمعز أم الأنثيينِ وحدَّهما، أم الأجنَّة التي اشتملت عليها أرحام إناث الزوجين ذكورا كانت تلك الأجنة أم إناثا؟

وقوله: ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي: أخبروني بأمر معلوم من جهته - تعالى - نزل به الوحي، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئاً مما حرَّمتموه إن كنتم صادقين في دعوى التحريم.

والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض.

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإُنْثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنْثَيَيْنِ ﴾ قل الذكَّرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منها، فإن كان حرم الذكَّرين من الغنم فكل ذكورها حرام، وإن كان حرم الأنثيين منها فكل إناثها حرام ﴿ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإُنْثَيَيْنِ ﴾: أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى ﴿ نَبِّئُونِي ﴾ أي أخبروني وبينوا لي ﴿ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعني في أن الله حرم ذلك عليكم.

وهكذا تكشف لنا السورة الكريمة زيف ما عليه المشركون من ضلالاتٍ وجهالاتٍ، لا برهان لهم عليها.

قال الإمام الألوسي: « والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء: إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة، وإظهار كذبهم في ذلك، وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الردِّ عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افتراءهم، فإنهم كانوا يجرمون ذكور الأنعام تارة، وإناثها تارة، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى، مسندين

ذلك كله إلى الله سبحانه»^(١).

فدلَّ هذا على تضاربهم وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل ويركن إلى التقاليد البالية، ويسلمُّ بالأقاويل الواهية.

فمن أشد ظلماً وبعداً عن الحق ممن يكذب على الله، فيدعي تحريم ما لم يحرمه الله ليضل الناس بذلك ويصدِّهم عن سبيل الله ثم يدعي كذبا وافتراء أن الله أمره بهذا كما فعل عمرو بن لحي لعنه الله فهو أول من بَحَرَ البحائر وسَيَّب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئا لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص، فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لا يرشدهم ولا يوفقهم.

الطريق الصحيح لمعرفة الحلال والحرام

﴿ قُلْ لَا أَمْرٌ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥)

لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي، وقد أوحى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، فبين له أن الذي يحرِّمُ أكله: هو الميتة أو الدم المسفوح، وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فإن ذلك الدم حرام نجس، وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنها حلال لأنها دمان جامدان.

ولقد حرم الإسلام هذه الأشياء لما في أكلها من الأضرار البالغة على صحة الإنسان ولا يزال العلم يكشف لنا عن تلك الأضرار المترتبة على أكلها، ومن المحرمات أيضا كل ما ذُبح

(١) روح المعاني للأوسى ٨ / ٣٩٦.

لغير الله فلا يجوز الأكل من هذه المحرمات إلا لضرورة بالغة، والضرورة تُقدَّر بقدرها فيأكل بقدر ما يسدُّ الرمق ويحفظ حقَّ النفس.

وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو ما ذكر في هذه الآية.

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها: منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير.

قال الإمام الجصاص: «قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية رُوي عن طاووس أن أهل الجاهلية كانوا يستحلون أشياء ويحرمون أشياء، فقال الله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ مما تستحلون ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً الآية وسياقة المخاطبة تدلُّ على ما قال طاووس وذلك لأنَّ الله قد قدَّم ذكر ما كانوا يحرمون من الأنعام وذمَّهم على تحريم ما أحله وعنفهم وأبان به عن جهلهم لأنهم حرموا بغير حجة، ثم عطف قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ يعني تحريمه إلا ما ذكر وإذا كان ذلك تقدير الآية لم يجز الاستدلال بها على إباحتها ما خرج عن الآية»^(١).

محرمات على اليهود

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمَنا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (١٦)

لما بين عز وجل أن التحريم لا يكون إلا بوحي إلهي ناسب ذلك بيان المحرمات على من قبلنا فبين تعالى المحرمات على اليهود، حيث شدد الله عليهم عقابا لهم وتضييقا عليهم، أما أمة الإسلام فقد خفف الله عنهم ورفع عنهم الحرج تيسيرا عليهم ورحمة بهم.

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٢١.

وإذا كان الله تعالى قد حرم أكل الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير لما في ذلك من أضرارٍ جسيمةٍ، فقد حرم الله سبحانه على اليهود أشياءً أخرى كانت حلالاً عليهم لكنه تعالى حرّمها عليهم بسبب ظلمهم وتعنتهم وغلوّهم وتشددهم وصدودهم وجحودهم.

قال تعالى في سورة النساء ﴿فِظْلَرٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ ﴿١٦٦﴾ وَأَحْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۗ ﴿١٦٧﴾﴾ حرم الله عليهم: كل ذي ظفر: وهو كل ذي مخلب من الطير، وكل ذي حافر من الدواب ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ من الشحوم فإنها مباحةٌ، أما لحومها فإنها باقية على الحل ﴿أَوْ الْحَوَايِكَا﴾: الحوايا هي الأمعاء وكل ما احتواه البطن ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي كل شحم خالط عظاماً مثل شحم الجنب والألية.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغِيهِمْ﴾ شدد الله عليهم بسبب بغيهم وانتهاكهم لمحارم الله.

﴿وَأَنَا لَصَادِقُونَ﴾ يقول: وأنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْئَةٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۗ ﴿١٥٧﴾﴾

فمن رحمته تعالى أن أمهلهم وأقام عليكم الحجج والبراهين ودعاكم إلى الدين الحنيف دين الرحمة والتخفيف، فلا تغتروا بإمهاله لكم.

أو ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ﴾ بعباده المؤمنين ولا يُرَدُّ بِأَسْئَةٍ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، فرحمته يختصُّ بها عبادة المؤمنين وبأسه لا يُرَدُّ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، والتكذيبُ بكلام الحق جريمةٌ كبرى تستوجب العقوبة الشديدة.

أو ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ﴾: فلا تحرموا أنفسكم منها بتكذيبكم، واحذروا من بأسه الذي لا رادَّ له إذا حل بالمجرمين، وتكذيب الوحي الإلهي من أشنع الجرائم في ذاته، وفيما يترتب عليه.

احتجاجهم الخاطيء بالقدر.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

هنالك وبعد إقامة الحجج والبراهين على المشركين لم يبق لهم من مبررٍ إلا زعمهم أن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصرفهم عنه وهداهم إلى الحق، وهذه حجة واهية كثيرا ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون، أن هذا قدرُ الله بهم ولو شاء هدايتهم لهداهم، ونردُّ على هؤلاء بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجا ودعوةً وصاروا له حماة ورعاةً.

فقد جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجةً على إقامتهم على الكفر والشرك. وقالوا: إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحال بيننا وبين ذلك ﴿ وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغيرها، فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعني ممن سبقهم إلى الكفر ﴿ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ يعني عذابنا.

ونظيرُ هذا إخبارُ الله عنهم في سورة النحل بقولهم هذا القول يوم القيامة قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النحل: ٣٥]

ومرادهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراف، ولم يمنعه منه أن ذلك دليل على رضاهُ بشركهم، ولذلك كذبهم هنا بقوله ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ الآية، وفي سورة الزخرف ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

بعد أن أقام الحجج والبراهين وبدد ظلام وأوهام الجاهليين وفند مزاعمهم وشبهاتهم حتى لم يثبت لهم دليل ولم تقم لهم حجة قال سبحانه ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٤١): له وحده الحجة البالغة ولو شاء هدايتهم أجمعين هداهم، ولكنه تعالى سبق في علمه حرصهم على المضى في طريق الضلال، واستحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم الهوى على الحق المبين.

فالحجة، لا بد أن تكون قائمة على العلم والبرهان، فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والوهم، الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم ألداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ وَمَنْ بَنَى حُجَجَهُ عَلَى الخُرْصِ والظن: فهو مبطلٌ خاسرٌ، فكيف إذا بناها على البغي والعناد، والشر والفساد؟

فقولهم كما أخبر القرآن عنهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ ﴾ حقٌ أريد به باطلٌ فنحن نؤمن بالقدر ونوقن بمشيئته تعالى ولكن لا نعلق عليها أخطاءنا وتقصيرنا بحجة أن ذلك أمرٌ مقدرٌ علينا، وقد فعلنا ذلك مختارين، ولو أن كل من ارتكب جريمة شنيعة التمسنا العذر له بحجة أنه فعلها قضاءً وقدرًا لوجد المجرمون لهم مخرجاً من كل جرم ولعمت الفوضى وشاع الهرج في المجتمعات.

﴿ قُلْ هَلَمْ شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٠)

إذا لم يبق لكم دليل ولم تسلم لكم حجة فماذا بقي لكم؟ هل عنكم من يشهد لكم؟ ﴿ قُلْ هَلَمْ شُهِدَآءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ ﴾ وأنى لهم ذلك! فهذه الدعوة بإحضار الشهود إننا هي على وجه التعجيز لهم، وإلا فلن يميل إلى هذه الشهادة إلا أهل الزور فلا تغتر بشهادتهم، ولا تتخدع بأبيانهم ولا تتبع أهواءهم فإنهم مكذبون وبربهم يعدلون إذ يسوون بينه وبين الأصنام التي عبدوها، فلم ينتفعوا بتلك الحجج ولم يعتبروا بها بل تبادوا في كفرهم وعدلوا عن طريق الحق وتوغلوا في طرق الضلال.

قال القاسمي رحمه الله: « والمراد بـ ﴿ هَلَمْ شُهَدَاءَ كُمْ ﴾ قذوتهم الذين ينصرون قولهم، وإنما أمرُوا باستحضارهم ليلزمهم الحجة، ويظهر بانقطاعهم ضلالتهم، وأنه لا متمسك لهم، كمن يقلدهم فيحق الحق ويبطل الباطل»^(١).

الصلة بين محور السورة وآيات المقطع

تتظم هذه الآيات الكريمة مع السياق العام للسورة وهو تقرير العقيدة الصحيحة؛ وذلك بما ورد فيها من حجج باهرة، ودلائل نيرة تدلُّ على كمال قدرته تعالى وبديع صنعه ولطائف آياته وامتثانه على خلقه بنعمه الظاهرة والباطنة، يعقب ذلك بيان جملة من الأحكام الشرعية، ثم تكشف الآيات عن زيف دعاوى المشركين التي لا دليل عليها، ولا مستند لها إلا الكذب واتباع الهوى، ثم يعود السياق إلى بيان المحرمات الشرعية، ويستطرد لبيان ما حرم الله تعالى على اليهود، يعقب ذلك تسليية النبي ﷺ وتلقيته الجواب الشافي والموقف الراشد من تكذيب المشركين الذين حرموا أنفسهم من رحمة الله تعالى واستحققوا بأسه الذي لا يردُّ عن الكافرين، وتنتهي آيات هذا المقطع بتفنيد شبه المشركين وأوهامهم وإبطال عُللهم.

الهدايات المستنبطة

- * في هذه الآيات الكريمة ردُّ على جهالات المشركين الذين حرّموا ما أحلَّ الله وأحلوا ما حرّمه تعالى حسب أهوائهم.
- * كما تبرز لنا دلائل أخرى على وحدانيته تعالى وكمال قدرته وامتثانه على خلقه بتلك النعم التي تستوجب الشكر.
- * وجوب الزكاة في الزروع والثمار، عند حصادها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكي المال الذي يبقى بعده.
- * دعوة للتمتع بالطيبات ونهي عن اتباع خطوات الشيطان، ومن ضمنها الإسراف ومجاوزة

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٤/ ٧٨٠.

- الحد في الإنفاقِ وتحريمِ ما أحل الله أو تحليلِ ما حرم الله، كما كان يفعل أهل الجاهلية.
- * قال الإمام القرطبي: « قوله تعالى: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتُ ﴾ عطف عليه ﴿ مُتَشَكِّهًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّهٍ ﴾ نصب على الحال، وفي هذه أدلة ثلاثة: أحدها: ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغيرٍ، الثاني: على المنة منه - سبحانه - علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداءً، لأنه لا يجب عليه شيء.
- الثالث: على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته: الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها وأين الفلاسفة وأناسها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحي عالم قدير مريد، فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية! ^(١).
- * إقامة الحجةِ عليهما وإبطال ما كانوا عليه من جهالةٍ وسفاهةٍ، حملتهم على تحريمِ ما أحلَّ الله فلم تدع لهم شبهةً إلا أبطلتها ولا حجةً إلا أسقطتها.
- * دلَّت الآيات على تضارب المشركين وتناقضهم، وهذا شأن من يركب الأهواء ويحتكم إلى الجهل، ويسلم بالأقاويل الواهية.
- * « قال المحققون: إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد، فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق ^(٢)».

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧ / ٦٥.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٥ / ١٦٧.

- * وفي الآيات دليل على إثبات المناظرة في العلم وإثبات القول بالنظر والقياس. ^(١)
- * لما بين تعالى فساد ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من غير حجة ولا برهان: بين أن طريق معرفة الحلال والحرام هو الوحي.
- * يتعلل المشركون حين تعيينهم الحجج بأن الله تعالى قد اختار لهم هذا الطريق ولو شاء لصر فهم عنه وهداهم إلى الحق وهذه حجة واهية كثيرة ما يتعلل بها المجرمون ويتعلق بها الضالون أن هذا قدر الله بهم ولو شاء هدايتهم هداهم، ونردُّ على هؤلاء بأنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم فلم يُرغموا عليه بل اختاروه طواعيةً وارتضوه منهجاً ودعوةً.

- ٢٤ -

الوصايا العشر

قال تعالى ﴿ قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَآ حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَآ يَرْزُقُونَكُمْ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَيْلِ وَالْيَتِيمَانَ بِالْقِسْطِ لَّا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِمَهْدِ اللَّهِ آوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

المناسبة

بعد إبطال حجج المخالفين وبيان ما هم عليه من زيغ وضلال، ونقض معتقداتهم

(١) قال السيوطي رحمه الله في الإتيان تحت عنوان: فصل من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل: «السبر، والتقسيم: ومن أمثله في القرآن قوله تعالى ﴿ تَمَكِّنِي أَرْوِجٌ مِنْ الصَّكَّانِ آتَيْنِ ﴾...»، يراجع الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١٣٧ / ٢.

الفاصلة وتقاليدهم الراكدة جاءت هذه الآيات بالمنهج القويم المتمثل في تلك الوصايا الخالدة الجامعة لأسس العقيدة وأصول الشريعة ومكارم الأخلاق.

قال البقاعي: « ولما أبطل دينهم كلاً أصولاً وفروعاً في التحريم والإشراك، وبيّن فساده بالدلائل النيرة، ناسب أن يخبرهم بالدين الحق^(١) .

وثمة مناسبة أخرى: وهي بعد ما ذكر تعالى ما فعله المشركون من تحريم ما أحل الله، وما فعله تعالى باليهود من تحريم بعض الطيبات عليهم لتعتتهم وتشددهم وظلمهم وقسوة قلوبهم: ناسب ذلك الحديث عن المحرمات الثابتة في جميع الرسالات الربانية فقال سبحانه ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ إلى آخر الآيات.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله تعالى في سورة «الأنعام» أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تُنسخ قط في ملّة، وقد قيل: إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام^(٢) .

التفسير الإجمالي

اشتملت هذه الآيات الكريمة على تلك الوصايا الخالدة الجامعة، فكان مستهلها تلك الدعوة العامة إلى العناية بهذه الوصايا، قال تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾، ثم بدأ بأولها وأساسها وهو النهي عن الشرك بجميع صورته ومظاهره، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربّ غيره ولا معبود سواه، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، وهي المحور العام لهذه السورة الكريمة.

ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين ﴿ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنًا ﴾ ولم يقل سبحانه على غرار

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢ / ٧٤٠ .

(٢) اللباب لابن عادل - ٧ / ٢٢٩ .

ما سبق ولا تسيئوا للوالدين كما قال أن لا تشركوا بالله شيئا، فليس الأمر مجرد كَفَّ الأذى عن الوالدين وتجنب الإساءة إليهما، بل يجب الإحسان إليهما وبرُّهما.

ثم أتبع ذلك بالنهي عن قتل الأولاد؛ بِحُجَّةِ الْفَقْرِ كما كان يفعل أهل الجاهلية الأولى فقد تكفل الله برزق الأبوين والأولاد جميعا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمْلَاقٍ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِسَاطِهِمْ﴾ وفي سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِسَاطِهِمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٣١).

فآية الأنعام تُفِيدُ النَّهْيَ عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ، وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُتَلَبِّسِينَ بِالْفَقْرِ، وَآيَةُ الْإِسْرَاءِ نَهَى عَنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ خَوْفًا عَلَيْهِمْ مِنْ حَصُولِ الْفَقْرِ لَهُمْ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلْقَكَ» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنْ ذَلِكَ لِعَظِيمٍ، قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خِيفَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» (١).

وشاع في الجاهلية وأد البنات مخافة العار الذي قد يحصل عند نشوب حرب، فربما وقعن في السبي، وقتل البنين تقرُّبا للأحجار ووفاء بالندور.

ثم نهى سبحانه عن اقتراب الفواحش فضلا عن اقترافها فقال سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾.

وهذا نهى عن مقاربة جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن: سرها وعلانياتها.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ وَلِلَّذَلِكَ حَرَمٌ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ» (٢).

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه حديث ٦٠٠١، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب كون الشرك أفبح الذنوب وبيان أعظمها بعده حديث ١٤١ - (٨٦).

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾.

ثم نهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بحقها ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي إلا بما يوجب الحق، ومن الحق قتلها قصاصاً، أو بالرجم لمن زنا وهو محصن أو قتلها بسبب الردة، ونحو ذلك من الأسباب التي ورد الشرع بها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « لَا يَجِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا يَأْخُذِي ثَلَاثٌ: الثَّيِّبِ الزَّانِي، وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ »^(١).

﴿ ذَلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي تعملون عقولكم فتحجزكم عن الوقوع في هذه المحرمات، حين تعقلون مقاصد الأحكام الشرعية وحكمها البالغة، ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصها على صلاح النفس والمجتمع، وتدركون عظمها عند مشرّعها.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وثماره وتحصيل الربح له، قال مجاهد: هو التجارة فيه، وقال الضحاك: هو أن يسعى له فيه، ولا يأخذ من ربحه شيئاً هذا إذا كان القيم بالمال غنياً غير محتاج فلو كان الوصي فقيراً فله أن يأكل بالمعروف، كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَأَتُوا الْيَتِيمَ أَموالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْثَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾^(٢)، وقال تعالى في سورة البقرة ﴿ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة ٢٢٠] فلا بأس من المخالطة على وجه الإصلاح والنصح.

﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي احفظوا مال اليتيم إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفوا إليه ماله.

= وَمَا بَطَرْتُمْ ﴿ حديث ٤٣٥٨ ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب التوبة - باب غيرة الله تعالى، وتحريم الفواحش حديث ٩٠١ - (١).

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الديات باب قوله تعالى ﴿ وَكَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة ٤٥] حديث ٦٨٧٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب القسامة والمحاررين والقصاص والديات - باب ما يباح به دم المسلم الحديث رقم ١٦٧٦ - (٢٥).

فأما الأشد فهو بلوغ سنّ الحلم مع إيناس الرشد، كما في قوله تعالى في سورة النساء ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبُرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان.

﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: فينبغي تحري العدالة مع الآخرين بقدر ما يسع الإنسان ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فالعدل واجب في كل قولٍ وحكم. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم؛ فلا تكون القربات مانعا من إقامة العدل.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ دعوة إلى الوفاء بجميع العهود وفي مقدمتها عهد الله تعالى فهو أولى بالوفاء، وما أوصى به من حقوقٍ شرعية. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتنتهون، فالوصية دائما محلّ عناية واهتمام من الموصى، ودائما ما يتذكرها.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

وأن هذا الذي وصيتكم به وبينته لكم هو الصراط المستقيم والدين القويم الذي لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعني الطرق المختلفة والملل والنحل والأهواء والبدع المضلة: كاليهودية والنصرانية وسائر الأديان المحرفة والوضعية والدعوات الهدامة والمذاهب الضالة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾: فتميل بكم تلك الملل والأهواء والنحل عن دينه تعالى وطريقه الذي ارتضاه لعباده.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ^(١).

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصَّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرَخَّاةٌ وَعَلَى بَابِ الصَّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصَّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُوا وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصَّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجُهُ وَالصَّرَاطُ الْإِسْلَامُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَبْوَابُ الْمُفْتَحَةُ مُحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصَّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي فَوْقَ الصَّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ ^(٢).

فائدة: ذكر سبحانه: أولاً ﴿نَعْقُلُونَ﴾ ثم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ثم ﴿تَعْقُونَ﴾ لأنهم إذا تعقلوا تفكروا ثم تذكروا، فاتقوا محارم الله.

وقال ابن عطية: « وفي قوله ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ ومن حيث كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن ابن مسعود المستدرک علی الصحیحین للحاکم ٢٨٩٢ وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه »، ورواه الإمام أحمد في المسند ١ / ٤٣٥ والبخاري في مسنده - البحر الزخار ٥ / ٧٨ حديث ١٤٨٩، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ٩١ كتاب التفسير، باب سورة الأنعام، وقال: « رواه أحمد والبخاري وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف » (ورواه النسائي في السنن الكبرى السنن الكبرى للنسائي ٦ / ٣٤٣ حديث ١١١٧٤، وابن بطة في الإبانة الكبرى ١ / ١٣٦ حديث ١٣١، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم ٨١٣٠ وإسناده حسن ورواه الدارمي في السنن ١ / ٢٣٠ حديث ٢٠٨ وابن حبان في صحيحه ١ / ١٨٠ حديث ٦).

(٢) رواه الحاكم في المستدرک عن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه المستدرک علی الصحیحین للحاکم ١ / ١٤٤ حديث ٢٢٧ وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولا أعرف له علة ولم يخرجاه " ورواه الإمام أحمد في المسند ٤ / ١٨٢ والبيهقي في شعب الإبان ٥ / ٤٤٤ حديث ٧٢١٦.

من العقلاء من لم يتذكر قال لعلكم تذكرون، وركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى قال لعلكم تتقون»^(١).

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

صلة آيات هذا المقطع مع محور السورة واضحة بيّنة؛ إذ بعد إثبات تهاوت حجج المخالفين، وإبطال تصوراتهم، وتفنيد شبهاتهم، وتبديد أوهامهم: جاءت هذه الآيات بالمنهج القويم المتمثل في تلك الوصايا الخالدة، الجامعة لأسس العقيدة وأصول الشريعة ومكارم الأخلاق، وهذا من باب التحلية بعد التخلية.

الهدايات المستنبطة

* اشتملت هذه الآية الكريمة على جملة من الوصايا الراشدة والتي في مقدمتها مراعاة حقوق الله تعالى فدعت إلى اجتناب الشرك بجميع صورهِ ومظاهرهِ، وهذا يعني إخلاص العبادة لله تعالى فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه، والعقيدة الصحيحة هي الركن الأول من أركان الإسلام والأساس الراسخ لهذا البنيان الشامخ، كما أوصت بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقوق الأولاد، والنهي عن اقتراب الفواحش ما ظهر منها وما بطن إلى آخر تلك الوصايا الخالدة التي جمعت بين ترسيخ العقيدة الصحيحة وتقرير الأحكام الشرعية والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

* تضمنت الآيات الكريمة دعوةً إلى تعقل مقاصد الأحكام الشرعية، وتبصّر حكّمها البالغة ومراعاتها لمصالح الدين والدنيا، وحرصها على صلاح النفس والمجتمع.

* أمر الله المؤمنين بالصراط المستقيم، ونهاهم عن النكوب عنه باتباع السبل التي تُفضي إلى الفرقة والبعد عن الحق.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٤٠٠ بتصرف.

- ٢٥ -

من مشكاة واحدة

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مَّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا مِنْ دَرَسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

المناسبة

جاءت هذه الآيات الكريمة مقررة للوصية مؤكدة لها، كما جاءت تمهيدا وتوطئة للحديث عن القرآن الكريم والوصية به، وفيها بيان قيام الحجّة على المشركين فلم يعد لهم عذرٌ ولم تبق لهم حجة، كيف وهذا الكتاب بين أيديهم؟

التفسير الإجمالي

أخبر الله تعالى عن إنزاله التوراة على موسى عليه السلام وأبان عن مقاصدها وسماها فيبين سبحانه أنها نزلت هدايةً ورحمةً وبيانا وحكمةً وفضلا من الله ونعمةً ونورا وعصمةً ورحمةً ثم استطرده السياق إلى الحديث عن نزول القرآن الكريم بالبركات والرحمات وأنه لا عذر لمن أعرض عنه فهو المعجزة الكبرى والرسالة الخالدة والحجة البالغة.

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ « ثم للتراخي في الإخبار كما في قولك: بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب، أو للتفاوت في الرتبة كأنه قيل: ذلكم وصاكم به قديماً وحديثاً ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى التوراة، فإن إيتاءها مشتملة على الوصية المذكورة وغيرها أعظم

من التوصية بها فقط»^(١).

أي تماماً على من أحسن من قومه لأنه كان منهم المحسن والمسيء، وقيل: معناه تماماً على كل من أحسن من الأنبياء والصالحين أي أتمنا فضله عليهم بالكتاب، وقيل: الذي أحسن هو موسى فيكون الذي بمعنى ما أي على ما أحسن، وتقديره وآتينا موسى الكتاب إتماماً للنعمة عليه لإحسانه في الطاعة والعبادة وتبليغ الرسالة وأداء الأمر.

آتاه الله التوراة هداية ورحمةً وتاماً وتفصيلاً ووفاءً لجميع ما يحتاج إليه في شريعته، كما قال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْبِيَاءِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِتَوْقَرٍ وَأَمْرٍ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وإذا كانت التوراة تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء، فالقرآن الكريم هو الرسالة المتممة الخالدة والمعجزة الباقية المتجددة والينبوع الفيض ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ أخبر تعالى عن أنه أنزله ووصفه بالبركة وأمر باتباعه، وتقواه تعالى لمن يطعم في رحمته.

ثم بين المراد من إنزاله وهو إقامة الحجة البالغة فقال سبحانه ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَفَتَفِيلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾: نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصة؛ لثلاث يتعللوا بأن الكتب نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستها بسبب الأمية التي كانت سائدة، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ أي أهدى من تلك الأمم كما قال سبحانه عنهم في سورة فاطر ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ

(١) نفس المرجع ٢ / ٤٦٢.

الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَحْدِثَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾: فهذا كتاب الله تعالى جاء بالهدى والرحمة، ونزل بلغتهم على رسول الله ﷺ الذي اصطفاه ربه من بينهم «عبر عنه بالبينة أولاً: إيداناً بكمال تمكنهم من دراسته، وبالهدى والرحمة ثانياً: تنبيهاً على أنه مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة من هداية الناس ورحمتهم بل هو عين الهداية والرحمة»^(١).

قال صاحب التحرير والتنوير: «والبيّنة ما به البيان وظهور الحق. فالقرآن بيّنة على أنه من عند الله لإعجازه بلغاء العرب، وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير، وهو رحمة بما جاء به من شريعة سمحة لا حرج فيها، فهي مقيمة لصلاح الأمة مع التيسير...»^(٢).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ إذ ما عذرهم في الإعراض والتكذيب؟.

فهل هناك أظلم ممن كذب بآيات الله بعد إذ جاءته وصدف عنها: أعرض عنها وصدّ الناس عنها، ولما عظم جرمه بين عقوبته فقال ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

المناسبة بين آيات المقطع ومحور السورة

تتنظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة، حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيمان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديث في هذا المقطع عن التوراة نزولها ومقاصدها، تمهيدا للحديث عن القرآن الكريم والدعوة إلى الإيمان به فهو آخر الكتب، أنزله الله على خاتم الأنبياء والرسل نبينا محمد ﷺ ولا

(١) روح المعاني للألوسي ٨ / ٤٢٢.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٨ / ١٨٢.

حجة للمشركين ولا عذر لهم في الإعراض عنه وقد تجلت آياته وتدققت حُججه.

الهدايات المستنبطة

* نزلت التوراة على موسى عليه السلام تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شيء، أما القرآن الكريم: فهو الرسالة المتممة الخالدة والمعجزة الباقية والحجج المتجددة.

* كثيرا ما يتبع الحديث عن أحد الكتابين الحديث عن الآخر من ذلك قوله تعالى في هذه السورة ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُنَّ قُرْطُبًا يُتَاجَرُونَ فَكثيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ وقوله تعالى في سورة الرعد ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْآخِرَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣١﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

* وقوله جلَّ وعلا في سورة الفرقان ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحَشِّرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَئِكَ سَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

* وفي سورة فصلت ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا جَمِيمًا لَّفَاقَلُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَنجَمِي وَعَرَفِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ وجواب ذلك أدركه ورقة بن نوفل رضي الله عنه عند استماعه لأول رسالة قرآنية ومن أول وهلة، فقال عبارته المشهورة:

« هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ » ^(١) وقول النجاشي حين استمع إلى القرآن: إِنَّ هَذَا وَاللَّهِ وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيُخْرِجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ... ^(٢) .

* نزل القرآن الكريم بهذا اللسان العربي حجةً على الناس عامة وعلى العرب خاصة؛ لئلا يتعللوا بأن الكتب نزلت على اليهود والنصارى، ولم يتمكنوا من دراستها بسبب الأمية التي كانت سائدة، وكونها لم تنزل بلغتهم التي يفهمونها.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخصص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين. ^(٣) .

وفيه: بيان لما كان عليه العرب قبل نزول القرآن، من الغفلة عما يعلمه أهل الكتاب.

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها كتاب بدء الوحي - باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ٥ / ١ الحديث رقم: ٣ - ورواه مسلم في صحيحه - عنها رضي الله عنها كتاب الإيمان - باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١ / ١٣٩ - الحديث رقم: ٢٥٢ (١٦٠) وقوله: جَدَّعًا يَعْنِي شَابَا قَوِيَا حَتَّى أَبَالِغَ فِي نَصْرَتِكَ.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أم سلمة رضي الله عنها مسند أحمد بن حنبل ١ / ٢٠١ حديث ١٦٤٩ وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد كتاب المغازي والسير باب الهجرة إلى الحبشة ٦ / ٢٥ حديث ٩٨٤٢ وقال " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق وقد صرح بالسماع " ورواه ابن خزيمة في صحيحه ٤ / ١٣ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١ / ١١٥ وفي السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٨٠

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٠

خاتمة السورة

وماذا بعد الحجج؟

قال تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لَنْظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَأَسْتَأْتِيَنَّهُمْ فِي شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَجْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

المناسبة

ماذا بعد ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حجج؟ هل بقي للمعرضين عذر؟ وماذا ينتظرون بعد قيام الحجج عليهم ودحض كل شبهة لديهم؟ وإزالة كل ما يعترضهم من لبس وإيهام، وتبديد ما هم عليهم من جهالات وأوهام؟

التفسير الإجمالي

ماذا بقي لهم إن لم يرجعوا بعد هذا البيان إلا العيان، ولكن حين لا ينفع الإيذان ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لَنْظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾، فالآية وعيد شديد وإنذار للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمام

الحجج وتعاقب الأدلة وجلاء البراهين، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجليلة أو لقبض أرواحهم.

قال الشنقيطي رحمه الله: « ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفاً وهو قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ ﴾ [الفجر: ٢٢]، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه جل وعلا يأتي في ظلل من الغمام وهو قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] الآية، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يُمرُّ كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ١١٠ ﴾ [طه: ١١٠]^(١).

وقال السعدي: « ﴿ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين، ﴿ أَوْ يَأْتِيكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ الدالة على قرب الساعة»^(٢).

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ قال الإمام البغوي رحمه الله: « أي: لا يَنْفَعُهُمُ الإِيْمَانُ عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإِيْمَانِ، ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾: يريد: لا يقبل إِيْمَانُ كافر ولا توبة فاسق»^(٣).

وسبب عدم نفع الإِيْمَانِ عند ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإِيْمَانُ بالغيب وهو المكلف به فيكون الإِيْمَانُ حيثئذ كالإِيْمَانِ عند مجيء الموت كما قال سبحانه في سورة النساء ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٢ / ٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨١.

(٣) معالم التنزيل للبغوي ٣ / ٢٠٧.

أَحَدَهُمْ أَلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّ أَكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَقَدْ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٥٨﴾

﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾: فستعلمون لمن تكون العاقبة.

عاقبة الاختلاف والفرقة

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

بعد الحجج النيرات والآيات الباهرات يأتي الوعيد الشديد لأولئك المكابرين المعاندين،
من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾.

قال الطبري رحمه الله: «... وذلك أن كل ضالّ فلدينه مفارق، وقد فرّق الأحزاب دين الله
الذي ارتضاه لعباده، فتهوّد بعض وتنصّر آخرون، وتمجّس بعض، وذلك هو «التفريق» بعينه
ومصير أهله شيعاً متفرقين غير مجتمعين، فهم لدين الله الحقّ مفارقون، وله مفرّقون»^(١).

وهل المراد بأولئك الذين فرقوا دينهم اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الملل أم المراد
بهم أهل الأهواء والبدع من أدياء الإسلام؟

يجيب عن ذلك الإمام الطبري فيقول: «والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال:
إن الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريء ممن فارق دينه الحقّ وفرّقه، وكانوا فرقاً فيه وأحزاباً شيعاً، وأنه
ليس منهم، ولا هم منه، لأن دينه الذي بعثه الله به هو الإسلام، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال
له ربه وأمره أن يقول ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ سورة الأنعام: [١٦١]».

وقوله تعالى ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

(١) جامع البيان للطبري ٨ / ١٢٤.

إعلاماً بالبراءة منهم ودعوةً إلى الإعراض عنهم، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى فإن شاء تاب عليهم وهداهم، وردّهم إلى الحقّ، وإن شاء عجل لهم العقوبة في الدنيا فضلاً عما ينتظرهم في الآخرة، أو أمهلهم في الدنيا لينالوا عقابهم في الآخرة.

وفرقوا دينهم يعني جعلوا دينهم وهو دين إبراهيم الحنيفية السمحة أدياناً مختلفة كاليهودية والنصرانية وعبادة الأصنام ونحو ذلك من الأديان المختلفة، ومن قرأ فارقوا دينهم قال: معناه باينوه وتركوه من المفارقة للشيء، وقيل: إن معنى القراءتين يرجع إلى شيء واحد في الحقيقة وهو أن من فرق دينه فأمر ببعض وأنكر بعضاً فقد فارق دينه في الحقيقة^(١).

العدل والفضل

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾^(١٦٠) حيث لا ينقص من ثواب الطائع، ولا يُزاد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

المنهج القويم

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(١٦٣) قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِدُ وَازِدَةً وَزَرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ^(١٦٤).

(١) قرأ حمزة والكسائي (فارقوا)، وقرأ الباقون (فرّقوا) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٠٠ وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٢٧٨، وفارقوا من المفارقة وهي الترك وذلك لمن آمن ببعض وترك البعض فقد ترك الدين القيم، أو فاعل بمعنى فعل من التفرق والتجزئة أي آمنوا ببعضه كما قال تعالى في نفس السورة ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فإن المشركين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم وقد هجروا منه وزادوا فيه الكثير والكثير.

الحنيفية السمحاء

بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشاف ما عليه أهل الكفر من زيغ وانحرافٍ وذمّ سبلهم، ذكّر بالمنهج القويم والصراطِ السويّ ليكون مسك الختام لهذه السورة الكريمة، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يُؤدّيَ هذه الرسالة التي تتضمن معالم هذا المنهج الرباني وتعلن بوضوح عن خصائص هذا الدين: حيث امتنَّ الله عليه بالهداية إلى صراطه المستقيم وهداه إلى الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء ملة أبي الأنبياء إبراهيم ﴿دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

وفي هذا الآية الكريمة تعريضٌ بالمشركين واليهود والنصارى الذين زاغوا عن هذه الملة الغراء.

الإخلاص في كل قولٍ وفعلٍ

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ أمرٌ للنبي ﷺ ولجميع المؤمنين أن يعلنوا عن إخلاصهم لله تعالى في سائر أمورهم وأحوالهم وفي جميع أقوالهم وأعمالهم.

« وخصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ أي: ذبحي وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى، ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله»^(١).

التبرؤ من الشرك وتقرير الوحدانية

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٢٨٢ بتصرف.

قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ومليكه، هو الخالق الرازق المدبر لشؤون خلقه
المصرف للملكه!

قل أغير الله أبغي ربا: وما منا إلا وهو رهينٌ بما كسبت يده!

قل أغير الله أبغي ربا: ولا يتحمل أحدٌ وزرَ أحد!

قل أغير الله أبغي ربا: وإليه سبحانه المرجعُ والمصيرُ، فإذا عن الموقف بين يديه!

قل أغير الله أبغي ربا: فكيف بي حين يفصلُ الله بين العبادِ ويقضي بينهم بحكمِهِ!

وبعد قيام الحجج وتجلي البراهين يُعلن المسلمُ الإخلاصَ شعاراً له في سائر أحواله وأساساً له في عباداته ومعاملاته وحركاته وسكناته وكل لحظة في حياته، ويُعلن براءته من الشرك وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾: أي فإنما عليها ما اكتسبت كما قال سبحانه في ختام سورة البقرة ﴿ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقال سبحانه في سورة الجاثية ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (١٥).

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾: أي لا يتحمل أحدٌ وزرَ غيره إلا إذا كان ضالاً مضلاً فإنه يتحملُ ذنبَ ضلاله وإضلاله، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٣).

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (١٦): فالمرجعُ إلى الله تعالى ليفصل بين جميع الخلائق قال تعالى ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (٣٩) ﴿ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ (٤٠) ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ (٤١) ﴿ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أُنْسَبُهَا ﴾ (٤٢).

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾: يخلف بعضكم بعضاً، بعد أن استخلفكم في الأرض، وسخر لكم جميع ما عليها ومنحكم كنوزها وخيراتها، ليختبركم فينظر كيف تعملون.

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّبِعُوا فِي مَاءِ اتِّكْرًا ﴾: فإن تفاضل الناس فيما بينهم لحكم بالغة منها أن يتبلي كل إنسان فيما آتاه وأقامه، ولتستقيم الحياة كما قال تعالى في سورة الزخرف ﴿ أَهْمٌ يَقْسَمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [٣٢]

[الزخرف ٣٢] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾: وبهذا الترغيب الذي يبعث في قلوب المؤمنين الرجاء والسكينة و الترهيب الذي يزلزل كيان المعاندين المعرضين ويهز وجدانهم، ويقدم لهم الإنذار الأخير في هذه السورة بعد ما حوته من حجج: نصل إلى ختام هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين خاتمة السورة ومحورها

تتنظم آيات هذا المقطع مع المحور العام للسورة حيث تقرير العقيدة الصحيحة وترسيخها في القلوب، ومن أركانها الأساسية وركائزها الجوهرية الإيذان بالكتب السماوية، حيث جاء الحديث في هذا المقطع عن التوراة نزولها ومقاصدها تمهيداً للحديث عن القرآن الكريم آخر الكتب المنزلة، أنزله الله على خاتم الرسل نبينا محمد ﷺ لتقطع الآيات كل السبل أمام المشركين الذين لا عذر لهم ولا حجة لديهم في الإعراض كما جاءت هذه الآيات مقررّة لما سبقها ومُعقّبة على ما مضى في ثنايا هذه السورة الكريمة، من حُجج ومواعظ لم ينتفع بها المعرضون ولم يعتبروا بها؟ فمتى يعتبرون؟

الهدايات المستنبطة

* في آيات الختام وعيد وإنذار للمشركين الذين لا يزالون على صدودهم وإعراضهم بعد تمام الحجج وتعاقب الأدلة وجلاء البراهين، فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة كما طلبوا فقد كذبوا بالآيات الجليلة أو لقبض أرواحهم.

* الإخبار عن الله تعالى بالإتيان أو المجيء يُمرّر كما جاء ونؤمن به، مع تفويض الكيف إلى الله

تعالى، وتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين.

* لا ينفع الكفار إيمانهم عند ظهور الآيات التي تضطرهم إلى الإيمان؛ ذلك أنه عند مشاهدة تلك الآيات يحصل العلم الضروري ويرتفع الإيمان بالغيب وهو المكلف به، فيكون الإيمان حينئذ كالإيمان عند مجيء الموت.

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿لا ينعف نفساً إيمانها لئلا تكون ءآمنت من قبل﴾^(١).

* الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضلة.

* عن العرياض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(٢).

* والمعنى: عليكم بطريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين التي ساروا عليها؛ حيث التمسك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير - سورة الأنعام، باب قوله تعالى: ﴿لا ينعف نفساً إيمانها لئلا تكون ءآمنت من قبل﴾ حديث ٤٣٥٩، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان، حديث ٢٤٨ - (١٥٧).

(٢) رواه أبو داود في السنن كتاب السنة باب ما جاء في لزوم السنة ٢٠٦/٣ حديث ٤٦٠٧، ورواه الترمذي في السنن عنه وقال هذا حديث حسن صحيح كتاب العلم - باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٤/٤٦٩ حديث ٢٦٧٦، ورواه ابن ماجه في السنن افتتاح الكتاب في: الإيمان، وفضائل الصحابة، والعلم باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ١/٤٤ حديث ٤٢، ورواه ابن حبان في صحيحه ١/١٧٩، برقم ٥، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة ٦/٢٣٨ برقم ٢٧٣٤.

بالكتاب والسنة، والاجتهاد فيما لا نصَّ فيه.

* لا ينقصُ من ثواب الطائع، ولا يزداد على عذاب العاصي، بل يضاعف الله الحسنات ويمحو السيئات.

* عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرُوي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

* بعد إقامة الحجج الظاهرة والأدلة الباهرة، وبعد انكشاف ما عليه أهل الكفر من زيغ وانحرافٍ وذمِّ سبلهم، ذكَّرَ بالمنهج القويم والصراطِ السويِّ، ليكون مسك الختام لهذه السورة الكريمة.

* أمرٌ للنبي ﷺ أن يُعلن عن إخلاصه لله تعالى في سائر أموره وأحواله وفي جميع أقواله وأعماله، «وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسّي به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل».

* بالإخلاص تتحول العادات إلى عبادات، بل كلُّ قولٍ وكلُّ فعلٍ وكلُّ حركةٍ وكلُّ سكونٍ وكلُّ لحظةٍ في حياة المؤمن هي لله تعالى، فحياته كلها عبادةٌ.

* بعد قيام الحجج وتجلي البراهين: يُعلن المسلم براءته من الشرك وأهله؛ فالله سبحانه لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه.

* كما يُعلن الإخلاص شعاراً له في سائر أحواله وأساساً له في عباداته ومعاملاته وحركاته

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب: من همَّ بحسنة أو بسئنة حديث ٦١٢٦ ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب: إذا همَّ العبد بحسنة كتبت وإذا همَّ بسئنة لم تكتب ١٣١ - (٢٠٧).

وسكناته وكل لحظة في حياته، وفي جميع شئونه؛ فالإسلام دينٌ ودولةٌ، عبادةٌ وقيادةٌ، حضارةٌ وريادةٌ، وشريعةُ الله تعالى هي الحاكمة في جميع ميادين الحياة، لا كما أطلق العلمانيون في الغرب بعد تحررهم من سلطان الكنيسة وهيمنتها: «دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله» بل كل ما في الكون ملك لله تعالى وكل شيء في هذه الحياة: من الله، وإلى الله، والله وحده لا شريك له، ومثل هذه المقولة وإن حُجِّت من دور الكنيسة وحدثت من تسلطها: فهي كاذبةٌ خاطئةٌ، لأنهم قَسَمُوا نفوذ الدنيا بين قيصر وبين الله، فجعلوا الكنيسة لله، وجعلوا البيت والمدرسة والمجتمع والسوق والدولة لقيصر، وهي قسمةٌ جائرةٌ، فضلاً عن كونها خاطئة!! وهنا جاء ديننا القيم ليصحح المفاهيم وينقي المجتمعات من أدران الشرك ومظاهره، ويرفع لواء التوحيد الخالص من كل شائبة، ويعلن أن الأمر كله لله، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال سبحانه ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

- * مهمة الإنسان عبادة الله عز وجل والقيام بحق الخلافة في الأرض بتعميرها وإصلاحها وإقامة موازين العدل وأركان الرحمة في أرجائها وفق منهج الله تعالى.
- * ومن مقتضيات الاستخلاف في الأرض: المحافظة على ثرواتها وكنوزها، وخيراتها، والسعي إلى إصلاحها والنهوض بها وبأهلها، واتباع منهج الله تعالى فهو تعالى خالق هذا الكون.
- * حكمة الله تعالى في التفاوت بين خلقه ورفع بعضهم على بعض درجات وذلك لتبادل المنافع واكتمال منظومة الحياة وتحقيق التعاون بين الناس وتبادل الخدمات فيما بينهم كما قال سبحانه في سورة الزخرف ﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ لَنْ قَسِمْنَا بِئِهِمْ مَعِشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]

وقد قيل: الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم.

- * وإذا كان الله تعالى قد بين في أول السورة ملكه للسموات والأرض فقد أعلن في ختامها

أنه استخلف الإنسان على الأرض بما هياه من ملكات وطاقات تعينه على القيام بهذه المهمة الجليلة الشأن التي لن تتم إلا بمنطلق إيماني ومنهج رباني وحول ذلك كانت السورة الكريمة. والحمد لله رب العالمين.

أهم الموضوعات التي عالجتها السورة ومقاصدها.

* استهلت السورة ببيان أن المستحق للحمد هو الله تعالى وحده، فهو تعالى المتصف بصفات الكمال والجلال وهو المحمود ولا يزال على ما أبدى من النعم وأسدى من الكرم، خلق هذا الكون بما فيه من مخلوقات لا يحصيها عددا إلا هو وجعل الظلمات والنور الحسية منها والمعنوي لحكم بالغة.

* فاشتملت هذه السورة على قواعد التوحيد والتي جاء في مستهلها إفراؤه تعالى بالحمد فلا يتوجه الحمد إلا له تعالى، قال أبو إسحاق الإسفرائيني: « في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد »^(١).

* ومما اشتملت عليه السورة الكريمة إبطال ما كان عليه المشركون من تصورات فاسدة في قضية التحريم والتحليل التي أخضعوها لأهوائهم وتقاليدهم الراكدة، بدون حجة أو برهان، بل مجرد الافتراء والتقول على الله تعالى بغير علم، وفي السورة الكريمة تفتيد لشبهاتهم ورد على مطالبهم المتعنتة واقترحاتهم العجيبة.

* ومن الموضوعات الرئيسة في هذه السورة: بيان أسباب صدود المشركين وإعراضهم عن الحق وغفلتهم عن السنن.

* ومن الأصول التي قررتها السورة الكريمة: أن الهداية من الله تعالى يوفق إليها ويعين عليها كل من طلبها بصدق وسلك سبيلها بإخلاص وتجرد.

* ومن جملة ما تضمنته السورة: بيان الحكمة من إرسال الرسل وأن مهمتهم التبليغ عن الله

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي ٧ / ١١٤.

تعالى ودعوة الناس إلى الدين الخالص، وأن الله تعالى يؤيدهم بالحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقهم.

* كما تحدثت السورة عن نزول التوراة هدى ونورا، وتفصيلا وبيانا ونزول القرآن الكريم مباركا ومصداقا لما بين يديه وتفصيل كل شيء، فهو الرسالة الخاتمة المتممة والحجة القائمة والمعجزة الدائمة، وهو الدستور الخالد، والمنهاج الراشد، والسيبل الواضح المتفرد، والخطاب المتجدد.

* ومن الموضوعات التي وردت في السورة الكريمة الإيمان بالملائكة عليهم السلام والحديث عن بعض مهامهم وأحوالهم.

* كما اشتملت السورة على كثير من الآيات الإنسانية والكونية التي تشهد لله تعالى بكمال قدرته وجمال صنعه وروعة مخلوقاته وعظمة سلطانه.

* وتضمنت السورة الكريمة جملة من السنن الكونية مثل سنة التمكين وسنة الاستدراج وسنة إهلاك المكذبين وسنة تولى الظالمين « تسلط بعضهم على بعض، وتحالفهم، وتعاقبهم، وسنة الصراع بين الحق والباطل » وغيرها من السنن الربانية التي تعد أساساً ونبراساً على طريق الدعوة والإصلاح.

* كما اختتمت السورة بالوصايا الخالدة الراشدة، الجامعة لأصول الدين ومعالم الشريعة ومكارم الأخلاق.

الفهرس

الصفحة	السورة
١	النساء
٢٠٥	المائدة
٣٩٣	الأنعام



مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS

Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O. Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com